"وثيقة لا تُصدَّق؛ قصة من الجحيم"
مراسل برنامج "٦٠ دقيقة"

يوميات غوانتانامو

محمدو ولد صلاحي

تحرير
لاري سيمز

ترجمة
عمر رسول

دار الساقي

وُلد محمدو ولد صلاحي في مدينة موريتانية صغيرة عام ١٩٧٠. حصل على منحة دراسية في كلية بألمانيا، تخرّج وعمل هناك كمهندس لعدة سنوات. عاد إلى بلده موريتانيا عام ٢٠٠٠. وفي العام التالي من عودته اعتقلته السلطات الموريتانية بطلب من الولايات المتحدة وسلّمته إلى الأردن سجيناً، ومن هناك تمّ تسليمه إلى القاعدة الجوية الأميركية في باغرام بأفغانستان، وفي ٥ أغسطس ٢٠٠٥ نُقل إلى سجن الولايات المتحدة في خليج غوانتانامو بكوبا، حيث تعرّض لتعذيب شديد. وفي عام ٢٠١٠ أصدر قاضٍ من المحكمة الفيدرالية حكماً يقضي بإطلاق سراحه فوراً، ولكن الحكومة الأميركيّة استأنفت ذلك الحكم. لم توجّه إليه الحكومة الأميركية أية تهمة بارتكاب جريمة. لا يزال رهن الاعتقال في غوانتانامو.

لاري سيمز كاتب وناشط في مجال حقوق الإنسان، عمل لسنوات عديدة مديراً لـ"برنامج حرية الكتابة في مركز القلم الأميركي". يعيش حالياً في نيويورك.

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

محمدو ولد صلاحي

يوميات غوانتانامو

تحرير

لاري سيمز

ترجمة

عمر رسول



الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-859-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114—2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على





Dar Al Saqi

المحتويات

يودّ محمدو أن يهدي هذا العمل إلى ذكرى والدته، مريم بنت الوديعة، المتوفية حديثاً. كما أنه يودّ القول لو لم يكن عمله مهدى أيضاً إلى نانسي هولاندر وزميلتيها تريزا دنكان وليندا مورينو، لما كان بمقدوره تقديم هذا الإهداء.

التسلسل الزمني للاحتجاز

يناير عام ٢٠٠٠

بعد قضاء اثنتي عشرة سنة في الدراسة والعيش والعمل فيما وراء البحار، في ألمانيا بصورة أساسية، ومن ثم في كندا لوقت قصير، قرّر محمدو ولد صلاحي أن يعود إلى بلده الأم موريتانيا. وفي الطريق إلى موطنه اعتُقل مرتين بأمر من الولايات المتحدة الأميركية. في المرة الأولى أوقفته الشرطة السنغالية، وفي المرّة الثانية اعتقلته السلطات الموريتانية. تمّ استجوابه من قبل عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي الأميركي (FBI) في القضية ذات الصلة بما يعرف بـ"مؤامرة الألفية" لتفجير مطار لوس أنجلوس الدولي، المعروف اختصاراً بـ(LAX). أظهرت التحقيقات عدم وجود أدلة تثبت تورّطه في المؤامرة، لذا أُطلق سراحه في ١٩ فبراير ٢٠٠٠.

٢٠٠٠- خريف ٢٠٠١

يعيش محمدو مع أسرته ويعمل مهندساً كهربائياً في نواكشوط، في موريتانيا.

٢٩ سبتمبر ٢٠٠١

جاءت الشرطة الموريتانية إلى دار محمدو وطلبت منه مرافقتهم لإجراء مزيد من

التحقيق. استجاب للأمر وقاد سيارته الخاصة طواعيةً إلى مركز الشرطة.

٢٨ نوفمبر ٢٠٠١

تنقل طائرة عمليات تابعة لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) محمدو من موريتانيا إلى سجن في عمّان في الأردن، حيث تمّ التحقيق معه مدة سبعة أشهر ونصف الشهر من قبل المخابرات الأردنية.

١٩ يوليو ٢٠٠٢

طائرة أخرى تابعة لـ(CIA) تأخذ محمدو من عمّان عارياً ومعصوب العينين ومقيّد اليدين، وأعضاؤه الخاصة مغطّاة بحفاظة أطفال، وتنقله جواً إلى القاعدة العسكرية الأميركية في باغرام في أفغانستان. يروي محمدو هذه الأحداث في يوميات غوانتانامو حيث يبدأ عمله بهذا المشهد.

٤ أغسطس ٢٠٠٢

بعد أسبوعين من الاستجواب في قاعدة باغرام، يُنقَل محمدو مع أربعة وثلاثين معتقلاً آخر ليُنقلوا جواً بطائرة عسكرية إلى غوانتانامو. تصل المجموعة وتجرى لها الترتيبات هناك في ٥ أغسطس ٢٠٠٢.

٢٠٠٣-٢٠٠٤

يُخضِع المحققون العسكريون الأميركيون محمدو لـ"خطة خاصة للاستجواب" وافق عليها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد شخصياً. تتضمن الخطة تعذيب محمدو شهوراً من العزلة الشديدة مترافقة بسلسلة من الإهانات الجسدية والنفسية والجنسية، ناهيكم عن تهديده بالموت، وتهديد أسرته بمصير مشابه، مع القيام بتمثيل أدوار خطف وهمية.

٣ مارس ٢٠٠٥

يقدّم محمدو عريضة مكتوبة بخط اليد يطلب فيها كتابة قصة مثوله أمام المحكمة.

صيف ٢٠٠٥

يكتب محمدو ٤٦٦ صفحة بخط اليد في زنزانته المعزولة في غوانتانامو، لتصبح تلك الصفحات فيما بعد هذا الكتاب.

١٢ يونيو ٢٠٠٨

بموجب قوانين المحكمة العليا الأميركية ٤–٥ في قضية الجهادي المعتقل "بومدين ضد بوش" يحق لمعتقلي غوانتانامو الاعتراض على حجزهم من خلال المثول أمام المحكمة.

أغسطس – ديسمبر ٢٠٠٩

يستمع جيمس روبيرتسون، قاضي محكمة المقاطعة الأميركية، إلى عريضة محمد أمام المحكمة.

مارس ٢٠١٠

يقبل القاضي روبيرتسون عريضة محمدو التي امتثل بها أمام المحكمة ويصدر قراراً بإطلاق سراحه.

٦ مارس ٢٠١٠

ترسل إدارة أوباما طلب اعتراض على قرار إطلاق سراحه.

٥ نوفمبر ٢٠١٠

تردّ محكمة دعاوى الاستئناف لمقاطعة كولومبيا قضية محمدو وترسلها إلى محكمة المقاطعة الأميركية لإعادة الاستماع إليها. مازالت القضيّة مغلقة.

لا يزال محمدو يقبع في سجن غوانتانامو، في الزنزانة نفسها، حيث جرى الكثير من الأحداث المذكورة في هذا الكتاب.

ملاحظات حول النص والتنقيح والحواشي

يعدّ هذا الكتاب طبعة محرّرة من مخطوطة يصل عدد صفحاتها إلى ٤٦٦ صفحة، كتبها محمدو ولد صلاحي بخط اليد في زنزانة سجنه في غوانتانامو، وذلك في صيف وخريف عام ٢٠٠٥.

لقد تمّ تحرير الكتاب مرتين، مرّة من قبل الحكومة الأميركية، حيث وضعت أكثر من ٢٥٠٠ خطّاً أسود كنوع من الرقابة على نص محمدو، ليأتي بعد ذلك دوري في التحرير في المرة الثانية. ولم يكن محمدو قادراً على المشاركة أو الاستجابة إلى أي نوع من هذه الخطوات التي رافقت تحرير كتابه.

مع ذلك كان يحدوه الأمل بأنّ مخطوطته ستصل أخيراً إلى جمهور القرّاء – حيث أنّها تخاطبهم بصورة مباشرة، وعلى نحوٍ خاص القرّاء الأميركيين – وقد أبدى بوضوح موافقته على شكل هذه الطبعة بعد إجراء تحريرها، كما أنّه عبّر بوضوح عن إجراء التحرير حيث تمّ بطريقة تنقل المحتوى بأمان وصدق، وإنّه بذلك يحقّق ما كانت تطمح إليه النسخة الأصليّة. وقد ائتمنني على القيام بهذا العمل، وهذا ما حاولت فعله لتحضير هذه المخطوطة من أجل الطبع.

كتب محمدو ولد صلاحي مذكَراته باللغة الإنكليزية، لغته الرابعة التي كتب بها بصورة أساسية في السجن الأميركي، وعلى سبيل التسلية ليس إلا، حيث أنّه يصف ذلك في أكثر من مكان في الكتاب.

إنّ عمله هذا لهو مأثرة، فهو من جهة عمل هام، ومن جهة أخرى إنجاز رائع بحدّ ذاته، كما أنّه خيار يخلق بعض أهم النتائج الأدبيّة لكتاب ممكن في ميدان الأدب.

إنّ الكاتب يستخدم معجماً ثريّاً من الكلمات، يصل عددها إلى سبعة آلاف كلمة

- وهو معجم لا يقلّ حجماً عن المعاجم الذاخرة التي تضفي القوة على الملاحم الهوميريّة. لقد أنجز عمله بطريقة تعكس أحياناً صدى تلك الملاحم، باستخدامه العبارات الوصفية لأحداث وظواهر متكرّرة. وهو يفعل ذلك، كصانع الملاحم، بطريقة ينشر بها تأثيراً هائلاً على صعيد الفعل والعاطفة وعلى نطاق واسع. ومن جهتي، بذلت جهدي للحفاظ على هذه السمة في عملية تحريري للكتاب، مع شعورٍ بالإجلال لإنجاز العمل.

هذا دون أن ننسى، في الوقت ذاته، أنّ المخطوطة التي تمكّن محمدو من تأليفها في زنزانته عام ٢٠٠٥ غير مكمّلة، وأحياناً ليست إلا مسوّدة مجزّأة.

في بعض أقسامها يبدو النثر مصقولاً أكثر، وفي أقسام أخرى تبدو كتابة الخطّ دقيقة وأصغر حجماً، وكلا الأمرين يوحيان باحتمال وجود مسودات مسبقة. وفي أماكن أخرى من المخطوطة تبدو الكتابة إلى حدٍّ كبير كمسودة أولى كُتبت بعجالة وبغير انتظام. ثمّة اختلاف في مستويات السرد مع ضآلة في الخط القصصي في الأقسام التي تصف الأحداث الأكثر حداثةً، معطياً بذلك تكثيفاً للأحداث، ونظرة مقرّبة للشخصيات التي يصفها، كما يتوقّع المرء تماماً. ومع أنّ الشكل النهائي لم يُعطَ للعمل بعد، فإنّ سلسلة من ومضات الأحداث التي تسبق السرد المركزي تُضاف إليه في النهاية.

في مقاربة لهذه التحدّيات، وككلّ محرّر يسعى لإرضاء توقّعات المؤلّف كلّها عبر التقليل من الأخطاء والهفوات إلى حدّها الأدنى، لإظهار نقاء الصوت والرؤية، قمت بتحرّير المخطوطة على مستويين: شمل المستوى الأول الأسطر، حيث تابعتها سطراً سطراً، بهدف تصحيح أزمنة الفعل، وترتيب الكلمات والتعابير غير الملائمة، وأحياناً من أجل توضيح المعنى، لتقوية النص بإعادة ترتيبه من جديد. كما أنّني قمت بدمج ومضات الأحداث الجانبية في السرد الرئيسي وإعطاء انسيابية إلى المخطوطة ككل، الإجراء الذي أخفضَ عدد كلمات المخطوطة من (١٢٢,٠٠٠) كلمة تقريباً إلى أقل من (١٠٠,٠٠٠) كلمة في هذه النسخة المعدّلة. وكانت قرارات التعديل هذه هي مني فقط، وكلّي أمل أن يحوز الكتاب رضا وموافقة محمدو.

لقد واجهتني جملة من التحدّيات أثناء قيامي بعملية تحرير النص، وخاصةً تلك

التي تتعلّق بتدقيقات الحكومة للمخطوطة مسبقاً. إنّ هذه التدقيقات هي تغييرات فُرِضت على النص من قِبل الحكومة نفسها، المستمرّة في التحكّم بمصير المؤلّف نفسه عبر لجوئها إلى السرّية كأداة أساسية لذاك التحكّم لأكثر من ثلاث عشرة سنة. والحالة هذه، فإنّ الخطوط العريضة السوداء على الصفحة هي عبارة عن علامات تذكيريّة بصريّة حيّة في خدمة الظرف الذي يعيش فيه المؤلّف حاليّاً. في الوقت ذاته، أكان الأمر مقصوداً أم لا، فإنّ تلك التدقيقات غالباً ما تعيق معنى الرواية، وتلطّخ محيط حركة الشخصيّات، فضلاً عن إضفاء الغموض على النبرة التقاربية المفتوحة لصوت المؤلّف.

بما أنّ عملية تحرير النص تعتمد كليّاً على القراءة الممعنة، فإنّ أي تحرير لنصٍّ مرّ على مقص الرقيب سيكون مصحوباً بجهد خاص لإيجاد السياقات الخاصّة للجمل المشطوبة، وما تعليقات الحواشي التي تظهر في أسفل الصفحات إلا سجّلاً حيّاً على ذلك الجهد.

تمثّل هذه الملاحظات طبيعة التأملات المرتبطة بالتنقيح على أساس السياق الذي تظهر فيه الأماكن التي طالتها عملية التنقيح، مع المعلومات التي تظهر في سياق الكتاب هنا وهناك، والتي بمجملها تعتبر مصادر ثريّة في متناول الجمهور حول محنة محمدو ولد صلاحي، وحول الأحداث والنشاطات والتواريخ الزمنيّة المذكورة في الكتاب.

كما أنّ المصادر تشمل أيضاً الوثائق الحكوميّة غير المصنّفة التي حصلتُ عليها من خلال قانون حريّة المعلومات بعد الإجراءات القانونيّة اللازمة، دون أن ننسى التقارير الصحفيّة والأعمال المنشورة لعدد من الكتّاب وصحفييّ أعمدة التحقيقات، ناهيكم عن التحقيقات الشاملة لكلّ من وزارة العدل ومجلس الشيوخ الأميركي.

لم أحاول في تعليقات الحواشي إعادة بناء النص الأصلي المدقّق، أو حتّى إماطة اللثام عن المادة المصنّفة، بل، على العكس من ذلك، بذلت قصارى جهدي لعرض المعلومات التي تتطابق إلى حدٍّ معقول مع التدقيقات، وخاصةً المعلومات الواردة في المصادر العامّة أو التي تظهر جليّاً من خلال قراءة متمعّنة للمخطوطة، وحيثما وجدتُ ذلك ضروريّاً لإضفاء السهولة على قراءة الكتاب ليفعل النص فعله في التأثير

على القارئ. وإذا كانت هناك أيّة أخطاء في ملاحظاتي، عندئذٍ يقع كامل المسؤولية على عاتقي وحدي. لم يراجع أيٌّ من محاميَ محمدو ولد صلاحي، الذين يحملون التراخيص الأمنية، الهوامش في هذا الكتاب، أو ساهم فيها بأي شكل من الأشكال، ولم يتم التأكيد على أيٍّ من تخميناتي المتضمنة فيها أو رفضها. كما أنه لم يتمكن أي شخص آخر من الوصول إلى المخطوطة غير المنقَّحة لمراجعة الهوامش، أو المساهمة فيها بأي شكل من الأشكال، أو حتى يؤكد أو يرفض تخميناتي المتضمنة فيها.

لقد رافقت تحدّيات عملية تحرير النص حتى أثمرت الجهود المبذولة عن إخراج هذا العمل الاستثنائي إلى النور، وهي تحدّيات ناتجة عن واقع أنّ الحكومة الأميركية مازالت مستمرة في حجز المؤلف دون مبرّر مقنع حتى تاريخه، وعن حقيقة أنّ نظام الرقابة يمنعه من المشاركة في عملية تحرير الكتاب. أتطلّع شوقاً إلى ذاك اليوم الذي يكون فيه محمدو ولد صلاحي حرّاً طليقاً، ونقرأ الكتاب معاً في شكله النهائي كما يرغب هو في نشره. حتى ذلك الوقت، أرجو أن تكون هذه النسخة المعدّلة قد نجحت في الإمساك بروح النص الأصلي في تكملته، مع أنّها تذكّرنا في كلّ صفحة تقريباً بمقدار ما يمكن القيام به بعد.

المقدّمة

بقلم لاري سيمز

في صيف وأوائل خريف عام ٢٠٠٥، كتب محمدو ولد صلاحي مسودة هذا الكتاب بخطّ يده، وتتألّف من ٤٦٦ صفحة أي ما يعادل ١٢٢,٠٠٠ كلمة كتبها في زنزانته الإفرادية في سجنه المنعزل في كامب إيكو في جزيرة غوانتانامو.

كتبها على حلقات، بُعيد السماح له بلقاء نانسي هولاندر وسيلفيا روليس، وهما محاميتان من فريقه القانوني للمصلحة العامة. وفي ظلّ البروتوكولات الصارمة لنظام الرقابة في غوانتانامو، اعتبرت كل صفحة كتبها مصنّفة منذ لحظة كتابتها، وبموجب ذلك تمّ تسليم كل قسم جديد إلى حكومة الولايات المتحدة بغية المراجعة والتدقيق.

وفي ١٥ ديسمبر من عام ٢٠٠٥، أي بعد ثلاثة أشهر من البدء بالكتابة، وقّع على الصفحة الأخيرة من المخطوطة مع تثبيت التاريخ عليها، وقد قاطع محمدو شهادته خلال جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإداريّة في غوانتانامو ليقول لضبّاط رئاسة الجلسة:

> أريد أن أذكر هنا أنّني كتبت كتاباً في الآونة الأخيرة في سجني هنا، وهو عن قصّتي الكاملة، حسناً؟ لقد أرسلته للنشر في مقاطعة كولومبيا، عندما يُنشر أنصحكم أيّها الرجال أن تقرأوه، وأن تعملوا شيئاً من

الدعاية له. إنّه كتاب ممتع للغاية كما أعتقد![1]

لكنّ مخطوطة محمدو لم تُنشر. خُتمت بـ"سرّي"، وهو مستوى من تصنيف المعلومات التي يمكن أن تسبّب ضرراً خطيراً للأمن القومي إذا ما أصبحت علنيّة، كما أنّها صنّفت بـ"NOFORN"، وذلك يعني أنّه لا يسمح لأيّ مواطن أو أيّة جهة استخباراتيّة مشاركة هذه المعلومات. وهكذا فقد أودعت في مكان آمن بالقرب من واشنطن (مقاطعة كولومبيا)، ولا يمكن الوصول إليها إلاّ من قبل أولئك الذين يحملون التراخيص الأمنيّة ووثيقة "الحاجة إلى المعرفة Need to know" الرسميّة. ولأكثر من ست سنوات قام محامو محمدو برفع الدعاوى أمام القضاء، وجرت الكثير من المفاوضات حتى تمّ الحصول على المخطوطة مرخّصة للنشر العام.

خلال هذه السنوات، وبضغط من دعاوى "قانون حريّة المعلومات" التي يقدّمها "اتحاد الحريات المدنيّة الأميركي"، حرّرت الولايات المتحدة آلاف الوثائق السرّية التي تصنّف معاملة السجناء في السجون الأميركية.

منذ الهجمات الإرهابيّة في سبتمبر ٢٠٠١، ألمحت العديد من هذه الوثائق إلى محنة محمدو، على يد وكالة المخابرات المركزيّة (CIA) أولاً، ومن ثمّ على يد الجيش الأميركي في غوانتانامو، حيث أخضعه "فريق خاص للتحقيق" إلى واحدٍ من أقسى التحقيقات عناداً ودراسةً في المحاضر. كما أنّ بضعاً من تلك الوثائق تحتوي على شيء آخر أيضاً وهو عيّنات من التعذيب المعنوي بصوت محمدو.

كانت إحدى هذه العيّنات موجودة في مخطوطته باللغة الإنكليزية. في ملحوظة قصيرة مؤرّخة بتاريخ ٣ مارس ٢٠٠٥ كتب: "مرحباً. أنا محمدو ولد صلاحي،

١ وثيقة جلسة الاستماع لمحمدو ولد صلاحي أمام هيئة إعادة النظر الإدارية في ١٥ ديسمبر ٢٠٠٥، ص١٨. يمكن الاطلاع على الوثيقة على الرابط:
http://www.dod.mil/pubs/foi/operation_and_plans/Detainee/csrt_arb/ARB_Transcript_Set_8_20751- 21016.pdf, 184-216.

ملاحظة المحرر على المقدمة: لم يراجع أيٌّ من محامي محمدو ولد صلاحي، الذين يحملون التراخيص الأمنية، الهوامش في هذا الكتاب أو ساهم فيها بأي شكل من الأشكال، ولم يتم تأكيد أو نفي أيّاً من تخميناتي المتضمنة فيها. كما ولم يتمكن أي شخص آخر من الوصول إلى المخطوطة غير المنقّحة لمراجعة الهوامش أو المساهمة فيها بأي شكل من الأشكال، أو حتى يؤكد أو ينفي تخميناتي المتضمنة فيها.

المعتقل في غوانتانامو تحت الرقم 760 ██████ ISN، أرفع طلبي هذا من أجل أمر قضائي للمثول بين يدي المحكمة". وقد تضمّنت الملاحظة بكلّ بساطة: "لم أرتكب جريمةً من أيّ نوع ضدّ الولايات المتّحدة، ولم تتّهمني الولايات المتحدة بأيّة جريمة، لهذا أطالب بحريتي فوراً. ولمزيد من التفاصيل حول قضيتي، سأكون سعيداً لأيّ جلسات استماع مستقبليّة".

كما أنّ وثيقة أخرى بخطّ اليد وباللغة الإنكليزية كانت مرسلة إلى محاميته سيلفيا روليس بتاريخ ٩ نوفمبر ٢٠٠٦، وينكّت فيها: "طلبتِ منّي أن أكتب لكِ كلّ ما قلته للمحقّقين. هل فقدتِ عقلكِ؟ كيف يمكنني أن أنقلَ تحقيقاً لم ينقطع على مدى السنوات السبع الأخيرة؟ إن القيام بذلك يشبه سؤال شارلي شين: كم موعداً أعطيت للنساء!". ثمّ يمضي قائلاً:

> مع أنّني قدّمت لكِ، تقريباً، كلّ شيء في كتابي الذي ترفض الحكومة وصوله إليك، وكنت سأستمرّ في إعطاء المزيد من التفاصيل؛ ولكنّني أعتبر أي محاولة من هذا القبيل نوعاً من العبث.
>
> لإيجاز قصّة طويلة، يمكنكِ أن تقسّمي سجني إلى مرحلتين أساسيتين:
>
> ١ – مرحلة ما قبل التعذيب (أعني أنّني لم أستطع المقاومة): أخبرتهم الحقيقة عن نفسي بأنّني لم أقم بشيء ضدّ بلدكم. دامت هذه المرحلة حتّى ٢٢ مايو ٢٠٠٣.
>
> ٢– مرحلة ما بعد التعذيب: حيث انفرطت مكابحي. لقد وافقت على كلّ تهمة وجّهها إليّ المحققون، حتى إنّني كتبت اعترافات ضئيلة الأهميّة للتخطيط بضرب برج CN في تورنتو، على أساس نصيحة الرقيب الأول العسكري ██████.
>
> لقد أردت فقط إبعاد القردة عن ظهري. لا يهمّني كم سأبقى في السجن طالما أنني منسجم مع نفسي.[١]

كما أنّ الوثائق تضمّنت زوجاً من نسخٍ طبق الأصل من شهادة محمدو المحلّفة أمام

١ رسالة إلى المحامية سيلفيا رويس في ٩ نوفمبر ٢٠٠٦. انظر:
http://online.wsj.com/public/resources/documents/couch-slahiletter-03312007.pdf.

هيئة إعادة النظر في المعتقلين في غوانتانامو.

الوثيقة الأولى – والنموذج الأول لصوته في أيّ مكان في الوثائق – كانت من جلسة الاستماع أمام محكمة إعادة النظر بوضع المقاتل (CSRT)، وتاريخها هو ٨ ديسمبر ٢٠٠٤، وهو التاريخ الذي يأتي بعد أشهر فقط من انتهاء ما يسمّى "الاستجواب الخاص" له، وتتضمّن هذا التبادل في المعلومات:

سؤال: هل يمكنني الحصول على إجابة منك بخصوص الادّعاء الأول بأنّك عضو في الطالبان أو في القاعدة؟

الجواب: الطالبان، ليس هناك ما يجمعني بهم البتّة. أمّا القاعدة فنعم، كنت عضواً في أفغانستان في ٩١ و٩٢. وبعدما غادرتُ أفغانستان قطعتُ كلّ علاقاتي مع القاعدة.

سؤال: ولم تقدّم لهم أبداً مالاً أو أيّ نوع من الدعم منذ ذلك الحين؟

الجواب: لا شيء البتّة.

سؤال: هل جنّدت أناساً لصالحهم؟

الجواب: كلا، إطلاقاً، لا محاولة من أيّ نوع لتجنيد الناس لصالحهم.

سؤال: قلت إنّك اعترفت تحت الضغط بأنّك اشتركت بمؤامرة الألفيّة، هل هذا صحيح؟

الجواب: نعم.

سؤال: لمن اعترفت بذلك؟

الجواب: اعترفت للأميركيين.

سؤال: وماذا تعني بـ"تحت الضغط"؟

الجواب: فضيلتكم، لا أرغب في التحدّث عن طبيعة هذا الضغط، إن لم أُجبر على ذلك.

رئيس المحكمة: لست مجبراً، نريد فقط التأكّد بأنّك لم تُعذَّب أو تُكرَه على قول شيء ليس صحيحاً. هذا هو السبب الذي يجعلنا نطرح السؤال عليك.

الجواب: خذها منّي، لم أتورّط في هجومٍ مرعب كهذا. نعم اعترفت

بأنّني كنت عضواً في القاعدة، ولكني لا أرغب في التحدّث حول هذا الموضوع. جاءني أناسٌ أذكياء وحلّلوا ذلك وحصلوا على الحقيقة. خضعت لاختبار مكشاف الكذب ونجحت فيه، وقالوا لي إنني لست مضطرّاً للتحدّث عن هذا بعد الاختبار. قالوا: من فضلك، لا تتحدّث عن هذا الموضوع بعد اليوم. وهم من جهتهم لم يفتحوا هذا الموضوع معي منذ سنة كاملة.

سؤال: الآن، هل أساءت إليك الولايات المتّحدة بأيّ شكلٍ من الأشكال؟

الجواب: لست راغباً بالإجابة عن هذا السؤال، لست مضطرّاً للتحدّث عن ذلك إن لم تجبروني عليه.[1]

أمّا الوثيقة الثانية فهي من إدارة محكمة إعادة النظر بوضع المقاتل عام ٢٠٠٥، حيث يعلن هناك بأنّه كتب هذا الكتاب. وها قد مضى عام على جلسة الاستماع في تلك المحكمة، عامٌ بعد أنّ سُمح له أخيراً بمقابلة المحامين وإيجاد الفرصة والقدرة على التحمّل لتدوين تجربته. في هذه الفرصة يتحدّث بحريّة عن أوديسته، بعيداً عن الخوف والغضب، بصوتٍ ينمّ عن السخرية والذكاء. "كان سخيفاً للغاية"، يقول محمدو عن أحد محققيه بعد تهديده، "لأنّه قال إنّه سيدخل السود معي في مكان واحد. ليست لديّ أيّة مشاكل مع السود، فنصف سكان بلادي سود!".

ومحقّق آخر في غوانتانامو كان يُعرف بالسيد (X) وكان مغطّىً من رأسه حتّى قدميه "مثل النساء في المملكة العربية السعوديّة"، وكان يلبس قفازات "من نوع O.G.Simbson". كانت أجوبة محمدو غنيّة بالتفاصيل، لإيقاع أبلغ الأثر في العقل والنفس. قال للهيئة: "أرجوكم، أيّها الرجال، أن تفهموا قصّتي جيّداً، ولا يهمّني إذا ما جَعَلتكم تطلقون سراحي أم لا، بل كل ما أريده هو فقط أن تفهموا قصّتي".[2]

ليس لدينا التسجيل الكامل لجهود محمدو في رواية قصّته لهيئة إعادة النظر في

---

١ وثيقة جلسة الاستماع لمحمدو ولد صلاحي أمام محكمة إعادة النظر في وضع المقاتل في ٨ ديسمبر ٢٠٠٤، ص٧-٨. يمكن الاطلاع على الوثيقة على الرابط:
http://online.wsj.com/public/resources/documents/couch-slahihearing-03312007.pdf.

٢ وثيقة هيئة إعادة النظر الإدارية، ص ١٤-١٨-١٩- ٢٥-٢٦.

جلسة الاستماع تلك. فعندما بدأ بوصف تجربته في غوانتانامو خلال صيف ٢٠٠٣ "بدأ جهاز التسجيل يعمل حينئذٍ بالضبط على نحوٍ سيّئ"، فيظهر ذلك التقطّع في الصوت كفواصل سوداء في الوثيقة. في ذلك القسم المفقود من الوثيقة "يروي المعتقل كيف عُذّب في غوانتانامو من قِبل عدّة أفراد"، في حين تقدّم الوثيقة، بدلاً من ذلك، حصيلة النقاط التي شطبت عليها الهيئة وتصل إلى ١٠٠٠ نقطة، وهي النقاط التي جرى فيها قصور في التسجيل.

> بدأ المعتقل بمناقشة الإساءة المزعومة التي تلقّاها من قِبل محقِّقة معروفة له باسم ■■■■■. حاول المعتقل أن يشرح للهيئة ■■■■■ ■■■■■ أفعالاً ولكن اعترته حالة من الخجل والاضطراب. لقد قال إنّه تعرّض لتحرّشٍ جنسي، ومع أنه يحبّ النساء فإنّه لم يحب ما فعلتْ به ■■■■■. لاحظ الضابط، رئيس الجلسة، اضطراب المعتقل وأخبره بأنّهم لم يطلبوا منه رواية القصّة. شعر المعتقل بالامتنان على عدم المضي قدماً في سرد التفاصيل بخصوص الإساءة المزعومة من جانب ■■■■■.
>
> أعطى المعتقل معلومات مفصّلة عن الإساءة المزعومة من طرف ■■■■■ و ■■■■■، ذكر أنّ ■■■■■ و ■■■■■ دخلا غرفةً ملثمي الوجه وانهالا عليه بالضرب. ضرباه على نحوٍ مؤلم حتّى اضطربت حالة ■■■■■. لم يرضَ ■■■■■ عن المعاملة التي يتلقاها المعتقل، وبدأ يتعاطف معه. وبناءً على ما قاله المعتقل فقد بدأ ■■■■■ بالبكاء وأخبر كلاً من ■■■■■ و ■■■■■ ليتوقفا عن ضربه. أراد المعتقل أن يكشف للهيئة عن الندوب وآثار التعذيب على جسده، ولكنّ الهيئة رفضت رؤيتها. وتقرّ الهيئة بأنّ هذا هو الملخّص الواضح المشوّه من الشريط.[1]

---

١ وثيقة هيئة إعادة النظر الإدارية، ص٢٦-٢٧.

لدينا فقط هاتان الوثيقتان، لأنّ قاضياً من الحكومة الفيدرالية ترأس في ربيع ٢٠٠٦ الدعوى القضائيّة المقدّمة من جانب "قانون حرية المعلومات" (FOIA)، والمحفوظة في إضبارة لدى الأسوشيتد برس، وأعطى القاضي المذكور قراره في النهاية برفع الحجز عن تلك الوثائق وإطلاقها للنشر. وفي نهاية المطاف أجبَرتْ الدعوى تلك البنتاغون على نشر قائمة رسميّة بأسماء الرجال المحتجزين في سجن غوانتانامو بعد أربع سنوات من فتحه، وللمرّة الأولى أصبح للسجناء أسماء، وللأسماء أصوات. لقد روى العديد من السجناء في وثائق جلسات الاستماع السرّية قصصاً وضعت حدّاً للمزاعم القائلة بأنّ معسكر الاحتجاز الكوبي يضمّ "أسوأ السيئين"، رجالاً في غاية الخطورة. وقد جاء على لسان ضابط مشرف هناك، عند وصول المجموعة الأولى للسجناء وهبوطهم على أرض المعسكر في عام ٢٠٠٢، بأنهم "سيفتحون خطوطاً هيدروليكية في خلفية الطائرة C-17 لإنزالهم".[١]

لقد تطرّق العديد من أمثال محمدو إلى موضوع التعامل معهم في السجن الأميركي.

لقد أكّد البنتاغون من جهته بأن "المعتقلين الموجودين في غوانتانامو هم مدرّبون إرهابيون، صانعو متفجرات، كانوا سيصبحون انتحاريين بالمتفجرات، بالإضافة إلى أشخاص آخرين خطيرين". كما أنّ ناطقاً عسكرياً، عندما أصبحت الوثائق في متناول عموم الناس، أكّد قائلاً: "نعرف أنهم تدرّبوا على الكذب سعياً وراء كسب التعاطف تجاه حالتهم حتّى يشكّلوا ضغطاً على الولايات المتحدة".[٢]

وبعد عام، عندما رفع الجيش يده عن تسجيلات جلسات استماع الهيئة الإدارية الخاصة بإعادة النظر في غوانتانامو عام ٢٠٠٦، اختفت وثيقة محمدو كليّاً.

حصلت مخطوطة محمدو أخيراً على رخصة للنشر العام، وقد استطاع أحد أعضاء فريقه القانوني أن يسلّمني إياها على قرص مدمج بعنوان: "مخطوطة صلاحي – نسخة غير مصنّفة"، وكان ذلك في صيف عام ٢٠١٢، في ذلك الحين كان قد أصبح لمحمدو عقد من الزمن في غوانتانامو.

---

١ موجز أخبار وزارة الدفاع، وزير الدفاع رامسفيلد والجنرال مايرز، في ١١ يناير ٢٠٠٢. انظر:
http://www.defense.gov/transcripts/transcript.aspx?transcriptid=2031.

٢ بيان وزارة الدفاع في ٣ أبريل ٢٠٠٦. انظر:
http://www.defense .gov/news/newsarticle.aspx?id=15573.

وافق أحد قضاة المحكمة الفيدرالية على طلبه للمثول أمام المحكمة قبل عامين من تاريخ استلام المخطوطة، وأمر بإطلاق سراحه، ولكنّ الحكومة الأميركية استأنفت قضيّته، وبموجب ذلك أعادت محكمة الاستئناف طلبه إلى محكمة المقاطعة الفيدرالية لإجراء جلسة استماع له. ومازالت القضيّة مغلقة حتى الآن.

ولد محمدو ولد صلاحي في ٣١ ديسمبر ١٩٧٠، في روسو التي كانت بلدةً صغيرة آنذاك، والآن أصبحت مدينة صغيرة على نهر السنغال على الحدود الجنوبية لموريتانيا. هو الولد التاسع في الأسرة، يكبره ثمانية أولاد ويصغره ثلاثة. انتقلت أسرته إلى العاصمة نواكشوط عندما أنهى محمدو دارسته الابتدائية، ولم يمضِ الكثير حتّى مات والده، تاجر الجِمال البدوي. لا بدّ أنّ مواهب محمدو الواضحة في ذلك الوقت قد شكّلت لديه إحساساً بدوره في الأسرة. علّمه والده قراءة القرآن، الذي تمكّن من حفظه عن ظهر قلب في مراهقته، وكان ناجحاً في مدرسته، ويتمتّع بقابليّة خاصة للرياضيات. وفي عام ٢٠٠٨ يصف مقال في **دير شبيغل** ولداً شعبيّاً يهوى كرة القدم، وبشكل خاص الفريق الوطني الألماني. وقد دفعته هوايته لتقديم طلب لجمعيّة كارل دويسبرغ للحصول على منحة دراسيّة. تأتيه الموافقة ليدرس في ألمانيا، وكان ذلك قفزة هائلة في حياة الأسرة برمّتها كما أوردت المجلّة في تقريرها:

> ركب صلاحي طائرة متوجّهة إلى ألمانيا يوم الجمعة، أواخر صيف ١٩٨٨. كان الشخص الأول في الأسرة يدخل الجامعة في الخارج، والشخص الأول الذي يسافر على متن طائرة. إنّ حزن والدته الشديد على رحيل ابنها المفضّل لديها وإفراطها في البكاء لحظة الوداع خلقا تردّداً طفيفاً لِلَحظات لدى محمدو قبل أن يركب طائرته. في النهاية أقنعه الآخرون بأن يمضي في رحلته. يقول أخوه يهديه (Yahdih): "كان من المفترض أن ينقذنا ماليّاً" في الوقت الحاضر.[١]

---

[١] جون غوتيز، مارسلر و زنباخ، بريتا سانربيرغ، وهولغرشتارك "من ألمانيا إلى غوانتانامو: سيرة السجين ذي الرقم ٧٦٠"، **دير شبيغل**، ٩ أكتوبر ٢٠٠٨. انظر:
http://www.spiegel.de/international/world/from- germany-to-guantanamo-the-career-of-prisoner-no-760-a-583193.html

في ألمانيا، تابع محمدو دراسته وحصل على شهادة في الهندسة الكهربائيّة، وكان يأمل بإيجاد عمل في حقل الاتصالات والكمبيوترات، ولكنّه سرعان ما أوقف دراسته ليشترك في قضيّةٍ كانت تجذب الشباب من أصقاع العالم، وذلك بهدف القيام بتمرّدٍ ضدّ الحكومة التي يقودها الشيوعيّون في أفغانستان. في تلك الأيّام لم تكن هناك أيّة قيود أو حظر على نشاطات من ذلك النوع، وقد سافر شبّان مثل محمدو بشكلٍ علنيّ، وكانت القضيّة التي سافر من أجلها تحظى بدعم الغرب، وبدعم أميركا على نحوٍ خاص. وحتّى ينضم أولئك الشباب إلى جبهات القتال كان عليهم التدرّب، لهذا التحق محمدو في أوائل ١٩٩١ بمعسكر تدريبي للقاعدة بالقرب من خوست، وتدرّب فيه مدّة سبعة أسابيع مع إعطاء قَسَم الولاء للقاعدة، التي يدير عناصرها المعسكر. تلقّى محمدو التدريب على الأسلحة الخفيفة وعلى الهاون وقذائفه، وكانت الأسلحة في معظمها سوفييتية الصنع. لقد ذكر محمدو ذلك في جلسة الاستماع أمام محكمة النظر بوضع المقاتل عام ٢٠٠٤ في الولايات المتّحدة الأميركية.

عاد محمدو إلى دراسته بعد تلقيه التدريب، ولكنّه عاود الذهاب إلى أفغانستان مرّة ثانية في عام ١٩٩٢، عندما كانت الحكومة الشيوعيّة على حافة الانهيار.

لقد التحق هذه المرة بوحدةٍ يقودها جلال الدين حقّاني، الوحدة التي كانت تحاصر مدينة كاردز، التي سقطت بعد وصول محمدو بثلاثة أسابيع دون أيّة مقاومة تُذكر.

بعد ذلك لم تصمد كابول طويلاً، فقد سقطت هي الأخرى في وقتٍ قصير. وكما يروي محمدو القصّة أمام محكمة النظر بوضع المقاتل، بأنّ القضيّة التي سافر من أجلها إلى أفغانستان سرعان ما دخلت في نفقٍ مظلم، ويمضي بوصفه قائلاً:

> بعد إسقاط الشيوعيين بدأ المجاهدون بشنّ الجهاد ضدّ بعضهم بعضاً، صراعاً على السلطة، لذا دخلت مجموعات مختلفة في حربٍ يقاتل بعضها الآخر. قررت العودة لأنّني لم أرغب بالقتال ضدّ المسلمين الآخرين، لم أجد مبرّراً حينذاك ولا أجده اليوم أن تقاتل الآخر من أجل أن تكون رئيساً أو نائباً للرئيس. كان هدفي هو فقط محاربة المعتدين، أعني الشيوعيين بصورة أساسيّة، لأنهم منعوا أخوتي من ممارسة طقوس دينهم.

لقد بقي محمدو مصرّاً دائماً على أقواله تلك كدليل على التزامه مع القاعدة. وقد قال للضابط رئيسة الجلسة أمام محكمة النظر بوضع المقاتل:

> سيدتي، كنت أدرك أنّني أقاتل مع القاعدة، ولكنّ القاعدة حينذاك لم تكن قد شنّت الجهاد ضدّ أميركا. لقد أخبرونا بأننا نقاتل مع أخوتنا ضدّ الشيوعيين. أرادوا أن يشنّوا الجهاد ضدّ أميركا في منتصف التسعينيات، ولكن ليست لي أيّة نيّة في ذلك. لم أنضم إليهم تحت هذه الفكرة. تلك مشكلتهم. أنا بعيد كلّ البعد عن خطّ المواجهة بين القاعدة والولايات المتّحدة الأميركية. عليهم أن يحلّوا هذه المشكلة بينهم وبين أنفسهم. أنا بعيد عن هذه القضيّة كليّاً".[١]

بالعودة إلى ألمانيا استقرّت أوضاع محمدو في الحياة كما تمّ التخطيط لها مع أسرته في نواكشوط قبل سفره. فقد أكمل دراسته في الهندسة الكهربائيّة وحصل على شهادتها من جامعة "دويسبرغ". التحقت به زوجته الموريتانية الشابة، وعاش الزوجان وعملا في دويسبرغ معظم عقد التسعينيات. ومع ذلك بقيت صداقته قائمة، في تلك الفترة، مع من رافقه في مغامرة أفغانستان، وكذلك بعض الذين كانوا لا يزالون على علاقة بالقاعدة. كما أنّه بقي على زمالة مباشرة مع أحد الأعضاء البارزين في القاعدة وهو محفوظ ولد الوليد، الذي يُعرف أيضاً باسم "أبو حفص الموريتاني"، الذي كان في مجلس الشورى التابع للقاعدة وأحد كبار مستشاري ابن لادن في الأمور الدينية، وهو أحد أبناء عمومة محمدو وعديل له في الزواج بأخت زوجة محمدو. وكان الاثنان على تواصل هاتفي بين الفينة والأخرى حينما كان محمدو في ألمانيا، وهناك مكالمة هاتفية أجراها معه أبو حفص من هاتف ابن لادن الذي كان يعمل بواسطة الأقمار الصناعيّة، التقطتها المخابرات الألمانيّة عام ١٩٩٩. كما أنّ محمدو ساعد أسرة أبو حفص مرتين بتحويل ٤٠٠٠ دولار أميركي إلى أسرته في موريتانيا في شهر رمضان.

وفي عام ١٩٩٨ سافر محمدو وزوجته إلى المملكة العربية السعودية لأداء مناسك الحج. في ذلك العام بالضبط لم يتمكّن من تأمين إقامة دائمة في ألمانيا، لذلك فقد

١ وثيقة محكمة إعادة النظر في وضع المقاتل، ص٣-٤.

اتّبع نصيحة أحد زملائه أيام الدراسة في الكليّة، بتقديم طلب اللجوء إلى كندا. وفي نوفمبر ١٩٩٩ انتقل إلى مدينة مونتريال، حيث عاش بعض الوقت مع زميله السابق في الدراسة، ومن ثمّ في جامع السنّة الكبير، حيث طُلب منه كحافظ للقرآن أن يحلّ محلّ الإمام في القيام بواجبات العبادة في رمضان أثناء غياب الأخير. وبعد وصوله إلى مونتريال بفترةٍ أقلّ من شهر اعتُقل مهاجر جزائري وعضو في القاعدة يدعى أحمد رسّام، بينما كان يهمُّ بدخول الولايات المتّحدة بسيّارة مفخّخة بالمتفجّرات بهدف تفجير مطار لوس أنجلوس الدولي في عطلة رأس السنة، كجزء من قضيّة باتت تُعرف بـ"مؤامرة الألفيّة". كان رسّام يقيم في مونتريال، وكان قد غادر المدينة قبل وصول محمدو، لكنّ الأخير كان يعقد اجتماعات في جامع السنّة وكانت له ارتباطات مع العديد ممَن وصفهم محمدو في جلسة الاستماع في محكمة النظر بوضع المقاتل بـ"رفاق السوء"، مُطلقاً هذه الصفة على زملائه في الدراسة.

لقد تسبّب اعتقال رسّام بفتح تحقيق كبير وسط الجالية المسلمة المهاجرة في مونتريال، والجالية التي تؤمّ جامع السنّة بشكلٍ خاص، وللمرّة الأولى في حياته تعرّض محمدو للاستجواب بخصوص ارتباطاته الإرهابية المحتملة.

وفي جلسة الإدلاء بشهادته عام ٢٠٠٥، أمام جلسة استماع الهيئة الإدارية بإعادة النظر، ورد على لسانه بأنّ الشرطة الكنديّة الملكيّة الخيّالة "جاءت واستجوبتني"، ويمضي في الإدلاء بشهادته قائلاً:

> كنت فزعاً. سألوني إذا ما كنت أعرف أحمد رسّام، وقلت: لا، لا. كنتُ مرعوباً إلى حدّ أنني كنت أرتجف... لم أكن معتاداً على هكذا أمر، فتلك هي المرّة الأولى التي أتعرّض فيها للاستجواب. حاولت التماسك والابتعاد عن الاضطراب لأقنعهم بقولي الحقيقة، ولكنّهم كانوا يراقبونني بطريقة بشعة للغاية. لا بأس بأن تُراقَب، لكنّه أمرٌ سيّئ أن ترى الذين يقومون بمهمّة مراقبتك. كان شيئاً أخرق، ولكنّهم أوصلوا بذلك رسالة مفادها أنّنا نراقبك.

في موريتانيا تلقّت أسرة محمدو إنذاراً بالخطر. "ماذا تفعل في كندا؟" سألت الأسرة،

فردّ عليهم: "قلتُ لكم لم أفعل شيئاً، أبحث فقط عن عمل. عندئذٍ قررتْ أسرتي ضرورة عودتي إلى موريتانيا متيقّنين بأنّني في ظروف سيّئة ولا بدّ من إنقاذي".

هاتفته زوجته السابقة بالنيابة عن أسرته لتخبره بأنّ والدته مريضة. هاكم ما قاله بخصوص هذا الموضوع أمام هيئة إعادة النظر:

> اتصلت بي وهي تبكي وقالت: "إمّا أن تأخذني إلى كندا أو أن تأتي أنت إلى موريتانيا". قلت لها: "مرحباً، بالله عليك هوّني الأمر. لم أحبّ الحياة في كندا، لا أستطيع التمتّع بالحريّة لأنّي مراقب. أنا أكره كندا"، ثمّ قلت: "العمل صعب للغاية هنا". أقلعت طائرتي يوم الجمعة في الحادي والعشرين من يناير ٢٠٠٠. سافرت برحلة للطيران من مونتريال إلى بروكسل ومن هناك إلى داكار.[١]

برحلة الطيران تلك تبدأ الأوديسّة التي ستصبح يوميّات غوانتانامو لمحمدو. إنّها تبدأ من هنا لأنّ قوّة واحدة فقط تقرّر مصير محمدو بدءاً من هذه اللحظة، وتلك القوّة هي الولايات المتّحدة. جغرافيّاً، ستغطّي ما يسمّيها "الجولة العالميّة اللانهائيّة" للحجز والتحقيق مساحة عشرين ألف ميل على مدى الفترة الزمنيّة اللاحقة، ثمانية عشر شهراً، بدءاً من العودة المفترضة إلى البيت في الوطن الأمّ، وانتهاءً بإلقائه في الجزر الكاريبية التي تبعد عن بيته مسافة أربعة آلاف ميل. وفي الطريق إلى تلك الجزيرة سيتمّ التحقيق معه في أربعة بلدان، غالباً بمشاركة الأميركان، وكان ذلك دائماً بأمر من الولايات المتّحدة.

وفيما يلي تظهر أولى تلك الحجوزات التي تمّ توصيفها في جدول زمني، أوردها قاضي المقاطعة الأميركية جيمس روبيرتسون في قراره لرفع السريّة عن ملف محمدو في عام ٢٠١٠، والذي بموجبه يُقبَل طلب محمدو للمثول أمام المحكمة:

> يناير ٢٠٠٠ – ينتقل جوّاً من كندا إلى السنغال، حيث يلتقيه أخوه ليأخذه إلى موريتانيا. أُلقي القبض عليه وعلى أخيه من قبل سلطات ████ ████، وتمّ استجوابه بخصوص مؤامرة الألفيّة. جاء أميركي والتقط الصور، وأغلب الظن أنّ شخصاً أميركياً قد نقله بعدئذٍ جوّاً إلى موريتانيا،

١ وثيقة هيئة إعادة النظر الإدارية، ص١٥-١٦.

حيث أُجري له المزيد من الاستجواب من قبل السلطات الموريتانيّة حول مؤامرة الألفيّة.

فبراير ٢٠٠٠ – تمّ استجوابه من قبل ■■■■■■■■ حول مؤامرة الألفيّة.

٢٠٠٠/٢/١٤ – أطلقت ■■■■■■■■ سراحهُ على أساس غياب الأدلّة التي تثبت تورّطه في مؤامرة الألفيّة.

"قال الموريتانيّون: لا نرى ضرورة لإبعادك. لستَ محطّ اهتمامنا". ويذكر محمدو واصفاً إطلاق سراحه ذاك في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإداريّة، سألتُهم: "ماذا عن الأميركان؟" قالوا: "يقول الأميركيون باستمرار إنّ لك صلة ولكنّهم لم يقدّموا لنا أيّ دليل قاطع، ليس هناك ما نستطيع عمله؟"

لكنّ القاضي روبيرتسون يؤرّخ في جدوله الزمني بأنّ الحكومة الموريتانية استدعت محمدو مرّة أخرى بطلب من الولايات المتّحدة بعد هجمات ٩/١١ الإرهابيّة بفترة وجيزة:

٢٠٠١/٩/٢٩ – اعتُقل في موريتانيا، أخبرته السلطات ■■■■■■■■ ■■■■■■■■ أنّ صلاحي متورّط في مؤامرة الألفيّة، كما هو مزعوم.

٢٠٠١/١٠/١٢ – بينما كان معتقلاً، قامت مجموعة من العملاء بتفتيش بيته فصادرت منه أشرطة ووثائق.

٢٠٠١/١٠/١٥ – أُطلق سراحه من قبل السلطات ■■■■■■■■.[١]

بين هذين الاعتقالين، اللذين حضر في كل منهما عملاء من مكتب التحقيقات الفيدرالي لإجراء تحقيقات معه، كان محمدو يعيش حياةً عاديّة، بل حياة ناجحة بمقاييس بلده، حيث كان يعمل في مجال الكمبيوتر والالكترونيّات، في البداية لصالح شركة طبيّة تقدّم أيضاً خدمات الانترنيت، بعد ذلك عمل لصالح أسرة تمتلك الكثير من الأعمال

١ طلب مذكرة محمدو ولد صلاحي ضد باراك ح. أوباما، No. 1:05-cv-00569-JR. 13-14 طلب المذكرة متوفر على: https://www.aclu.org/files/assets/2010-4-9-Slahi-Order.pdf.

الهامّة. ولكنّه كان قلقاً في هذه الفترة مع أنّه كان حرّاً "وعاد إلى حياته"، كما شرح لهيئة إعادة النظر الإدارية:

> اعتقدت أن توقيفي سيشكّل مشكلة مع صاحب عملي، فقد لا يعيدني إلى العمل لأنّني مشتبهٌ به بالإرهاب، لذا قالوا إنّهم سيهتمون بهذا الجانب، واتّصل رجل رفيع المقام من المخابرات الموريتانية بصاحب عملي أمامي وأنا جالس هناك وأخبره بأنّني إنسان جيّد، وأضاف: ليست لدينا مشكلة (معه). لقد اعتقلناهم لسبب ما. كان علينا أن نستجوبه وهاقد استجوبناه ولا شيء يمنعه من الذهاب، لذا يمكنك إعادته إلى العمل.[١]

أعاد ربّ العمل محمدو إلى عمله، وبعد شهر سيأخذه عمله إلى القصر الرئاسي الموريتاني، حيث قضى يوماً في إعداد مناقصة لتحديث النظم الكمبيوترية والهاتفية للرئيس الموريتاني معاوية ولد سيد أحمد ولد طايع.

وعندما وصل البيت ظهرت الشرطة الوطنية مرة أخرى وأبلغته بأنّه مطلوب للمزيد من الاستجواب.

طلب منهم الانتظار حتّى يستحم على عجل. ارتدى ملابسه، وأخذ مفاتيحه، وذهب طواعيةً بسيارته الخاصّة إلى مركز الشرطة الرئيسي، وأخبر والدته بألاّ تقلق، وأنه سيعود إلى البيت قريباً. ولكنّه اختفى هذه المرّة.

كانت أسرته تعتقد على مدى عام تقريباً بأنّه موجود في سجن موريتاني. كان أخوه الأكبر "حمود" يزور السجن الأمني بانتظام لتزويد محمدو بالملابس النظيفة وبالمال من أجل الطعام. لكن، بعد أن ذهب محمدو بإرادته إلى السجن، جاءت طائرة للعمليات التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة (CIA) وخطفته بطريقة سريّة إلى الأردن، وبعد أشهر ستنقله الولايات المتّحدة من العاصمة الأردنيّة عمّان إلى القاعدة الجويّة الأميركية في باغرام الأفغانيّة، ومن هناك بعد بضعة أسابيع إلى غوانتانامو. وطوال هذه الفترة كانت أسرته تدفع المال لإدارة السجن على أنّه موجود عندهم، وموظفو الإدارة كانوا يؤدّون الأمانة بصدقٍ بإلقاء تلك النقود في جيوبهم، دون أن يذكروا لعائلته شيئاً.

١ وثيقة هيئة إعادة النظر الإدارية، ص١٩.

ولم تظهر الحقيقة حتى ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٢، عندما اشترى "يهديه"، الأخ الأصغر لـمحمدو، الذي حلّ محلّه في إعالة الأسرة، كونه يعيش في أوروبا، نسخةً من صحيفة دير شبيغل لذاك الأسبوع ليجد فيها أنّ أخاه أصبح له منذ عدّة أشهرٍ يقيم في قفص معدني في سجن المعسكر الأميركي في غوانتانامو.

كان غضب "يهديه" شديداً، ليس على الولايات المتّحدة بل على السلطات المحليّة التي ما انفكّت تؤكّد للأسرة بأنّ محمدو موجود لديها، وأنه في أمان.

"عناصر الشرطة أولئك أشخاص أشرار ولصوص"! كان يصرخ بهذه الكلمات وهو ينقل الأخبار إلى الأسرة هاتفياً. "لا تقل ذلك" وأقفلوا سماعة الهاتف بوجهه مرعوبين. عاد واتصل بهم مرّة أخرى، وأقفلوا سماعة الهاتف بوجهه مرة ثانية.

مازال "يهديه" يعيش في دوسلدورف. التقيتُه في العام الماضي، وتناولنا معاً عدة وجبات في مطعم مغربيّ في "إليرشتراسى"، وهو مركز في المدينة للجالية الأفريقية، من شمال أفريقيا. عرّفني يهديه" على الكثير من أصدقائه، وبصورة أساسيّة على الشبّان المغاربة، حيث أنّ العديد منهم مواطنون ألمان كـ"يهديه" ويتكلمون فيما بينهم بالعربية والفرنسيّة والألمانيّة، أمّا معي فقد حاولوا بجرأة التحدّث بالإنكليزيّة، وهم يضحكون على أخطاء بعضهم الآخر. روى "يهديه" نكتة تقليديّة خاصّة بالمهاجرين باللغة العربيّة لأصدقائه ومن ثمّ ترجمها لي، كانت النكتة حول اختبار باللغة العربيّة لعامل فندقٍ طموح. سُئِل المتقدّم للاختبار: "ماذا تقول عندما تنادي شخصاً هناك ليأتي"؟ أجاب: "من فضلك تعال إلى هنا". "وماذا تقول عندما تريده أن يغادر". توقّف العامل ثمّ انفرجت أسارير وجهه: "سأذهب إلى الخارج وأقول له: من فضلك تعال إلى هنا"!

في دوسلدروف تناولت وجبة طعام كاملة مع يهديه، ونحن نفرز ونسمّي صور الأقارب والأخوات والأصهار وبنات الأخوة والأخوات وأبناء الأخوة والأخوات، حيث لا يزال العديد منهم يعيش في المنزل نفسه الذي يضمّ أجيالاً مختلفة في نواكشوط.

أبدى محمدو خلال جلسة الاستماع أمام فريق إعادة النظر بوضع المقاتل في عام ٢٠٠٤ عدم اهتمامه بالقاعدة بعدما عاد إلى ألمانيا، قائلاً: "لدي أسرة كبيرة يجب

إعالتها، لديّ مائة فم عليّ تقديم الطعام لها". طبعاً كان ذلك قولاً مبالغاً فيه، ولكن لربما يكون عدد أفراد أسرته نصف هذا العدد. حالياً يحمل "يهديه" جزءاً كبيراً من تلك المسؤولية على عاتقه. وبسبب خطورة النشاط المتعلّق بالأمور السياسية في موريتانيا، يتولّى "يهديه" أيضاً مسؤوليات الأسرة في الدفاع عن محمدو لإطلاق سراحه. وأثناء عشائنا الأخير معاً شاهدنا لقطات فيديو على اليوتيوب لمظاهرة ساعد هو في تنظيمها في نواكشوط العام المنصرم أمام مبنى البرلمان، وكان الناطق الرسمي للمظاهرة، الذي أشار إليه "يهديه"، عضواً في البرلمان.

وقبل أيام من زيارتي إلى "يهديه" سُمح لمحمدو بالتواصل هاتفيّاً، خلال إحدى المرتين المسموحتين له سنويّاً مع أسرته، وقد تمّت المكالمات الهاتفيّة تحت إشراف اللجنة الدوليّة لمنظمة الصليب الأحمر، حيث تكلّم فيها مع أسرته في نواكشوط، ومن ثمّ مع أخيه "يهديه" في ألمانيا. أخبرني "يهديه" بأنّه وجّه كتاباً في الآونة الأخيرة إلى منظمة الصليب الأحمر يسألهم فيه عن مدى إمكانيّة رفع عدد المكالمات الهاتفيّة السنويّة من مرتين إلى ثلاث مرّات.

لقد تمّت هذه المكالمات الهاتفيّة الأولى عام ٢٠٠٨، وذلك بعد ست سنوات ونصف السنة على اختفاء محمدو، وهذا ما يؤكّده مراسل جريدة **دير شبيغل** في تقرير له عن الموضوع:

> في ظهيرة يوم الجمعة من شهر يونيو ٢٠٠٨ اجتمعت أسرة صلاحي في مكتب الصليب الأحمر الدولي في العاصمة الموريتانيّة نواكشوط. والمجتمعون هم: أمّه، أخوته، أخواته، أبناء أخوته وأخواته، بنات أخوته وأخواته، وعمّاته وخالاته، كانوا يرتدون ثياباً طويلة متدلّية، يرتدونها عادةً في الحفلات العائليّة. لقد جاؤوا إلى هنا ليتحدّثوا هاتفيّاً مع ابنهم الضائع محمدو. لقد وافقت قوى المهام المشتركة في غوانتانامو على أن تلعب منظمة الصليب الأحمر دور الوساطة هذا. وكانت البُسُط السميكة تغطّي أرضيّة المكتب، والستائر ذات الألوان الفاتحة مسدلة على نوافذ مكتب الصليب الأحمر.
>
> "بُني، بُني، كيف حالك"، تسأل الأم. "أنا سعيد للغاية لسماع

صوتك"، وتغرق الأم في الدموع لأنها تسمع صوت فلذّة كبدها للمرّة الأولى منذ أكثر من ست سنوات.

ثمّ يتحدّث أخو محمدو الأكبر سنّاً معه أكثر من أربعين دقيقة. صلاحي يخبر أخاه بأمور جيّدة. يريد أن يعرف مَنْ تزوّج مَنْ، كيف هي حال أخوته وأخواته، ومن له أولاد. "ذاك هو أخي، الأخ الذي عرفته. لم يتغيّر قط"، يقول حمود ولد صلاحي بعد الانتهاء من المحادثة.[١]

ومن بين ما قاله لي "يهديه" أنّ المكالمات الهاتفيّة بقيت جارية حتى خمس أو ست سنوات لاحقة، مع أنّ شيئين قد اختلفا. لقد أصبحت المكالمات الهاتفيّة تجري الآن عبر السكايب، لذا يمكنهم رؤية بعضهم بعضاً، والأمر الثاني هو رحيل والدة محمدو، حيث توفيّت في السابع والعشرين من شهر مارس من عام ٢٠١٣.

لقد جاءت الافتتاحية البارزة في صحيفة **نيويورك ديلي نيوز** في الثالث والعشرين من شهر مارس ٢٠١٠، بعنوان "دعوا باب الزنزانة موصداً: يناشد قاض ساخط ردّاً على حكم بإطلاق سراح سفّاح الحادي عشر من سبتمبر". بدأت الافتتاحية بـ:

> إنّه لأمرٌ صاعق وصحيح: لقد أعطى قاضٍ في المحكمة الفيدراليّة أمراً يقضي بإطلاق سراح محمدو ولد صلاحي، أحد أبرز المتطوّعين في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، الرجل الذي اعتُبر ذات يوم المعتقلَ الأكثر قيمةً في غوانتانامو.

كان ذلك الحكم هو للقاضي جيمس روبيرتسون، وكان لا يزال قراراً مصنّفاً كمذكّرة يقبل التماس محمدو للمثول أمام المحكمة؛ الالتماس الذي كتبه محمدو بخط اليدّ في زنزانته في كامب إيكو (Camp Echo) قبل خمس سنوات. وبدون الوصول إلى ذلك القرار أو الملفّات القانونيّة أو جلسات المحكمة القانونيّة التي نتج عنها القرار المذكور، وبالرغم من كلّ هذا، ذهبت الافتتاحيّة للصفحة في حدسها إلى أنّ قاضياً قد سمح لـ"إرهابي ملطّخ اليدين بدماء ثلاثة آلاف قتيل" أن يمضي في سبيله إلى الحريّة، ثمّ أضافت بتحريف: "إنّه رجلٌ مذنب بلا شك، ولكن لا دليل قاطع على ذلك باستثناء

١ غوتيز... إلخ، "من ألمانيا إلى غوانتانامو".

شكّ معقول، وهذا سببه الحساسيّة الشديدة للدليل المحصول عليه تحت المعاملة القاسية". إنّ هيئة الصحيفة تعبّر بثقة أنّ محمدو "تعرّض لضغط قاسٍ كما هو مطلوب بعد الحادي عشر من سبتمبر"، وإنّ معاملته بتلك القسوة قد جُعلت البلد أكثر أماناً. ويحثّ محرّر الصحيفة إدارة أوباما على استئناف قرار المحكمة، مضيفاً: "لماذا الاستعجال لإطلاق السراح؟ يستطيع القاضي الانتظار، ومن الأفضل أن ينتظر حتّى يفهم البلد لماذا حدث هذا الشيء، قبل ممارسته سلطته القانونيّة".[١]

وبعد ذلك بأسبوعين نشرت المحكمة نسخة مدقّقة من قرار القاضي روبيرتسون بعد رفع السريّة عنه، وكان قسماً من الرأي يلخّص مناقشات الحكومة حول سبب وجوب بقاء محمدو في غوانتانامو، وتضمّنت حاشيةً ربّما فاجأت قرار الصحيفة:

> كذلك ناقشت الحكومة أولوياتها، وكان على رأسها قضيّة صلاحي، حيث رأت الحكومة أنّ وضعه قابل لإبقائه في المعتقل بموجب أنّه "ساعد في هجمات الحادي عشر من سبتمبر"، وبموجب التفويض باستعمال القوّة العسكريّة ولكنّها الآن تخلّت عن تلك النظريّة، معترفةً بأنّ من المحتمل أنّ صلاحي ربما لم يعرف بهجمات الحادي عشر من سبتمبر[٢].[٣]

لا شكّ بأنّ توصيف محمدو بـ"سفّاح الحادي عشر من سبتمبر" سيطيل بقاءه في السجن.

---

١ "دع باب الزنزانة مغلقاً: مناشدة القاضي الغاضب رولينغ لإطلاق سراح سفاح ١١/٩"، افتتاحية نيويورك ديلي نيوز، ٢٣ مارس ٢٠١٠.
انظر:
http://www.nydailynews.com/opinion/cell-door-shut-appeal -judge-outrageous -ruling-free-9-11-thug-article-1.172231.

٢ إنّ "تفويض استعمال القوّة العسكريّة" هو قانون ١٤ سبتمبر ٢٠٠١ الذي يجري بموجبه العمل في غوانتانامو. إنّه يفوّض الرئيس "باستعمال كلّ القوّة الضروريّة المناسبة ضدّ تلك الأمم والمنظّمات والشخصيّات التي يراها الرئيس بأنّها خطّطت أو اقترفت أو ساعدت على الهجمات الإرهابيّة التي حدثت في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أو أوت مثل تلك المنظمات أو الأشخاص، وذلك من أجل منع أيّة أعمال مستقبليّة للإرهاب العالمي ضدّ الولايات المتّحدة عن طريق تلك الأمم أو المنظمات أو الأشخاص.

٣ طلب مذكرة...، ص٤.

وفي الوقت نفسه، أن تقول لقاضٍ أصدر أمراً قضائياً بإطلاق سراح رجل بعد أن قضى تسع سنوات في السجن: "أنت مستعجل في إطلاق السراح"، هذا الكلام، وبكلّ المعايير، هو تمديدٌ للبقاء في السجن. ولكن ثمّة حقيقة في قلب افتتاحية **ديلي نيوز** – وفي قلب معظم التحقيقات الصحفيّة حول قضيّة محمدو – وهي الارتباك. تسع سنوات أصبحت الآن ثلاث عشرة سنة، ويبدو أنّ البلد حتى الآن لم يخطُ خطوة واحدة نحو فهم مبررات احتفاظ الحكومة الأميركية بمحمدو، مع أنّ القاضي روبيرتسون قد راجع قضيّته بتفاصيلها ومن ثمّ أصدر قراره النهائي بإطلاق سراحه.

يتّضح الأمر أكثر من التسجيل المتاح بين أيدينا، وهو أنّ وجود محمدو في سجن الولايات المتّحدة لا يبدأ بالمزاعم التي تقول إنّه أحد أبرز المتطوّعين في هجمات الحادي عشر من سبتمبر. فعندما تمّ استجوابه من قبل عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي أثناء عودته إلى موريتانيا في فبراير ٢٠٠٠، ومن ثمّ مرّة أخرى بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، تمّ التركيز في التحقيقات على مؤامرة الألفيّة وليس على هجمات سبتمبر. ويظهر جليّاً أنّ هذه المسألة أيضاً كانت وراء نقله إلى الأردن: "الأردنيون كانوا يحقّقون معي حول دوري في مؤامرة الألفيّة"، وهذا ما قاله محمدو لهيئة إعادة النظر الإداريّة عام ٢٠٠٥. "قالوا لي إنّهم مهتمّون بالمؤامرة بشكل خاص".

في الوقت الذي نقلت فيه وكالة المخابرات المركزيّة (CIA) محمدو إلى الأردن، كان قد أصبح لأحمد رسّام أشهر وهو يتعاون مع وزارة العدل في الولايات المتّحدة، وبعد مرور ثمانية أشهر على استرداد محمدو من قبل وكالة المخابرات المركزيّة أدلى رسّام بشهادته في محكمتين حول الإرهاب، حيث قدّم للحكومة الأميركية اسم أكثر من مائة وخمسين شخصاً متورّطاً في الإرهاب، فضلاً عن أسماء حكومات ستّة بلدان. بعض أولئك الأشخاص كانوا سجناء في غوانتانامو، وقد استخدمت الحكومة الأميركية أقوال رسّام كدليل ضدّهم أمام المحكمة. ولم يكن اسم محمدو على قائمة الأسماء المذكورة.

وقد قال روبيرتسون معبّراً عن رأيه في جلسة مثول أحمد رسّام أمام المحكمة: "لقد فشل رسّام بما لا يدعو الشكّ بأنْ يضمّن اسم صلاحي في القائمة".

ستلمّ وكالة المخابرات المركزيّة (CIA) بهذه المعلومات، وستعرف أيضاً فيما إذا كان الأردنيون قد كشفوا أيّة معلومات تبيّن صلة محمدو بمؤامرة الألفيّة، وبهجمات الحادي عشر من سبتمبر أو أيّة مؤامرات إرهابيّة أخرى. ومن الواضح أنّ (CIA) لم تقدّم أيّة معلومات عن التحقيق معه في عمّان إلى المدّعين العاميّن في غوانتانامو.

في مقابلة لـ"مشروع التاريخ الشفوي ودوره في جامعة كولومبيا" مع المقدّم ستيوارت كوتش، المدّعي العام التابع للبحرية والمعيّن لإقامة دعوى ضدّ محمدو ولد صلاحي في غوانتانامو، قال إنّ CIA أظهرت بأنّه لا توجد أيّة تقارير أمنيّة خاصّة به إطلاقاً، وأنّ معظم التقارير التي تلقّتها الوكالة جاءتها من التحقيقات مع محمدو في غوانتانامو. "كان في سجنهم مدّة ستّة أشهر. كانوا يعلمون أنني المدّعي العام الرئيسي، ويعلمون أنّنا نفكّر في قضيّة كبيرة، وأننا لو تمكّنا من إيجاد علاقة له بالحادي عشر من سبتمبر لحكمنا عليه بعقوبة الإعدام".

"لذا لا بدّ من حدوث أمر ما"، شعر ستيوارت كوتش بهذا الحدس في تلك المقابلة. "كان صلاحي في السجن التابع لـCIA، ولا بدّ من أنّهم بذلوا ما في وسعهم لانتزاع ما عنده من معلومات، أو أنّ المعلومات التي حصلوا عليها لم تنفعهم لمعرفة مدى أهميّته، ولم يبقَ لهم سوى القيام بتسليمهم للجيش الأميركي في قاعدة باغرام الأفغانيّة".[1]

هذه الفقرة هي فقط إحدى الفقرتين اللتين لم يَطلهما إجراء التدقيق والتنقيح. وفي مقطع أسود من أربع صفحات من التقرير المعنون بـ"نهاية اللعبة" ورد:

> إنّ عدد المعتقلين في سجن وكالة الاستخبارات المركزيّة قليل نسبيّاً مقارنةً بالذين في سجن الجيش. ومع ذلك فالوكالة، مثل الجيش، لديها اهتمام بتنظيم المعتقلين، فضلاً عن اهتمامها الخاص بالذين سيفشون، على الأرجح، المعلومات المتعلقة بظروف حجزهم.[2]

---

١ مذكرات ف. ستيورات كوتش، مركز كولومبيا لتجميع التاريخي الشفهي، ١-٢ مارس ٢٠١٢، ص٩٤، ١١٧. انظر:
http://www.columbia.edu/cu/libraries/inside/ccoh_assets/ccoh_10100507_transcript.pdf.

٢ مكتب المفتش العام لوكالة الاستخبارات المركزية CIA، "نشاطات السجن والتحقيق المضاد للإرهاب سبتمبر ٢٠٠١- أكتوبر ٢٠٠٣"- ٧ مايو ٢٠٠٤، ص٩٦. التقرير متوفر على:
http://media.luxmedia.com/aclu/IG_Report.pdf.

وفي أوائل عام ٢٠٠٢ لم تكن أسرة محمدو تعلم أنّه في الأردن. فقط أناسٌ يُعدّون على الأصابع كان لديهم العلم بأنّ الولايات المتّحدة تقوم باعتقال المشتبه بهم وحجزهم واستجوابهم وفق برنامج خاصّ بذلك، ولم تكن الولايات المتّحدة تقوم بهذا الإجراء بمساعدة حلفائها الدائمين فقط، مثل المخابرات الأردنيّة، بل حتّى بتعاون أصدقاء آخرين أقلّ اعتماداً وثقة، وكانت موريتانيا من بين أولئك الأصدقاء. في عام٢٠٠٢ كان الرئيس الموريتاني ولد طايع، الذي أصبح له عقوداً في الحكم، يتعرّض لأشد الانتقادات على الصعيد الخارجي بخصوص سجلّ حقوق الإنسان في بلاده، وفي الداخل كان يتعرّض للانتقاد بسبب تعاونه الوثيق مع سياسات الولايات المتّحدة في مكافحة الإرهاب.

وما استجواب محمدو في بلده عام ٢٠٠٠ من قبل عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي إلا مثال على ذاك التعاون، لذا أصبح الموضوع مثار خلاف جدلي تناولته الصحف على نطاق واسع. ماذا لو عاد محمدو إلى بلده في منتصف عام ٢٠٠٢ وسلّم القصص التي بحوزته للأميركان من دون دعوى قضائية لتسليمه وأخذه من قبل وكالة المخابرات المركزية سرّاً إلى الأردن ليتمّ التحقيق معه مدة أشهر في خرق واضح للدستور الموريتاني؟

على أية حال لا توجد أية إشارة على أنّ محمدو، الموريتاني البالغ من العمر إحدى وثلاثين سنة، كان معتقلاً خاصاً ذا قيمة عالية عندما حملته طائرة أميركية من نوع C-17 ومعه أربعة وثلاثون سجيناً آخر لتنزل بهم على أرض جزيرة غوانتانامو في ٥ أغسطس ٢٠٠٢. فلو كان محمدو كذلك لما أُخفي عن أحد. وقد نشرت صحيفة **لوس أنجلوس** مقالاً بعد أسبوعين من وصوله إلى غوانتانامو بعنوان "لا يوجد قادة من القاعدة في خليج غوانتانامو في كوبا". وقد اعتمدت الصحيفة في نشرها هذا العنوان على مصادر حكومية أعلنت أنْ "لا توجد سمكة كبيرة" في السجن هناك، ومن بين ستمائة معتقل في تلك الجزيرة لم يكن هناك سجين واحد "ذا شأن في القيادة والسيطرة على التنظيم ليساعد خبراء مكافحة الإرهاب على تفكيك خلايا القاعدة ونظامها الأمني المُحكَم".[1]

---

١ بوب دروغين، "لا يوجد قادة للقاعدة في غوانتانامو"، **لوس أنجلوس تايمز**، ١٨ أغسطس ٢٠٠٢. انظر:

http://articles.latimes.com/2002/aug/18/nation/na-gitmo18.

كما أنّ تقريراً في غاية السريّة لوكالة المخابرات المركزيّة في تلك الفترة حول السجن، لم يكن ما جاء فيه إلا صدىً لما سبق. وعندما زار الصحفيون المعسكر في أغسطس من ذلك العام أخبرهم قائد عمليات الحجز في غوانتانامو بأنّ ضبّاطه الذين يرتدون البزّة النظاميّة والذين يقومون باستجواب المعتقلين يسمّونهم بـ"المقاتلين الأعدّاء"؛ التسمية التي تتعارض مع صفة سجناء الحرب؛ لئلا تشملهم قوانين الحماية عملاً بميثاق جنيف. وقد اضطرّ البنتاغون لتغيير ذاك القائد ووضع جميع العمليّات الأمنيّة المتعلّقة بالمعسكر في غوانتانامو بين يديه.

لقد حدث انقسام بُعيد ذلك بين المحققين العسكريين ومكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، من جهة، وبين عملاء قوى مهام التحقيق في الجرائم (CITF) الذين كانوا يقومون عموماً بمقابلة السجناء في غوانتانامو من جهة أخرى. ففي شهري سبتمبر وأكتوبر أنشأ الجيش "فريق المشاريع الخاصّة" الأول له بعيداً عن الخلافات المحتدمة بين مكتب التحقيق الفيدرالي وقوى مهام التحقيق في الجرائم (CITF))، فوضع خطّة مكتوبة من أجل التحقيق مع السجين السعودي محمد القحطاني. لقد جسّدت تلك الخطّة بعض "تقنيات التحقيق المعزّزة" التي كانت تستخدمها وكالة المخابرات المركزيّة منذ أشهر في سجنها السرّي. وبموجب الخطّة التي نُفّذت على نحوٍ متقطّع خلال فصل الخريف، وبتفويضٍ موقّع من وزير الدفاع رامسفيلد، أخضع المحققون العسكريون القحطاني لسلسلة طويلة من أنواع التعذيب وعلى مدار السّاعة، وقد بدأت في نوفمبر بنظام قاسٍ للحرمان من النوم، بمرافقة الموسيقى الصاخبة ووضعيات الإجهاد والتوتّر، والتهديد، وبإهانات جسديّة وجنسيّة متنوّعة. خلال هذه الفترة بالضبط كان الصراع على طرق التحقيق يشارف على الانتهاء في المعسكر، حيث برزت إلى السطح صلة بين محمدو ولد صلاحي ومهاجمي الحادي عشر من سبتمبر. "اعتقلت أميركا في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠٢ شخصاً يدعى رمزي بن الشيبة، الذي قيل إنّه الشخصيّة الأساسية في هجمات الحادي عشر من سبتمبر". ذكره محمدو في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإداريّة عام ٢٠٠٥.

> لقد تغيّرت حياتي على نحوٍ مؤلم بعد اعتقاله بعام بالضبط من تاريخ ١١ سبتمبر. لقد حدّدني الرجل على أساس أنّني الشخص الذي

> التقاه في أكتوبر ١٩٩٩، وهذا صحيح، لقد كان في بيتي. قال إنني نصحته بأن يذهب إلى أفغانستان للتدرّب. حسناً، بعدها يطلب منه المحقّق ████████ من مكتب التحقيقات الفيدرالي أن يفكّر أي شخص أكون أنا، فقال أعتقد إنّه شخص فعّال لأسامة بن لادن، ولولاه لما تورّطت أبداً في هجمات الحادي عشر من سبتمبر.[١]

كان بن الشيبة هدفاً لمطاردة دوليّة منظّمة منذ ٩/١١، بسبب دوره المزعوم في التنسيق مع "خليّة هامبورغ" من المختطفين. وبعد اعتقاله في عمليّة تمّ إطلاق الرصاص فيها، في إحدى ضواحي مدينة كراتشي، تمّ تسفيره مباشرةً إلى سجن (CIA). وحُجز أولاً في "سجن سري" في أفغانستان، ومن ثمّ، خلال الصيف، في سجن قريب من الرباط في المغرب. وأثناء التحقيقات في أحد تلك السجون قال بن الشيبة للمحقّقين إنّه امتلك فرصة للقاء شخص غريب على متن قطارٍ في ألمانيا، حيث تحدّث هو واثنان من أصدقائه عن الجهاد ورغبتهم بالسفر إلى الشيشان للانضمام للقتال ضدّ الروس. واقترح الشخص الغريب الاتصال بمحمدو في دويسبرغ، وعندما اتصلوا به استضافهم محمدو ليلةً في بيته.

لقد دوّنت لجنة الحادي عشر من سبتمبر في وصف مأخوذ من تقارير المخابرات لتلك التحقيقات: "عندما وصلوا، شرح صلاحي بأنّ الوصول إلى الشيشان صعب في ذلك الوقت، لأنّ العديد من المسافرين تمّ اعتقالهم في جورجيا، ونصح أن يتمّ السفر إلى هناك عبر أفغانستان حيث يستطيعون أن يتدرّبوا هناك للجهاد قبل السفر إلى الشيشان".[٢]

لم يؤكّد بن الشيبة فيما إذا كان محمدو قد أرسله إلى أفغانستان للانضمام إلى مؤامرة ضدّ الولايات المتّحدة الأميركية. إنّ "المقدم كوتش"، الذي اطّلع على تقرير المخابرات بخصوص بن الشيبة، قال في مقابلة له في عام ٢٠٠٢: "لم أجد أي ذكر في التقرير للهجوم على أميركا. كما أنّني لم أعثر على الإطلاق على شيءٍ يؤكّد حقيقة

١ وثيقة هيئة إعادة...، ص ٢٣-٢٤.

٢ اللجنة القومية الخاصة بالهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة، "تقرير اللجنة حول ٩/١١"، ص١٦٥-١٦٦. التقرير متاح على الرابط:
http://govinfo.library.unt.edu/911/report/911Report.pdf.

أنّ رمزي بن الشيبة قد قال: "أخبرناه بما نريد القيام به فأجاب قائلاً: هذا هو المكان الذي تستطيعون الحصول فيه على التدريب".[1]

أثناء مثول محمدو أمام المحكمة لم تناقش الحكومة الأميركية بأنّه أقنع الرجال بالانضمام إلى مؤامرة بن لادن. على العكس من ذلك، زعمت الحكومة أنّ الرجال طلبوا التدريب في أفغانستان؛ الأمر الذي أدرك محمدو ضرورته للانضمام إلى القتال في مراحله المبكّرة ضدّ الروس. وكان هو يعمل بشكلٍ عام كمجنِّد للرجال في صفوف القاعدة. لم يوافق القاضي روبيرتسون على هذا الرأي، ووجد أنّ التسجيل لا يُظهر سوى أنّ "صلاحي قدّم السكنى لثلاثة رجال لليلة واحدة في ألمانيا، وأحد هؤلاء الثلاثة كان رمزي بن الشيبة، وكان نقاشهم يدور حول الجهاد وأفغانستان".[2]

تلقّى ستيوارت كوتش تقارير المخابرات الخاصّة بـ"بن الشيبة" عندما تمّ تعيينه للنظر في قضيّة محمدو في خريف ٢٠٠٣.

إنّ التقارير، والمهمّة بحدّ ذاتها، كانت لها أهميّة خاصّة للربّان البحري السابق، صديقه المقرّب مايكل هوروكس، ربّان ناقلة الوقود في البحريّة الأميركية (المارينز)، كان الربّان هو المساعد في رحلة للخطوط الجويّة المتّحدة (إيرلاينز يونايتد)، الخطوط التي استخدمها المختطفون في هجمات الحادي عشر من سبتمبر لتدمير البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي. لقد أعاد ذاك الحدث ستيوارت كوتش إلى الخدمة الفعّالة. كما أنّه انضمّ إلى فريق النوّاب العامين للجنة العسكريّة في غوانتانامو بهدف وبأمل "أن أفتح ثغرة في قضية الرجال الذين هاجموا الولايات المتّحدة"[3] كما شرح في اللمحة الموجزة عنه في صحيفة **وول ستريت جورنال** عام٢٠٠٧.

وفي الحال كان يلقي نظرة على دفعات من تقارير المخابرات من مصدر آخر، حول محمدو بالذات، الصيد الذي كان يصفه المحقّقون العسكريون على الدوام على أنّه التحقيق الأكثر نجاحاً في غوانتانامو. لم تحتوِ تلك التقارير على أيّة معلومة حول ظروف ذاك التحقيق، ولكن المقدّم كوتش كان لديه شكوكه الخاصّة. وقد أُخبر

---

١ مقابلة مركز كولومبيا لتجميع التاريخي الشفهي مع ف. ستيوراتوتش، ص٩٠.

٢ طلب مذكرة...، ص١٩.

٣ جيس برافن، "ضمير الكولونيل"، **وول ستريت جورنال**، ٣١ مارس ٢٠٠٧. على الرابط:
http://online.wsj.com/news/articles/SB117529704337355155.

بأنّ محمدو كان في "المشاريع الخاصّة". لقد أخذ لمحة في زيارته الأولى للقاعدة عن سجينٍ آخر كان مرمياً في حجرةٍ صغيرةٍ فارغة للتحقيق، كان يتأرجح ذهاباً كوميض مصباح وإياباً كدويّ معدنٍ ثقيل. لقد رأى مثل هذا الشيء من قبل، كملاح بحري، تحمّل أسبوعاً من تقنيّاتٍ كهذه في برنامج يُهيّئ رجال الجو الأميركيين لتجربة الاعتقال والتعذيب.

لقد تأكّدت تلك الشكوك عندما تمكّن المحقّق الملازم، العميل في "خدمة الاستقصاء" عن الجريمة البحريّة (NCIS)، من الوصول إلى ملفّات المحقّقين العسكريين. وتتضمّن هذه الملفّات المذكّرات اليوميّة لفريق "المشاريع الخاصّة" من أجل قيدها، والروايات المفصّلة للمحقّقين، ليس فقط لما قيل في كلّ جلسة فحسب؛ وإنّما كيفيّة انتزاع المعلومات أيضاً.

تبقى تلك التسجيلات مصنّفة كملفات "سرية"، ولكنّها لُخّصت في تقرير لجنة الخدمات المسلّحة لمجلس الشيوخ في الولايات المتّحدة عام ٢٠٠٨، حول تقصّي معاملة المعتقلين في سجن الولايات المتّحدة، ومراجعة وزارة العدل الخاصّة لعام ٢٠٠٨ للتحقيقات في غوانتانامو وأفغانستان والعراق. هذه التقارير توثّق "التحقيق الخاص" الذي يعقب المرحلة الثانية من بذل الجهد لدراسة التفاصيل الدقيقة، الخطّة المصدّقة من قبل رامسفيلد، والتي كشفت النقاب عنها تماماً كما يصفها محمدو تقريباً في كتابه **يوميات غوانتانامو**. ومن بين تلك الوثائق المحدّدة التي وُصفت في تلك التقارير هناك وثيقتان اطّلع عليهما ستيوارت كوتش في أوائل ٢٠٠٤، فاقتنع بأنّ محمدو قد تعرّض للتعذيب.

كانت الوثيقة الأولى عبارة عن رسالة مزيّفة من الخارجية الأميركية قُدِّمت إلى محمدو في أغسطس عام ٢٠٠٣، وكان واضحاً بأنّ الغاية منها هي استغلال علاقته الوثيقة بوالدته. وفي تقريرها تصف لجنة الخدمات المسلّحة التابعة لمجلس الشيوخ الأميركي الرسالة بقولها: "إنها رسالة زائفة مكتوبة من قبل رئيس فريق التحقيق، وردَ فيها أنّ والدته قد اعتُقلت وسيجرى معها التحقيق، وإذا لم تكن متعاونة معنا فإنها قد تُسفَّر إلى غوانتانامو". وتقول الرسالة إنّها ستكون الأنثى الوحيدة المعتقلة في "هذا السجن الذكوري".

أمّا الوثيقة الثانية فهي بتاريخ ١٧ أكتوبر ٢٠٠٣، وهي عبارة عن تبادل للرسائل الإلكترونيّة بين أحد محقّقي محمدو وطبيب نفسي عسكري أميركي. وقد وجدت اللجنة في هذه الوثيقة أنّ المحقّق ذَكَر أنّ "صلاحي أخبرني أنّه [يسمع الأصوات الآن] وهو قلقٌ لمعرفته أنّ هذا ليس شيئاً اعتيادياً... بالمناسبة... هل هذا الشيء يحدث للناس الذين لا يجدون المؤثرات الخارجيّة كضوء النهار والتفاعل الإنساني إلا قليلاً؟؟ يبدو هذا مروّعاً". وقد ردّ عليه السيكولوجي: "إنّ الحرمان من الأشياء الحسيّة يمكن أن يسبّب الهلوسات، وتكون عادةً هلوسات بصرية وليست سمعيّة، ولكن من يدري... في الظلام يخلق المرء الأشياء من القليل الذي يملكه".[١]

في مقابلة له عام ٢٠٠٩ وصف المقدّم كوتش تأثير هذه الاكتشافات:

> في منتصف الفترة التي تلقيت فيها هذه المعلومات من عميل خدمة الاستقصاء عن الجريمة البحريّة - الوثائق التي تحمل على رأسها عنوان الخارجيّة الأميركية - وبعد حصولي عليها وسماعي بكل هذه المعلومات قرأتها كلّها، مرّة بعد مرّة وشهراً بعد شهر، تجادلت كثيراً حول القضيّة، وكنت في الكنيسة ذاك الأحد، حيث كانت لدينا معموديّة. وصلنا في طقسنا الديني إلى النقطة التي يردّد فيها المجتمعون، بما معناه، أننا نحترم كرامة كلّ إنسان وننشد السلام والعدل على الأرض. وعندما تلفظّنا بتلك الكلمات في ذاك الصباح كان يوجد الكثير من الناس في تلك الكنيسة، ومع ذلك شعرت أنّني الوحيد فيها. لقد شعرتُ أنّ ما قيل في الكنيسة شيء لا يُصدَّق. لا يمكنك المجيء إلى هنا يوم الأحد كمسيحيّ، وأنت ملتزم بهذا الإيمان، إيمان احترام كرامة كلّ إنسان، وتقول إنّني سأنشد العدل والسلام على الأرض، وتستمر مع ذلك بالتحقيق الذي استخدم أدلّةً

١ لجنة مجلس الشيوخ الأميركي بخصوص القوات المسلحة، "تحقيق في التعامل مع المعتقلين في السجن الأميركي"، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٨، ص١٤٠-١٤١. التقرير متوفر على:
http://www.armed-services.senate.gov/imo/media/doc/Detainee-Report-Final_April-22-2009.pdf.

من ذلك النوع. وعندها أدركت جيّداً ما عليّ القيام به، واتّخذت قراري وابتعدّت عن القضية برمّتها.[1]

انسحب ستيوارت كوتش من قضيّة محمدو، رافضاً كلّ المحاولات التي سعت إلى دفعه للوقوف أمام لجنة عسكريّة.

ما من تهمة واحدة قط ثبتت على محمدو ولد صلاحي في غوانتانامو، وما من محامٍ تمّ تعيينه للدفاع عن قضيّته أمام اللجنة العسكريّة، كما ويظهر انعدام أيّة محاولاتٍ إضافيّة لتحريك القضيّة من أجل البتّ فيها أمام المحاكم. تنتقد افتتاحية صحيفة ديلي نيوز قرار القاضي روبيرتسون في جلسة مثول محمدو بشدّة، وتعزو ذلك إلى "التقزّز" من استخدام "الأدلّة المنتزعة تحت المعاملة القاسية"، ولكن ليس واضحاً البتّة ما إذا كان التحقيق الوحشي مع محمدو في غوانتانامو قد أسفر عن أيّ دليل يثبت أنّ له يداً في الجريمة أو أيّ نشاط إرهابي. وفي جلسة الاستماع إليه عام ٢٠٠٥، أمام هيئة إعادة النظر الإداريّة، تحدّث عن انتزاع اعترافات تحت التعذيب، لكن لا بدّ أنّ المستجوبين قد أسقطوا ذلك من تقاريرهم الاستخباراتيّة، وإنْ بَدَتْ اعترافات مقنعة، كما يقول ستيوارت كوتش، اعترافات من نوع "من هم القاعدة في ألمانيا".[2]

إنّ معاملته القاسية، التي غالباً ما تمّ الاستشهاد بها كمؤشّر على ذنبه، هي تماماً بمثابة تقارير المخابرات التي جاءت كنوع من برهان ما بعد الحقيقة، البرهان الذي ينبغي بموجبه أن يكون محمدو أيضاً من بين "من هم..."، ومع ذلك أوحى ستيوارت كوتش إلى أنّ معرفة محمدو تبدو أفضل من معرفة مستجوبيه. "إن لم تخنّي الذاكرة، أعتقد أنّ معظمهم كانوا معروفين لدى دائرة المخابرات عندما كان يتمّ استجواب محمدو"، أشار كوتش إلى هذا في مقابلة عام ٢٠١٢، وأضاف:

ينبغي أن أكون واضحاً في مسألة بعينها: عندما تُقرأ تقارير المخابرات على لسان صلاحي تجد أنّه لا يضمّن نفسه في أيّ شيء. الشيء الوحيد الذي يضمّن نفسه فيه هو معرفته بأولئك الناس. هو لا يضمّن نفسه في

١ مقابلة مع الكولونيل الملازم ستيورات كوتش حول "ديمقراطية التعذيب". متوفرة على: http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/torturingdemocracy/interviews/ stuart couch.html.

٢ برافن، "ضمير الكولونيل".

أي شيء مما أعتبره أنا عملاً صريحاً كجزء من مؤامرة القاعدة للهجوم على الولايات المتّحدة الأميركية في ٩/١١.[١]

ولا يبدو أنّ دوائر المخابرات الأميركية قد اكتشفت أي شيء آخر يدرج محمدو في قائمة المؤامرات أو الهجمات الإرهابيّة الأخرى. وفي مقابلة له عام ٢٠١٣ وصف الكولونيل موريس ديفيس، الذي أصبح في ٢٠٠٥ النائب العام الرئيسي للدعاوى القضائيّة العسكرية في غوانتانامو؛ المحاولةَ الأخيرة لتطوير نوع من الاتهام ضدّ محمدو، وذلك بعد شهرين من انسحاب ستيوارت كوتش من قضيّة محمدو. لم يكن الهدف الحقيقي بالنسبة للكولونيل ديفيس في ذلك الحين هو محمدو، الذي بالكاد تمّ تسجيله على رادار النيابة العامّة حتّى ذلك الوقت، بل كان السجين الذي أدخله الجيش في الحجرة الملاصقة لحجرة محمدو بهدف تلطيف آثار تعذيبه وآثار عزله في زنزانة مدّة سنتين تقريباً. لن يقبل ذلك السجين بصفقة طلب التماس ما لم يتلقّ محمدو عرضاً مشابهاً. "اضطررنا أن نقرّر نوعاً من صفقة مشابهة لصلاحي أيضاً"، قال هذا للكولونيل ديفيس في تلك المقابلة، "وتعني أنّنا كنّا مجبرين على إيجاد شيء ما يمكننا أن نتّهمه به، وكانت لدينا مشكلة حقيقيّة في ذلك".

عندما دخل صلاحي اعتقدتُ أنّ المشتبه به الذي أمسكوه سمكةٌ كبيرة. لقد ذكّرني بفيلم "فورست غامب Forrest Gump" من زاوية أنّه يوجد الكثير من الأحداث الجديرة بالوقوف عندها في تاريخ القاعدة والإرهاب، وبأنّ صلاحي يقف وراءها مختبئاً في زاويةٍ ما. كان في ألمانيا وكندا وأماكن أخرى مختلفة، وهذا ما جعل منه مشتبهاً به، وما جعلهم يعتقدون أنّه سمكةٌ كبيرة، ولكنّ عندما بذلوا جهودهم في التدقيق في وضعه بدت النتائج مخالفة لاعتقادهم.

أتذكّر أنه، بعد وصولي إلى هناك بفترة قصيرة، في أوائل عام ٢٠٠٧، عُقد اجتماع كبير ضمّ عناصر من الـCIA والـFBI ووزارة الدفاع ووزارة العدل، وفي الاجتماع قدّم لنا المحقّقون الذين يعملون على قضيّة

١ مقابلة مركز كولومبيا لتجميع التاريخي الشفهي مع ف. ستيورات كوتش، ص٩٥.

صلاحي موجزاً عن وجود الكثير من الدخان ولكن لا وجود لأيّ نار.[1]

وعندما وصل أخيراً طلب محمدو للمثول أمام المحكمة إلى المحكمة الفيدراليّة في عام ٢٠٠٩، لم تحاول الحكومة الأميركية مناقشة وضعه بصفة شخصيّة رئيسة في القاعدة، أو أنّ له يداً في خطط أو هجمات القاعدة.

ردّت حينها محكمة الاستئناف المتنقّلة لدائرة منطقة كولومبيا (DC: district court) على ملف قضيّة محمدو بعد مراجعتها بالكلمات التالية:

> تطالب الحكومة الأميركية باعتقال محمدو ولد صلاحي بصفته "جزءاً من القاعدة"، لا لأنّه قاتلَ مع القاعدة أو مع حلفائها ضدّ الولايات المتّحدة، بل لأنّه أقسم على الولاء للتنظيم واجتمع مع أعضائه وساعدهم بطرق مختلفة، بما فيها إيواء قادته وتوجيه الجهاديين الطموحين إلى شخص فاعل في القاعدة.[2]

عندما سمع القاضي بما جاء في طلب محمدو عام ٢٠٠٩، كانت محكمة الاستئناف المتنقّلة لدائرة منطقة كولومبيا، التي تترأس قضايا سجناء غوانتانامو للمثول أمام المحكمة، تناقش ما إذا كان مقدّم الطلب جزءاً من القاعدة اعتماداً على ما تمتلكه الحكومة من معلومات حول مقدّم الطلب كعضو فعّال في المنظمة لحظة اعتقاله. لقد انضمّ محمدو للقاعدة عام ١٩٩١، وأقسم ولاء الإخلاص للمنظّمة في ذلك الوقت، ولكنّ القاعدة آنذاك كانت مختلفة جدّاً عمّا هي عليه اليوم - كانت حليفة للولايات المتّحدة. وظلّ محمدو يؤكّد على الدوام بأنّ مشاركته في المنظمة قد انتهت مع سقوط الحكومة الشيوعية في أفغانستان.

في دعواه للمثول أمام المحكمة أصرّت الحكومة على أنّ تواصله وتفاعله مع صهره وابن عمّه أبو حفص بين فترةٍ وأخرى، ومجموعة أخرى من الأصدقاء والمعارف الذين

---

١ مقابلة مع الكولونيل موريس ديفيس أجراها معه لاري سيمز، سليت في ١ مايو ٢٠٠٣. متوفرة على الرابط:
http://www.slate.com/articles/news_and_politics/foreigners/201304//mohamedou_ould_slahi_s_guantnamo_memoirs_an_interview_with_colonel morris.html.

٢ دعوى صلاحي ضد أوباما. متوفرة على الرابط:
http://caselaw.findlaw.com/us-dc-circuit/1543844.html.

ظلّوا نشطاء في القاعدة، أثبت أنّه لا يزال جزءاً من التنظيم. ومع أنّ بعض هذه العلاقات قد توحي بشيء من الدعم، لكنّها لا ترقى إطلاقاً، كما يقول القاضي روبيرتسون، إلى مستوى جريمة الدعم المادّي من أجل الإرهاب، ورغم ذلك كانت اتصالات محمدو مع هؤلاء الأشخاص متقطّعة للغاية إلى درجة أنّهم "كانوا يميلون إلى أن صلاحي سعى إلى إيجاد توازن ملائم، متجنّباً الصداقات القريبة مع أعضاء القاعدة ولكنه، في الوقت ذاته، حاول تجنّب معاداتهم".

إنّ قرار القاضي روبيرتسون بقبول طلب محمدو للمثول أمام المحكمة والأمر بإطلاق سراحه جاءا في لحظة حرجة، حيث خسرت الحكومة الأميركية في الأول من شهر أبريل ٢٠١٠ أربعاً وثلاثين دعوى قضائيّة بالمثول أمام المحكمة من أصل ستٍّ وثلاثين في استئناف العديد من الدعاوى، وأقنعت الحكومة الأميركية محكمةَ الاستئناف المتنقّلة لدائرة منطقة كولومبيا بأن تقبل بمعيارٍ أقلّ شدّةً في المحاكمة إذا كان مقدّم الطلب جزءاً من القاعدة. ولكن بما أنّ محكمة الاستئناف شرحت نقضها لقرار القاضي روبيرتسون، طالبةً إرجاع القضيّة إلى محكمة المقاطعة من أجل جلسة الاستماع، فإنّ الحكومة بهذا لم تعد بحاجة إلى أن ترى إذا ما كان سجين غوانتانامو ينفّذ أوامر القاعدة أو توجيهاتها في الوقت الذي أُودع السجن.

كانت محكمة دعاوى الاستئناف حذرة في رأيها في وصف "الطبيعة الدقيقة لدعوى الحكومة ضدّ صلاحي". أكّدت المحكمة أنّ "الحكومة لم توجّه التهمة الجنائيّة إلى صلاحي على تقديم الدعم المادي للإرهابيين أو لمنظّمة القاعدة الإرهابيّة". وأضافت: "ولم تطلب الحكومة اعتقال صلاحي بموجب 'تفويض استعمال القوة العسكرية' على أساس أنّه قدّم المساعدة في هجمات سبتمبر أو أنّه قدّم الدعم المادّي عن سابق تصميم إلى القوى المرتبطة بالقاعدة في هجمات عدائيّة ضدّ ائتلاف شركاء الولايات المتّحدة". لا ريب أنّ الحكومة، عندما يتمّ إعادة الاستماع إلى دعوى محمدو في المحكمة الفيدراليّة، ستحاجج على الأرجح بأنّ علاقاته المتقطّعة مع أعضاء القاعدة النشطين في عقد التسعينيات يعني لديهم أنّه بقي عضواً في المنظّمة المذكورة أيضاً، وبموجب المعيار الجديد كتبت المحكمة: "حتّى لو لم تثبت علاقات صلاحي بهؤلاء الأفراد بوصفه 'جزءاً من القاعدة'، فإن تلك العلاقات

ذاتها تُرجّح أكثر بأنّ صلاحي كان عضواً في المنظّمة عندما اعتُقل، وهذا يحلّ معضلة إذا ما كان قابلاً للبقاء في السجن".[1]

وما يدعو للسخرية هو عندما تسمع محكمة في المقاطعة دعوى للمرة الثانية، فعلى الأرجح ستوجّه الحكومة الأسئلة حول النقطة التي اعتُبرت دائماً الأكثر ضرراً، وهي علاقة محمدو مع ابن عمّه وصهره أبو حفص. وأبو حفص هذا هو عضو في مجلس شورى بن لادن، وكان يملك هبةً من المال من الولايات المتّحدة قدرها خمسة ملايين دولار أميركي في أواخر التسعينيات، وقد ازداد الرقم إلى خمسة وعشرين مليون دولار بعد الهجمات الإرهابيّة في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠١١. إنّ الولايات المتّحدة تعرف منذ سنوات أنّ أبو حفص قد عارض تلك الهجمات، وقد أوردت لجنة الحادي عشر من سبتمبر في تقريرها: "حتّى أنّه كتب رسالة لابن لادن يبدي فيها اعتراضه على الهجمات على أساس القرآن". وبعد الهجمات غادر أبو حفص أفغانستان متوجّهاً إلى إيران، حيث وضعته السلطات الإيرانيّة تحت إقامة جبريّة مرنة لأكثر من عشر سنوات. وفي أبريل عام ٢٠١٢ رحّلت إيران أبو حفص إلى بلده موريتانيا، وهناك اعتُقل وبقي شهرين في سجن موريتاني، حيث التقى أثناء ذلك بوفد دولي ضمّ بين أعضائه أميركيين. لقد أدان هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وأنكر أن تكون له أيّة ارتباطات مع القاعدة. أُطلق سراحه في يوليو ٢٠١٢، ومنذ ذلك الحين يعيش حرّاً طليقاً.

لم أجتمع بمحمدو ولد صلاحي، غير أنّي أرسلت له رسالة عرّفته بنفسي عندما سُئلت عن إمكانية تقديم المساعدة لطباعة مخطوطته – رسالة لا أعرف إذا ما وصلته أم لا. لم أتواصل معه بأيّة طريقة أخرى.

طلبت لقاءه مرّة واحدة على الأقل قبل تقديم العمل الكامل لأتأكّد بأنّ ما قمت به من تحرير مخطوطته قد نال موافقته ورضاه، ولكنّ ردّ البنتاغون كان موجزاً وحاسماً، حيث كتب ضابط الشؤون العامّة ما يلي: "ليس ممكناً القيام بزيارة أو أيّ نوع آخر من التواصل مع أي معتقل في مبنى الاحتجاز في غوانتانامو، ما لم يكن الزائر محامياً قانونيّاً يمثّل المعتقَل. ثم إنّ المعتقلين محتجزون بموجب قانون الحرب، فضلاً عن

[1] المصدر السابق، ص٧٥٠– ٧٥٣.

أننا لا نخضعهم لفضول الجماهير".

إنّ عبارة "فضول الجماهير" هي أحد أعمدة "قانون الحرب" واتفاقيّة جنيف لعام ١٩٤٩ بشأن معاملة أسرى الحرب. البند الثالث عشر من الاتفاقيّة هو: "المعاملة الإنسانيّة للسجناء"، ويقول:

> يجب معاملة أسرى الحرب معاملة إنسانيّة في جميع الأوقات. ويحظر أن تقترف الدولة الحاجزة أي فعل أو إهمال غير مشروع يسبّب موت أسير في عهدتها، فإن ذلك يعتبر انتهاكاً جسيماً بموجب هذه الاتفاقيّة. وعلى الأخص لا يجوز تعريض أي أسير حرب للتشويه البدني أو التجارب الطبيّة أو العلميّة من أي نوع كان مما لا تبرّره المعالجة الطبيّة للأسير المعني أو لا يكون في مصلحته.
>
> وبالمثل يجب حماية أسرى الحرب في جميع الأوقات، وعلى الأخص ضدّ جميع أعمال العنف أو التهديد، وضدّ السباب وفضول الجماهير. وتُحظَر تدابير الاقتصاص من أسرى الحرب.

اقترحت عقد لقاء سرّي بموجب بروتوكولات أمنيّة صارمة، لأتأكّد بأنّ النسخة المحرّرة من عمل محمدو - العمل الذي كتبه للقراءة العامّة - يمثّل على نحوٍ دقيق محتوى العمل الأصلي وغايته المنشودة. لقد تمّ احتجاز العمل لسنوات عديدة بموجب نظام للرقابة لا يخدم دائماً أهداف اتفاقيّة جنيف.

كانت الرقابة شيئاً مكمّلاً منذ البداية لعمليات الولايات المتّحدة الخاصّة بالاحتجاز ما بعد الحادي عشر من سبتمبر.

كانت رقابة هادفة، ليس لمرّة واحدة بل مرّتين: أولاً، لفتح المجال أمام الإساءة إلى السجناء، ومن ثمّ حذفها حتى تبدو كما لو أنّها لم تحدث. وفي قضيّة محمدو تشمل تلك الإساءات الإخفاء القسري والاحتجاز العشوائي والانفرادي، والمعاملة القاسية واللاإنسانيّة واللامهنيّة، والتعذيب. وإننا نعرف هذا بفضل سجل وثائقي هو، بدوره، قُمع على نحوٍ صارم ولسنوات عديدة.

لا أعرف إلى أيّ حدٍّ يشترك الاهتمام الشخصي مع القانوني في تغطية تلك الإساءات

التي لها علاقة بسجن محمدو المتواصل، ولكنّي أعرف أنّي قضيت خمس سنوات لأقرأ هذا السجل عن قضيّته، ولم أقتنع بالتفسيرات الغامضة وغير الثابتة لحكومتي لمبرّر بقائه في غوانتانامو، أو تأكيدات أولئك الذين يدافعون عن احتجازه الذي دخل عامه الثالث عشر الآن بقولهم إنّه بالتأكيد أو من المحتمل كذا وكذا. إنّ إحساسي الخاص بالعدل يخبرني أنّ مسألة أن يكون محمدو كذا وكذا، وعن سبب بقائه في السجن الأميركي، كان من الممكن أن أجيب عنه منذ فترة طويلة. هذا ما كان سيحصل باعتقادي لو لم تظلّ يوميّات غوانتانامو سريّة لأمد طويل.

عندما كتب محمدو مخطوطة هذا الكتاب قبل تسع سنوات، في الكوخ المعزول ذاته، حيث يحدث فيه مؤخّراً بعض المشاهد الأكثر كابوسيّة، كان قد وضع لنفسه مهمّة يشرحها في النهاية تقريباً:

> لقد كتبت تجربتي عمّا شاهدته بأمّ عيني، وما تعلّمته مباشرةً من المصدر الأوّل. حاولت ألاّ أبالغ في كلامي، وألاّ أصف أقلّ ما تقتضيه الحقيقة. حاولت أن أكون منصفاً، قدر الإمكان، لحكومة الولايات المتّحدة، ولأخوتي، ولنفسي.

لقد علمتُ ذلك تماماً من كلّ ما رأيته. إنّ القصّة التي يرويها يؤكّدها السجل الذي رُفع عنه الحظر.

يبرهن محمدو مراراً وتكراراً بأنه راوٍ موثوق. إنّه بالتأكيد لا يبالغ. يحتوي السجل أنواعاً من التعذيب والإهانات غير المتضمّنة في الكتاب، ومع ذلك فإنّه ينقل البعض منها لكن بحذرٍ وتعقّل. وحتّى عندما يصف الحوادث الأكثر غرابةً فإنّ روايته للحدث تكون ملطّفة ومباشرة. إنّ مشاهد الرعب الكامنة في تلك الحوادث تتحدّث عن نفسها بنفسها.

هذا لأنّ اهتمامه الحقيقي دائماً هو بالدراما الإنسانيّة لهذه المشاهد. يكتب محمدو في البداية:

> قانون الحرب قاسٍ. وإذا ما كان هناك أي شيء إيجابيّ في الحرب فهو أنها تُخْرِج أفضل الناس وأسوأهم من أحشائها على حدٍّ سواء. يتصرّف

بعض الناس بعيداً عن رقابة أيّ قانون لإيقاع أكبر الأذى بالآخرين، في حين يحاول البعض الآخر تقليل الأذى والمعاناة إلى الحدّ الأدنى.

في جدولة هذه المرحلة زمنيّاً، عبر أكثر مراحل الاحتجاز ظلاماً في كنف البرنامج الاستجوابي للولايات المتّحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر، يبقى انتباهه مركّزاً على محقّقيه وحرّاسه، وعلى أقرانه من المعتقلين، وأخيراً على نفسه. يرغب في أن "يكون منصفاً" كما كتب. إنّه يعرف بإدراك كبير السياق الهائل للخوف والاضطراب الذي تتفاعل فيه كلّ هذه الشخصيّات، والأكثر من ذلك معرفته بالقوى الاجتماعيّة والقانونيّة التي تقولب علاقات ذلك التفاعل.

ولكنّه يرى، في الوقت نفسه، قدرة كلّ شخصيّة على إضفاء شكل للفعل الإنساني أو تلطيفه على نحوٍ ما، ويبذل ما في وسعه لفهم الناس بغضّ النظر عن مواقعهم وبزّاتهم وظروفهم بل بوصفهم أبطالاً على حقيقتهم. بفعل ذلك فإنّه يحوّل حتى أكثر المواقف اللاإنسانيّة إلى سلسلة من التواصل الشخصي بل وأحياناً إلى تواصل إنساني حميمي.

هذا هو العالم السرّي في غوانتانامو - عالم الأعمال الوحشيّة المخطّط لها على نحوٍ مرعب، وعالم الإهانات العرضيّة العابرة، ولكنّه أيضاً عالم الإيماءات واللطف والاعترافات والتميّز، عالم الفضول المتبادل والغزوات المحفوفة بالمخاطر عبر انقسامات عميقة.

بالرغم من ذلك تمكّن محمدو أن يختبره بتفاصيله، ويتحمّل فيه وطأة أربع سنوات من أكثر الأوقات اعتباطيّة في التعامل، وأن يقول الكثير عن شخصيّته وإنسانيته.

كلّ ذلك وسط التحقيقات الرهيبة في غوانتانامو. إلى جانب ذلك، فإنّ تجربته هذه تخبرنا المزيد عن مهاراته ككاتب، حيث تمكّن بعد فترة من تلك التجارب المليئة بالصدمات أن يخلق منها رواية تصلح أن تكون دليلاً على الإدانة والانعتاق على حدٍّ سواء.

ومع ذلك ليس هذا هو الشيء الذي ترك أثره الكبير فيَّ كقارئ وكاتب عندما قرأت مخطوطة محمدو **يوميّات غوانتانامو** للمرّة الأولى، بل ما لفت نظري هو الشخصيّات والمشاهد التي نُقلتُ فيها بعيداً عن غوانتانامو. على سبيل المثال: عاثر الحظ الذي حاول الفرار في باخرة ويقبع الآن في سجن سنغالي. مشهد غروب

الشمس في نواكشوط بعد عاصفة رمليّة في الصحراء الكبرى. لحظات الحنين والاشتياق المفطرة للقلب للعودة إلى الوطن والأسرة مع رفع الأذان في رمضان. قرب المطار من أحياء الصفيح في نواكشوط. المدرج ذو السطح الأملس المنزلق في قبرص. الهدوء الناعس قبل الفجر على متن طائرة العمليات التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة... هاهنا تعرفت أولاً على محمدو الكاتب بنظرته الثاقبة للشخصيّات، وسمعه الرائع للأصوات، والطريقة التي انصهرت بها ذكرياته بالمعلومات المسجّلة بالحواس الخمس، وبالأسلوب الذي يصف به موطن المشاعر والعواطف في داخله وداخل الآخرين. إنه يمتلك أكثر المواصفات التي أثمّنها في أي كاتب: الحسّ المؤثّر بالجمال، والحسّ الحادّ بالسخرية. كما ولديه حسٌّ ساخرٌ بالدعابة.

ومع ذلك فإنه يبرع باللغة الإنكليزيّة، لغته الرابعة، تلك التي كان لا يزال يتعلّمها عند كتابة المخطوطة. وإنجازه هذا يشهد على براعته اللغوية الساحرة التي ستبقى دوماً نابضة بالحياة، وهذا ينبع، كما هو واضح، من إصراره على التعاطي مع بيئته بشروطها الخاصّة والانخراط فيها. فمن جهة، إتقان الإنكليزيّة في غوانتانامو يعني التحرّك إلى ما وراء الترجمة والترجمة الفوريّة، إلى ما وراء الحاجة إلى شخص ثالث في الغرفة، وفتح الإمكانيّة أن يصبح الاتصال بأيّ شخص من معتقليه تبادلاً شخصيّاً. ومن جهة أخرى، يعني فكّ الرموز وفهم لغة القوّة التي تتحكّم بمصيره - القوة التي توضّحها على نحوٍ جليّ أوديسته من الحجز والتحقيقات ومن التأثير الصاعق والوصول، في رحلة استغرقت عشرين ألف ميل، ليُخرج من هذا كلّه عملاً رائعاً. فمن جهة، إنّه المرآة - لأنها المرة الأولى التي أقرأ فيها شيئاً عن غوانتانامو - التي أدركتُ من خلالها أطوار ذاتي، في شخصيات أبناء بلدي وفي شخصيات أولئك الذين هم أسرى لدى أبناء بلدي. ومن جهة أخرى، هو عدسة مركّزة على إمبراطورية ذات هدف وتأثير نادراً ما نفهمها نحن الذين نعيش بداخلها.

حتّى الآن ما زالت تلك القوّة تتحكّم بقصّة محمدو. إنها موجودة في هذه الصفحات التي يتخلّلها أكثر من ألف وستمائة بقعة من التدقيقات. هذه التدقيقات لا تخفي العناصر الهامّة، بل إنّها تشوّش مبادئ محمدو المرشدة وغرضه الرئيسي، قاطعةً الصراحة التي يسرد بها حالته، وملحقةً الغموض بجهوده لتمييز شخصيّاته كأفراد،

بعضهم جديرٌ باللوم، وبعضهم الآخر جديرٌ بالإعجاب، والأكثريّة منهم تركيبة معقّدة ومتغيّرة من النموذجين.

وقبل كلّ شيء إنّها - القصة - حاضرة في بقائه في السجن دون أن يكون هناك تفسير قويّ لذلك. غادر محمدو منزله في نواكشوط الموريتانيّة قبل ثلاثة عشر عاماً، وقاد سيارته إلى مركز الشرطة في بلاده من أجل التحقيق، ولم يَعُد بعد ذلك. وبسبب شعورنا الجمعي بقصّته وبالعدالة، يجب أن يكون لدينا فهم أوضح: لماذا لم يحدث هذا بعد؟ وما الذي سيحدث لاحقاً؟

غوانتانامو تعيش على الأسئلة غير المجاب عنها. ولكن لدينا الآن يوميّات غوانتانامو، فكيف لا نستطيع أن نُجيب على الأقل عن الأسئلة في قضيّة محمدو؟

عندما نجيب عن تلك الأسئلة، أعتقد أنّه سيعود إلى البيت. وبحدوث ذلك فإنّ الفراغات في العمل ستُملأ من جديد، والنص سيتمُّ تحريره من جديد، وسيُعدّل ويُجدّد كما أراده محمدو بالذات أن يكون، وسنكون أحراراً في رؤية يوميّات غوانتانامو؛ العمل الذي في كليته ما هو إلاّ وصف لملحمة رجلٍ عبر عالم قلقٍ على نحوٍ متزايد وبلا حدود، عالم حيث القوى التي تشكّل الحياة هي أبعد وأكثر سريّةً من أي وقتٍ مضى، حيث تُحدَّد المصائر، على ما يبدو، من قبل سلطات لا يمكن الوصول إليها مطلقاً، عالم يهدّد بنزع الصفة الإنسانيّة عن المجتمع الإنساني، ولكنّه تهديدٌ محكوم بالفشل. باختصار، إنّه ملحمة عصرنا.

الفصل الأول

الأردن – أفغانستان – غوانتانامو

يوليو ٢٠٠٢ – فبراير ٢٠٠٣

سيطرة الفريق الأميركي على الوضع... الوصول إلى باغرام... ومن باغرام إلى غوانتانامو... غوانتانامو، البيت الجديد... يوم في الفردوس، وآخر في الجحيم.

[redacted]، يوليو [redacted]، عام ٢٠٠٢، الساعة العاشرة مساءً[1].

---

١ بات واضحاً من تاريخ غير مدقّق فيه، بعد بضع صفحات من بداية المخطوطة، أن العمل يبدأ في وقت متأخر من مساء التاسع عشر من يوليو ٢٠٠٢. في مخطوطة محمدو ولد صلاحي يبدأ في الساعة العاشرة. في حين أكّد مجلس أوروبي للتحقيق بأن وكالة المخابرات المركزية (CIA) استأجرت طائرة نفّاثة من نوع غولفستريم Gulfstream تحمل الرقم N379p على ذيلها، غادرت العاصمة الأردنية عمان في الساعة الحادية عشرة والربع مساءً تلك الليلة متوجهةً إلى كابول في أفغانستان. وفي ملحق لتقرير ٢٠٠٦، يمكن الاستماع إلى تسجيلات رحلة الطيران على:
http://assembly.coe.int/CommitteeDocs/200620060614/_Ejdoc162006PartII-Appendix.pdf.

وملاحظة المحرر على الهوامش تقول: لم يراجع أيٌّ من محامي محمدو ولد صلاحي، الذين يحملون التراخيص الأمنية، هوامش هذا الكتاب أو ساهم فيها بأي شكل من الأشكال، ولم يتم تأكيد أو نفي أيٍّ من تخميناتي المتضمنة فيها. كما أنه لم يتمكن أي شخص آخر من الوصول إلى المخطوطة غير المنقّحة لمراجعة الهوامش أو المساهمة فيها بأي شكل من الأشكال، أو حتى يؤكد أو ينفي تخميناتي المتضمنة فيها.

توقّفت الموسيقى. تلاشت أحاديث الحرّاس. أُفرِغت الشاحنة.

شعرت بالوحدة في عربة الموتى.

لم يدم الانتظار طويلاً: لمستُ وجود أناس جدد، فريق صامت من البشر. لا أتذكر كلمة واحدة من كلّ ما جرى فيما بعد.

شخص ما كان يفكّ السلاسل عن معصمَيّ. أنهى إحدى اليدين فتلقّفها رجل آخر وأحناها لشخص ثالث ليضع بدوره أصفاداً جديدة أثقل وأكثر رسوخاً. لقد قُيّدتْ يداي أمام مرأى بصري.

شرع أحد الأشخاص بتمزيق ملابسي بشيء شبيهٍ بالمقص. تساءلتُ: أي جحيم يجري؟ بدأت الرحلة التي لم أرغب فيها أو أبادر بها تقلقني. شخص آخر كان يقرّر كلّ شيءٍ بالنيابة عني. انتابتني مخاوف العالم كلّها عدا الخوف من اتخاذ القرار. جالت أفكار عديدة بسرعة في ذهني. كانت الأفكار المتفائلة تقول: لعلّك في أيدي الأميركان، فلا ينتبك القلق، يريدون أخذك إلى البيت فحسب، وهم إذ يفعلون ذلك يريدون أن تجري الأمور بسرّية تامة. في حين كانت الأفكار المتشائمة توحي بأنك قد وقعت في الشرك! ولا بدّ أن الأميركان تمكّنوا من إلقاء بعض القذارة عليك، وأنّهم في طريقهم لأخذك إلى سجون الولايات المتحدة للإقامة فيها بقية حياتك.

جُرّدتُ من ملابسي. كان ذلك شيئاً مهيناً، ولولا مساعدة العُصابة لما تمكّنت من تفادي النظرة المقزّزة إلى جسدي العاري. ولم تسعفني الذاكرة خلال ذلك الإجراء كلّه سوى دعاء الاستغاثة "يا حيّ! يا قيّوم!"، وكنت أتمتمُ طوال الوقت. وكلّما واجهت موقفاً مشابهاً أنسى كل صلواتي عدا دعاء الاستغاثة الذي تعلّمتُه من حياة نبيّنا عليه السلام.

لفّ أحد أفراد الفريق حفّاظة للأطفال على أعضائي الخاصة. عندئذ كنت على يقين تام من أنّ الطائرة تتجه نحو الولايات المتحدة. بدأتُ الآن أُقنع نفسي أنّ "كلّ ما سيجري سيكون على ما يرام". لكنّ خشيتي الوحيدة هي أن تشاهدني أسرتي على التلفزيون وأنا في هذا الموقف المهين. كنت نحيلاً للغاية. تلك كانت سمة لجسدي، ولكن لم تبلغ مني النحافة الجسدية هذا القدر في حياتي كلها حيث باتت ملابس الخروج التي أرتديها فضفاضة جداً حتى بدوتُ فيها كقطٍ صغير في كيسٍ كبير.

حينما انتهى الفريق الأميركي من عملية إلباسي الملابس التي خاطوها لي أزال أحدهم العُصابة عن عينَيّ لبعض الوقت. لم أستطع رؤية الكثير لأنه سلّط ضوءاً خاطفاً على عينَيّ مباشرة. كان الرجل تلفّه بزّة سوداء تغطيه من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين. فتح فمه وأخرج لسانه، أوحى لي بإيماءة أن أفعل الشيء ذاته، وهو نوع من اختبار "آغغغ" للحلق، وقد قبلت به دون مقاومة. شاهدت جزءاً من ذراعه الشاحب ذي الشعر الأشقر، فترسّخ الاعتقاد لديّ بأنني بين أيدي العم سام.

ضُغطت العُصابة على عينيّ في الوقت الذي كنت أصيخ السمع إلى محركات الطائرة، تيقّنت أن طائرات كانت تهبط وأخرى كانت تهمّ بالإقلاع. شعرت بدنوّ طائرتي "الخاصة"، أو أن السيارة كانت تدنو من الطائرة، لا أتذكر أي شيء آخر. ولكنني أتذكر حينما أمسك المرافق بي بسرعة عند الخروج من العربة، لم تكن هناك مسافة بينها وبين درج الطائرة. كنت منهك القوى، مريضاً، ومتعباً إلى درجة لم أستطع معها المشي، مما اضطر المرافق أن يحملني في صعودنا الدرج كجسد ميت.

كان الجو بارداً للغاية داخل الطائرة. وُضِعْتُ على أريكة شبيهة بأرضية غرفة إلى حدٍّ كبير، ومن ثم قام الحرّاس بوضع القيود في يدي. بعدها شعرت بإلقاء بطانية عليّ، ومع أنها كانت رقيقة جداً، لكنها أراحتني على أية حال.

استرخيتُ، وأطلقت العنان لأحلامي. فكّرت بأفراد أسرتي، أولئك الذين لن أراهم مرة أخرى بعد اليوم. كم سيكونون حزانى! كنت أبكي بصمت ودون دموع، ولسبب ما ذرفت دموعي كلها في بداية الرحلة، تلك التي كانت بمثابة الحدّ الفاصل بين الحياة والموت. تمنيتُ لو كنت أفضلَ مع الناس، وتمنيت أن أكون أفضلَ لأسرتي. ندمتُ على كلّ خطأ ارتكبته في الحياة، تجاه الله، وتجاه أسرتي، وتجاه أيّ شخص آخر!

كنت أفكّر بالحياة في سجن أميركي. فكّرت بالأفلام الوثائقية التي شاهدتها عن سجونهم، وبالقسوة التي يعاملون بها سجناءهم. تمنيت لو كنت أعمى أو أن يكون لدي نوع من الإعاقة الجسدية، حتى يضعونني في مكانٍ معزول ويمنحونني شيئاً من الحماية والمعاملة الإنسانية. كنت أفكر: كيف سيكون استجواب القاضي في اللقاء الأول؟ هل سأحصل على محاكمة مستحقة في بلد مليء بالكراهية ضد المسلمين؟ هل أنا محكوم سلفاً، حتى قبل أن أمتلك الفرصة للدفاع عن نفسي؟

غرقتُ في الأحلام المؤلمة هذه بينما كنت أنعم بدفء البطانية. لكنّ ألم الحاجة إلى التبوّل كان يَخزني مرّات وعلى فترات عديدة. لم تُفدني حفاظة الأطفال، حيث فشلتُ في إقناع دماغي لإعطاء الإشارة لمثانتي. وكلّما أجهدت في المحاولة كان دماغي يزداد عناداً في المقابل. مع هذا ظلّ الحارس القريب مني يصبّ الماء من القارورة في فمي، مما زاد الوضع سوءاً. لم يكن هناك مجال لرفض ذلك، فإما أن تبتلعه أو تموت خنقاً. في حين أنّ التمدّد على جانب واحد كان يقتلني بصورة تفوق الخيال، وكلّما حاولت أن أغيّر وضعيتي كان الفشل من نصيبي، لأن يداً قوية كانت تدفعني لإعادتي إلى الوضعية نفسها.

استطعت أن أميّز أن الطائرة التي تقلّني طائرة كبيرة نفّاثة، مما دفعني إلى الاعتقاد بأننا ماضون في رحلتنا إلى الولايات المتحدة مباشرةً. ولكن بعد مرور خمس ساعات بدأت الطائرة تنخفض وسرعان ما هبطت بسلاسة على مدرج المطار. كنت أعرف أنّ الولايات المتحدة أبعد قليلاً من هذه المسافة. أين نحن إذاً؟ في رامشتاين في ألمانيا؟ أجل! كانت هي مدينة رامشتاين بالذات، حيث يوجد مطار عسكري للولايات المتحدة فيها، وذلك لعبور الطائرات القادمة من الشرق الأوسط. سنتوقف في هذا المطار من أجل التزوّد بالوقود. ولكن حالما هبطت الطائرة بدأ الحرّاس بتبديل سلاسلي المعدنية بأخرى بلاستيكية قطعت كاحلَيّ ألماً في المسافة القصيرة التي قطعتُها مشياً للوصول إلى طائرة هليكوبتر. ربتَ أحد الحرّاس على كتفي عند إخراجي من الطائرة كما لو أراد أن يقول: "ستكون على ما يرام". وبما أنني كنت أعاني عذاباً شديداً، فقد منحتني تلك الإشارة أملاً بأنه مازال هناك بعض من يتّسم بالإنسانية من بين أولئك الذين يتعاملون معي.

عندما غمرتني الشمس ظهر السؤال مرة أخرى: أين أنا؟ نعم، أنا في ألمانيا. كان الشهر هو شهر يوليو، والشمس تشرق باكراً في هذا الوقت هنا. ولكن لماذا ألمانيا؟ فأنا لم أرتكب جرائم في ألمانيا! أي قذارة ألصقوها بي؟ ومع ذلك فإن النظام القانوني الألماني هو أفضل خيار لي. أعرف الإجراءات جيداً، وأتحدث اللغة الألمانية. وعلاوةً على ذلك، يمتاز النظام الألماني بالشفافية نوعاً ما، ولا توجد أحكام تصل مدتها إلى مائتين أو ثلاثمائة عام. لم يكن هناك ما يقلقني كثيراً: سيواجهني قاضٍ ألماني ويعلن ما

تحمله الحكومة ضدي، ومن ثم سيتم إرسالي إلى سجن مؤقت حتى يتم البتّ في قضيتي ومن ثم يؤخذ القرار بها. لن أخضع للتعذيب، ولن أرى وجوه المحققين الشيطانية.

هبطت طائرة الهليكوبتر بعد عشر دقائق. أُدخِلْتُ في سيارة، مع وجود حارس على جانبيّ. كان السائق وجاره يتحدثان بلغة لم أسمعها من قبل أبداً. فكّرت، بأي لغة لعينة يتكلمان، لربّما كانت الفلبينية؟ فكّرت بالفلبينيين لأنني على علم بالوجود العسكري الكبير للولايات المتحدة هناك. نعم، إنهما فلبينيان متعاونان مع الولايات المتحدة. أمطراني بوابل من الشتائم. ماذا سيكون سؤال قاضيهم؟ مع ذلك، أريد الآن أن أصل فحسب لأتبوّل ومن ثم بإمكانهم أن يفعلوا ما يريدون. من فضلكم دعوني أصل! فكّرت بهذا، بعد ذلك يمكنكم حتى قتلي!

جرّني الحرّاس إلى خارج السيارة بعد خمس دقائق من القيادة، وشعرتُ كما لو أنّهم وضعوني في قاعة. أجبروني على الركوع ورأسي منخفض إلى الأسفل. كان عليّ أن أبقى في تلك الوضعية حتى يأخذوني. صرخوا: "لا تتحرك". وقبل بدئ التخوّف من أي شيء آخر، قضيتُ حاجتي إلى التبوّل حيث لم أشهد راحة مثلها منذ أنْ ولدت. كانت راحة مميّزة لا يعلوها شيء، شعرت كما لو أنه تم إطلاق سراحي وعدتُ إلى البيت. تلاشتْ مخاوفي كلّها فجأةً، وابتسمتُ في داخلي. لم يلحظ أحد ما فعلت.

بعد ربع ساعة جرّني بعض الحرّاس وأخذوني إلى غرفة يبدو أنهم أجروا فيها مسبقاً أمور العديد من السجناء. وفور دخولي الغرفة رفع الحرّاس الغطاء عن رأسي. آه، كانت أذناي تُؤلمانني بشدّة، وكذلك رأسي كان يجتاحه صداع. في الواقع، كان جسدي كلّه يتآمر عليّ. بالكاد كنت قادراً على الوقوف. بدأ الحرّاس يجرّدونني من ملابسي، وسرعان ما كنت أقف هناك عارياً كما ولدتني أمّي. وقفت هناك للمرّة الأولى أمام جنود أميركان وليس أمام التلفزيون، هذا مؤكّد. بدر منّي ردّ فعل اعتيادي، فغطّيت أعضائي الخاصّة بيدي. كما أنّني بدأت أتلو بسرعة دعاء المصائب، يا حيّ يا قيّوم! لم يوقفني أحد عن الدعاء، ولكن أحد عناصر الشرطة العسكريّة (MPS) كان ينظر إليّ بنظرةٍ ملؤها الكراهيّة. وفيما بعد أمرني بالتوقف عن النظر حولي في الغرفة.

قام الطبيب ██████████ بفحص طبّي سريع لي،

ثمّ لفّوني بملابس أفغانية. أجل، ملابس أفغانيّة في الفلبين! بالطبع كنت مقيّداً، يداي وقدماي كانت مربوطة بخاصرتي. وعلاوةً على ذلك وُضِعَت يدَيّ في قفّازين، بهذا كنت جاهزاً للعمل! أيّ عمل؟ لا أملك أدنى فكرة!

سحبني مرافق الفريق معصوب العينين إلى غرفة مجاورة للتحقيق، وحالما دخلت الغرفة بدأ بعض الأشخاص بالصراخ ورمي أشياء ثقيلة على الجدار. في ذاك العراك الصاخب استطعت أن أميّز الأسئلة التالية:

- أين ملا عمر؟
- أين أسامة بن لادن؟
- أين جلال الدين حقّاني؟

اجتاح عقلي تحليلٌ خاطف: الأشخاص الذين مرّت أسماؤهم في هذه الأسئلة كانوا يقودون بلداً، والآن هم حفنة من الهاربين! لقد فات المحقّقين شيئان اثنان:

أولاً، أنّهم أوجزوا لي آخر الأخبار: تمّ احتلال أفغانستان، ويتمّ اعتقال الأشخاص في المراتب العليا في البلد.

وثانياً، عدت بنفسي إلى الوراء، إلى الفترة التي بدأت فيها الحرب ضد الإرهاب، ومنذ ذلك الحين كنت في سجنٍ أردني، أي أنّني كنت منقطعاً عن بقيّة العالم بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، فكيف كان لي أن أعرف أنّ الولايات المتّحدة قد دخلت أفغانستان، ناهيك عن قادته الهاربين؟ لم أذكر أين كانوا الآن.

أجبت بتواضع: لا أعرف!

- أنت تكذب! صرخ عليّ أحدهم بعربيّة مكسّرة.

- كلا، لا أكذب، اعتُقلت ثمّ كذا وكذا، وأعرف فقط أبو حفص... ورويت لهم سريعاً قصّة حياتي كلّها.[1]

---

١ يظهر اسم أبو حفص هنا وفي أماكن أخرى من المخطوطة غير المنقّحة، وهو ابن عمّ محمدو ولد صلاحي وعديله سابقاً. واسمه الثلاثي هو محفوظ ولد الوليد، ويُعرف أيضاً بأبي حفص الموريتاني. تزوج بأخت زوجة محمدو ولد صلاحي السابقة. كان أبو حفص عضواً بارزاً في مجلس شورى القاعدة، وهو الهيئة الاستشاريّة الرئيسة للتنظيم المذكور في التسعينيات وحتى الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، تاريخ الهجمات الإرهابيّة في الولايات المتّحدة. وقد نُقل على نطاقٍ واسع بأنّ أبو حفص عارض تلك الهجمات، وقد سجّلت لجنة ١١ سبتمبر أنّ "أبو حفص الموريتاني كتب رسالة إلى بن لادن يبدي فيها معارضته للهجمات معتمداً القرآن كأساس لهذا الاعترض". غادر أبو =

– يجب أن نحقّق مع هؤلاء الفاعلين بأمّهاتهم كما يفعل الإسرائيليون بهم.
– ماذا يفعلون؟ سأل آخر.
– يعرّونهم ومن ثمّ يحقّقون معهم!
– قد نفعل ذلك. قال آخر.

كانت الكراسي لا تزال تُرمى وتضرب على الجدران وعلى أرض الغرفة. عرفت أنّ هذا ليس إلا لإظهار القوّة وبثّ الخوف والقلق. تركت العنان لنفسي في خضمّ التساؤلات العميقة المتدفّقة. لم أصدّق أنّ الأميركيين يمارسون التعذيب، ومع هذا اعتبرت التعذيب احتمالاً بعيداً.

– سأحقّق معك فيما بعد. قال أحدهم، فترجمها لي مترجم الولايات المتّحدة حرفيّاً.

– خذوه إلى الفندق، قال أحد المحقّقين. لم يترجم المترجم الجملة هذه المرّة.

هكذا تمّ التحقيق الأوّل معي، وقبل أن يمسك بي المرافق حاولت التواصل مع المترجم رغم مخاوفي الشديدة. سألته: أين تعلّمت هذه العربيّة الجيّدة؟

فأجاب متملّقاً: في الولايات المتّحدة! في الواقع لم يكن يتكلّم عربيّةً جيّدة، لكن كان هدفي أن أكسب بعض الأصدقاء.

بعد ذلك أبعدني فريق المرافقة عن المكان وسألني أحدهم بلكنة آسيويّة ثقيلة:
– هل تتكلّم الإنكليزيّة؟
– قليلاً.

ضحكَ وضحكَ معه زميله. انتابني شعور في تلك اللحظة بأنّني إنسان وأتحدث حديثاً عاديّاً. قلت في نفسي: كم الأميركان ودودين. سيضعونك في فندق ويحقّقون معك مدّة يومين، ومن ثمّ يعيدونك جوّاً إلى البيت بأمان. لا داعي للقلق معهم، تريد الولايات المتّحدة التدقيق في كلّ الأمور فحسب، وبما أنّك بريء فلا بدّ أنّهم

= حفص أفغانستان بعد هجمات ١١ سبتمبر، وذهب إلى إيران ليقضي فيها عقداً من الزمن تحت الإقامة الجبريّة. وفي أبريل ٢٠١٢ تمّ ترحيله إلى موريتانيا، وهناك اعتقل لبعض الوقت ثمّ أطلق سراحه. هو الآن رجلٌ طليق. يمكنكم أن تقرأوا القسم المتعلق بهذا الموضوع من تقرير لجنة ١١ سبتمبر على الرابط التالي:
http://govinfo.library.unt.edu/911/report/911Report_Ch7.pdf.

سيكتشفون ذلك. ولكن لا تنسَ، لوجه بطرس الرسول، أنّك في قاعدة في الفلبين، ومع ذلك فإنّها قاعدة تقع على حافة الشرعيّة، وأنّ بقاءك فيها مؤقّت. إنّ ما خلق لديّ هذا التصوّر الخاطئ بأنّني في الفلبين هو حديث أحد الحرّاس بتلك اللكنة الآسيوية الثقيلة!

سرعان ما وصلت، ولكن ليس إلى فندق بل إلى زنزانة خشبية بلا حمّام ولا مغسلة. كان أثاثها المتواضع يتألف من فراش رقيق تغيّر لونه بسبب تعرّضه للعوامل الجويّة، وبطانيّة قديمة. تمكنت من استنتاج وجود شخص آخر هنا. كنت سعيداً على نحوٍ ما بابتعادي عن الأردن، مرتع الأمور العشوائيّة، ولكنّني كنت قلقاً على الصلوات الّتي لم أستطع تأديتها، وأردتُ أن أعرف كم صلاة فاتتني في رحلتي. كان حارس الزنزانة ███████ نحيلاً أبيض، الأمر الذي زاد من دواعي الراحة عندي، ومردّ ذلك أنّني في الأشهر الثمانية الأخيرة لم يتمّ التعامل معي إلا من قبل ذكور ضخام ذوي شوارب.[1]

سألت ███████ عن الوقت، فأخبرتني ███████ أنّها حوالي الحادية عشرة، إن لم تخنّي الذاكرة. تشجّعت وسألتها سؤالاً آخر: في أي يوم نحن؟ فكان جوابها: لا أعرف، فكلّ الأيام هنا متماثلة! حينئذ أدركت أنّني تجاوزت الحدّ المسموح به في طرح الأسئلة. فيما بعد سأعرف أنها كان من المفترض ألا تجيبني عن الساعة أيضاً.

وجدتُ نسخة من القرآن وقد وضعتْ برفقٍ على بعض عبوات الماء. تيقّنتُ أنّني لست الوحيد في السجن. نعم، بدا لي الآن على نحوٍ لا يدعو للشكّ أنّه سجن وليس فندقاً.

تبيّن أنّهم أخذوني بالخطأ إلى زنزانة غير مخصّصة لي. وفجأةً شاهدتُ قدمي معتقلٍ ولكني لم أتمكن من رؤية وجهه لأنّه كان مغطّى بكيسٍ أسود. سأعرف في الحال أنّ الأكياس السوداء توضع في رؤوس الجميع لمنعهم من الرؤية، ومن التعارف فيما بينهم، بمن فيهم كاتب هذه الكلمات. بصراحة، لم أرغب في رؤية وجه المعتقل

---

١ يوحي السياق بأنّ الحارس المذكور أنثى. ففي المخطوطة يظهر أنّ الضميرين "She – هي" و"Her – ـها" قد طالهما الشطب بعد التدقيق، ولكنّ الضميرين "He – هو" و"His – ـه" يظهران دون أن يشملهما هذا الإجراء.

خشية أن أجد فيه الألم أو المعاناة، لأنّني أكره رؤية الناس وهم يتألّمون. إنّ رؤية الألم على وجوههم يفقدني صوابي.

لن أنسى ما حييت أنين وصراخ المعتقلين المساكين في الأردن عندما كانوا يُعذّبون!

أتذكّر أنني كنت أضع يدي على أذني لئلا أسمع صراخهم وبكاءهم، ولكنّ محاولاتي كلّها كانت تبوء بالفشل، فرغم محاولاتي كانت معاناتهم تصلني. كان ذلك مرعباً، حتّى أكثر سوءاً من التعذيب نفسه.

أوقفت الحارسة فريق المرافقة أمام بابي وأرسلتني إلى زنزانة أخرى. كانت شبيهة بالزنزانة الأولى التي دخلتها للتو، غير أنّها كانت تختلف بجدارها المطلي. وجدتُ فيها عبوة ماء نصف ممتلئة، كانت رقعتها تحمل كتابة باللغة الروسيّة. قلت لنفسي: قاعدة أميركية في الفلبين، وعبوات الماء من روسيا؟!

لا تحتاج الولايات المتّحدة إلى الإمدادات من روسيا، وحتّى جغرافياً لا يستقيم المعنى. أين أنا؟! ربما في جمهوريّة روسية سابقة، كطاجكستان مثلاً؟ كل ما أعرفه هو أنّني لا أعرف!

كانت الزنزانة محرومة من التسهيلات التي تجعلك تقوم بالأمور اليومية الاعتيادية. كان الوضوء مستحيلاً وحتّى ممنوعاً. لم يكن هناك أيّ دليل على اتجاه القبلة، أي اتجاه مكّة. فعلت ما استطعت. جاري المجاور كان مريضاً عقلياً ويصرخ بلغةٍ غير مألوفة. بعدئذٍ عرفت أنّه كان زعيماً للطالبان.

في وقتٍ متأخّر من ذاك اليوم، العشرين من يوليو ٢٠٠٢، أخذني الحرّاس للقيام بإجراءاتٍ روتينيّة مثل أخذ البصمات وقياس الطول... إلخ.

خلال ذلك تمّ تقديمي إلى ██████ كمترجمة. يبدو أنّ العربيّة ليست لغتها الأولى. علّمتني القوانين: ممنوع الكلام، ممنوع الصلاة بصوتٍ عالٍ، ممنوع الوضوء، ومجموعة أخرى من الخطوات التي تصبُّ في ذاك الاتجاه.[١]

سألني الحارس إذا ما كنت بحاجة إلى استخدام الحمّام. اعتقدت أنّه يقصد مكاناً يمكن أخذ الدوش فيه. فقلت: نعم. كان الحمام الذي قصدته برميلاً مليئاً بمخلّفات الإنسان.

---

١ مرّة أخرى الضمائر التي طالها الشطب توحي بأنّ المترجم أنثى.

كان حماماً مقزّزاً للنفس لم أرَ مثله في حياتي. كان واجب الحرّاس مراقبتك وأنت تقوم بأعمالك. لم أستطع تناول الطعام – كان الطعام في الأردن أفضل بما لا يقاس من الوجبات الجاهزة الباردة التي تناولتها في باغرام – لذا لم أحتج إلى استخدام الحمّام. اعتدتُ أن أستخدم عبوات الماء الفارغة في غرفتي لأبول فيها. لم يكن وضع النظافة مثاليّاً، فحينما كانت تمتلئ العبوات كنت أبول على الأرض، مع الانتباه بألاّ يسيل البول إلى الباب.

في ليالي العزلة اللاحقة جاءني حارسٌ غريب، كان يحاول أن يجعلني أرتدّ عن الإسلام وأدخل الدين المسيحي. استمتعت بالحديث إليه مع أنّ لغتي الإنكليزيّة كانت تقتصر على الأساسيات. شريكي في الحوار كان شابّاً، متديّناً، نشطاً. كان يحب بوش "القائد الديني الحقيقي" وفق معاييره، ويكره بيل كلينتون "الملحد". كان يحبّ الدولار ويكره اليورو. كانت لديه نسخته من الكتاب المقدّس يحملها معه طوال الوقت، وكلما كان يجد الفرصة كان يقرأ لي القصص، معظمها كانت من العهد القديم. لم أستطع فهمها لو لم أقرأها باللغة العربيّة ولعدّة مرّات، فضلاً عن أنّ القصص في نسختها ليست بذاك البعد عن قصص القرآن. درست الإنجيل في السجن الأردني، طلبت نسخة فأتوني بها.

كان الإنجيل مفيداً جدّاً في فهم المجتمعات الغربيّة، ومع ذلك فإنّ الكثيرين منهم ينكرون تأثّرهم بالكتب الدينيّة المقدّسة.

لم أحاول مناقشته. كنت سعيداً بوجود شخصٍ أتحدّث إليه. أنا وهو كنّا مجمعَين على أنّ الكتب الدينيّة بما فيها القرآن كلها تنبع من مصدر واحد دون جدال. كما بدا لي أنّ معرفة الجندي المتحمّس بدينه كانت ضحلة. ومع ذلك استمتعت أن يكون حارسي. كان يمنحني وقتاً أطول في الحمّام، وكان دائماً ينظر إلى البعيد حينما كنت أستخدم البرميل.

سألته عن وضعي فقال لي: "إنّك لست مجرماً، لأنّهم يضعون المجرمين في الطرف الآخر" مشيراً بيده. فكّرت بأولئك "المجرمين"، تخيّلتهم مجموعة من المسلمين الشباب، وكم ظروفهم قاسية الآن.

شعرت بوضعي السيئ بعد أن تمّ نقلي إلى حيث أولئك "المجرمين"، وأصبحت

"مجرماً ذا مرتبة عالية". كنت خجلاً نوعاً ما عندما رآني الحارس فيما بعد وأنا مع "المجرمين"، هذا بعدما أخبرني أنّني سيتم إطلاق سراحي بعد ثلاثة أيّام. تصرّف على نحوٍ طبيعي، ولكن لم تكن لديه الحريّة الكافية للتحدّث معي حول الدين هناك بسبب وجود هذا العدد الهائل من الزملاء. أخبرني سجناء آخرون بأنّه ليس سيّئاً تجاههم أيضاً.

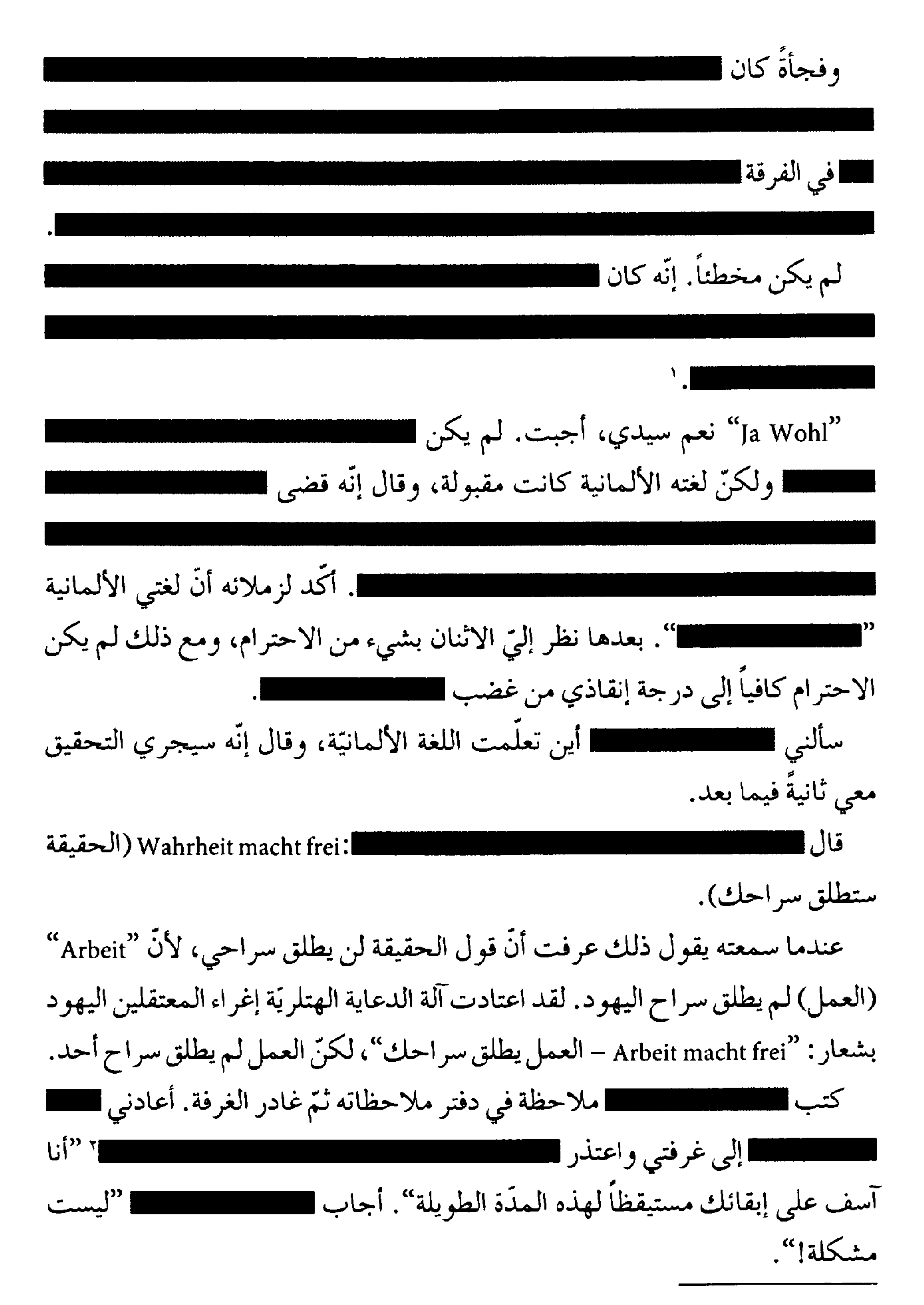
بعد ليلتين أو ثلاث ليالٍ أخذني ███████ بنفسه إلى جلسة استجواب، حيث ███████ المترجم العربي كان جالساً هناك. ███████ ███████ ███████.

يمكنك القول إنّه الرجل المناسب للقيام بذلك العمل. كان من نوع الرجال الذين لا يهمّهم القيام بالأعمال القذرة. لقد اعتاد المعتقلون في باغرام أن ينادوه باسم ███████. لقد وصف مراراً وتكراراً بأنّه كان المسؤول عن تعذيب حتى الأشخاص الأبرياء الذين أطلقت الحكومة سراحهم.[1]

لم يكن ███████ بحاجة إلى تقييد يدي لأنّي كنت مقيّد اليدين خلال ساعات اليوم الأربع والعشرين. كنت أنام وآكل وأستخدم الحمام وأنا مقيّد اليدين والقدمين تماماً. فتح ███████ ملفّاً بين يديه ███████ ███████ وبدأ بقراءة الملف بواسطة المترجم. كان ███████ يسألني أسئلة عامّة عن حياتي وعن خلفيتي. وعندما سألني: "أيّة لغة تتحدّث؟" لم يصدّقني، لقد ضحك مع المترجم، قائلاً: "ها ها، تتحدّث الألمانيّة؟ انتظر، سنجري لك اختباراً".

---

١ في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإداريّة، في ١٥ ديسمبر ٢٠٠٥، وصف محمدو ولد صلاحي محقّقاً في باغرام كان أميركياً من أصل ياباني، حيث كان السجناء في باغرام يشيرون إليه بوصفه "وليم المعذب". نسخة طبق الأصل (٢٣) لهيئة إعادة النظر الإداريّة. المحقّق الذي يقود التحقيق قد يكون ذاك المحقّق. يمكنكم الاطّلاع على نسخة أقوال محمدو أمام تلك الهيئة عام ٢٠٠٥ على الرابط التالي:
http://www.dod.mil/pubs/foi/operation_and_plans/Detainee/csrt_arb/ARB_Transcript_Set_8_20751- 21016.pdf. p. 23 transcript. p. 206 in link.



وفجأةً كان ██████████

██████████

في الفرقة ██████████

██████████.

لم يكن مخطئاً. إنّه كان ██████████

██████████

██████████.[1]

"Ja Wohl" نعم سيدي، أجبت. لم يكن ██████████ ولكنّ لغته الألمانية كانت مقبولة، وقال إنّه قضى ██████████

██████████

██████████. أكّد لزملائه أنّ لغتي الألمانية "██████████". بعدها نظر إليّ الاثنان بشيء من الاحترام، ومع ذلك لم يكن الاحترام كافياً إلى درجة إنقاذي من غضب ██████████.

سألني ██████████ أين تعلّمت اللغة الألمانيّة، وقال إنّه سيجري التحقيق معي ثانيةً فيما بعد.

قال ██████████: Wahrheit macht frei (الحقيقة ستطلق سراحك).

عندما سمعته يقول ذلك عرفت أنّ قول الحقيقة لن يطلق سراحي، لأنّ "Arbeit" (العمل) لم يطلق سراح اليهود. لقد اعتادت آلة الدعاية الهتلريّة إغراء المعتقلين اليهود بشعار: "Arbeit macht frei – العمل يطلق سراحك"، لكنّ العمل لم يطلق سراح أحد.

كتب ██████████ ملاحظة في دفتر ملاحظاته ثمّ غادر الغرفة. أعادني ██████████ إلى غرفتي واعتذر ██████████[2] "أنا آسف على إبقائك مستيقظاً لهذه المدّة الطويلة". أجاب ██████████ "ليست مشكلة!".

---

[1] يوحي السياق بأنّ المحقّق الثاني قام بالتحقيق مع محمدو ولد صلاحي بالألمانية.
[2] يوحي السياق بأنّ الاعتذار كان موجّهاً إلى المترجم.

بعد حجزي المنعزل لعدّة أيّام قاموا بنقلي إلى حيث مجموع السجناء، ولكنّي لم أستطع سوى النظر إليهم لأنّهم وضعوني في رواقٍ ضيّق من الأسلاك الشائكة بين الزنازين. ومع ذلك شعرتُ بأنّي أصبحتُ خارج السجن، فبكيتُ وشكرتُ ربّي. فبعد ثمانية أشهر من العزل الكلّي رأيتُ الكثير من زملائي السجناء في أوضاعٍ شبيهة بوضعي أو حتّى أشدّ وأقسى. كان السجناء "السيئون" مثلي مقيّدين خلال أربعٍ وعشرين ساعة، وقد وُضعوا في الرواق الذي يمشي فيه كلّ الحرّاس وكلّ السجناء. كان المكان ضيّقاً إلى درجة أنّ الأسلاك الشائكة كان تخزني على مدار الأيام العشرة التالية. وشاهدتُ ████████████████ يُطعَم رغماً عنه لأنّه كان قد أعلن إضراباً عن الطعام منذ خمسة وأربعين يوماً. كان الحرّاس يصرخون في وجهه، وكان يرفع قطعة من الخبز كالكرة بين يديه. كان جميع السجناء يبدون متعبين للغاية، كما لو أنّهم دُفنوا ثم أُخرجوا من القبر بعد عدّة أيّام.

ولكنّ قصة ████████████████ كانت مختلفة تماماً، كان مجرّد هيكل عظمي بدون لحم. ذكّرني منظره بالصور التي شاهدتموها في الأفلام الوثائقيّة حول الحرب العالميّة الثانية.

لم يكن مسموحاً للسجناء التحدث إلى بعضهم البعض، ولكن كنّا نستمتع بالنظر إلى بعضنا البعض. كانت عقوبة من يتحدّث هي تعليقه من يديه وقدماه الحافيتان تلامسان الأرض. شاهدت أفغانيّاً على هذه الحالة مرتين. لقد "ثبّته" الأطباء وعلّقوه من ظهره. كان السجناء الآخرون أوفر حظّاً: كانوا يُعلّقون لفترةٍ محدودة ثمّ يُفكّ أسرهم. معظم المعتقلين كانوا يتحدّثون وهم معلّقون، حينئذٍ كان الحرّاس يضاعفون العقوبة. كان هناك كهل أفغانيّ قيل إنّه اعتقل حتى يسلّم ابنه. كان الرجل مريضاً عقليّاً، ولم يكن بوسعه التوقّف عن الكلام لأنّه لم يكن يعرف أين هو، ولماذا. أعتقدُ أنّه لم يفهم البيئة التي وُضع فيها، والحرّاس من جهتهم كانوا يؤدّون واجبهم بتعليقه باستمرار. كانت حاله تثير الشفقة. ذات مرّة رماه أحد الحرّاس على وجهه، فبكى كطفل!

لقد وضعونا في ست أو سبع زنازين كبيرة من الأسلاك الشائكة سُمّيت بأسماء العمليات ضد الولايات المتّحدة: نيروبي، يو.إس.إس كول، دار السلام، وهلمّ جرّا.

في كلّ زنزانة كان يوجد معتقل يدعى "الإنكليزي"، وكان يقدّم خدمة خيريّة كمترجم يترجم الأوامر لزملائه المعتقلين. وإنكليزيّنا كان شاباً من السودان اسمه ██████████. كانت لغته الإنكليزية متواضعة جدّاً، لذا فقد سألني سرّاً إذا ما كنت أتحدّث الإنكليزيّة. أجبته بـ"لا"، ولكن تبيّن أنّني شكسبير بالمقارنة معه. اعتقدَ أخوتي أنّي أنكر عليهم خدماتي، لكنّي ببساطة لم أكن أعرف كم كان الموقف سيّئاً.

أجلسُ الآن أمام حفنة من المواطنين الأميركيين النظاميين الموتى جداً. كان انطباعي الأول هو، عندما شاهدتهم يمضغون بدون توقّف، ما مشكلة هؤلاء الرجال، هل هم ملزمون بأكل كلّ هذا القدر من الطعام؟ معظم الرجال كانوا طوال القامة وزائدي الوزن أكثر من اللازم. كان البعض منهم ودوداً، وبعضهم الآخر كان عدائياً. كلّما أدركت أنّ حارساً ما وضيع تظاهرتُ بأنّني لا أعرف الإنكليزيّة. أتذكّر أنّ أحد رعاة البقر جاءني مرّةً متجهماً. سأل: "هل تتكلّم الإنكليزيّة؟" أجبت: "لا أتكلّم الإنكليزيّة". قال: "لا نريدك أن تتكلّم الإنكليزيّة. نريدك أن تموت ببطء!"

كان جوابي دائماً هو: "لا أتكلّم الإنكليزيّة". لم أرد أن أمنحه الرضا بأنّ رسالته قد وصلت. إنّ الحاقدين من الناس يكون لديهم دائماً شيء ينزعونه عن صدورهم، ولكنّي لم أرد أن أكون مصرفاً لذاك الشيء.

كانت صلاة الجماعة ممنوعة، كلّ شخص كان يصلّي بمفرده، وكذلك كنت أنا. لم يكن المعتقلون يعرفون شيئاً عن أوقات الصلاة. كنّا نقلّد بعضنا بعضاً، فعندما كان أحد المعتقلين يقوم بالصلاة كنّا نفترض أنّه موعد الصلاة، وكنّا نتبعه في ذلك. كان القرآن متاحاً لكلّ من أراد طلبه. أمّا أنا فلا أتذكّر بأنّي طلبته، لأنّ تعامل الحرّاس كان فيه شيء من قلّة الاحترام، كانوا يرمونه إلى بعضهم البعض وكأنّ القرآن الكريم عبوة ماء. لم أرغب في أن أكون السبب في إهانة كلمات الله سبحانه وتعالى. وعلاوةً على ذلك، أشكر الله لأنّني أحفظ القرآن عن ظهر قلب. بقدر ما أتذكّر، كان أحد السجناء يمرّر نسخة من القرآن سرّاً حينما يستطيعون الاستغناء عنها في الزنزانة.

بعد يومين أخذني ██████████ لإجراء التحقيق معي. تصرّف ██████ كمترجم.

– أخبرني قصّتك. سأل ██████.
– اسمي هو... تخرجت عام ١٩٨٨، حصلت على منحة دراسيّة إلى ألمانيا...
أجبتُ عن السؤال بتفاصيل مملّة، وبدا أنّه غير مهتم بالذي قلته أو أنّ ذلك أثّر على ██████.

بدأ تعبه يتعاظم حتى تثاءب. أدركت في الحال ما الذي يريد سماعه، ولكنّي لم أستطع مساعدته.
قاطعني قائلاً:
– بلدي يثمّن الحقيقة عالياً. سأسألك الآن بعض الأسئلة، وإن أجبت عليها بصدق سيتم إطلاق سراحك وسنرسلك بسلام إلى أسرتك، ولكن إن فشلت في قول الحقيقة فسوف تُسجن لفترة زمنيّة غير محدودة. إنّ ملاحظة صغيرة في دفتر ملاحظاتي ستكون كافية لتدمير حياتك:
– أنت جزء من أيّة منظمة إرهابيّة؟
– ولا منظّمة.
– أنت لست رجلاً ولا تستحقّ الاحترام. اركع، صالبْ يديك وضعهما على رقبتك.
أطعت الأوامر، فقام وغطّى رأسي بكيس. ظهري كان يؤلمني جدّاً في الآونة الأخيرة، وتلك الوضعية كانت مؤلمة بشكل خاص. كان ██████ يلعب بالمشكلة التي أعانيها في وركي.[١] لقد جلب ██████ مصباحين من نوع برجيكتور وسلّط ضوءهما على وجهي. لم أستطع رؤية شيء لكنّ الحرارة غمرتني وسرعان ما بدأت بالتعرّق.
ثمّ هدّدني قائلاً: "سنرسلك إلى سجن الولايات المتّحدة لتقضي بقيّة حياتك فيه. لن ترى أسرتك أبداً. زوجتك سينـ...ـكها رجل آخر. في السجون الأميركية يتمّ اغتصاب الإرهابيين من أمثالك من قبل عدة رجال في آن واحد. والحرّاس في بلدي يؤدّون واجبهم على أكمل وجه، ولكنّ الاغتصاب أمرٌ حتميّ. ولكن إذا ما قلتَ لي

١ في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإداريّة، عام ٢٠٠٥، أشار محمدو ولد صلاحي أنّ محقّقاً كان يلقّب بـ "وليم المعذب" جعله يركع لساعاتٍ طويلة، ليجعل الألم يختفي في وركه بألمٍ أشدّ، ومن ثمّ هدّده. (هيئة إعادة النظر الإدارية، ص٢٣).

الحقيقة فإنّنا سنطلق سراحك على الفور".

كنت كبيراً في العمر بما فيه الكفاية لأعرّف أنّه كذّاب وفاسد، رجلٌ عديم الشرف لكنّه في موقع المسؤولية. استمعتُ إلى هرائه القذر هذا مرّات كثيرة. حينها تمنّيتُ لو أنّ الوكالات تستأجر رجالاً أذكى. هل يعتقدُ أنّ شخصاً عاقلاً سيصدّق هراءه؟ إنّ من يصدّقه لا بدّ أن يكون غبيّاً. هل هو غبي أم أنّه يعتقد بأنّني غبي؟ كنت سأحترمه أكثر لو أنّه قال لي: "انظر، إذا لم تخبرني ما أريد سماعه، سأعذّبك".

– طبعاً سأكون صادقاً. قلت ذلك، على أيّ حال.

– إلى أية منظّمة إرهابيّة تنتمي؟

– ولا منظّمة. ذاك كان جوابي.

عاد ووضع الكيس على رأسي وبدأ بصبّ سيلٍ من الإهانات عليّ والشتائم والأكاذيب والتهديدات، وفي الواقع لا أتذكّرها كلّها ولستُ مستعدّاً للبحث في ذاكرتي عن تلك الترّهات. كنت متعباً ومتألّماً، حاولت الجلوس ولكنّه دفعني إلى الوراء بقوّة، بكيتُ ألماً! أجل رجلٌ في عمري يبكي بصمت، لم أستطع قطّ تحمّل العذاب.

أعادني ██████ بعد ساعتين إلى زنزانتي واعداً إيّاي بمزيدٍ من التعذيب، قائلاً:

– هذه ليست إلا البداية!

عدتُ إلى زنزانتي مرعوباً ومنهك القوى، تضرّعت مبتهلاً إلى الله لإنقاذي منه. عشتُ أيّاماً ملؤها الرعب. وكلّما مرّ ██████ بزنزانتي كنت أشيح ببصري عنه متجنّباً رؤيته، لذا لم يكن "يراني"، تصرّفتُ تماماً كالنعامة. كان يتفقّد الجميع صباح مساء، ويعطي الحراسَ وصفةً بكلّ معتقل. لقد رأيته يعذّب معتقلين آخرين. لا أرغب في رواية ما سمعت عنه، أريد فقط أن أنقل إليكم ما شاهدته بعينَي.

لقد أرغم ██████ مراهقاً أفغانيّاً، في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره تقريباً، على الوقوف مدّة ثلاثة أيّام بلياليها دون نوم. حزنت عليه كثيراً، وحين كان يسقط على الأرض كان الحرّاس يصرخون في وجهه: "لا نوم للإرهابيين" ويجبرونه على الوقوف ثانيةً. أتذكّر أنني نمت واستيقظت في حين كان هو لا يزال يقف كشجرة!

كلّما وجدتُ ██████ في الجوار كان قلبي يبدأ بالخفقان بقوّة، كان أغلب الأوقات يدور حولنا.

ذات يومٍ أرسل المترجم ██████ ليوصل إلي رسالة مفادها: "سيرفسك ██████ على مؤخرتك". لم أردّ، ولكنّي قلت في داخلي: قتلك الله! في الواقع لم يرفسني ██████ على مؤخرتي، وبدلاً من ذلك جرّني ██████ إلى التحقيق.[1] كان رجلاً لطيفاً، لعلّه شعر بالتقارب إليّ بسبب اللغة. لِمَ لا؟ حتّى أنّ بعض الحرّاس اعتادوا المجيء إليّ ليمارسوا لغتهم الألمانيّة عندما علموا أنّني أتقنها.

على أيّة حال، لقد أعاد رواية قصّة طويلة على مسمعي:

– أنا لست مثل ██████، إنّه نمر وذو مزاج ناريّ، لا أستخدم طرقاً لاإنسانيّة، لديّ أساليبي الخاصّة. وأضاف: أريد أن أخبرك شيئاً عن تاريخ أميركا وعن قصة حربهم المناهضة للإرهاب.

كان ██████ مباشراً في كلامه وتنويريّاً، بدأ بالتاريخ الأميركي، والبيوريتانيين (التطهّريون) الذين عاقبوا حتّى الأبرياء بالغرق، وانتهى بالحرب على الإرهاب. ثمّ قال:

– لا يوجد معتقل واحد بريء في هذه الحملة، فإما أن تتعاون معنا، وبالتالي سنعاملك أفضل معاملة، أو سنرسلك إلى كوبا.

– ماذا؟ كوبا؟ أنا لا أتكلّم الإسبانيّة، وأنتم تكرهون كوبا! استفسرتُ.

– نعم، ولكن لدينا مقاطعة أميركية في غوانتانامو.

أخبرني عن تيدي وروزفلت وأمور أخرى من هذا القبيل. استنتجتُ أنّهم سيبعدونني أكثر فأكثر عن البيت، فانتابني شعور بالكراهيّة حيال ذلك.

– لماذا سترسلونني إلى كوبا؟

– لدينا خيارات أخرى، مصر والجزائر مثلاً، ولكننا نرسل أسوأ الناس فقط إلى هذين المكانين. أكره إرسال الناس إلى هناك لأنّ جميع المعتقلين يمرّون بتجارب تعذيبٍ مؤلم.

– أرسلوني إلى مصر إذاً.

١ يبدو أنّ هذا الشخص كان المحقّق الذي يتكلّم الألمانيّة الذي ساعد في التحقيقات قبل الآن.

– هل أنت متأكّد بأنك لا تريد الذهاب إلى كوبا. في كوبا يتعاملون بإنسانيّة مع السجناء، ولديهم إمامان، والمعسكر تديره وزارة العدل[1] وليس الجيش.

– ولكنّي لم أرتكب جرائم بحقّ بلدكم.

– أنا آسف، ولكن حسبك أن تفكّر بالأمر كما لو أنّك مصاب بالسرطان!

– هل سيتم إرسالي إلى المحكمة؟

– ليس في المستقبل القريب، ربما بعد ثلاث سنوات أو حتّى أكثر، وذلك عندما ينسى شعبنا هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

ثمّ مضى ■■■■■ يتحدّث عن حياته الخاصّة، ولكنّي لا أرغب في تدوينها هنا.

خضتُ جلستين أخريين مع ■■■■■ بعد ذلك. سألني بعض الأسئلة وحاول خداعي، وذلك بذكرِ أشياء مثل: "قال إنّه يعرفك!" متحدّثاً بلسان أشخاصٍ لم أسمع بهم قطّ.

أخذوا عنوان بريدي الالكتروني وكلمة السرّ. سألني أيضاً عن ■■■■■ ■■■■■ الذي كان حاضراً في باغرام ليستجوبني، ولكنّهم رفضوا ذلك بحجّة أنّ قانون ■■■■■ يمنعهم من استجواب الغرباء خارج البلد.[2]

كان يسعى طوال الوقت إلى إقناعي بالتعاون معه حتّى يكون بمقدوره حمايتي من السفر إلى كوبا. بصراحة، فضّلت الذهاب إلى كوبا أكثر من البقاء في باغرام. قلت له:

– ليحدث ما يحدث. لا أعتقد أنّني قادر على تغيير شيء. أجبت ■■■■■ ■■ إلى حدٍّ ما.

---

١ بالطبع هذا غير صحيح. إنّ المخيّم الاحتجازي في خليج غوانتانامو يقع على القاعدة البحريّة في ذاك الخليج وتديره قوات المهام الخاصّة التابعة للولايات المتّحدة تحت إشراف القيادة الجنوبيّة للولايات المتّحدة.

٢ لعل هذا يشير إلى دائرة الاستخبارات الألمانيّة الفيدرالية. إنّ روايات الصحافة تشير إلى أنّ محمدو ولد صلاحي قد جرى التحقيق معه من قبل عملاء المخابرات الألمانيّة والكنديّة في غوانتانامو، وفيما بعد في المخطوطة، في المشهد الذي يحضر فيه محمدو أمام ما يسمّى بمحقّقي الاستخبارات الألمانية في غوانتانامو، ويشير صلاحي إلى أنّ ذلك يشكّل خطراً على التحقيقات الخارجيّة. انظر الهامش في الصفحة ٩٨، وكذلك:
http://www.spiegel.de/international/world/from-germany-to-guantanamo-the-career-of-prisoner-no-760-a-5831933-.html; and http://www.thestar.com/news/canada/2008/07/27/csis_grilled_trio_in_cuba.html

لا تفهموني خطأً. لقد كان محققاً جديراً بالازدراء، ولكنه كان يحدّثني على الأقل وفقاً لمستواي الثقافي. طلبت من ██████ أن يضعني في الزنزانة مع بقيّة السجناء، كاشفاً له عن جروحي التي سبّبتها الأسلاك الشائكة. وافق ██████ على طلبي. في باغرام يستطيع المحقّقون أن يفعلوا بك ما يشاؤون، إنّهم السلطة العليا، والشرطة العسكريّة هي في خدمتهم. وأحياناً كان يقدّم لي ██████ مشروباً، وأنا من جهتي كنتُ أقدّر ذلك، وخاصةً مع الوجبات الغذائية الجاهزة الباردة التي كنت آخذها، وكان يقدّم لي الخبز مع كلّ وجبة.

لقد أوصلتُ بريدي الالكتروني سرّاً إلى المعتقلين الآخرين.

ذات ليلة قدّمني ██████ إلى محقّقين عسكريَين سألاني عن مؤامرة الألفيّة. كانا يتحدّثان بلغة عربيّة ركيكة، وكانا عدوانيّين تجاهي، منعاني من الجلوس وهدّداني بكل الأشياء، ولكنّ ██████ كان يكرههما، وأخبرني في ██████ ██████:

– إذا أردتَ التعاونَ تعاملْ معي، فإن هؤلاء الرجال الذين ينتمون إلى المخابرات العسكرية (MI) لا يعتبرون شيئاً.

شعرتُ أنّني في مزايدة علنيّة، في مزادٍ أيّ وكالة تقوم بالدفع أكثر![1]

كنّا نخرق القوانين دائماً، فمن بين مجموع السجناء كنّا نتحدّث نحن مع جيراننا، وجيراني كانوا ثلاثة:

أحدهم كان مراهقاً أفغانيّاً تمّ اختطافه وهو في طريقه إلى الإمارات العربيّة المتّحدة. كان يعمل هناك، لذا فقد كان يتحدّث العربيّة بلغةٍ خليجيّة. كان مسلّياً جدّاً وقد أضحكني حتى أنّني نسيت كيف مرّت عليّ الأشهر التسعة بصحبته. كان يقضي العطل

١ إنّ إشارة المحقّق إلى المحقّقين العسكريين، وإشارة محمدو ولد صلاحي إلى التنافس بين الوكالات الاستخباراتيّة، توحي بأنّ المحقّق قد يكون من إحدى الوكالاتٍ الأمنيّة المدنيّة، على الأرجح من مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI. إنّ الصراع البيني المديد بين كلٍّ من مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة استخبارات الدفاع التابعة للبنتاغون على طرق التحقيق العسكري وجد صداه في وثائق وتقارير على نطاقٍ واسع وأبرزها تقرير "مايو ٢٠٠٨" الذي قدّمه المفتّش العام لوزارة العدل الأميركية بعنوان "استعراضُ عمل وإشراف FBI في التحقيقات مع المعتقلين في خليج غوانتانامو وأفغانستان والعراق". (يمكن الاطلاع على التقرير على الرابط: http://www.justice.gov/oig/special/s0805/final.pdf ويتضمّن أقساماً أساسيّة مكرّسة بشكلٍ خاص للتحقيق مع محمدو ولد صلاحي).

مع أسرته في أفغانستان ثمّ يذهب إلى إيران، ومن هناك يذهب بسفينة إلى الإمارات، ولكنّ السفينة اختُطفت من قبل الولايات المتّحدة الأميركية، واعتُقل من كان على متنها من المسافرين وهو من بينهم.

وجاري الثاني كان شابّاً موريتانيّاً في الحادية والعشرين من عمره، ولد في نيجيريا وانتقل إلى المملكة العربيّة السعوديّة. لم يعش قطّ في موريتانيا ولم يكن يتكلّم اللهجة الموريتانيّة، وإن لم يعرّفك على نفسه فستعتقد أنّه سعودي.

وجاري الثالث كان فلسطينيّاً من الأردن واسمه ■■■■■■. اعتُقل وعُذِّبَ على يد زعيم قبائلي أفغاني، وبقي في أَسْرِهم مدّة سبعة أشهر. لقد أراد مختطفوه المال من عائلة ■■■■■■ وإلا سيتمُ تسليمه إلى الأميركان، مع أنّ الخيار الأخير كان الأقل احتمالاً لأنّ الولايات المتّحدة الأميركية كانت تدفع مبلغ خمسة آلاف دولار فقط مقابل كلّ رأس، ما لم يكن رأساً كبيراً. رتّبت العصابة كلّ شيء مع عائلة ■■■■■■ بخصوص الفدية، ولكنّ ■■■■■■ تمكن من الهرب من أسره في كابول، هرب إلى جلال آباد حيث وقع بسهولة في الفخّ هناك كمجاهد عربيّ وتمّ القبض عليه وسُلّم للأميركيين. أَخبرتُ ■■■■■■ بأنّني كنت في الأردن، ويبدو أنّه كان مطّلعاً على أجهزة الأمن الأردنيّة، فقد كان يعرف جميع المحقّقين الذين حقّقوا معي، لأنّ ■■■■■■ بنفسه قد قضى خمسين يوماً في السجن الذي كنت فيه.

عندما كنّا نتكلّم كنّا نغطّي رؤوسنا حتّى يظنّنا الحرّاس نيّاماً، وهكذا نتحدّث حتّى التعب. أخبرني جيراني بأنّنا في باغرام بأفغانستان، ولكنّي أخبرتهم بدوري بأنّهم سيرحّلوننا إلى كوبا، ولكنّهم لم يصدّقوني.

في ■■■■■■ أغسطس ٢٠٠٢، حوالي الساعة العاشرة صباحاً، ظهرت وحدة عسكريّة من مكان ما، بعضٌ منهم كانوا يحملون البنادق في أيديهم.[١]

كانت عناصر الشرطة العسكريّة المسلّحة توجّه بنادقها نحونا من الطابق العلوي، والآخرون كانوا يصرخون:

١ يبدو واضحاً من تاريخ لم يُشطب في هذا الفصل، بالإضافة إلى سجلات إجراءات الدخول، أنّ محمدو ولد صلاحي وصل غوانتانامو في ٥ أغسطس ٢٠٠٢، ونستنتج أنّ هذا المشهد هو في صبيحة ٤ أغسطس ٢٠٠٢.

– انهضوا، انهضوا.

أُصبتُ بالذعر، ومع ذلك توقّعتُ أن يتمّ ترحيلنا في وقت ما من ذلك اليوم. لم أرَ عرضاً كهذا من قبل!

نهضنا واقفين. واصل الحرّاس إعطاء الأوامر:

– ممنوع الكلام... لا تتحرّكوا... سأقتلكم ... أنا جاد!

اجتاحتني الكراهيّة عندما طلب ██████ من فلسطين أن يستخدم المرحاض وقوبل طلبه بالرفض من قبل الحرّاس.

– لا تتحرّك.

كنت أريد أن أقول له: ألا تستطيع أن تنتظر قليلاً؟ ولكنّ مشكلة ██████ ███ أنّه كان مصاباً بالزّحار (الديزنطاريا)، ولم يستطع تحمّل ذلك. لقد تعرّض ██████ للتعذيب على يد الزعيم القبائلي للحلف الشمالي. أخبرني ███ ██████ أنه سيستخدم المرحاض على أيّة حال، وقد فعل ذلك، متجاهلاً الحرّاس الصارخين. توقّعتُ في أيّة ثانية إطلاق رصاصة تجاهه، ولكنّ ذلك لم يحدث. كان المرحاض داخل زنزانتنا المشتركة، كان أيضاً برميلاً مفتوحاً. وكان السجناء المعاقبون ينظّفونه يوميّاً، فقد كان مقرفاً وتفوح منه رائحة كريهة واخزة. وباعتباري من بلدٍ في العالم الثالث، فقد شاهدت الكثير من المراحيض غير النظيفة، ولكنّها لا تُقارن البتّة بمراحيض باغرام.

بدأتُ أرتعش من الخوف. اقترب أحد عناصر الشرطة العسكريّة من زنزانتنا وبدأ ينادي الأسماء، أو بالأحرى الأرقام، أرقام الذين سيتمُّ نقلهم. نودي على كلّ الأسماء في زنزانتي، حيث كان العرب ماركة سيئة.

لم يصدّقني الأخوة حين أخبرتهم بنبأ تسفيرهم إلى كوبا. أما الآن فقد تأكّد لي الأمر على نحوٍ لا يدعو للشكّ، فنظرنا إلى بعضنا البعض وابتسمنا. اقترب العديد من الحرّاس من البوابة ومعهم حزمة من السلاسل والأكياس ومواد أخرى. شرعوا بمناداتنا واحداً تلو الآخر طالبين من كلّ معتقل الاقتراب من البوابة حيث يوضع في السلسلة.

صرخ أحد الحرّاس "██████" . تقدّمت نحو البوّابة مثل نعجةٍ تقاد إلى جزّارها. عند البوابة صرخ جنديّ:

- استدر! اليدان إلى الخلف! ففعلت ما طلب منّي.

عندما مررت يديّ من الشرّاقة (فتحة باب الزنزانة) خلف ظهري، أمسك أحد الحرّاس بإبهامي وأحنى رسغي:

- إلى أين أيها الممحون؟ سأكسر يدك.

وراح حارسٌ آخر يضع يدَيّ وقدَمَي في سلسلتين منفصلتين، ثمّ غطّى رأسي بكيس لئلا أرى شيئاً. كانت البوابة مفتوحة. دفعني أحدهم بخشونة فاصطدمت بظهر معتقل آخر كان في الصفّ. رغم أنّي تألمتُ جسدياً ولكنّي شعرتُ بعزاءٍ نفسي عندما لامستُ دفء آدميٍّ يعاني ما أعانيه.

ارتفع مستوى العزاء أكثر عندما رُمي ■■■■■■■■ مصطدماً بظهري. لم يكن يعرف العديد من السجناء ما الذي يريده منهم الحرّاس، وهذا ما كان يفاقم من ألمهم. كنت محظوظاً بالكيس الذي كان في رأسي لأنّه منعني من رؤية الأشياء السيئة التي كانت تحدث من حولي، ودفعني إلى التفكير بأحلام اليقظة التي راودتني على نحوٍ أفضل وبظروفٍ أفضل. الحمد لله، فلديّ القدرة على تجاهل محيطي وأن أحلم في اليقظة بالأشياء التي أتمنّاها لنفسي.

كان من المفترض أن نكون ملاصقين لبعضنا بعضاً. كان التنفّس صعباً. كنّا أربعة وثلاثين معتقلاً، جميعهم كانوا عرباً عدا معتقلاً واحداً كان أفغانياً وآخر كان من جزر المالديف.[1]

عندما وضعونا في الصفّ ربطونا بحبلٍ من الجزء الأعلى من أذرعنا. كانت عقدة الحبل محكمةً إلى درجة توقّف معها دوران الدم، فتخدّر ذراعي بالكامل.

أمرونا بالنهوض، ومن ثمّ جرّونا إلى مكان آخر لتكملة "الإجراءات".

كرهت ذلك لأن ■■■■■■■■ ظلّ يدوس على سلسلتي حتى جرحتني جرحاً بليغاً. بذلت قصارى جهدي حتى لا أدوس على الرجل الذي كان يمشي

[1] وفقاً لسجلات إجراءات الدخول للطول والوزن، فإنها تشير إلى أنّ ٣٥ معتقلاً وصلوا غوانتانامو في ٥ أغسطس ٢٠٠٢. وسجلات تلك المجموعة متوفرة على الرابط:
http://www.dod.mil/pubs/foi/operation_and_plans/Detainee/measurements/ISN_680-ISN_838.pdf.

والقائمة الرسميّة بجميع معتقلي غوانتانامو متوفرة على الرابط:
http://www.defense.gov/news/may2006/d2006051520%list.pdf.

أمامي. الحمد لله أن المسافة كانت قصيرة. كان المكان الذي قصدناه في المبنى ذاته حيث أجلسونا على مقاعد طويلة جنباً إلى جنب. شعرت أن المقاعد تشكّل دائرة.

بدأت الحفلة بإكساء المسافرين بالملابس. حصلت على سماعتَي الأذنين اللتين منعتاني من سماع الأصوات. لقد سببا لي صداعاً مؤلماً، كان الجهاز ضيقاً للغاية مما سبّب نزفاً في الجزء الأعلى من أذني لمدة يومين. وكانت يداي مربوطتين بخاصرتي من الأمام، ثم بسلسلة تمتد حتى قدميّ. لقد ربطوا رسغَيّ بقطعة من البلاستيك القاسي طولها ست بوصات. بعد ذلك ألزموني بارتداء قفازات سميكة. كان الأمر مزعجاً، حاولت إيجاد طريقة أحرّر بها أصابعي، ولكن الحرّاس ضربوني على يدَيّ لمنعي من تحريكهما. زادنا الوضع إرهاقاً، وبدأ الناس يتأففون تذمّراً. كان أحد الحرّاس ينزع إحدى سدادتي أذني بين الفينة والأخرى ليهمس لي بعبارة مثبطة للهمة: "تعرف أنك لم ترتكب أي خطأ، ولكن أمك وأباك ارتكبا ذنباً عندما أنجباك ذريةً لهما". "ستستمتع الآن بالركوب إلى الفردوس الكاريبي يا ساقط". لم أردّ على أيٍّ من هذه الأقوال الاستفزازية، متظاهراً بعدم فهمي ما يقوله. أخبرني معتقلون آخرون أنّهم تعرضوا أيضاً للإهانة نفسها، ولكنهم كانوا محظوظين أكثر مني لعدم فهمهم الإنكليزية كلياً.

تبدّد قلقي عندما حصلت على حذاء للتنس من صنع الصين. ولكنهم وضعوا نظارات شمسية بشعة على عيني كنوع من عصابة للعينين، حيث تمّ ربطها فوق الأذنين وحول الرأس. كانت شبيهة بالنظارات المخصّصة للسباحة. وإذا ما أردتَ أن تتعرف على طبيعة الألم، قمْ بوضع نظارات قديمة حول رأسك واربطها بإحكام وابقَ في تلك الوضعية مدة ساعتين. لا يخامرني أدنى شك بأنك ستزيلها. تصور الآن أنّ تلك النظارات مربوطة حول رأسك ولأكثر من أربعين ساعة. وللتأكد من ارتدائي ما قدّموه لي من أشياء وضعوا رقعة لاصقة بذلك خلف أذني.

في لحظة ما من فترة الإجراءات المتّبعة لترحيلنا أجروا لنا فحصاً لتجاويف الجسم لنصبح مَضْحَكَة للحراس وتعليقاتهم. كرهت ذاك اليوم الذي تعلّمت فيه مفرداتي التعيسة في اللغة الإنكليزية. في مثل هذه المواقف ستكون حالك أفضل لو لم تفهم الإنكليزية. لم يتحدث الكثير من المعتقلين عن ذاك الفحص الذي أُخضعنا له، وكانوا يُبدون استياءهم وغضبهم عندما تبدأ بالحديث عنه. شخصياً لم أكن أخجل من ذلك.

أعتقد أن الذين قاموا بهذا الفحص بدون وجود دواع مستحقة لذلك يجب أن يخجلوا من أنفسهم.

ازددت مرضاً وتعباً وإحباطاً وجوعاً وقرفاً وما شابه من الصفات في القاموس. ولم أكن الوحيد في ذلك. أعطونا قيوداً بلاستيكية لليد تحمل أرقاماً عليها. وكان رقمي هو (٧٦٠)، والتالي من بعدي ██████████. بإمكانكم القول إن مجموعتي كانت أرقامها التسلسلية تبدأ من الرقم (٧٠٠).

استخدم ████ المرحاض مرتين، ولكنّي حاولت ألاّ أستخدمه. ذهبت إليه أخيراً في فترة ما بعد الظهيرة، ربما كانت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر.

- هل تحب الموسيقى؟ سألني أحد الحراس الذي رافقني إلى هناك عندما بقينا وحدنا.

- نعم أحب الموسيقى.

- أي نوع من الموسيقى؟

- الموسيقى الجيدة!

- روك أند رول؟ الكنتري؟

في الواقع لم تكن هذه الأنواع من الموسيقى مألوفة لي. اعتدت الاستماع إلى الإذاعة الألمانية بأنواعها المختلفة من الموسيقى الغربية، ولكني لم أكن أستطيع تمييز الأنواع عن بعضها بعضاً.

- أستمعُ إلى كلّ أنواع الموسيقى الجيدة.

وكانت نتيجة تجاذب أطراف الحديث الطيب هذا هي أنه أزال العُصابة عن عيني فاستطعت أن أقوم بمهمتي في الحمام بعناية. أصبحت الأمور صعبة للغاية بعد أن لفّوا أجسادنا بالسلاسل. أعادني الحارس إلى مكاني ووضعني برفق على المقعد، لأنتظر مع الآخرين مدة ساعتين حتى صدور قرار بحقنا. كنّا قد جُرِّدنا من حق أداء فروض الصلاة في الساعات الثماني والأربعين القادمة.

بدأ الانتقال إلى المطار في حوالي الرابعة مساءً. كنت حينئذٍ "حيّاً ميتاً". لم تكن قدماي قادرتين على حملي بعد، فاضطر الحرّاس لجرّي طوال المسافة الممتدة بين باغرام وغوانتامو.

حملونا في شاحنة من أجل نقلنا إلى المطار. استغرقت المسافة إلى هناك بين خمس وعشر دقائق. كنت سعيداً مع كلّ حركة جديدة، علّني أستغلّ الفرصة لأغيّر وضعيّة جسمي، لأنّ ظهري كان يقتلني ألماً. حُشِرنا في الشاحنة كتفاً إلى كتف ووركاً إلى ورك، ولسوء الحظّ وضعوني في مواجهة مؤخّرة الشاحنة، كرهتُ ذلك لأنّه يسبّب لي الدّوار. كانت الشاحنة مجهزّة بمقاعدَ قاسية، فجلس المعتقلون فيه ظهراً إلى ظهر، أمّا الحرّاس فقد جلسوا في آخر المقعد وهم يصرخون:

– ممنوع الكلام!

لا أعرف كم عدد الأشخاص الذين كانوا في الشاحنة، ولكن كلّ ما أعرفه هو أنّ شخصاً جلس على يميني وآخر على يساري والثالث قبالة ظهري. إنّه لأمرٌ مواسٍ للنفس نوعاً ما أن يمنحك أصدقاؤك المعتقلين دائماً شعوراً جميلاً بالدفء.

بدا وصولنا إلى المطار واضحاً بسبب ضجيج محرّك الطائرة الذي كان يخترق سدّادة الأذن. تحرّكت الشاحنة من الخلف حتّى لامست الطائرة. عندها صرخ الحرّاس بلغة لم أستطع تمييزها، وبدأت أسمع ارتطام الأجساد البشريّة بأرضيّة الطائرة. أمسك حارسان بمعتقلٍ ورموه نحو حرّاسٍ آخرين كانوا على متن الطائرة، صائحين:

– أدْرِجوه.

وردّ الحرّاس المستقبلين مؤكّدين استلامهم الطرد. وحينما جاء دوري أمسك بي حارسان من اليدين والقدمين ورمياني إلى الفريق المتلقّي. لا أعرف إذا ما كنت قد وقعت على الأرضيّة أم أنّ الحرّاس تلقّفوني. كنت قد بدأت أفقد الإحساس بالأشياء لذا كان كلا الأمرين سيّان.

سحبني فريق آخر في الطائرة وثبّتوني على مقعد صغير مستقيم. كان الحزام الذي ربطوني به محكماً إلى درجة أنّي لم أستطع التنفّس إلا بصعوبة، وكان هواء المكيّف يسفعني مباشرة.

وبينما كان أحد عناصر الشرطة العسكريّة يربط قدمَيّ بقفلٍ على الأرضية، كان يصيح:

– لا تتكلّموا... لا تتحرّكوا...

لم أكن أعرف كيف أقول بالإنكليزيّة "مشدود". ناديت الشرطي:

- الحزام!

لم يأتِ أحد لمساعدتي. كدتُ أختنق. كان هناك قناع على فمي وأنفي، فضلاً عن الكيس الذي كان يغطّي رأسي ووجهي، ناهيكم عن الحزام المشدود حول معدتي. كان التنفّس مستحيلاً. واصلتُ منادياً الشرطي:

- يا شرطي... يا سيّد... لا أستطيع التنفّس!... يا شرطيّ... يا سيّد... من فضلك.

ولكن ما من مجيب، بدا كما لو أنّ ندائي ورجائي ضاعا في صحراءٍ مترامية الأطراف.

وبعد دقيقتين سقط ████████ بجانبي على اليمين. لم أتأكّد ما إذا كان هو، ولكنّه أخبرني فيما بعد بأنه أحسّ بوجودي إلى جانبه. وكلّما كان الحرّاس يسوّون نظارتي على عيني، كنت أتمكّن من رؤية الأشياء قليلاً. رأيت قمرة الطائرة التي كانت أمامي، ورأيت بزّات الحرّاس المرافقين العسكريّة الخضر (Camo)، ورأيتُ أيضاً شبح أصدقائي المعتقلين على ميمنتي وميسرتي.

ناديتُ مرّة أخرى:

- يا سيّد، من فضلك، حزامي... يوجعني.

وعندما توقّفت صيحات الحرّاس أدركتُ أنّ المعتقلين قد أصبحوا على متن الطائرة. كرّرتُ ندائي:

- يا سيّد، من فضلك... الحزام.

استجاب أحد الحرّاس أخيراً لاستغاثتي، ولكنّه لم يساعدني، إنّما راح يشدّ الحزام أكثر على بطني.

بات الآن تحمّل الألم فوق طاقتي، شعرت أنني أموت. لم أقوَ على طلب المساعدة بصوتٍ أعلى: "يا سيد، لا أستطيع التنفس..." جاء أحد الجنود وأرخى الحزام قليلاً، لكنه لم يصل إلى حدّ الراحة، إلا أنه كان أفضل من لا شيء على أية حال.

"إنه لا يزال مشدوداً..."، لقد تعلّمت الكلمة عندما سألني: "هل هو مشدود؟"

"هذا كلّ ما يمكنك الحصول عليه". عندها تخليت عن طلب الراحة للتخلص من شدّ الحزام، ولكنّي قلت: "لا أستطيع التنفس!" وأشرت إلى أنفي. ظهر أحد الجنود وأزال القناع عن أنفي. أخذت نفساً عميقاً فشعرت بالراحة في الحال. يا لشقائي! عاد

الجندي ووضع القناع على أنفي وفمي. "يا سيد، لا أستطيع التنفس... يا شرطي... يا شرطي". جاءني الشخص نفسه، ولكنه بدلاً من إزالة القناع عن أنفي أخرجَ السدّادة من أذني وقال: "إنسَ الموضوع"! وسرعان ما أعاد السدادة إلى مكانها. كان الأمر صعباً ولكنها كانت الطريقة الوحيدة لتفادي الاختناق. كان الرعب يحوم من حولي، بالكاد كنت أحصل على قليلٍ من الهواء، والطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة كانت بإقناع الدماغ بالمقدار الضئيل الذي يحصل عليه من الهواء.

كانت الطائرة في الجو عندما صرخ أحد الحرّاس في أذني: "سأعطيك الآن بعض الدواء، أنت مريض". جعلني أبتلع حفنة من الحبوب، ثم أعطاني تفاحة وشطيرة من زبدة الفول السوداني، وكانت هذه وجبتنا الأولى منذ أن بدأتُ إجراءات الترحيل. لقد كرهتُ زبدة الفول السوداني منذ ذلك الحين. لم تكن لدي شهيّة لتناول أي شيء، ولكني تظاهرت بتناول الشطيرة حتى أتفادى أذى الحارس. حاولت دائماً تفادي الاحتكاك مع هؤلاء الحرّاس القساة. أخذتُ لقمة من الشطيرة واحتفظت بالبقية في يدي حتى لَمَّ الحرّاس النفاية. أما التفاحة فكان أكلها شيئاً من قبيل الخدعة طالما أن يدَيّ في القفازات وكانتا مربوطتين إلى خاصرتي. ضغطت على التفاحة بين يدي وأحنيت رأسي نحو خاصرتي كبهلوان لأخذ قضمة من التفاحة. انتهت التفاحة بزلّة واحدة. وحاولت أن أنام ولكن باءت محاولاتي كلها بالفشل لشدة تعبي وإرهاقي. ثم أن المقعد كان مرفوعاً كقوس وقاسياً كحجر.

هبطت الطائرة بنا بعد رحلة دامت خمس ساعات تقريباً. وبدأوا بنقل هياكلنا إلى طائرة أخرى ربما كانت أكبر حجماً. كان الوضع في الجو مستقراً. كنت سعيداً بكل جديد، أي جديد مهما كان، أملاً بتحسين وضعي. ولكنني كنت مخطئاً، لم تكن الطائرة الجديدة أفضل. كنت أعرف أن كوبا بعيدة جداً ولكن لم تكن تقديراتي بأنها بذلك البعد، ونحن على متن الطائرة الأميركية الفائقة السرعة.

في لحظة ما فكرت بأن الحكومة الأميركية تريد أن تفجّر الطائرة فوق المحيط الأطلسي ومن ثم تعلن بأنها كانت حادثة، بما أن جميع المعتقلين قد تمّ استجوابهم مرات عديدة. ولم يكن تفكيري بهذه الخطة سوى جزء يسير من مخاوفي. هل حقاً يخيفني ألم الموت الخفيف وأنا مفعم بالأمل برحمة الله بعد الموت؟ لا بدّ أن العيش

تحت رحمة الله أفضل بما لا يقاس من العيش تحت رحمة الولايات المتحدة.

يبدو أن الطائرة كانت متجهة نحو مملكة بعيدة جداً. كنت أشعر بانخفاض وزني مع كلّ دقيقة تمرّ، ثم تخدّر جسمي. أتذكر أنني طلبت الذهاب إلى الحمام فجرّني الحرّاس إلى ذاك المكان ودفعوني إلى داخل غرفة صغيرة وأنزلوا سروالي. لم أستطع قضاء حاجتي بسبب حضور شخص آخر معي، ولكني تمكنت، بعد جهد كبير من الضغط، أن أخرج بعض الماء. أردت أن أصل فحسب، لا يهمني إلى أين! فأي مكان آخر سيكون أفضل من هذه الطائرة.

لا أعرف المدة التي استغرقتها الطائرة حتى هبطت أخيراً في كوبا. "تحرّكوا... توقّفوا"! لم أقوَ على المشي لأن قدميّ لم تكونا قادرتين على حملي. لاحظت أنني فقدت إحدى فردتي حذائي في مكانٍ ما. صرخ الحرّاس بعد أن فتشوا داخل الطائرة تفتيشاً كاملاً: "تحرّكوا! لا تتكلموا! الرأس إلى الأسفل! اخطوا"! فهمت فقط "لا تتكلموا"، ولكن الحرّاس كانوا يجرجرونني على أية حال. وفي داخل الشاحنة صرخ الحرّاس: اجلسوا! صالبوا أرجلكم!". لم أفهم الجزء الأخير من الكلام، ولكنهم وضعوا قدمي في الوضعية التي أرادوها. "الرأس إلى الأسفل" نادى أحدهم، دافعاً برأسي كفرّوج نحو مؤخرة معتقل آخر. كان هناك صوت أنثوي يصرخ على امتداد الطريق إلى المعسكر: "ممنوع الكلام"، وصوت ذكوري: "لا تتكلموا"، ومترجم عربي ████████████████: "أبقوا رؤوسكم منخفضة إلى الأسفل". انزعجت كلياً من الطريقة الأميركية في الكلام. بقيت طويلاً على تلك الحال حتى التقيت أميركيين جيدين. كنت أفكر كيف أنّهم يعطون الأوامر بطريقتين مختلفتين: "لا تتكلموا" و"ممنوع الكلام"... كان ذلك مثيراً.

كانت السلسلة في تلك الفترة تقطع الدم عن قدمَيّ. تنمّلت قدماي. كنت أسمع بكاء وأنين المعتقلين الآخرين. كان الضرب هو نظام الرحلة. لم أُستثنى، ظلّ الحارس يضرب رأسي ويضغط عليه ويضغط رقبتي باتجاه الجزء القصي لمعتقلٍ آخر، ولكنّي لم ألمه بقدر ما لمت ذاك المعتقل المسكين المتألم الذي كان يبكي ويظلّ يتحرك، لذا كنت أرفع رأسي على الدوام.

وأخيراً وصلنا بعد ساعة إلى الأرض الموعودة. وبالرغم من كلّ الألم الذي عانيته

كنت سعيداً الآن لأن الرحلة أصبحت جزءاً من الماضي. يقول الحديث النبوي: "السفر قطعة من العذاب". لا شكّ أن هذه الرحلة كانت قطعة من العذاب. وكان قلقي في هذه اللحظة هو كيف سأقف إذا ما طُلب مني ذلك، كنت مشلولاً تماماً. أمسك بي حارسان وصرخا: "إنهض". حاولت النهوض ولكني فشلت. لذا جراني ورمياني خارج الشاحنة.

غمرتني شمس كوبا الدافئة بجمالٍ ورشاقةٍ مما خلق لدي شعوراً جميلاً. بدأتْ الرحلة ██████████ في الساعة العاشرة صباحاً، ووصلنا كوبا في الساعة الثانية عشرة أو الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً. ████ ██████████، وهذا يعني أننا قضينا أكثر من ثلاث عشرة ساعة في طائرة باردة جداً.[1] كنت أكثر حظاً من الأخ ██████ الذي تجمّد كلياً. حدث أن طلب من الحارس أن يخفّض درجة برودة المكيّف في الطائرة. لكنّ الحارس لم يكتفِ بعدم تلبية طلبه بل راح ينقّعه بالماء طوال مسافة الطريق إلى كوبا. اضطر الأطباء أن يضعوه في غرفة دافئة جداً من أجل أن يعود إلى وضعه الطبيعي.

أخبرَنا: "عندما أشعلوا النار قلت لنفسي ها أنهم قد بدأوا التعذيب". ضحكت عندما روى قصته في الـ ██████ في صباح اليوم التالي.

أستطيع القول إنّهم استبدلوا طاقم الحرس بطاقم أفضل. اعتاد الطاقم القديم أن يقول "wader – الماء"، أما الطاقم الجديد فكان يقول "water". الطاقم القديم كان يقول "stan up – انهض"، في حين يقول الطاقم الجديد "stand up". وكانت أصوات الطاقم القديم عالية أكثر من اللازم.

---

١ في هذا المقطع يصف محمدو ولد صلاحي رحلة الطيران التي استغرقت خمس ساعات، ثم تم تبديل الطائرة بطائرة أخرى لتبدأ رحلة أطول بكثير. وبحسب التحقيق الذي قامت به منظمة حقوق الإنسان البريطانية Reprieve في عام ٢٠٠٨ وجدت أن نقل السجناء من باغرام إلى غوانتانامو استلزم الوقوف في القاعد الأميركية في أنجرليك التركية، وقد وجد "مشروع الأداء" أن طائرة C-17 للنقل العسكري أقلعت من أنجرليك إلى كوبا في رحلتها ذات الرقم RCH233Y، وذلك في ٥ أغسطس ٢٠٠٢، وهي تحمل خمسة وثلاثين سجيناً. راجع:
http://www.libertysecurity.org/IMG/pdf_08.01.28FINALPrisonersIllegallyRenderedtoGuantanamoBay.pdf; http://www.therenditionproject.org.uk/pdf/PDF20%20154%[Flight20%data.20%Portuguese20%f light20%logs20%to20%GTMO.20%collected20%by20%Ana20%Gomes].pdf.

وأستطيع القول أيضاً إنّ المعتقلين قد بلغوا الحدّ النهائي لآلامهم، ولم أكن أسمع سوى أنينهم. كان هناك أفغاني بجانبي يبكي بصوتٍ عالٍ ويستغيث طالباً المساعدة ██████████████████████. كان يتحدث بالعربية: "يا سيد، كيف تستطيع أن تفعل هذا بي؟ أرجوك خلّصني من ألمي أيها المحترم!" ولكنّ أحداً لم يكلّف نفسه بإلقاء مجرد نظرة عليه. كان الرجل مريضاً منذ أن كنا في باغرام. وجدته في الزنزانة المجاورة لزنزانتنا، كان يتقيأ طوال الوقت. شعرت بالحزن الشديد عليه، لكنني ضحكت في الوقت ذاته. هل لك أن تصدّق هذا، نعم لقد ضحكت بغباء! ضحكت ليس عليه وإنما على الموقف. في البداية خاطبهم بالعربية حيث لم يفهمه أيٌّ من الحرّاس. وفيما بعد ناداهم بـ"الرجال المحترمين"، التسمية التي ليس لهم فيها أي نصيب.

لقد استمتعت في البداية بأشعة الشمس ولكن حرارتها ارتفعت بمرور الوقت. بدأت أتعرّق مع شعور بالإرهاق الشديد من وضعية التركيع التي اضطررت البقاء فيها حوالي ست ساعات. كان أحد الحرّاس ينادي بين فينةٍ وأخرى: "تريدون الماء!"، "تحتاجون الماء!". لا أتذكر أنّي طلبت الماء، ولكني على الأرجح طلبته. كانت عصابة العينين لا تزال ملتصقة بي. ولكن ابتهاجي هو أن أكون في سجن تأديبي مع أناس آخرين يمكن التواصل اجتماعياً معهم، في مكان لا يوجد فيه تحقيق أو تعذيب. نسيت ألمي في غمرة هذا الابتهاج، وربما أيضاً لأنني لا أعرف كم سيطول هذا الاحتجاز. ولهذا لم أفتح فمي بأي شكوى أو تذمّر، في حين كان الكثير من الأخوة من حولي يتذمّرون، وحتى يبكون. أعتقد أنني وصلت إلى حدّ الألم النهائي منذ وقتٍ طويل قبل الآن.

كنت شبه ميت في الوقت الذي تمّت فيه الإجراءات المتعلقة بفحصنا. كانت الأولوية للأشخاص الذين تأذوا كثيراً على متن الطائرة مثل ████████████████ ████████████. وأخيراً سحبني حارسان من المرافقة إلى عيادة الطبيب. هناك جردوني من الملابس فأضحيت عارياً تماماً، ومن ثم دفعوني إلى تحت "الدوش" المفتوح. أخذت الدوش بالقيود وعلى مرأى من الكلّ – أخوتي والأطباء والجنود. إن الأخوة الذين سبقوني كانوا لا يزالون عراة تماماً. كان الأمر كريهاً، ومع أن الدوش

كان مهدئاً فإنني لم أستمتع به. نشّفني الحرّاس ثم أخذوني إلى الخطوة التالية. خضع جميع المعتقلين للفحص الطبي، حيث أخذوا المعلومات عن الوصف البيولوجي لكل شخص، أطوالهم وأوزانهم وآثار الندوب على أجسادهم، وجرّبوا التحقيق الأول داخل العيادة.

كان المشهد كخطّ لإنتاج السيارات. سرت على خطى الذي سبقني، وهو على خطى الذي سبقه، وهلم جرا. سألني الممرض الشاب:

- هل لديك أية أمراض معروفة؟

- نعم، العصب الوركي، وهبوط غير سوي في ضغط الدم.

- أي شيء آخر؟

- هذا كل شيء.

- أين اعتقلوك؟

- لم أفهم. أجبت. كرّر الطبيب سؤال الممرض ولكني لم أفهم أيضاً. كان يتكلم بسرعة كبيرة.

عندئذٍ قال الطبيب: لا بأس! أومأ لي أحد الحرّاس بوضع إحدى يديه على الأخرى. عندها فهمت سؤال الطبيب.

- اعتقلوني في بلدي.

- ومن أي بلد أنت؟

- موريتانيا.

أجبت على سؤاله في الوقت الذي كان الحرّاس يسحبونني إلى الخطوة التالية. من المفترض أن لا يحقق الأطباء مع المعتقلين، ولكنهم يفعلون ذلك على أية حال. استمتعت بالحديث مع الجميع بغضّ النظر إذا ما كانوا يخترقون القوانين أم لا.

كان الجو بارداً داخل المستشفى الذي كان مكتظاً بالناس. منّيت نفسي بالعزاء عندما رأيت المعتقلين الآخرين الذين يعانون كما أعاني، وخاصةً عندما ألبسونا بذلات برتقالية اللون. كان المحققون متنكرين بين الأطباء لجمع المعلومات.

سألني مدني عجوز من بقايا استخبارات الحرب الباردة: هل تتكلّم الروسية؟ لقد حقق معي هذا الشخص مرتين فيما بعد وأخبرني أنه كان يعمل ذات يوم مع

██████، وهو زعيم مجاهدي في أفغانستان، أثناء الحرب مع السوفييت اعتاد، كما يتطلّب الواجب، أن يسلّم المعتقلين الروس إلى الولايات المتحدة. وأخبرني قائلاً: "أنا من حقق معهم. هم الآن مواطنون أميركيون ومن بينهم أفضل أصدقائي". ادّعى أنه مسؤول عن قسم في قوى المهام الخاصة في غوانتانامو. كان المحققون من أمثاله ينسلّون بين المعتقلين ويسعون للتحدث "ببراءة" معهم، ولكنهم في الواقع عكس ذلك، فهم قساة للغاية في تعاملهم مع الآخرين، وبكلمة واحدة: أفظاظ.

قادني المرافق إلى غرفة مليئة بالمعتقلين والمحققين الذين كانوا على رأس عملهم.

– ما اسمك؟ من أين أنت؟ هل أنت متزوج؟

– نعم!

– ما اسم زوجتك؟

لقد نسيت اسم زوجتي وأسماء العديد من أفراد أسرتي أيضاً بسبب الحالة المتواصلة لنقص النشاط المقرون بالكآبة على مدى الأشهر التسعة الماضية. عرفت أنهم لن يشتروا هذه البضاعة لذا قلت:

– زينبو. وهو مجرد اسم خطر على بالي في تلك اللحظة.

– ما هي اللغات التي تتحدث بها؟

– العربية والفرنسية والألمانية.

حينئذٍ سألني المحقق ذي البزّة الذي كان يساعد ██████████████ ██████ في الكتابة على الكمبيوتر المحمول (اللابتوب):

– Sprechen Sie Deutch? (هل تتكلم الألمانية)

فسألته بدوري:

– ?██████ Bist du (هل هذا أنت يا...)

صُعق ██████ عندما ذكرت اسمه.

– من الذي أخبرك عني؟

– ██████، في باغرام!

شرحت له أن ██████ في باغرام أخبرني عن ██████ في

حال احتجت إلى مترجم ألماني في غوانتانامو.[1] حينها قال:

– سنواصل الحديث بالإنكليزية ولكن بلغة سهلة جداً.

لقد تجنبني ██████ طوال المدة التي قضاها في غوانتانامو.

كنت أستمع إلى التحقيق مع معتقل تونسي.

– هل تدرّبت في أفغانستان؟

– كلا.

– ليكن لديك العلم أننا، إن كذبت علينا، سنحصل على المعلومات من تونس.

– أنا لا أكذب.

استُؤنف الفحص الطبي. أخذ مني مجنّد البحرية في الإسعافات الأولية ████ ████ ألف أنبوب وأنبوب من الدم. شعرت أنني سيُغمى عليّ أو سأموت. أظهر الفحص وجود ضغط في الدم لدي، كان ضغطي ١١٠ على ٥٠، وهذا يعني أنه كان منخفضاً للغاية. أعطاني الطبيب على الفور بعض الأقراص الحمراء لرفع ضغط الدم. التقطوا لنا الصور بعدها. كرهت ذلك كثيراً لأنهم لم يقيموا أي وزن أو احترام لخصوصيتي. كنت كلياً تحت رحمة شخص لا أثق به وربما كان قاسي القلب أيضاً. لو لم نكن في ظرف كهذا لابتسم الكثير من السجناء للكاميرا، ولكني شخصياً لم أبتسم، ولا أعتقد أن أي معتقل آخر ابتسم أيضاً في ذاك اليوم، الخامس من شهر أغسطس عام ٢٠٠٢.

بعد سلسلة لا متناهية من الإجراءات أخرجني المرافق من العيادة وهو يقول: "رأسك إلى الأسفل"!

كان الظلام قد حلّ في الخارج حينذاك، ولم أتمكن من معرفة الوقت تماماً. كان الطقس جميلاً. "اجلس"! فجلستُ في الخارج مدة نصف ساعة تقريباً قبل أن يقلّوني ويضعوني في غرفة مربوطاً بقفل بأرض الغرفة. لم ألحظ القفل، كان شيئاً جديداً عليّ. اعتقدت أن الغرفة ستكون بيتي في المستقبل.

كانت الغرفة مجرّدة من الأثاث ما عدا كرسيين ومقعد. لا توجد فيها أية علامة تدلّ على الحياة. "أين المعتقلون الآخرون؟" سألت نفسي. ازداد قلقي، فقررت

[1] لعل محمدو ولد صلاحي يشير هنا إلى محققه الناطق بالألمانية في أفغانستان.

الخروج من الغرفة في محاولة للعثور على أصحابي، المعتقلين الآخرين، ولكن ما أن هممت بالنهوض حتى أوقعتني السلسلة أرضاً على نحو مؤلم. حينئذٍ فقط أدركت وجود شيء يعاكس افتراضاتي، وتبيّن لي أنني كنت في التحقيق، في كلتا المرتين، في ■■■■■■■■، وهو مبنى له تاريخ.

دخل ثلاثة رجال على حين غرة، وكانوا: الرجل الذي تحدّث إليّ في العيادة قبل الآن، و ■■■■■■■■، و ■■■■■■■■ الذي كان يعمل كمترجم.[١]

سألني بلكنة فرنسية ثقيلة:

– Comment vous vous appelez? (ما اسمك؟)

أجبته:

– Je m'appelle... (اسمي...)

وتلك كانت نهاية ■■■■■■■■. كان المحققون يميلون دائماً إلى إحداث عامل المفاجأة كتقنية في التعامل.

لمحت أحد الرجال يراقبنا. كانت الساعة حوالي الواحدة بعد منتصف الليل، كنت في حالة يرثى لها حيث كانت وظائف جسمي كلها مضطربة، ولكنني كنت يقظاً تماماً بالرغم من الساعات الثماني والأربعين التي قضيتها بلا نوم. أراد المحققون أن يستخدموا ذاك الضعف الذي ألمّ بنا لتسهيل عملية التحقيق معنا. لم يقدّم إليّ أي طعام أو ماء.

قاد ■■■■■■■■ التحقيق وكان ■■■■■■■■ مترجماً جيداً. لم يحصل

---

١ قاد مكتب التحقيقات الفيدرالي تحقيقات محمدو ولد صلاحي في الأشهر الأولى التي قضاها في غوانتانامو، حيث شنّ المكتب معركة مدعومة بالوثائق لإبقائه بعيداً عن أيدي المحققين العسكريين. "وقد كتب المفتش العام التابع لوزارة العدل: طلب مكتب التحقيقات الفيدرالي مقابلة صلاحي بعد وصوله إلى غوانتانامو مباشرةً. وقد قابل كل من مكتب التحقيقات الفيدرالي وعملاء قوة المهام صلاحي في الأشهر القليلة التالية، مستخدمين في مقابلتهم تقنيات الونام البنّاء". وفي جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإدارية في عام ٢٠٠٥ وصف صلاحي "رجل مكتب التحقيقات الفيدرالي" الذي استجوبه لفترة قصيرة بعد وصوله والذي أخبره: "نحن لا نضرب الأشخاص ولا نمارس التعذيب، إنه غير مسموح". سيتبيّن فيما بعد أن ذاك المحقق هو المحقق الأساسي في هذا المشهد وربما أيضاً "الرجل الكبير" الذي يظهر في جلسة تالية. (المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص١٢٢؛ هيئة إعادة النظر الإدارية، ص ٢٣).

الرجل الآخر على فرصة طرح الأسئلة بل كان يسجّل الملاحظات فقط. لم يأتِ ████ ██████ بمعجزة، فكلّ ما فعله هو أنه طرح عليّ بعض الأسئلة التي يطرحونها عليّ منذ ثلاث سنوات دون انقطاع. لقد تحدّث ████████ بلغة إنكليزية واضحة جداً بحيث أنني كدت أستغني عن المترجم. يبدو أنه كان شخصاً ذكياً وذا تجربة. وعندما تقدّم بنا الليل شكرني ████████ على تعاوني وقال لي: "أعتقد أنك منفتح جداً. سنحلّ وثاقك في المرة القادمة، وسنجلب لك شيئاً من الطعام. لن نعذبك، ولن نرحّلك إلى بلد آخر". أسعدتني ضمانات ████████ ومراعاته لتعاوني.

ومما تبيّن فإمّا أن ████████ كان يخدعني بهذا التعامل، أو أنه لم يكن مطّلعاً على خطط الحكومة.

غادر الرجال الثلاثة الغرفة وأرسلوا فريق المرافقة إليّ حيث قادوني إلى زنزانتي. كانت الزنزانة تقع في المبنى ████████، وهو كتلة ضخمة من أجل عزل السجناء.[1] كنت السجين الوحيد الذي اختير من بين مجموعتنا المؤلفة من أربعة وثلاثين معتقلاً لإجراء التحقيق معه. لم تكن هناك علامة على وجود حياة في المبنى، مما شكّل لدي الاعتقاد بأنني الساكن الوحيد فيه. فعندما رماني الحارس في الصندوق البارد الصقيعي شعرت بالرعب خلف الباب المعدني الثقيل. حاولت إقناع نفسي بأنه مكان مؤقت وأنهم في الصباح سينقلونني إلى حيث يقيم المعتقلون الآخرون. هذا المكان لا يمكن أن يكون إلاّ لقضاء ما تبقّى من الليل! في الواقع قضيت شهراً كاملاً في ████████.

كانت الساعة حوالي الثانية بعد منتصف الليل عندما ناولني الحارس وجبة جاهزة. أكلت ما استطعت. لم تكن لديّ شهية للطعام. وعندما فتشت أشيائي وجدت نسخة جديدة من القرآن، الأمر الذي أبهجني، فقبّلتُ القرآن ومن ثم نمت على الفور. نمت

١ في ٣ مارس ٢٠٠٣ أعطت إدارة كامب دلتا التوجيهات بخصوص السجناء الواصلين بحيث تتم تكملة أمورهم الإدارية وفق المعايير المتّبعة ويسجنوا مدة أربعة أسابيع في المبنى المعزول أمنياً وذلك "لتعزيز واستغلال الإرباك وعدم التنظيم الذي يشعر به المعتقل الذي يصل حديثاً في عملية التحقيق"، و"لتشجيع اعتماد المعتقل على محققه". الوثيقة متاحة على الرابط:
http://www.comw.org/warreport/fulltext/gitmo-sop.pdf (hereafter cited as SOP).

نوماً عميقاً لم أشهده من قبل.

أيقظتني صيحات السجناء في الصباح الباكر. لقد دبّت الحياة فجأةً في ████ ██████████████████████. وعندما وصلت باكراً ذلك الصباح لم أفكّر قط أن يتم تخزين الناس في مجموعة من الصناديق الباردة. اعتقدت بأنّي الوحيد فيه، ولكنني كنت مخطئاً، فأصدقائي من المعتقلين كانوا مرهقين نظراً للعقوبة القاسية التي عانوها في الرحلة التي أصبحت الآن جزءاً من الماضي. وبينما كان الحرّاس يقدّمون الطعام كنا نتعرف على بعضنا البعض. لم نستطع رؤية بعضنا البعض بسبب تصميم المبنى، ولكننا استطعنا سماع بعضنا الآخر.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
- من أين أنت؟
- أنا من موريتانيا... من فلسطين... من سوريا... من المملكة العربية السعودية...!

صاح أحدهم: أكاد أتجمد.

- قضيت الرحلة كلها نائماً. أجاب ██████.
- لماذا وضعوا الرقعة على أذني؟ قال الثالث.

سألت: من كان أمامي في الشاحنة؟ كان يتحرك باستمرار مما جعل الحرّاس يضربونني من المطار حتى المخيم.

كنا ننادي بعضنا البعض باستخدام أرقام ISN التي خُصّصنا بها عندما كنا في باغرام. رقمي كان ██████.[1] وفي الزنزانة المجاورة من جهة اليسار كان ████ ████ من ██████. كان عمره حوالي ████████████████ ████. لقد ميّزت أحد الموريتانيين، مع أنّه لم يعش أبداً في موريتانيا، ميزته من لهجته ██████. وعلى يميني كان هناك رجل من ████████. كان يتحدث بعربية ركيكة وادّعى أنه اعتقل في كراتشي حيث كانوا يدرسون في الجامعة.

١ لقد ظهر الرقم قبل الآن غير مشطوب، ووزارة الدفاع أعلمت رسمياً بأن رقم محمدو ولد صلاحي ISN هو ٧٦٠. انظر مثلاً قائمة المعتقلين لوزارة الدفاع المنشورة للعامة على الرابط:
http://www.defense.gov/news/may2006/d2006051520%list.pdf.

وأمام زنزانتي وضعوا السودانيين إلى جانب بعضهم البعض.[١]

كان الفطور متواضعاً: بيضة مسلوقة وقطعة من الخبز الناشف وشيء آخر لا أعرف اسمه. وكانت هذه وجبتي الساخنة الأولى منذ أن غادرت الأردن. آه، كان الشاي ملطّفاً! أحبّ الشاي أكثر من أي شراب آخر. يعدّ الشاي مشروباً أساسياً للناس في المناطق الحارة، يبدو في الأمر تناقضاً ولكنه صحيح على أية حال.

كان صياح الناس يعلو فوق المكان بأحاديثهم المميّزة. كان شعوراً جميلاً أن ترى الناس يعيدون رواية قصصهم. لقد عانى الكثير من المعتقلين، وتفاوتت معاناتهم من شخص إلى آخر. لم أعتبر نفسي من بين الذين عانوا الأسوأ، ولا الأكثر حظاً. اعتقل بعض الناس مع أصدقائهم، وأصدقاؤهم اختفوا عن وجه الأرض، لا بدّ أنهم أُرسِلوا إلى بلدان حليفة لإجراء التحقيقات باستخدام التعذيب معهم، مثل ████ ████. اعتبرت الوصول إلى كوبا نعمة وهذا ما قلته لأختي أيضاً: "بما أنكم لستم متورطين في الجرائم، عليكم ألاّ تخافوا. شخصياً سأتعاون طالما أن أحداً لن يعذّبني. لا أريد لأيٍّ منكم أن يتعذّب كما تعذبت أنا في الأردن. في الأردن لا يقدّرون تعاونك معهم إلاّ بشق النفس".

اعتقدت بتقدير خاطئ أن الأسوأ قد مضى، لذا لم أبالِ كثيراً بالفترة الزمنية التي ستستغرق مع الأميركيين ليكتشفوا أنني لست الشخص الذي يبحثون عنه. أثق بنظام العدالة الأميركية، كما أنني أجدّد ثقتي بالمحققين من البلدان الأوروبية. لدينا جميعاً تصور حول كيفية عمل النظام الديمقراطي. ولكن معتقلين آخرين من الشرق الأوسط، مثلاً، لا يصدقون ذلك، وبالتالي لا يثقون بالنظام الأميركي. يتركّز نقاشات هؤلاء على عداء المتطرفين الأميركيين للمسلمين والعرب. ويوماً بعد يوم بدأ المتفائلون يفقدون الأمل. بدأتْ أساليب التحقيق تزداد سوءاً مع مرور الوقت، وسترون كيف أنّ المسؤولين عن غوانتانامو اخترقوا كل المبادئ التي بنيت عليها الولايات المتحدة،

١ ربما يشير محمدو ولد صلاحي هنا إلى محمد الأمين (ISN 706) الذي ولد في موريتانيا ولكنه انتقل إلى المملكة العربية السعودية من أجل الدراسة الدينية، وإبراهيم فوزي (ISN 730) الذي من جزر المالديف، وصل الاثنان إلى غوانتانامو مع محمدو ولد صلاحي في ٥ أغسطس ٢٠٠٢، أطلق سراح الاثنين. انظر:
http://projects.nytimes.com/guantanamo/detainees/706-mohammad-lameen-sidi-mohammad;and http://projects.nytimes.com/guantanamo/detainees/730-ibrahim-fauzee.

ووجدت طريقة للتحايل على كل مبدأ عظيم مثل مبدأ بن فرانكلين القائل: "إنَّ أولئك الذين يتخلّون عن الحرية الأساسيّة لكسب أمانٍ موقّتٍ لا يستحقون لا الحرية ولا الأمان".

جميعنا يرغب في التعويض عمّا فاته لأشهر من الصمت الإجباري. أردنا أن نزيل كل أشكال العذاب والغضب عن صدورنا، واستمعنا إلى قصص بعضنا بعضاً المذهلة على مدى ثلاثين يوماً، حتى حان وقت الانتقال إلى المبنى ■■■■■. وعندما تمّ توزيعنا بعد ذلك على مبانٍ أخرى بكى العديد من السجناء لأنّهم ابتعدوا عن أصدقائهم الجدد. وأنا بكيت أيضاً.

وصل ■■■■■ من فريق المرافقة إلى زنزانتي. "■■■■■ ■■■■■"! قال لي أحد عناصر الشرطة العسكرية، وهو يحمل سلسلة طويلة في يده. إنّ ■■■■■ هي كلمة السر المعتمدة من أجل الأخذ إلى التحقيق.[1] مع أنني لم أعرف إلى أين تمضي بي الأمور، فقد اتبعت أوامرهم بعقلانية حتى سلموني إلى المحقق. كان اسمه ■■■■■، ويلبس بزّة عسكرية للجيش الأميركي. وهو أحد ■■■■■ ■■■■■ ■■■■■، رجل يحمل كل التناقضات التي يمكن تخيّلها. يتكلم العربية بشكل جيد، بلكنة ■■■■■، يمكنك أن تقول إنه كَبُر بين أصدقاء ■■■■■.[2]

---

١ الكلمة على الأرجح هي Reservation (الحجز)، وهي تظهر في مواضع أخرى غير مشطوبة. انظر مثلاً "مخطوطة محمدو ولد صلاحي"، ص١٢، ٩٦، ١٢٢.

٢ في هذه الفترة تقريباً كانت فرق التحقيق التابعة لمكتب التحقيق الفيدرالي تضم في صفوفها عناصر من قوة مهام التحقيق في الجرائم التابعة للجيش وعملاءٍ من الاستخبارات العسكرية. يقول تقرير المفتش العام التابع لوزارة العدل: "في مايو ٢٠٠٢ تبنّى كلٌ من مكتب التحقيقات الفيدرالي والجيش "فريق النمر" لاستجواب المعتقلين. وطبقاً للعميل الأول في قضية غوانتانامو كانت هذه الفرق تتألف من عميل من مكتب التحقيقات الفيدرالي ومحلل ولغوي متعاقد ومحققين من قوة مهام التحقيق في الجرائم التابعة للجيش ومحقق من الاستخبارات العسكرية". وجد المفتش العام أنّ "مكتب التحقيقات الفيدرالي قد انسحب من المشاركة في "فريق النمر" في خريف ٢٠٠٢ وذلك بعد نشوب خلافات بين مكتب التحقيقات الفيدرالي من جهة والاستخبارات العسكرية من جهة أخرى على التكتيكات المتعلقة بالاستجواب. أخبر بعض عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي المفتش العام =

كنت مرعوباً عندما دخلت الغرفة في مبنى ████ بسبب سنام الجمل الذي كان على ظهر ████، حيث كان يرشف منه. لم أرَ شيئاً مثل ذلك. اعتقدت أنه أداة ما ليقوم بدور الخطّاف لتعليقي به كجزء من التحقيق. لم أعرف سبباً لخوفي، ولكن ما أعرفه هو أنني لم أرَ ████ من قبل، ولا سنام جمل، ولم أتوقع رجلاً عسكرياً... يبدو أن كلّ هذه العوامل ساهمت في تشكيل هذا الخوف لديّ.

دخل الرجل العجوز الذي حقق معي ليلة أمس ومعه بعض السكاكر، وقدّمها ████ لي. "اخترت ████ لأنّه يتكلّم لغتك. سنسألك أسئلة مفصّلة حول ████. أما أنا فسأغادر الغرفة الآن، ولكن من سيحل مكاني سيهتم بك. إلى اللقاء".

خرج من الغرفة وتركني مع ████ ليبدأ بالعمل.

كان ████ شخصاً ودوداً. كان ████ في الجيش الأميركي حيث يعتبر نفسه محظوظاً في الحياة. أراد ████ أن أكرّر له قصتي كلها، القصة التي رويتها وكررتها مراراً وتكراراً في السنوات الثلاث الأخيرة. اعتدت على المحققين وهم يسألونني الأسئلة نفسها. وحتى قبل أن يحرّك المحقق شفتيه أعرف ما هي أسئلته، لذا فما أن يتكلم المحقق، ذكراً كان أم أنثى، حتى أبدأ بتشغيل "الشريط". ولكن عندما وصلت إلى الجزء المتعلق بالأردن شعر ████ ████ بالأسف الشديد!

قال: "تلك البلدان لا تحترم حقوق الإنسان، بل حتى إنها تعذّب السجناء". ارتحت لكلامه وقلت لنفسي: إذا كان ████ ينتقد أساليب التعذيب القاسية، فذلك يعني أن الأميركيين لن يتبعوا أساليب كتلك. نعم، لم يكونوا يلتزمون بالقانون بحذافيره في باغرام، ولكن ذلك كان في أفغانستان، ونحن الآن في مقاطعة تسيطر عليها الولايات المتحدة.

بعد أن أنهى تحقيقه أرسلني إلى مكاني ووعدني بأنه لن يطلبني ما لم تظهر أسئلة

= بأنهم في الوقت الذي استمروا في علاقتهم الجيدة مع قوة مهام التحقيق في الجريمة فإن علاقتهم ساءت على نحو خطير مع الاستخبارات العسكرية مع مرور الوقت، وبالدرجة الأولى بسبب معارضة مكتب التحقيقات الفيدرالي للطريقة التي تقوم بها الاستخبارات العسكرية في استجواب المعتقلين". (المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص٣٤).

جديدة. أثناء عملية التحقيق طلبت من ████ الذهاب إلى الحمام. سألني "رقم ١ أم رقم ٢؟" كانت هذه هي المرة الأولى أسمع فيها أن يكون قضاء حاجة الإنسان مرقّماً بهذا الشكل. في البلد الذي أعيش فيه ليس اعتيادياً أن تسأل الإنسان ما سينوي عمله في الحمام، وحاجة الإنسان في الحمام ليست مرقّمة.

لم أرَ ████ مرة ثانية في التحقيق. استأنف ████ عمله بعد يومين. كان ████████

████████████

██ هو الآخر رجلاً ودوداً. هو و ████ عملا معاً بصورة جيدة. ولسبب ما كان ████ مهتماً بأن يتولى قضيتي. ومع أن محققاً عسكرياً جاء مع الفريق مرتين وسألني بعض الأسئلة، فإنّ ████ هو الذي له اليد العليا.[1]

عمل الفريق على قضيتي لأكثر من شهر، وبشكل يومي تقريباً. سألوني كل أنواع الأسئلة، وتحدثنا عن مواضيع سياسية أخرى إلى جانب التحقيق. لم يحاول أحد أن يهددني أو يعذبني أبداً، ومن جهتي كنت متعاوناً مع الفريق بأفضل ما يمكن. قال ██ ████: "مهمتنا هي أن نأخذ أقوالك ونرسلها إلى المحللين في مقاطعة كولومبيا، وحتى لو كنت تكذب لا نستطيع أن نعرف ذلك ما لم تصلنا المزيد من المعلومات".

استطاع الفريق أن يجد بوضوح كم أنا مريض، كانت بصمات الأردن وباغرام واضحة. صرت أبدو كشبح.

"حالتك أفضل"، هذا ما قاله لي رجل عسكري عندما رآني بعد ثلاثة أسابيع من وصولي إلى غوانتانامو. لم أستسغ الوجبات الجاهزة. أخرجني الأطباء من زنزانتي وحاولوا أن يأخذوني مشياً إلى المستشفى، ولكن حالما غادرت ████ ██ تهاويت مرة أخرى، مما اضطر الأطباء لحملي إلى العيادة. تقيأت كثيراً إلى أن أصابني الجفاف التام. تلقيت الإسعافات الأولية وأعطوني حقنة في الوريد. كانت الحقنة رهيبة، لا بدّ أنّهم وضعوا فيها دواءً هدّأ من وضعي قليلاً. جفّ فمي تماماً وأصبح لساني ثقيلاً إلى درجة لم أتمكن معها طلب المساعدة. أشرت للممرضين

١ كما يوضح تقرير المفتش العام التابع لوزارة العدل، كان مكتب التحقيقات الفيدرالي هو الذي يحتفظ بالإشراف التام على التحقيق مع محمدو ولد صلاحي خلال عام ٢٠٠٢ وأوائل عام ٢٠٠٣. (المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص١٢٢).

بيدي ليوقفوا تنقيط السائل في جسمي، فاستجابوا لطلبي وأوقفوا السائل.

في وقت متأخر من تلك الليلة أعادني الحرّاس إلى زنزانتي. كنت مريضاً للغاية إلى درجة أنني لم أستطع الصعود إلى سريري، لذا بدأت أنام على الأرض بقية أيام الشهر. وصف لي الطبيب بعض أدوية ضغط الدم و"الأنشور"[1]، وكلّما تأزمت أعصاب ركبي ألماً كان ممرضو البحرية يعطونني الـMotrin.

مع أنني كنت ضعيفاً جداً على الصعيد الجسدي، إلا أن التحقيق معي لم يتوقف. وبالرغم من ذلك كنت أتمتع بمعنويات عالية في المبنى حيث كنا نغنّي وننكت ونروي القصص لبعضنا البعض. وتوفرت لدي الفرصة لأتعرف على المعتقلين النجوم، مثل فضيلة ██████

██████

الذي زوّدنا بآخر الأخبار والشائعات من المعسكر. لقد نُقل ██████ ██████ إلى مبنانا بسبب "سلوكه".[2]

أخبرنا ██████ كيف أنه عُذِّب في قندهار مع معتقلين آخرين. "لقد وضعونا تحت أشعة الشمس لفترة طويلة، وضربونا، ولكن أيها الأخوة لا تقلقوا، لا تعذيب هنا في كوبا. الغرفة مكيفة، حتى أن بعض الأخوة يرفضون الكلام ما لم يُقدّم لهم الطعام. بكيت عندما شاهدت المعتقلين على التلفزيون وهم معصوبو العيون استعداداً لأخذهم إلى كوبا. وتحدث وزير الدفاع الأميركي على التلفزيون زاعماً أن هؤلاء المعتقلين هم من أكثر الناس شرّاً على وجه الأرض. لم أفكر قط أنني سأكون يوماً من الناس الأشرار".

قال ██████

██████ الذي

كان يعمل بوصفه ██████

██████

██████. كان قد اعتُقل مع أربعة من زملائه بعد منتصف الليل، وأمام عيون أولاده

---

1 مادة مغذية تحتوي الكثير من المعادن والفيتامينات، توصف عادةً للمرضى الذي يعانون من الجفاف وسوء التغذية.

2 يوحي السياق أن مبنى كامب دلتا، حيث بقي المعتقلون القادمون مدة الشهر الأول، كان يستخدم كمكان لعقوبة عامة السجناء.

الذين كانوا يبكون. لقد انتُزع من بين أطفاله وزوجته. حدث الأمر ذاته لأصدقائه الذين أكدوا روايته. سمعت عشرات من هذه القصص وكلّ قصة جديدة كانت تنسيني ما قبلها. لم أستطع أن أميّز أي القصص كانت أكثر حزناً ومأساوية، ولكنّها بدأت تبخس قصّتي حتّى، رغم أن المعتقلين كانوا مجمعين على أنّ قصّتي هي الأكثر حزناً. شخصيّاً، لا أعرف. يقول المثل الألماني: "عندما يتحرّك الجيش فإنّ الحقيقة بطيئةٌ جداً على أن تجاريها، لذا فإنها تمكث في الخلف".

قانون الحرب قاسٍ، وإذا ما كان هناك أي شيء إيجابيّ في الحرب فهو أنّها تُخْرِج أفضل الناس وأسوأهم من أحشائها على حدٍّ سواء. يتصرف بعض الناس بعيداً عن رقابة أيّ قانون لإيقاع أكبر الأذى بالآخرين، في حين يحاول بعضهم الآخر تقليل الأذى والمعاناة إلى الحدّ الأدنى.

في الرابع من سبتمبر من العام ٢٠٠٢ نُقلتُ إلى ██████████، وهكذا فقد وضع المحقّقون نهايةً لعزلتي بوضعي بين عامّة السجناء. من جهة كان صعباً عليّ أن أفارق الأصدقاء الذين أقمت معهم علاقة طيبة للتو، ومن جهة أخرى كنت مبتهجاً بذهابي إلى بناءٍ عاديٍّ لا حياة فيه، كوني سجيناً نصف ميت، تعبت من كوني سجيناً "خاص" أطوفُ بكلّ أصقاع العالم رغماً عنّي.

وصلتُ ██████████ قبل غروب الشمس، وللمرّة الأولى منذ أكثر من تسعة أشهر وضعوني في زنزانة استطعت أن أرى السهل منها،[1] وللمرّة الأولى كنت قادراً على التحدّث إلى أصحابي وأنا أراهم. وضعوني في ██████████ بين سعوديَين من الجنوب. كلاهما كان شخصاً ودوداً مسلّياً. اعتُقل الاثنان في ██████████
██████████.

عندما حاول السجناء أن يفرّوا من أسر الجيش الباكستاني، الذي كان يعمل بالنيابة عن الولايات المتّحدة، حاول أحدهم، وكان جزائريّاً، أخذ بندقية من نوع AK47 من

١ ربما يقصد محمدو بـ"السهل" ذاك المنظر الريفي الكوبي المحيط بالمخيّم، ويبدو من المخطوطة أنّ محمدو ولد صلاحي احتُجز في مبنيين أو ثلاثة مبان مختلفة في كامب دلتا لعدّة أشهر تالية، بما فيها مبنى كان يضمّ معتقلين من بلدان أوروبية وأفريقية (مخطوطة محمدو، ص٦٢). كما أنّ محمدو أشار في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإداريّة إلى أنّه أقام في مبنى كامب توروز مايك في يونيو ٢٠٠٣ (هيئة إعادة النظر الإدارية، ص٢٦).

الحارس ██████ وقتله. في العراك الصاخب أكّد أنّ سجناء ██████ ███ - الذين سيطروا على ██████، فهرب الحرّاس وهرب السجناء أيضاً - إلى حيث كانت فرقة من الجيش الأميركي تنتظرهم، فتمّ القبض عليهم مرّة أخرى.

سبّبت حادثة ██████ العديد من الإصابات والجرحى. شاهدتُ سجيناً جزائريّاً كان معاقاً تماماً نظراً لمقدار الرصاصات التي أصابته.

قضيتُ وقتاً طيّباً في ██████ في البداية، ولكن بدأت الأمور تتفاقم سوءاً وذلك عندما بدأ عدد من المحقّقين بممارسة أساليبٍ للتعذيب على بعض المعتقلين، مع أنّها كانت أساليب مُخجلة، بقدر ما سمعتُ ورأيت، ولكنّ الأسلوب الوحيد الذي مورس في البداية هو الغرفة الباردة طوال الليل. أعرف أنّ شابّاً سعوديّاً كان يؤخذ إلى التحقيق كلّ ليلة ثمّ يُعاد إلى زنزانته في الصباح. لا أعرف بالضبط التفاصيل التي حدثت معه، لأنّه كان هادئاً للغاية، ولكنّ جيراني أخبروني بأنّه رفض التكلّم مع محقّقيه ██████

██████،

كما أنّهم أخبروني بأنّه وُضع في الغرفة الباردة لليلتين متتاليتين لأنه رفض التعاون.

كان معظم المعتقلين حتّى ذلك الحين يرفضون التعاون، وذلك بعدما شعروا بأنّهم قدّموا كلّ ما عندهم. لقد كانوا يائسين ومرهقين من التحقيق المتواصل معهم، ودون أن يكون هناك أي أمل في الأفق.

كنت شخصاً جديداً نسبيّاً وأردتُ أن آخذ فرصتي: ربّما كان أصدقائي السجناء مخطئين! ولكنّي اصطدمت بالجدار القرميدي نفسه كما اصطدم آخرون. وبدأت حالة القلق تتعاظم لدى السجناء بسبب وضعهم، وبسبب غياب الإجراءات القانونيّة المتوقّعة، حتّى أنّ الوضع ازداد سوءاً مع استخدام الأساليب المؤلمة في التعذيب لانتزاع المعلومات من المعتقلين.

حوالي منتصف سبتمبر ٢٠٠٢ جرّني أحد ██████

██████

██████ إلى التحقيق وقدّموا أنفسهم على أنّهم الفريق

الذي سيقوم على تقييمي للشهرين القادمين.[1]

- كم من الوقت سيستمرُّ التحقيق معي؟
- طالما لدى الحكومة أسئلة توجّهها إليك.
- كم سيستغرق الوقت؟
- أستطيع أن أخبرك فقط بأنّك لن تقضي أكثر من خمس سنوات هنا. قال ■■■■. كان هذا الفريق يتواصل معي من خلال مترجم عربي بدا أنّه ■■■■.
- ألن تطرح الأسئلة نفسها عليّ مرّاتٍ عديدة؟
- كلا، لدينا أسئلة جديدة.

ولكن تبيّن أنّهم يسألونني الأسئلة ذاتها التي طُرحت عليّ في السنوات الثلاث الأخيرة، ومع ذلك كنت أتعاون معهم على مضض. بصراحة لم أجد أية فوائد في التعاون، أردت فقط معرفة كم ستطول الأمور وإلى أين تتجه.

في نفس الفترة تقريباً جرّني محقق ■■■■ ■■ إلى التحقيق. كان ■■■■ له لحية قصيرة مشذّبة، وكان يتكلّم بلكنة ■■■■. كان مستقيماً معي، حتى أنه شاركني في ■■■■ عني. كان ■■■■ مستقيماً، يتكلم ويتكلم ومن ثم يتكلم المزيد. كان مهتماً بي ليجعلني أعمل لصالحه، كما حاول مع آخرين من عرب شمال أفريقيا.[2]

في الخميس التالي رتبت لقاءً مع ■■■■.

- هل ستتحدث إليهم.

---

١ حدث هذا ضمن الفترة التي كان فيها ملف التحقيق مع محمدو ولد صلاحي في يد FBI، وهذا الفريق سيكون على الأرجح فريقاً آخر من الـFBI لقيادة التحقيق معه. (انظر إلى الهامش في الصفحة ٤٤ - في النص الأصل).

٢ قد يكون هذا المحقق من وكالة الاستخبارات المركزية في ٢٠٠٣. نشرت الأسوشيتد برس في تقرير لها بأن عملاء من CIA في غوانتانامو طلبوا بين عام ٢٠٠٢ و٢٠٠٥ تجنيد معتقلين ليخدموا كمخبرين وعملاء مزدوجين للولايات المتحدة. كما أن CIA ساعدت على تسهيل التحقيقات بواسطة عملاء الاستخبارات الخارجية في غوانتانامو. آدم كولدمان ومات أبوزو: "بيني لين" هو سجن آخر لـ CIA في غوانتانامو. أسوشيتد برس، ٢٦ نوفمبر ٢٠١٣. انظر:
http://bigstory.ap.org/article/penny -lane -gitmos -other-secret -cia-facility.

– نعم سأتحدث إليهم. تلك كانت الكذبة الأولى التي اكتشفتها، لأن ▬▬ قال لي: "لن تحقق معك حكومة أجنبية هنا، فقط نحن الأميركان"! ▬▬
في الواقع سمعت أن العديد من السجناء يتم التحقيق معهم من قبل محققين غير أميركيين كـ ▬▬

▬▬▬ يقدّمون المساعدة للولايات المتّحدة لانتزاع المعلومات من معتقلي الـ ▬▬▬▬▬▬▬.

إنّ محقّقي ▬▬▬▬▬ و ▬▬▬▬▬ هدّدوا بعض الذين يحقّقون معهم بالتعذيب عندما يعودون إلى بلدانهم.

قال المحقّق ▬▬▬▬▬: "آمل أن أراك في مكانٍ آخر لـ ▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬".

– إذا التقينا في تركستان سنتحدّث كثيراً! قال المحقّق ▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬.[1]

لكني لم أكن خائفاً من التحدّث إلى أيّ شخص كان، فأنا لم أرتكب أيّة جريمة ضدّ أحد. حتّى أنّني أريد التكلّم لأثبت براءتي بما أنّ الشعار الأميركي هو: "معتقلو غوانتانامو مدنيون حتّى يثبت العكس".

كنت أعرف ما الذي ينتظرني عندما تحين الفرصة لـ ▬▬▬▬▬ المحققين لأفضي ما في صدري من كلام.

جاء اليوم الذي أخذني فيه الحرّاس إلى ▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬ ▬▬، حيث يقابل المعتقلون عادةً ▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬▬

١ يبدو أنّ الأسئلة موجّهة لمعتقلين مختلفين. فكلمة "تركستان" غير المشطوبة في هذا المقطع توحي بأنّ محمدو ولد صلاحي ربمّا يشير إلى التحقيقات المتعلّقة بمعتقلي إثنية الأويغور من قبل الاستخبارات الصينية في غوانتانامو. ونقلت تقارير حول هذه التحقيقات بأنّها كانت تسبقها فترات طويلة من الحرمان من النوم والتلاعب بدرجات الحرارة، وقد ظهرت هذه المعلومات أولاً في تقرير المفتّش العام التابع لوزارة العدل في مايو ٢٠٠٨، تحت عنوان "استعراض عمل FBI ومراقبته لتحقيق المعتقلين في خليج غوانتانامو وأفغانستان والعراق. وأوردت *McClatchy Newspapers* في تقريرها أنّ التحقيقات جرت لمدّة يوم ونصف اليوم في سبتمبر ٢٠٠٢. انظر:
http://www.mcclatchydc.com/200972000/16/07//uighur-detainees-s-helped-chinese.html.

███

███████████.

سيّدان ████████████ اثنان كانا يجلسان إلى أطراف الطاولة، نظرتُ إليهما وكانا مربوطين بأرضيّة الغرفة. ██████ ███ ████████████████████، الذي لعب دور المحقّق السيّئ في أثناء التحقيق، لم يعرّفني بنفسه، وهذا كان مخالفاً تماماً لـ ██████ ████████، لقد جلسا فقط أمامي كشبحَين، مثلهم في ذلك مثل جميع المحقّقين السرّيين.[1]

– هل تتكلم الألمانية أم سنحتاج إلى مترجم؟ سأل ████████.

– أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى مترجم.

– حسناً، لا بد أنك تفهم جدية القضية. لقد قدمنا من ███████ لإجراء لقاء معك. لقد قُتل أناس. واصل العجوز كلامه.

– منذ متى يُسمح لكم بالتحقيق مع الناس خارج ████████؟

– لسنا هنا لمناقشة الأرضية القانونية لأسئلتنا.

حينئذٍ قلت: ربما أتمكن في المستقبل من التحدث إلى الصحافة وأصرفكما من العمل. مع أنني لا أعرف اسميكما، لكنني سأتذكر صوركما مهما طال الزمن.

– بإمكانك قول ما تشاء، لن تؤذينا! نحن نعرف ما نفعل. قال أحدهم.

– إذاً واضح جداً، أيها السيدان، أنكما تستغلان عدم قانونية هذا المكان لانتزاع المعلومات مني.

– ███████ صلاحي إذا أردنا ذلك بإمكاننا أن نطلب من الحرّاس تعليقك

---

١ الزوار ألمان على الأرجح. نقلت صحيفة دير شبيغل في عام ٢٠٠٨ أنه في سبتمبر ٢٠٠٢ أجرى عضوان في دائرة المخابرات الفيدرالية وعضو في مكتب حماية القانون ووكالتي الاستخبارات الألمانية المحلية والخارجية مقابلات مع محمدو ولد صلاحي لمدة تسعين دقيقة في غوانتانامو. ويظهر أن صلاحي يشير إلى اثنين من هؤلاء الزوار، أحدهما كبير في العمر والآخر صغير وهما جون غيتز ومارسيل روزنباخ ("سيرة السجين ٧٦٠"، دير شبيغل، ٩ أكتوبر ٢٠٠٨). انظر:
http://www.spiegel.de/international/world/from-germany-to-guantanamo-the-career-of-prisoner-no-760-a-583193.html.

على الجدار وضربك على قفاك![1]

عندما ذكر بطريقة ملتوية ما كان يفكّر به أساساً بدأ قلبي بالخفقان، لأنني كنت أحاول التعبير عن نفسي بحذر وفي الوقت نفسه أتجنّب التعذيب.

– بإمكانك أن تخوفني ولكنك لا تتحدث إلى طفل. إذا ما واصلت الحديث معي بهذه اللهجة فبإمكانك أن تحزم أمتعتك وتعود أدراجك إلى ██████.

قال ██████: لسنا هنا لمحاكمتك أو ترهيبك، سنكون شاكرين لك إذا ما أجبت عن سؤالين فقط مما لدينا.

– اسمعوا، تعرفون أنني عندما كنت في بلدكم لم أتورط في أية جريمة كانت. ممّا تخافون إذاً؟ كما أن بلدكم غير مهدّد. عشت في بلدكم بسلام ولم أعتدِ قط على ضيافتكم لي. أنا مدين لبلدكم بما قدمه لي، ولا أطعنكم في الظهر. إذاً أية مسرحية تريدون أن تمثّلوها عليّ؟

– ██████ صلاحي، نعرف أنك بريء، ولكن لسنا من اعتقلك، بل الأميركان. لسنا هنا بالنيابة عن الولايات المتحدة. إننا نعمل لصالح ██████ ██████، وفي الآونة الأخيرة أفشلنا بعض المؤامرات السيئة. نعرف أنك من المحتمل لا تعرف شيئاً عنها، ولكننا نريد أن نسألك فقط عن شخصين، ██████، وسنكون شاكرين لك إن أجبت عن أسئلتنا.

– إنه لأمر غريب أن تكونوا قد قطعتم كل هذه المسافة لتسألوني أسئلة تتعلق بأشخاص من شعبكم! هذان الشخصان هما من أصدقائي الحميمين. اجتمعنا في جوامع واحدة، ولكني لا أعرف ما إن كانا متورطَين في أية عمليات إرهابية.

لم تدم الجلسة أكثر من هذا. سألوني عن أموري وعن حياتي في المعسكر ومن ثم غادروا مودّعين. لم أرَ ██████ قط بعد ذلك. في حين ظلّ ██████ ██████ يسألونني.

– هل تعرف هذا الرجل؟ سألني ██████.

---

1 على الأرجح العبارة هي: "Herr Salahi" (السيد صلاحي – المترجم)، و"Salahi" هي تسمية مختلفة للاسم الأخير لـ "MOS" (محمدو ولد صلاحي – المترجم) المستخدم في وثائق المحكمة في الولايات المتحدة؟

– كلا لا أعرفه. أجبت بصراحة.
– ولكنه يعرفك!
– أخشى أن تكون بحوزتك إضبارة أخرى غير إضبارتي!
– كلا، لقد قرأت إضبارتك بالكامل.
– هل بإمكانك أن تريني صورته؟
– نعم، سأريك صورته غداً.
– حسناً. لعلي أعرفه باسم آخر!
– هل تعرف أي شيء عن القواعد الأميركية في ألمانيا؟
– لماذا تسألني هذا السؤال؟ أجبته بغضب. لم أذهب إلى ألمانيا لأدرس القواعد الأميركية، حتى أنني لست مهتماً بها بأي شكل من الأشكال.
– شعبي يحترم المعتقلين الذين يقولون الحقيقة! قال ■■■■■، بينما كان ■■■■■ يدوّن الملاحظات.

التقطت إشارته بأنه يقول لي إنك كذاب بطريقة غبية. أُنهيت الجلسة.

في اليوم التالي ■■■■■ أبقوني في الـ ■■■■■ وأروني صورتين. وتبيّن أن الصورة الأولى كانت لـ ■■■■■، الذي اشتُبه به بأنه شارك في هجمات الحادي عشر من سبتمبر والذي اعتقل ■■■■■. والصورة الثانية كانت لـ ■■■■■ أحد مختطفي الطائرات في الحادي عشر من سبتمبر. بالنسبة لـ ■■■■■، لم أكن سمعت به قط ولم أره، وأيضاً بالنسبة لـ ■■■■■، خلتُ أنني رأيت الرجل، ولكن أين ومتى؟ ليس لدي أدنى جواب!

اعتبرت أن الرجل لا بد أنه على قدر كبير من الأهمية بسبب أن ■■■■■ كانوا يتلهفون لاكتشاف علاقتي به.[1] أنكرت – نظراً للظروف – رؤيتي للشخص.

---

[1] كانت الصورة الأولى هي على الأرجح لرمزي بن الشيبة الذي اعتقل في حادثة إطلاق نار في ضاحية من ضواحي كراتشي في باكستان في ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ تقريباً. في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإدارية في ٢٠٠٥، أخبر محمدو ولد صلاحي هيئة المحلفين أنّ: "في ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ اعتقلت أميركا رجلاً باسم رمزي بن الشيبة، قيل إنه الشخصية الرئيسة في هجمات ١١ سبتمبر، =

فكّروا ملياً ماذا كان سيحصل لي لو أني اعترفت بأني رأيت هذا الشخص، ولكن لا أتذكر متى وأين؟ أي محقق سيشتري هذه البضاعة مني؟ ما من محقق! ولأكن صريحاً معكم، كنت خائفاً خوفيَ من الجحيم.

حجزني فريق الـ ███████ مرةً أخرى، وفي اليوم التالي عرضوا عليّ صورة ███████، فأنكرتُ معرفتي بصاحبها كما فعلتُ قبل يوم. إنكاري لمعرفة رجلٍ لا أعرفه حقّاً، رأيته فقط لفترةٍ وجيزة مرّة أو مرّتين ولم يحدث بيننا شيء، صبّ الزيت على نار كلّ أنواع النظريات الوحشيّة بتورّطي بهجمات ١١ سبتمبر.

كان المحقّقون منكبّين على العمل ويبحثون عن أيّة قشّةٍ يمكن التمسّك بها، ولم أرغب شخصيّاً في أن أكون تلك القشّة بالضبط.

قال ███████████████: "███████████

███████████████████████████

██████████████████"

"في الأيام القليلة القادمة"!

في تلك الفترة بالضبط قاموا بترحيلي إلى ███████، حيث قابلتُ فيه ███████████████████████

███████████████████████████

███ للمرّة الأولى. كان أحد المعتقلين النجوم أيضاً. سمع ███████ قصّتي، وكأيّ ███████ أراد الحصول على مزيدٍ من المعلومات. ومن جهتي كنت أرغب في التحدّث إلى الأشخاص المثقّفين. وبقدر ما استطعت التمييز، فإن ███████ كان شخصاً لطيفاً، وكان يصعب عليّ أن أتصوّره مجرماً.

أقمتُ في ███████ مدّة أسبوعين قبل أن ينقلوني إلى ███████ ███████ الذي كان مليئاً بالمعتقلين الأوروبيين ومن شمالي أفريقيا.

= كان بالضبط بعد عام من ٩/١١، ومنذ اعتقاله تغيرت حياتي على نحو دراماتيكي" (هيئة إعادة النظر الإدارية، ص٢٣).

وللمرّة الأولى عرفت ██████ والـ ██████ ████████████████████

████████████████████████████████

████████████████ . ████████████████

████████████████████████████████

████████████████ في ██████ ████████████████ من

قبل. كنت دائماً أريد معرفة إلى أين أسير ولماذا. أتذكّر ذات مرّة أن الفريق المرافق رفض أن يخبرني إلى أين يأخذونني. توقّعتُ أنّهم يأخذونني لتنفيذ حكم الإعدام بي.[1] عندما دخلتُ ████████████████████

████████████████████████████████

████ كان برفقة مترجم عربي ████████████████████ .

كان ضعيفاً جدّاً في اللغة. ████████████████████

████████████████████████████████

██████ .

وبعد يومين أخذوني إلى التحقيق.

- كيف حالك؟ قال ██████ . كانت قد مرّت فترةٌ طويلة على لقائي به.

- جيّد!

---

١ هذا الشطب الطويل هو أحد الشطبين من الصفحات العديدة في هذه المخطوطة. والشطب الطويل الثاني يظهر في نهاية الفصل السادس. يبدو أنّه يتطابق مع فحص مكشاف الكذب (Polygraph) الذي خضع له محمدو ولد صلاحي في أواخر خريف ٢٠٠٣ (انظر الهوامش في الصفحتين ٢٩٧ و٢٩٩). من المحتمل أن يكون هذا الشطب الطويل له علاقة بفحص مكشاف الكذب أيضاً. في جلسته أمام هيئة إعادة النظر الإداريّة، عندما يصف التحقيقات التي أجراها معه مكتب التحقيقات الفيدرالي خلال شتاء ٢٠٠٢، قال محمدو ولد صلاحي: "ثمّ خضعتُ لفحص مكشاف الكذب و[رمزي بن الشيبة] رفض أن يُفحص لأسباب عديدة. تبيّن أنّه متناقض جدّاً مع نفسه ويكذب. قالوا لي ذلك بأنفسهم. قالوا إنّ مصداقيتي كبيرة لأنّي قبلت بفحص مكشاف الكذب". وبعد اعتقاله في ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ احتُجز رمزي بن الشيبة وأخضع للتحقيق في العديد من المواقع السوداء التابعة لـ CIA. وتوحي التقارير بأن بن الشيبة أخضع للتحقيق في سجن تديره CIA قرب الرباط في المغرب، في أواخر سبتمبر وخريف ٢٠٠٢، وفي عام ٢٠١٠ اعترفت الحكومة الأميركية بامتلاكها أشرطة فيديو تحتوي على التحقيق مع ابن الشيبة عام ٢٠٠٢ في المغرب.

انظر مثلاً:

http://www.nytimes.com/201018/08//world/18tapes.html; and http://hosted.ap.org/specials/interactives/wdc/binalshibh/content.swf.

████████ كنت في ████████،

عندما وافقت على ████████

████████

████ في الآونة الأخيرة، ثمّة قضايا كثيرة، معظمها بدأت بحالة اليأس لدى المعتقلين. التحقيق اللانهائي. عدم احترام القرآن الكريم من قبل بعض الحرّاس. تعذيب المعتقلين لقضاء ليلةٍ في غرفةٍ باردة (مع أنّ هذا الأسلوب لم يمارَس في الآونة الأخيرة مثلما كان يمارس في وقت ████). لذا قررنا أن نقوم بإضرابٍ عن الطعام، اشترك فيه عدد من السجناء بما فيهم أنا. ولكنّي استطعت الإضراب عن الطعام لمدّة أربعة أيّام فقط، حيث أصبحتُ شبحاً بعدها.[1]

– لا تكسر إضرابك، ستضعف المجموعة. قالها لي الجار السعودي.

– أخبرتكم يا أيّها الرجال أنني سأدخل في إضرابٍ عن الطعام وليس الانتحار. سأنهي إضرابي. أجبته.

████████

---

١ يقول محمدو ولد صلاحي فيما بعد في مخطوطته إنّه اشترك في الإضراب عن الطعام في سبتمبر ٢٠٠٢، والتقارير الإخبارية توثّق إضراباً عن الطعام في أواخر سبتمبر ومطلع أكتوبر من ذلك العام. انظر:

http://america.aljazeera.com/articles/multimedia/guantanamo-hungerstriketimelihtml. quotingan FBI document attributing that protest to anger over treatment by guards and the ongoing detention without trial or legal process.

(مقتطف من وثيقة لـFBI تنسب ذاك الاحتجاج إلى الغضب من تعامل الحرّاس والاحتجاز المتواصل دون محكمة أو إجراء قانونيّ). حدث الإضراب عن الطعام في نهاية ولاية الميجر جنرال مايكل إي. دون لافي الذي كان قائداً لقوى المهام الخاصّة – ١٧٠، عمليات الاستخبارات في غوانتانامو من فبراير حتّى أكتوبر عام ٢٠٠٢. كان يتابعه الميجر جنرال جيوفري د. ميلر، الذي أصبح قائداً لعمليات الاستخبارات في غوانتانامو، والتي تشمل جميع العمليات في غوانتانامو في نوفمبر ٢٠٠٢. وثّقت لجنة الدوائر المسلّحة التابعة لمجلس الشيوخ، أخيراً، الميل باتّجاه تحقيقات أكثر تعسّفية في أكتوبر ونوفمبر عام ٢٠٠٢، وشملت تطوير "خطط التحقيق الخاصة" الأولي للجيش من أجل محمد القحطاني. وفي ٢ ديسمبر ٢٠٠٢ وقّع وزير الدفاع دونالد رامسفيلد مذكّرةً يمنح فيها الحقّ باللجوء إلى أساليب التحقيق بما فيها التعرية والوقوف الإجباري ووضعيات التوتّر والتحقيقات على مدى عشرين ساعة. (لجنة الدوائر المسلّحة التابعة لمجلس الشيوخ، "التحقيق في التعامل مع المعتقلين في سجن الولايات المتّحدة"، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٨). انظر الرابط:

http://www.armed-services.senate.gov/imo/media/doc/Detainee-Report-Final_April-22-2009.pdf (hereafter cited as SASC).

■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■ من

نوع الناس الصالح لأقذر الأعمال، عندما يفشل العديد من الآخرين. كان ■■■■ ■■■■ حاقداً متشدّداً. لقد غيّر كليّاً من سياسات الاعتقال في غوانتانامو بكلّ أوجهها.

■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■

■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■. يومٌ في الجنّة وآخر في الجحيم. إنّ معتقلين من هذا المستوى هم تحت رحمة محقّقيهم، الأمر الذي كان مناسباً جداً للمحقّقين. ■■■■■■■■■■

■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■

■■■■■■■■.

كنت ميّالاً لأعرف إلامَ ستفضي بنا هذه التحدّيات. لم أكن يوماً في مشكلةٍ مع الحرّاس، وكنت أجيب على أسئلة محقّقيّ وأتعاون معهم، ولكنّي نجوت من ذاك التعاون الذي يعني أن تخبر محقّقيك كلّ ما يريدون سماعه.

***

وضعوني مرّةً أخرى في ■■■■■■ نهاية ■■■■■■.[1] ظهر فريقٌ للمرافقة في ■■■■■■ أمام زنزانتي ونادوا:

– السجين رقم ٧٦٠ إلى الحجز!

– حاضر، أعطوني ثانيةً فقط!

ارتديت ملابسي وغسلتُ وجهي. بدأ قلبي بالخفقان. كرهت التحقيق، تعبت من الرعب طوال الوقت، وتعبت من العيش المستمرّ في الخوف يوماً بعد آخر على مدى الأشهر الثلاثة عشر الأخيرة.

– الله معك! كن مرفوع الرأس! إنّهم يعملون للشيطان! صرخ أحد أصدقائي من السجناء لأتماسك، الأمر الذي كنّا نقوم به دائماً كلما طُلب أحدنا للتحقيق.

كرهت صوت السلاسل المعدنيّة الثقيلة. بالكاد أستطيع حملها. كانوا يأخذون

١ قرابة نهاية عام ٢٠٠٢.

المعتقلين دائماً من مبنانا، وكلما سمعت صوت السلاسل قادمة كنت أتوقّع أنّها ستكون من أجلي. لا تعرف أبداً ما الذي سيحدث في التحقيق. أحياناً لا يعود إليه الخارج من المبنى أبداً، إنّهم يختفون فحسب. لقد حدث هذا لصديقٍ مغربيٍّ معتقل، وسيحدث لي كما ستكتشفون بعدئذٍ إن شاء الله.

عندما دخلت الغرفة في ██████████، كان مكتظّاً بـ ██.[1]

– مرحباً!

– لقد اخترتُ ██████ بناءً على خبرتهم ونضجهم. سيكون تقييم ملفّك بيديهما من الآن فصاعداً. هناك شيئان يحتاجان إلى التكملة في قضيّتك. فمثلاً، أنت لم تخبرنا بكلّ شيء عن ██████████. هو شخص في غاية الأهمّية ██████████.

– أولاً، أخبرتكم عمّا أعرف عن ██████████، مع أنّه ليس ضرورياً أن أقدّم لكم معلومات عن أيّ شيء آخر. هنا نتحدّث عنّي. وثانياً، كي أستمر في تعاوني معكم أريدكم أن تجيبوني على سؤال واحد: لماذا أنا هنا؟ وإن لم تعطوني الجواب فبإمكانكم أن تعتبروني سجيناً غير موجود.

علمتُ فيما بعد من محاميّ العظام ██████████ أنّ الصياغة السحريّة لطلبي هو تقديم عريضة التماس من أجل أمرٍ قضائي للمثول أمام المحكمة. من الواضح أنّ تلك العبارة لن يكون لها معنى لإنسانٍ عاديٍّ فانٍ مثلي. لأنّ الإنسان العادي لا بدّ أن يقول: لماذا هذا الجحيم الذي تحتجزونني فيه؟ لستُ محاميّاً، ولكن الحسّ السليم يقول، بعد ثلاث سنوات من التحقيق معي وحرماني من

---

[1] يحدّد تقرير المفتّش العام التابع لوزارة العدل عام ٢٠٠٨ عميلين لـFBI يقابلان محمدو ولد صلاحي اعتباراً من هذه اللحظة وحتّى تسليمه لعمليات الاستخبارات في غوانتانامو – قوى المهام في مايو ٢٠٠٣ من قبل كلّ من "بوليسون" و"سانتياغو"، وهما اسمان مستعاران. يوحي السياق أيضاً بأنّ المجموعة الّتي في الغرفة تحتوي بين صفوفها على محقّقين عسكريين ومترجم ناطق بالفرنسيّة. وطبقاً لتقرير المفتّش العام، ضمّ الفريق الحالي أيضاً رجلاً للتحرّيات من شرطة نيويورك تابع لقوى المهام الإرهابيّة المشتركة التابعة للإدارة، والذي حقّق مع صلاحي باسم "بوليسون" في الأردن في يناير ٢٠٠٣ (المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص٢٩٥– ٢٩٩).

حرّيتي، إن الحكومة مدينةٌ لي بإعطاء شرح مقنع عن سبب فعلها ذلك بي، بالضبط ما هي جريمتي؟

لا معنى لكلّ هذا، إنّه مثل إنسانٍ يتخلّى عن رحلة عشرة كيلومترات بعد أن يكون قد قطع تسعة كيلومتراتٍ منها. إنّ ما قاله سيكون أكثر دقّة لو قال: "رحلة مليون ميل بعد قطع مسافة ميلٍ واحد".

– انظر، إنّه سهلٌ بقدر أحرف الأبجديّة أ ب ج. أجيبوا على سؤالي وأنا سأتعاون معكم بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

– ليس لديّ جواب. قال ██████.

– ولا أنا. أجبته.

– يقول القرآن الكريم: ﴿مَن قَتلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الأَرْضِ فَكأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾، قال ذلك المترجم الفرنسي محاولاً أن يحقّق اختراقاً. نظرت إليه بعدم احترام بطرف عيني.

– لستُ الشخص الذي تبحثون عنه. قلتها بالفرنسيّة ثمّ كررت القول بإنكليزيّة بسيطة.

– أنا متأكّدٌ بأنّك ضدّ قتل الناس، نحن لا نبحث عنك، بل نبحث عن أولئك الذين في الخارج ويحاولون أن يؤذوا الأبرياء. قالها ██████ وهو يريني مجموعة من الصور الشَبَحيّة. رفضت النظر إليها وكلما حاول أن يضعها تحت نظري غضضتُ الطرف عنها. لم أُرضِه حتى ولو بإلقاء نظرةٍ خاطفةٍ عليها.

– اسمع، ██████ متعاون، ولديه فرصة كبيرة لتخفيض حكمه إلى ٢٧ عاماً – و ██████ هو شخصٌ سيّئ حقّاً. بينما شخصٌ مثلك يحتاج أن يتحدّث ٥ دقائق فقط ليكون حرّاً طليقاً. قالها ██████. كانت تنطبق عليه كلّ المواصفات عدا العقلانيّة. وعندما فكّرتُ مليّاً بقوله بَدَوتُ – يا للهول! – كرجلٍ يتعاون معهم وسيبقى ٢٧ سنة أخرى في السجن، ولن يكون بمقدوره أن يتمتّع بأيّ نوعٍ من الحياة. يا له من بلدٍ قاسٍ! يؤسفني القول إنّ كلام ██████ لا يستحقّ الردّ.

حاول هو و ██████ أن يجادلا بالحجّة بمساعدة رجل المخابرات

العسكريّة ولكنهم فشلوا حتى في إقناعي بالكلام. بإمكانك القول إنّ المحقّقين قد تعوّدوا على المعتقلين الذين يرفضون التعاون بعد أن تعاونوا لفترةٍ من الزمن. فكما كنت أتعلّم من المعتقلين الآخرين كيف أتبرم من التعاون، كان المحقّقون كذلك يتعلمون من بعضهم كيف يتعاونون مع المعتقلين الممتنعين عن التعاون. انتهت الجلسة فأرسلوني إلى زنزانتي. كنت راضياً عن نفسي لأنّني الآن أنتمي رسميّاً إلى الأكثريّة، إلى المعتقلين الممتنعين عن التعاون. لم أبالِ كثيراً بالبقاء في السجن ظلماً بقيّة حياتي، ولكن ما يضع العقل في الكفّ هو أنّهم يتوقّعون منك، مع ذلك، التعاون معهم. أنتم تحتجزونني في سجنكم وأنا لا أبوح لكم بأيّة معلومات. نحن الطرفان نتصف بالشجاعة في آن واحد.

استمرّت الجلسات مع الفريق الجديد. نادراً ما كان ■■■■■ ■■■■■ يحضر الجلسات، وقد قال ذات مرّة:

– لن أتي طالما أنّك لا تعطينا المعلومات التي بحوزتك، ومع ذلك، لأنّنا أميركيون، نعاملكم وفق معاييرنا العالية. انظر إلى ■■■■■، إننا نقدّم له آخر التقنيات الطبيّة.

– لأنّكم تريدونه فقط أن يبقى على قيد الحياة لاحتمال أن تكون بحوزته بعض المعلومات، لكن إذا مات فإنّ تلك المعلومات ستموت معه! بهذا أجبتُه.

اعتاد المحقّقون الأميركيون أن يذكروا على الدوام الطعام المجّاني والعلاج الطبّيّ المجّاني للمعتقلين. لا أفهم، ألديهم بدائل أخرى عن ذلك؟ لقد اعتُقلتُ شخصيّاً في بلدانٍ غير ديمقراطيّة، ومع ذلك كان العلاج الطبّي على قائمة أولوياتها. يملي الحسّ السليم علينا إذا ما ساءت ظروف السجين فلن تكون هناك معلومات، وسيموت السجين على الأرجح.

قضينا شهرين تقريباً من الخصام والجدال:

– خذوني إلى المحكمة، سأجيب عن أسئلتكم كلّها. كنت أقول هذا للفريق.

– لن تكون هناك محكمة! يردّون عليّ بدورهم!

– هل أنتم مافيا؟ تختطفون الناس وتحتجزونهم وتبتزّونهم. قلت لهم حينئذٍ.

– أنتم المعتقلون مشكلة قانونيّة مفروضة بالقوّة، لا نستطيع أن نطبّق عليكم

القوانين المقرّرة الاعتيادية. نحتاج فقط إلى دليلٍ ظرفيٍّ لنقليكم قلياً.

– لم أقم بشيء ضدّ بلدكم. أليس كذلك؟

– أنت جزء من مؤامرة كبيرة على الولايات المتّحدة. قال ■■■■■.

– بإمكانك أن تسحب هذه التهمة على كلّ شخص! ما الذي فعلته؟

– لا أعرف، قل أنت لي!

– اسمع، لقد خطفتموني من بيتي في موريتانيا وليس من معركة في أفغانستان، لأنّكم اعتقدتم أنّني جزء من مؤامرة الألفيّة، وأنا لستُ جزءاً منها بأيّ حالٍ من الأحوال كما تعرفون الآن، إذاً ما هي التهمة التالية؟ يبدو لي أنّكم تريدون إلصاق أيّة قذارة بي.

– لا أريد إلصاق أيّة قذارة بك، أتمنّى لو كان بإمكانك فقط الوصول إلى التقارير التي شاهدتها. قال ■■■■■ ذلك.

– لا يهمّني ما تقوله التقارير. ما أريده فقط هو أن تلقوا بأنفسكم نظرةً على التقارير بدءاً من يونيو عام ٢٠٠٠ وحتّى مؤامرة الألفيّة، حينها ستعرفون أنّني لست جزءاً منها. بعد تعاون ■■■■■.[١]

١ في هذه الصفحة والتي تليها قد يكون الموضوع متعلّقاً بأحمد رسّام. اعتُقل رسّام عندما حاول الدخول إلى الولايات المتّحدة قادماً من كندا بسيّارة تحمل متفجّرات بتاريخ ١٤ ديسمبر ٢٠٠٠. أُدين في العام التالي بتهمة التخطيط لتفجير مطار لوس أنجلوس الدولي في يوم رأس السنة الجديدة في عام ٢٠٠١، كجزء ممّا بات يُعرف بمؤامرة الألفيّة. وفي مايو ٢٠٠١، بعد توجيه الإدانة قبل الحكم، بدأ رسّام يتعاون مع سلطات الولايات المتّحدة في تبادل المعلومات بهدف خفض سنوات الحكم. وقد كتبت محكمة أميركية فيما بعد أنّ "أحمد رسّام استمرّ في تعاونه حتّى أوائل ٢٠٠٣، وخلال هذين العامين من تعاونه قدّم ٦٥ ساعة من المحاكمة للإدّلاء بشهادته، و٢٠٥ ساعة للعروض واستخلاص المعلومات المفيدة. قدّم رسّام معلومات إلى حكومات سبع دولٍ مختلفة، وأدلى بشهادته في محاكمتين اثنتين انتهتا بتجريم المدّعى عليهم. لقد قدّم للمحكمة أسماء ١٥٠ شخصاً تورّطوا في الإرهاب وأعطى أوصاف عدد آخر من الناس. كما أنّه قدّم معلومات حول التفجيرات التي كانت من الممكن أن تعرّض حياة القائمين على حفظ القانون للخطر، ومعلومات مستفيضة حول آليات العمليّات الإرهابيّة في العالم". يشير محمدو ولد صلاحي هنا إلى أنّ رسّام لم يذكر اسمه قط ولم يدرجه بأيّة طريقة من الطرق في كلّ الجلسات. وفيما بعد سحب رسّام بعض شهاداته التي أدرجت فيها أسماء متورّطين آخرين في مؤامرة الألفيّة. لقد حُكم عليه أساساً باثنين وعشرين عاماً مع مراقبته ٥ سنوات بعد إطلاق (تتمة...) سراحه. وفي عام ٢٠١٠ حكمت محكمة الدائرة التاسعة للاستئناف بأنّ ذاك الحكم هو حكم متساهل للغاية، وأنه انتهك أصول المحاكمة الانتدابيّة، لذلك أعادت المحكمة القضيّة إلى قاضٍ فيدراليٍّ لإصدار حكم جديد يتناسب مع الجرم. يمكنكم الاطلاع على رأي المحكمة على الرابط:
http://cdn.ca9.uscourts.gov/datastore/opinions/201030000-09/02/02/.pdf.

– لا أعتقد أنّك جزء منها، ولا أعتقد أنّك تعرف ، ولكني أعرف أنّك تعرف أناساً على صلة بـ . قال .

– لا أعرف، ولكنّي لا أجدها مشكلة إذا كانت هذه هي القضيّة، إنّ معرفة شخصٍ ليست بجريمة، أيّاً كان ذاك الشخص. أجبته.

لقد حاول الشاب المصري الذي كان يقوم بالترجمة في ذلك اليوم أن يقنعني بالتعاون قائلاً:

– اسمع، لقد جئتُ إلى هنا مضحياً بوقتي في سبيل مساعدتكم، والسبيل الوحيد لإنقاذ أنفسكم هو أن تقولوا ما عندكم.

– ألا تخجل من العمل مع هؤلاء الأشرار من الناس، الذين اعتقلوا إخوانك في الدين دون سبب، سوى أنّهم مسلمون؟ يا أنا أكبر منك عمراً، وأتحدّث لغات أكثر منك، ولديّ شهادة علميّة أرفع من شهادتك، وزرتُ بلداناً أكثر منك، وأفهم أنّك هنا لتساعد نفسك وتكسب المال. وإذا ما حاولت أن تستحمق أحداً فذاك الأحمق هو أنت بالذات!...

لقد جنّ جنوني لأنه كان يتحدّث معي كما لو أنّني طفلٌ. كان يحدّق بنا فقط.

تكرّرت هذه الأحاديث مرّاتٍ عدّة خلال الجلسات، بقيت أقول:

– أنتم قولوا لي لماذا أنا هنا، تريدون أن أتعاون معكم وأنتم لا تخبرونني بسبب وجودي هنا. لن أتعاون. ولكنّنا نستطيع أن نتحدّث عن أيّ شيء إلى جانب التحقيق.

رحّب بتلك الفكرة، وأكّد لي أنّه سيسأل رئيسه ليعرف منه سبب اعتقالي، لأنه لم يكن هو نفسه يعلم ذلك. وفي غضون ذلك علّمني الكثير عن الثقافة الأميركية وتاريخها، عن الولايات المتّحدة والإسلام، عن الولايات المتّحدة والعالم العربي. وبدأ الفريق بإدخال الأفلام، حيث شاهدتُ فيلم "الحرب الأهليّة"، وفيلم "المسلمون في الولايات المتّحدة"، ومنشورات أخرى عديدة من الجبهة الأماميّة المتعلّقة بالإرهاب. وقال لي :

– لقد حصلت كلّ هذه الفوضى بسبب الكراهيّة. الكراهيّة هي السبب في كلّ الكوارث.

كان ██████ مهتمّاً بالحصول على المعلومات بأسرع ما يمكن باللجوء للوسائل البوليسيّة التقليديّة. قدّم لي ذات يوم وجبة ماكدونالد، لكنّي رفضت لأنّني كنت حريصاً على ألاّ أكون مديناً له بشيء. قال محذّراً:

- يسعى الجيش بكلّ الوسائل لأخذك إلى مكان سيّئ جدّاً، ونحن لا نريد أن يحدث ذلك.

- دعوهم يأخذونني إلى هناك، سأعتاده، ستبقونني سجيناً لديكم فيما إذا تعاونت أم لم أتعاون، فلمَ التعاون إذاً؟ قلت هذا دون أن أعرف أنّ الأميركان يستخدمون التعذيب بتسهيل التحقيقات.

كنتُ قد أُرهقت من التحقيقات التي يجرونها معي يوميّاً. كان ظهري يتآمر ضدّي ألماً حتّى طلبت الدواء.

قالت ██████ الأخصائيّة في المعالجة الفيزيائيّة:

- لا يجوز أن تجلس لساعات طويلة.

- من فضلكِ قولي هذا لمحقّقيّ، هم الذين يجعلونني أجلس لساعاتٍ طويلة يوميّاً.

- سأكتب لهم ملاحظة بذلك، ولكني لستُ متأكّدة من النتيجة.

حقّاً لم تثمر ملاحظتها بنتيجة. بل على العكس من ذلك، فقد غسل ██████ ███ يده منّي في فبراير ٢٠٠٣[1] قائلاً:

- سأغادر، وعندما تصبح جاهزاً للتحدّث عن مكالماتك الهاتفية اطلبني، وسأعود إليك.

- أؤكّد لك أنّني لن أتكلّم عن أيّ شيء ما لم تُجب على سؤالي: لماذا أنا هنا؟

---

١ ربما يكون هذا المحقّق من قسم شرطة نيوريوك، لأنّ تقرير المفتّش العام التابع لوزارة العدل يشير إلى أنّه (القسم) كان جزءاً من فريق التحقيق في يناير ٢٠٠٣. يصف التقرير تحرّياً من ذلك القسم، يلقّبه محمدو ولد صلاحي بـ"نوم"، الذي أخبر صلاحي أنه، إذا لم يشرح مكالمات هاتفيّة معيّنة، سيتم إرساله إلى "مكان سيّئ للغاية" (المفتّش العام التابع لوزارة العدل، ص٢٩٩).

قبل غوانتانامو

الفصل الثاني

السنغال – موريتانيا

٢١ يناير ٢٠٠٠ – ١٩ فبراير ٢٠٠٠

الاعتقال الأول في السنغال... العودة إلى الوطن بمرافقة الحرّاس. الاستجواب الأول في موريتانيا... الوقوع في المأزق... الولايات المتّحدة تتعامل مع المسألة على نحوٍ مسرحيٍّ.

توجد في التراث الشعبي الموريتاني حكاية فلكلوريّة عن شخصٍ مصابٍ برهاب الديكة (ديكوفوبيا)، كان يفقد عقله كلّما صادف ديكاً.

– لماذا تخاف من الديك على هذا النحو؟ يسأله الطبيب النفسي.

– يعتقد الديك أنّني ذُرة!

– لكنك لست ذرة، أنت رجلٌ كبير لا يمكن أن يخطئ أحد ويحسبك كوزَ ذرة صغير. يقول له الطبيب.

– أعرف ذلك أيّها الطبيب ولكنّ الديك لا يعرف، ومهمّتك أن تذهب إلى الدّيك وتقنعه بأنّني لستُ ذرة.

لم يُشفَ الرجل من رهابه أبداً طالما أنّ التحدّث إلى الديك أمرٌ مستحيل. تنتهي القصّة عند هذا الحدّ.

منذ سنوات وأنا أعمل جاهداً لأقنع الولايات المتّحدة بأنّني لستُ ذرة.

بدأت الحكاية في يناير ٢٠٠٠، وذلك عندما عدتُ إلى وطني موريتانيا بعد قضاء اثني عشر عاماً وراء البحار. في الساعة الثامنة مساءً من يوم ██████ أنزلني أصدقائي ██████ في مطار "دورفال" بمدينة مونتريال. سافرتُ برحلة "سابينا" المسائيّة متّجهاً إلى بروكسل، ومن هناك إلى داكار في ظهيرة اليوم التالي.[١] وصلتُ صباحاً إلى بروكسل، منهك القوى وبنعاسٍ شديد، أخذتُ أمتعتي ثمّ تمدّدتُ منهاراً على أحد المقاعد في المنطقة الدوليّة، متّخذاً حقيبتي كوسادة. كنت متعباً للغاية. نمتُ ساعة أو ساعتين، وعندما استيقظت بحثتُ عن التواليت والمغاسل لأتوضّأ وعن مكانٍ لأصلّي فيه.

كان المطار صغيراً، أنيقاً ونظيفاً، فيه مطاعم ومحلات غير خاضعة للرسوم، أكشاك للهواتف، كمبيوترات للإنترنيت، مسجد، كنيسة، كنيسٌ، ومكاتب للإرشاد النفسي للملحدين. تفقّدتُ بيوت العبادة كلّها وكانت جدّ مؤثّرة. فكّرت، يمكن أن يكون هذا البلد هو الذي أريد العيش فيه؛ فأنا أتحدّث بلغته ولديّ مؤهلات علميّة مناسبة للحصول على عملٍ في قلب أوروبا. في الواقع زرت بروكسل قبل الآن، وأحببتُ فيها وجوهها المختلفة وتعدّد الثقافات فيها.

تركتُ كندا لسبب رئيسي وهو أنّ الولايات المتّحدة حرّضت قواها الأمنيّة عليّ. لم تعتقلني ولكنها بدأت بمراقبتي في كل مكان. أن تكون مُراقَباً خيرٌ من أن تكون في السجن. أدركتُ أخيراً أنّهم سيكتشفون في النهاية أنّني لستُ مجرماً. ولكنّني "لا أفهم أبداً" كما كانت والدتي تقول لي دائماً. لا أعتقد بأنّ الولايات المتّحدة كانت تحاول المساس بي وتضعني في مكانٍ لا كلام للقانون فيه.

كانت الحدود على مسافة قريبة للغاية، لو أنّي عبرتها لما كنت قد كتبت هذا الكتاب قطّ.

بدلاً من ذلك قصدتُ المسجد الصغير، توضّأت فيه وصليت. كان المكان هادئاً

---

١ إنّ سجلات التحقيق لدى محكمة إعادة النظر بوضع المقاتل الخاصّة بمحمدو ولد صلاحي عام ٢٠٠٤، وسجلات جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإداريّة عام ٢٠٠٥، تؤكّد أنّ تاريخ السفر هو ٢١ يناير ٢٠٠٠. يمكن الاطلاع على سجل محكمة إعادة النظر بوضع المقاتل على الرابط: http://online.wsj.com/public/resources/documents/couch-slahihearing-03312007.pdf. نسخة محكمة إعادة النظر بوضع المقاتل، ص٤٦ ونسخة الهيئة، ص١٦.

يسوده السلام. كنت أشعر بالإرهاق لذلك تمدّدتُ في المسجد، قرأت بعض الآيات من القرآن الكريم ومن ثمّ استسلمتُ لسلطان النوم.

استيقظت على حركات شخص جاء هو الآخر ليصلّي. يبدو أنّه مرّ كثيراً من هذا المطار لذا كان يعرف المكان جيّداً. ██████████

██████████████████████████

██████████. وبعدما أنهى صلاته ألقينا التحيّة على بعضنا البعض.

– ماذا تفعل هنا؟ سألني.

– أنا عابر، جئتُ من كندا متوجّهاً إلى داكار.

– من أين أنت؟

– من موريتانيا، وأنت من أين؟

– أنا من السنغال. أنا تاجر بين بلدي والإمارات. أنتظر مثلك الرحلة نفسها.

– هذا جيّد. قلتُ.

– دعنا نذهب إلى الاستراحة. أنا عضو في نادي كذا وكذا.

لا أتذكّر الاسم، ذهبنا إلى النادي وكان مذهلاً، كان يوجد فيه تلفزيون، شاي، قهوة، بسكويت، أريكة مريحة، وصحف. كنت مرهقاً، لذا قضيت معظم الوقت في النوم على إحدى الأرائك. أراد صديقي الجديد ██████ أن يتناول الغداء في لحظةٍ ما، فأيقظني مقترحاً عليّ تناول الغداء معه أيضاً. كنت أخشى الذهاب لأنّني لا أستطيعَ العودة إلى هنا ثانيةً لأنّي لا أمتلك بطاقة النادي، لقد سمحوا لي بالدخول لأن صديقي██████ أبرز لهم بطاقة عضويته، فسمحوا لي بالدخول معه. لكن كان نداء معدتي أعلى لذلك قررتُ الخروج بغية تناول بعض الطعام. ذهبت إلى محاسب الخطوط الجويّة "سابينا" وطلبت منه بطاقة للوجبات المجانيّة. وجدتُ مطعماً. معظم أنواع الطعام كانت مخلوطة بلحم الخنزير، لذا أكلت وجبة من الخضار فقط. عدتُ إلى النادي وانتظرتُ صديقي حتّى تمّ الإعلان عن موعد رحلتنا. سابينا ██████ ٥٠٢ إلى داكار. اخترت داكار لأنّها أرخص بكثير من الطيران مباشرةً إلى نواكشوط. تبتعد داكار عن نواكشوط مسافة ٣٠٠ ميل فقط، وكنتُ قد رتّبتُ الأمور مع أسرتي كي تقلّني من هناك. هذا هو المعتاد من قبل الناس، كلّ شيء

يسير بشكلٍ جيّد حتّى الآن.

خلال رحلة الطيران شعرت بكامل طاقتي لأنّي نمتُ جيّداً في مطار بروكسل. بجانبي في الطائرة كانت فتاة فرنسيّة في ربيع عمرها تعيش في داكار وتدرس الطب في بروكسل، فكرتُ للحظة بأن أخوتي قد لا يتمكّنون من الحضور إلى المطار في الموعد المحدّد، لذا قد أضطرُّ لقضاء بعض الوقت في فندقٍ ما. لقد زوّدتني الفتاة الفرنسيّة بكلّ طيب خاطر ببعض المعلومات حول الأسعار في داكار، وكيف أنّ السنغاليين يستغلّون الغرباء ويطلبون منهم أثماناً باهظة، وبشكلٍ خاص سائقو التاكسي. استغرقت الرحلة خمس ساعات، وصلنا في الحادية عشرة مساء تقريباً. واستغرقت الإجراءات الرسميّة حوالي النصف ساعة. وعندما أخذت أمتعتي اصطدمتُ بصديقي ■■■■ ■■■■ وودّعنا بعضنا بعضاً.[1] وما أن غادرتُ حاملاً حقيبتي حتى رأيتُ أخي ■■■■ يبتسم، كان قد وقع نظره عليّ قبل أن ألمحه. كان أخي ■■■■ ■■■■ برفقة أخي الآخر ■■■■ مع صديقين لهما لم أعرفهما.

أخذ ■■■■ حقيبتي وذهبنا إلى كراج السيّارات. أحببتُ دفء الليل الذي عانقني ما أن غادرتُ البوّابة. كنّا نتحدّث ونسأل بعضنا بعضاً بحماس كيف هي الأمور، وعندما قطعنا الطريق، لا أستطيع أن أعبّر عمّا حدث لي، فكلّ ما أتذكّره هو أنّ يدَيّ كانتا مقيّدتين خلف ظهري في أقلّ من ثانية، وأحاط بي ثلّة من الأشباح الذين فصلوني عمّن كانوا برفقتي. في البداية اعتقدتُ أنّها سرقة بقوة السلاح، ولكنّ تبيّن أنّها سرقة من نوع آخر.

– اعتقلناك باسم القانون. قال العميل الخاص بينما كان يقفل السلسلة حول يدي.

"أنا معتقل!" ناديتُ أخوتي الذين لم أستطع رؤيتهم بعد. لا بدّ أنّ خطفي بهذه الطريقة كان مؤلماً لهم للغاية. لا أعرف ما إن سمعوا صوتي أم لا، لكن تبيّن فيما بعد أنّهم سمعوا صوتي لأنّ أخي ■■■■ ظلّ يسخر منّي زاعماً أنّني لم أكن شجاعاً، بما أنّني طلبت النجدة. ربّما لم أكن شجاعاً، ولكن هذا ما حدث. وما لم أعرفه هو أنّ أخويّ وصديقيهما اعتقلوا في نفس اللحظة بالذات. نعم، صديقاهما،

[1] يبدو واضحاً من السياق والأحداث أنّ الصديق هو رجل الأعمال السنغالي الذي قضى معه بعض الوقت في مطار بروكسل.

أحدهما جاء معهم من نواكشوط، والآخر كان أخاه وكان يعيش في داكار، كان قد رافقهم إلى المطار، تمّ اعتقالهم بوصفهم جزءاً من "عصابة"... يا له من حظ!

بصراحة، لم أكن مهيّئاً لهذا الظلم. ولو عرفت أنّ محقّقي الولايات المتّحدة متخمين به لما كنت قد غادرتُ كندا، أو حتّى بلجيكا خلال عبوري. لماذا لم تعتقلني الولايات المتّحدة في ألمانيا، طالما أنّ ألمانيا تعتبر من الحلفاء المقرّبين لأميركا؟ لماذا لم تعتقلني الولايات المتّحدة في كندا؟ فكندا والولايات المتّحدة كادا أن يكونا بلداً واحداً. زعم المحقّقون الأميركيون أنّني هربت من كندا خوفاً من الاعتقال. ولكن ذلك كان هراءً. أولاً، وقبل كلّ شيء، غادرتُ كندا بجواز سفري، وباسمي الحقيقي، بعد المرور بكلّ الإجراءات الرسميّة بما فيها جميع السجلات. وثانياً، أيّهما أفضل أن أعتقل في كندا أم في موريتانيا؟ بالتأكيد في كندا! أو لماذا لم تطلب الولايات المتّحدة من السلطات في بلجيكا اعتقالي، حيث قضيتُ اثنتي عشرة ساعة تقريباً؟

أفهم غضب وخيبة الولايات المتّحدة من الهجمات الإرهابيّة. لكنّ اعتقال الأشخاص الأبرياء، وجعلهم يعانون بحثاً عن اعترافات كاذبة، لا يساعد أحداً. بل إنّ هذا يعقّد المشكلة. اعتدتُ أن أقول دائماً لعملاء الولايات المتّحدة: أيّها الرجال! اهدأوا! فكّروا قبل البدء بالعمل، ضعوا فقط نسبة مئويّة ضئيلة لاحتمال أن تكونوا مخطئين قبل أن تبدأوا بإيذاء أحد على نحوٍ يتعذّر إصلاحه!

ولكن عندما يحدث أمرٌ سيّئ يبدأ الناس بإظهار نزواتهم ويفقدون رباطة جأشهم. لقد تمّ استجوابي في السنوات الماضية من قِبل أكثر من مئة محقّق من مختلف البلدان. وكلّهم يشتركون بشيء واحد وهو: التشوّش. ربما تريد الحكومة منهم أن يكونوا كذلك، من يدري؟

على أية حال، تدخّلت شرطة المطار عندما شاهدوا الهرج. كان أفراد القوّات الخاصّة يرتدون بزّات مدنيّة، لذا لم تميّزهم الشرطة عن أفراد عصابة ينوون سلب أحد الأشخاص، لكنّ العنصر الذي كان خلفي سرعان ما أبرز البطاقة السحريّة، مما جعل رجال الشرطة ينسحبون على وجه السرعة. لقد رمونا نحن الخمسة في شاحنةٍ للغنم، ثمّ أُضيف إلينا صديقٌ آخر، ولم يكن ذاك الصديق إلا الذي ودّعته

عند دوّار الحقائب. ركب الحرّاس معنا. جلس زعيم المجموعة في الأمام بجانب السائق، ولكن كان بمقدوره أن يرانا ويسمعنا لأنّ الزجاج الذي يفصل السائق عن الغنم كان مخلوعاً. انطلقت الشاحنة وكأنّها في مشهدٍ هوليوودي للمطاردة. "إنك تقتلنا"، لا بدّ أنّ القاتل هو أحد الحرّاس لأن السائق خفّف من سرعة الشاحنة قليلاً. كان الشاب المحلّي الذي جاء مع أخوتي إلى المطار يفقد صوابه، كان يتفوّه بكلماتٍ مبهمة بين فينةٍ وأخرى، ينقل بها قلقه وحزنه. كان الشاب يعتقد أنّني من المتعاملين في تجارة المخدّرات، لكنّه ارتاح عندما علم أنّ الاشتباه هو الإرهاب وليس المخدّرات! وبما أنّني كنت نجم الفيلم فقد شعرتُ بالإحباط لما سبّبته من إزعاج لأناسٍ آخرين. ولكنّ عزائي الأخير هو أنّ ما جرى لم يكن بقصدٍ منّي – وفي تلك اللحظة غمر الخوف الذي كان في قلبي بقيّة العواطف. عندما جلستُ على الأرضيّة الخشنة، محاطاً بدفء المرافقين بما فيهم عملاء القوى الخاصّة، شعرتُ أنّني أفضل حالاً، حينئذٍ بدأتُ بتلاوة القرآن.

– اخرس! قال الرئيس الجالس في الأمام. لم أخرس، خفضت صوتي، ولكن لم يكن كافياً للرئيس. قال ثانيةً:

– اخرس! – ورفع هراوته هذه المرّة لضربي. – تريد أن تسحرنا.

عرفت أنّه كان جاداً، لذا صلّيتُ في قلبي.

لم أكن أنوي سحر أيّ شخص، ولا أعرف كيف يتمّ ذلك. لكن الأفارقة هم أكثر الشعوب سذاجةً مما أعرف.

استغرقت الرحلة بين خمس عشرة وعشرين دقيقة، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل عندما وصلنا إلى مفوّضيّة الشرطة. إنّ العقول الموجّهة للعمليّة وقفوا خلف الشاحنة وانخرطوا في نقاشٍ مع صديقي في بروكسل. لم أفهم شيئاً، فقد كانوا يتكلّمون باللغة المحليّة ██████.[١] بعد نقاشٍ قصير أخذ الرجل حقيبته الثقيلة وذهب. سألتُ أخوتي فيما بعد عمّا قال للشرطة، فأخبروني بأنّه قال للشرطة إنّه التقى بي في بروكسل فقط، وأنه لم يكن يعرف أنّني إرهابي.

١ اللغة على الأرجح هي لغة "ولوف"، وهي تظهر بعد صفحاتٍ غير مشطوبة. (مخطوطة محمدو ولد صلاحي، ص٤٣٦).

نحن الآن خمسة أشخاص سُجنّا في الشاحنة. كان الظلام حالكاً في الخارج ولكنّي استطعتُ تمييز حركة الناس جيئةً وذهاباً. انتظرنا في الشاحنة ما يقارب الساعة. اشتدّ غضبي وكنتُ خائفاً، خاصةً عندما قال الشخص الذي يجلس على كرسيّ المسافرين: "أكره العمل مع البيض"، أو بالأحرى استعمل كلمة "المغاربة"، الأمر الذي جعلني أعتقد أنّهم ينتظرون فريقاً موريتانيّاً. بدأت أشعر بالغثيان، كان قلبي كريشة في مهبّ الريح، بينما رحتُ أنكمشُ حتّى أصبحتُ ضئيل الحجم لا أقوى على حمل نفسي. فكّرت بكلّ أنواع التعذيب التي سمعتُ بها من قبل، كم أستطيع تحمّله هذه الليلة. أصابني العمى، تشكّلت غيمة كثيفة أمام عيني، لم أستطع رؤية شيء، وأصابني الطرش، بعد ذلك القول كلّ ما استطعت سماعه كان صفيراً مبهماً. فقدتُ الشعور بوجود أخوتي معي في الشاحنة.

اعتقدتُ أنّ الله وحده يمكنه مساعدتي في هذا الموقف. الله لا يفشل أبداً.

– انزلوا من الشاحنة. صرخ أحد الرجال بنفاذ صبر.

تمكّنت من شقّ طريقي بمساعدة أحد الحرّاس الذي ساعدنا في النزول على الدرج. أدخلونا غرفةً صغيرة كانت مليئة بالبعوض، وبدخولنا حان وقت وليمتها. لم تنتظر حتّى ننام، بل بدأت بعملها مباشرةً، ممزِّقةً أجسادنا. والأمر الغريب أنّ البعوض يبدو خجولاً عندما يكون في مجموعات صغيرة، في حين أنه يبدو فظّاً في المجموعات الكبيرة. تنتظر المجموعات الصغيرة حتّى ننام، على خلاف المجموعات الكبيرة التي تبدأ بإزعاجك مباشرةً، كما لو أنّها تقول: "ما الذي تستطيع فعله حيال ذلك؟" في الحقيقة، لا شيء. كان التواليت قذراً بقدر ما تستطيع تخيّله، فتحوّلت إلى بيئة مثاليّة لتكاثر البعوض. كنت الوحيد المقيّد بسلسلة.

– هل ضربتك؟ سألني الشخص الذي فكّ القيد عن يدي.

– كلا، لم تضربني.

عندما نظرتُ إلى معصميّ وجدتُ آثار جروح سابقة عليهما. وبدأ المحقّقون يجرّوننا للتحقيق الواحد تلو الآخر، مبتدئين بالغرباء. كانت ليلة رهيبة، قاتمة، باردة وطويلةً جدّاً.

جاء دوري قبل البزوغ الأول لضوء الفجر. كان في غرفة التحقيق رجلان ■■■

█████████████████████████

█████████████████████، المحقّق الذكر وقاضية.[1]

كانت رئيسة الشرطة ██████ هي المسؤولة عن مركز الشرطة، ولكن ██████ لم تكن جزءاً من التحقيق. بدَت ██████ متعبة جدّاً إلى درجة أن ██████ نامت عدّة مرات من الضجر. كانت الأميركية تدوّن الملاحظات، وأحياناً كانت ██████ تمرّر الملاحظات إلى المحقّق. كان المحقّق ██████ هادئاً، نحيفاً، أنيقاً، إلى حدّ ما متديناً وعميق التفكير.

– لدينا مزاعم قويّة ضدّك. قال وهو يسحب رزمة سميكة من الأوراق من ظرف أصفر لامع. قبل أن يصل إلى نصفها، بدا أنّه اطّلع عليها مرّات كثيرة. وأنا عرفت مسبقاً ماذا يقصد، لأنّ الكنديين قد حقّقوا معي قبل الآن.

لم أفعل شيئاً. تريد الولايات المتّحدة أن تسيء إلى الإسلام بإلصاق أشياء مرعبة كهذه بالمسلمين.

– هل تعرف ██████؟

– كلا، لا أعرفه. يذهب بي الاعتقاد أنّ قصّته كانت مفبركة، بغية فتح ميزانيّة الإرهاب والإساءة إلى المسلمين. كنت صادقاً في كلماتي. وإذا عدنا إلى الوراء، لم أكن أعرف الكثير من القضايا التي أعرفها الآن. أؤمن جدّاً بنظرية المؤامرة، ولكن مع ذلك ليس بالقدر الذي تقوم به حكومة الولايات المتّحدة.

سألني المحقّق أيضاً عن مجموعة أخرى من الأشخاص الذين أعرف معظمهم. ولكني أعرف أنهم ليسوا متورطين في الجرائم من أي نوع على حدّ علمي. أخيراً سألني السنغالي عن موقفي من الولايات المتحدة، ولماذا جئت عابراً بلده. حقاً لم أفهم لماذا يهمّ الناس أن يعرفوا موقفي حيال الحكومة في أميركا. أنا لست مواطناً أميركياً، ولم أحاول مرة واحدة أن أقدّم طلباً للدخول إلى أميركا، ولا حتى أن أعمل في أميركا. رغم كلّ هذه الحقائق، أستطيع أن أكذب دائماً. فعلى سبيل المثال، يمكنني

١ يبدو أنّ طاقم التحقيق كان يتألّف من رجلين وامرأتين، المحقّق السنغالي ومدوّنه كلاهما كان من الجنس الخشن، بينما كانت رئيسة الشرطة السنغاليّة وأميركية، اللتان طال الشطب اسميهما، كلاهما من الجنس اللطيف.

القول: أحبّ الولايات المتحدة أو أكرهها، موقفي لا يهم طالما أنني لم ارتكب أية جريمة ضد أميركا. شرحت هذا كلّه للمحقق السنغالي بوضوح أزال كلّ شك حيال وضعي.

قال لي: تبدو متعباً جداً! أقترح أن تذهب وتنام قليلاً، أعرف أن الموقف صعب.

حقاً كنت متعباً للغاية، وكنت جائعاً وعطشاً أيضاً. أعادني الحرّاس إلى الغرفة الصغيرة حيث كان أخواي وصديقاهما يستلقون على الأرض، وهم في معركة ضارية مع أكثر القوى الجوية السنغالية فعاليةً من البعوض ■■■■■■■. لم أكن أوفر حظاً منهم. هل نمنا؟ في الواقع لا.

ظهر المحقق ومساعده في الصباح الباكر. أطلقوا سراح الشابين، في حين أخذوني أنا وأخوَيّ إلى المبنى المركزي لوزارة الداخلية. هناك تبيّن أن المحقق كان يحتلّ موقعاً رفيعاً في الحكومة السنغالية. أخذني إلى مكتبه ومن ثم اتصل هاتفياً بوزير الداخلية.

قال للوزير على الهاتف: "الرجل الذي أمامي ليس رأس منظمة إرهابية". لم أسمع ما قاله الوزير. ثم أضاف المحقق "بالنسبة لي لا أرى مبرراً لبقائه في السجن، وليست لي مصلحة في ذلك". كانت المكالمة الهاتفية قصيرة ومباشرة. في تلك الأثناء أخذ أخواي راحتهما واشتريا بعض المواد وبدأا بإعداد الشاي. الشاي هو المشروب الوحيد الذي يبقي الموريتاني على قيد الحياة بعون الله. لقد مرّ وقت طويل لم نتناول فيه شيئاً، لا طعاماً ولا شراباً، ومع ذلك، الشيء الأول الذي تبادر إلى الذهن كان الشاي.

كنت سعيداً لأن طن الأوراق الذي قدمته حكومة الولايات المتحدة إلى السنغاليين بخصوص وضعي بدت لا شيء في نظرهم، ولم يستغرق محققي وقتاً طويلاً حتى يفهم حقيقة الموقف. بدأ أخواي يتجاذبان أطراف الحديث معه باللغة الولوفية. سألت أخوَيّ عمّا كان يدور الحديث فقالا إن الحكومة السنغالية ليست مهتمة بحجزي لديها، ولكن الولايات المتحدة هي التي لديها شبهات. ذلك لا يسرّ أحداً لأن في تصورها ما تقدّمه أميركا هي مجرد شبهات ليس إلاّ.

حينئذٍ قال المحقق: ننتظر وصول بعض الناس من السفارة الأميركية. وفي الساعة

الحادية عشرة تقريباً ظهر أميركي أسود ■■■■■■■.[1] أخذ ■■■■■■■■ الصور والبصمات والتقرير الذي طبعه المدوِّن باكراً ذاك الصباح. شعر أخواي بالراحة مع ■■■■■ السود أكثر من ■■■■■■ البيض من الليلة الماضية. يشعر الناس بالراحة مع الأشكال التي اعتادوا رؤيتها، وبما أن نصف سكان موريتانيا من السود فقد شعر أخواي بالعلاقة التي تربطهم بالسود أكثر. ولكن هذه ليست إلا مقاربة فجّة للموضوع، إذ لا فرق بين ■■■■■■■■ السود أو البيض، فكلهم سعاة يؤدّون مهامهم.

بعد أن أنهى ■■■■■■■ العمل اتّصل مرتين بالهاتف، ومن ثم سحب المحقق جانباً وتحدّث معه لوقت قصير وبعدها ذهب ■■■■■■. أخبرني المفتش بأنهم سيطلقون سراح أخوي ولكنني سأبقى في الحجز لديهم لبعض الوقت. حينئذٍ سأل أخي:

– هل تعتقد أن بإمكاننا الانتظار حتى تطلقوا سراحه؟

– أنصحكم أن تذهبوا إلى البيت. وإذا ما أطلقنا سراحه فمن المؤكد أنه سيكون قادراً على إيجاد طريقه للوصول إلى البيت.

غادر أخواي فشعرت بالوحدة والهجران، وأعتقد أن ذلك كان شعور أخوَيّ أيضاً.

ظلّ السنغاليون يحققون معي حول الأمور ذاتها على مدى يومين، وكان المحققون الأميركيون قد أرسلوا لهم الأسئلة. هذا كلّ شيء. لم يلحق السنغاليون بي الأذى بأية طريقة، ولم يهددوني. وبما أن الطعام في السجن لا يمكن تناوله فقد رتّب أخواي الأمور مع عائلة سنغالية تعيش في داكار لجلب وجبة طعام لي يومياً، وهو ما التزمت به العائلة الطيبة دون انقطاع.

كان همّي في الماضي، ولا يزال، هو إقناع حكومة الولايات المتحدة بأنني لست ذُرَة. بينما كان همّ المعتقل الوحيد معي في السجن السنغالي هو أن يصل إلى أوروبا أو أميركا عن طريق التهريب.

لا شكّ أن كلاً منا يدور في فلكٍ مختلف. كان الشاب من ساحل العاج، وقد عقد

[1] توحي الضمائر المشطوبة هنا بإمكانية أن تكون هذه أيضاً امرأة.

العزم على مغادرة أفريقيا.

أخبرني الشاب قائلاً: لا أحب أفريقيا. مات العديد من أصدقائي. الجميع فقراء. أريد الذهاب إلى أوروبا أو أميركا. حاولت حتى الآن مرتين، تمكّنت في المرة الأولى من التسلل إلى البرازيل وذلك عندما تحايلت على المسؤولين في الميناء، ولكن خاننا رجل أفريقي وأفشى سرنا للسلطات البرازيلية، فاعتقلتنا وسجنتنا حتى قامت بترحيلنا إلى أفريقيا ثانيةً. البرازيل بلدٌ جميل، ونساؤه جميلات جداً.

قاطعته: كيف تستطيع أن تقول هذا وقد كنت في السجن طوال الوقت؟

ابتسم وقال: نعم، ولكن بين الفينة والأخرى كان الحرّاس يرافقوننا في جولة ثم يعيدوننا إلى السجن.

ثم أردف: تعرف يا أخي، وصلت في المرة الثانية إلى إيرلندا، ولكن عديم الرحمة ████ أبقاني في السفينة وسلّمني إلى الجمارك.

بدا لي كأنه كولومبس، فتساءلت: كيف ركبت السفينة في المرة الأولى؟

– الأمر هيّن يا أخي. رشوت بعض العاملين في الميناء، وهؤلاء الأشخاص هرّبوني على متن سفينة متجهة إلى أوروبا أو أميركا. الأمر سيّان عندي، لا مشكلة بالنسبة لي. اختبأت في قسم الحاويات لمدة أسبوع حتى نفدت مؤونتي. عندها صعدت إلى الأعلى واختلطت بأفراد الطاقم. في البداية جنّ جنونهم، حتى أن قبطان السفينة المتجهة إلى إيرلندا وصل به الجنون إلى درجة أنه أراد إغراقي في البحر.

قاطعته: يا له من حيوان. ولكن صديقي استمر في سرد قصته:

– لم يمضِ الكثير من الوقت حتى ألف الطاقم وجودي بينهم، فأعطوني الطعام وجعلوني أعمل.

– كيف أمسكوا بك هذه المرة؟

– خانني المهربون. قالوا لي إن السفينة متجهة إلى أوروبا مباشرةً دون توقف، ولكنها توقّفت في داكار والجمارك أخرجتني من السفينة، وها أنا هنا!

– وما هي خطتك التالية؟

– سأعمل وأوفّر بعض النقود وأحاول مرة أخرى.

يبدو أن صاحبي قد قرّر الخروج من أفريقيا بأيّ ثمن. علاوةً على هذا، كان واثقاً

بأنه سيصل إلى الأرض الموعودة.

– يا رجل، ما تشاهده في التلفزيون ليس الصورة الحقيقية للحياة في أوروبا.

– لا! لقد تمكّن أصدقائي من الوصول إلى أوروبا بنجاح عن طريق التهريب. إنهم يعيشون حياةً جيدة، نساء جميلات والكثير من النقود. أفريقيا سيئة.

– ربما ينتهي بك المطاف بدخول السجن في أوروبا.

– لا يهمّني. السجن في أوروبا جيد. أفريقيا سيئة.

اكتشفت أن الشاب قد أعماه العالم الغني تماماً، العالم الذي يظهرونه لنا، نحن الفقراء الأفارقة، بأنه فردوس لا نستطيع دخوله، ومع هذا كان ذلك هو غاية الشاب. في موريتانيا يرغب أغلب الناس بالهجرة إما إلى أوروبا أو إلى الولايات المتحدة. وإذا لم تتغير الظروف السياسية في بلدان أفريقيا بشكل جذري فستتجه بنا الأمور إلى الكارثة التي ستؤثر على كل العالم.

زنزانته كانت سيئة للغاية، بينما كانت زنزانتي أفضل بقليل. كنت أمتلك في زنزانتي فراشاً مهترئاً، في حين لم يكن يوجد في زنزانته سوى قطعة من الورق المقوّى ينام عليها. اعتدت أن أعطيه طعامي لأني إذا ما قلقت تنعدم عندي شهية الطعام وبالتالي القدرة على الأكل. ثم أن طعاماً طيباً كان يأتيني من خارج السجن، بينما طعامه كان طعام السجن السيئ. كان الحرّاس يسمحون لنا أن نكون معاً فترة النهار، ولكنهم كانوا يقفلون عليه الباب في الليل. زنزانتي كانت مفتوحة دائماً. وقبل ترحيلي إلى موريتانيا بيوم جاء سفير ساحل العاج ليؤكد هوية صاحبي المعتقل. لم تكن لدى صاحبي أية أوراق تثبت هويته.

قال لي المحقق الذي كان يستجوبني في الأيام الأخيرة والفرح يزغرد في عينيه: سنطلق سراحك!

قاطعته: أشكركم! ونظرت باتجاه مكّة وسجدت أشكر ربي على إطلاق سراحي.

– ولكن يجب علينا أن نسلّمك إلى بلدك.

– كلا، أعرف الطريق، دعوني أذهب لوحدي. قلت ذلك ببراءة، وأنا أقول لنفسي إنني لا أريد العودة موريتانيا، بل إلى كندا ربما أو أي مكان آخر. لقد تعذّب قلبي بما فيه الكفاية.

– آسف، يجب أن نسلّمك بأنفسنا.

تحوّل فرحي فجأةً إلى عذاب وخوف وعصبية وعجز واضطراب وأشياء أخرى كثيرة أعجز عن وصفها.

– لَمْلِمْ حاجياتك سنغادر للتّو.

بدأت أجمع ممتلكاتي القليلة بقلبٍ محطّم. حمل المفتش حقيبتي الكبيرة، بينما حملت أنا الحقيبة اليدوية. أثناء اعتقالي صوّر الأميركيون نسخاً عن أوراقي كلها وأرسلوها إلى واشنطن.

كانت الساعة حوالي الخامسة عندما تركنا وراءنا بوابة مفوضية الشرطة. في الخارج أمام البوابة كانت تقف سيارة ميتسوبيشي. وضع المفتش حقائبي في صندوق السيارة بينما جلسنا في الكرسي الخلفي. جلس إلى يساري حارس لم أره من قبل، كان كبيراً في السن وضعيفاً في البنية. كان هادئاً، وكان يتكئ إلى الخلف نوعاً ما. ظلّ ينظر إلى الأمام طوال الوقت، نادراً ما كان يفحصني بسرعة بطرف عينه. أكره أن يحدّق في الحرّاس كما لو أنهم لم يروا إنساناً من قبل. وإلى يميني جلس المفتش الذي كان يدوّن المعلومات أثناء التحقيق معي، وإلى جانب السائق كان يجلس المحقق الأساسي

█████████████████████████████████

█████████████████████████.[1]

يمكنك أن تعرف من سَفْع الشمس على وجهه أنه قضى بعض الوقت في مكانٍ دافئ، ولكن ليس في السنغال، لأنّ المحققين ظلّوا يوجّهونه إلى المطار، أو ربما يبحث عن الطريق الأفضل. كان يتكلم الفرنسية بلكنةٍ ثقيلة، ومع ذلك كان بخيلاً في حديثه، لقد حصر نفسه بما هو ضروري فقط. لمْ ينظر إليّ قط، ولم يخاطبني بكلمة واحدة. في حين حاول المحققان الآخران التحدث إليّ، ولكنّي لم أستجب وبقيت أقرأ قرآني بصمت. على خلاف الموريتانيين والأردنيين والأميركيين، لم يصادر السنغاليون قرآني.

استغرقت المسافة إلى المطار خمساً وعشرين دقيقة. كانت حركة المرور هادئة داخل المطار وحوله. وجد السائق الأبيض مكاناً شاغراً يصفّ السيارة فيه. خرجنا

١ وصف هذا الشخص في الفقرات التالية دون أن يطاله الشطب بـ"السائق الأبيض" و"الرجل الأبيض" و"الرجل الأميركي".

من السيارة، حمل الحرّاس أمتعتي واتجهنا إلى غرفة الانتظار عبر الطريق الدبلوماسية. كانت هذه هي المرة الأولى التي أختصر فيها الإجراءات الرسمية المدنية للانتقال من بلد إلى آخر. كان أمراً ممتعاً ولكني لم أحبه. يبدو أن الأمور كانت جاهزة في المطار مسبقاً. كان المحقق والسائق الأبيض يبرزان بطاقتيهما السحريتين لتصبح كل الطرق سالكة أمامهما، بإمكانك التمييز بسهولة بأن البلد ليس له سيادة. كان لا يزال مستعمراً بأقبح صور الاستعمار. يبشّر السياسيون في ما يسمى العالم الحرّ بأمورٍ كرعاية الديمقراطية والحرية والسلام وحقوق الإنسان: يا له من نفاق! لا يزال هناك الكثير من الناس يعتبرون هذه الدعاية كلاماً تافهاً.

كانت غرفة الانتظار فارغة. أخذ كل واحد منّا كرسياً وجلسنا. أخذ أحد السنغاليين جواز سفري وعاد به مختوماً. ظننت أنّني سأسافر بشكل اعتيادي على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية الأفريقية متجهة إلى نواكشوط بعد الظهر حسب جدول المواعيد، ولكن لم يمضِ الكثير من الوقت حتى عرفت أنّ لي طائرة خاصة. وما أنْ عاد الشاب بجواز سفري المختوم حتى نهضنا جميعاً، وعددنا كان خمسة أشخاص، واتجهنا نحو مدرج المطار، حيث كانت طائرة بيضاء صغيرة في انتظارنا بهدير محركاتها. أومأ الرجل الأميركي برأسه لنبقى في الخلف وتكلّم مع الطيار بسرعة، ربما كان معه المحقّق أيضاً، لا أستطيع تذكّر ذلك. كنت مرعوباً إلى حدّ تعطّلت معها ذاكرتي من تسجيل الأشياء.

بعد برهة طلبوا منّا الصعود إلى الطائرة. كانت الطائرة صغيرة. كنا أربعة أشخاص، تمكنّا من دخولها بصعوبة، واضطررنا أن ندخل "الفراشة" ورؤوسنا منخفضة وظهورنا محنية. كان مكان قائدة الطائرة مريحاً للغاية، خمّنت أنها سيدة فرنسية من لكنتها الفرنسية، في النصف الثاني من عمرها، نحيلة وشقراء ومتكلّمة، ولكنها لم تتحدث معي، بل تبادلت بعض الكلمات مع المفتش أثناء الرحلة. وفيما بعد علمت أنها أخبرت أصدقاءها في نواكشوط بالطرد السري الذي نقلته من داكار. ضغطنا أنا والحارس الكبير على أنفسنا، ورُكَبُنا كانت في وجهنا في المقعد الخلفي، مقابل المفتش الجالس أمامنا في كرسي أفضل بقليل. من الواضح أن حمولة الطائرة كانت زائدة.

انتظر كلٌّ من المحقق والرجل الأميركي حتى تأكدا بأن الطائرة قد أقلعت. لم

أعر الحديث الدائر بين قائدة الطائرة والمفتش انتباهاً، ولكني سمعتها تقول إنّ الرحلة هي مسافة ثلاثمائة ميل فقط، وستستغرق بين خمسٍ وأربعين دقيقة وساعة من الوقت، وذلك حسب اتجاه الريح. بدا ذلك وكأننا في القرون الوسطى. حاول المفتش أن يتحدث إلي ولكن لم يكن هناك شيء للتحدث عنه، فالنسبة لي قلت وفعلت كل شيء من قبل. اكتشفت أنه لا يملك شيئاً في يده ليساعدني به، فما جدوى الحديث معه؟

أكره السفر في الطائرات الصغيرة لأنها تهتزّ كثيراً وأعتقد دائماً أن الرياح ستجرفها بعيداً، ولكن هذه المرّة كان الأمر مختلفاً، لم أكن خائفاً. في الواقع كنت أريد أن تتحطم الطائرة، وأبقى لوحدي على قيد الحياة، سأعرف طريقي: إنه بلدي، وقد ولدت هنا، وسيقدم لي كل شخص الطعام والمأوى. غرقت في أحلامي، ولكن الطائرة لم تتحطم، بل بدأت تقترب أكثر فأكثر من وجهتها ولا سيما أنّ الرياح في صالحها. كنت أفكر بأخوتي الأبرياء كيف نُقلوا بين أماكن وبلدان غريبة، شعرت بالمواساة لأنني لم أعد وحدي.

كنت أشعر بالغبن نتيجة سوء معاملتي. سمعت قصصاً كثيرة عن الأخوة الذين لُعب بهم ككرة في ملعب، لأنهم كانوا يوماً ما في أفغانستان أو البوسنة أو الشيشان. لقد سجنوا على بعد آلاف الأميال. شعرت بدفء أنفاس أولئك الذين يتعرضون للظلم، فازددت راحةً. التزمت طوال الوقت بقراءة قرآني متجاهلاً ما يدور من حولي. يبدو أن جماعتي لديهم الوقت الكافي لتفقّد أوضاع الطقس والاستمتاع بالشاطئ الذي كنا نطير فوقه طوال الوقت. لا أعتقد أن الطائرة كانت تمتلك أي نوع من التكنولوجيا الملاحية لأن قائدة الطائرة بقيت تقود الطائرة على ارتفاع منخفض وتتجه بنا على امتداد الشاطئ. بدأت أرى من خلال النافذة القرى الصغيرة المغطاة بالرمال في محيط نواكشوط، كئيبة كمشهدها العام. مما لا شك فيه أن عاصفة رملية كانت قد ضربتها ذلك اليوم، وكان الناس قد بدأوا بالخروج من بيوتهم تدريجياً. بدأت ضواحي نواكشوط أكثر تعاسةً من أي وقتٍ مضى، مزدحمة وبائسة وقذرة ومحرومة من أبسط مستويات البنية التحتية. عرفت أنها كانت غيتو "كبّا" وقد ازدادت سوءاً. كانت الطائرة تطير على علوٍّ منخفض جداً إلى درجة أنني كنت أستطيع التمييز بين

الناس واحداً واحداً.

مرّ وقتٌ طويلٌ على آخر مرّة شاهدتُ فيها بلدي – في الواقع منذ أغسطس ١٩٩٣. عدت إليه ولكن كإرهابي مشتبه به هذه المرّة، والذي سيختفي في جُحْرٍ سريٍّ ما. أردت أن أصرخ في شعبي: أنا هنا! لست مجرماً! أنا بريء! أنا ذاك الشخص الذي تعرفونه، أنا لم أتغيّر البتّة! لكن صوتي كان مقموعاً كما لو كنت في كابوس.

لم أتعرّف أيَّ شيءٍ في المدينة، لقد تغيّرت على نحو سريع.

عرفت أخيراً أنّ الطائرة لم تتحطم، ولن تكون لدي فرصة أتحدث فيها مع أهلي. كم هو مدهش وصعب أن يقبل إنسان بوضعه البائس. إنّ مفتاح النجاة لتجاوز أي وضع بائس هو أن تدرك أنك فيه. إنْ شئتُ أم أبيتُ سيتم تسليمي إلى أشخاص لا أريد رؤيتهم قط.

– هل بإمكانك أن تقدم لي معروفاً ؟ سألتُ المفتش.

– بالتأكيد!

– أودّ أن تخبر عائلتي أنني في البلد.

– حسناً، وهل لديك رقم هاتف؟

– نعم، لديّ. وخلافاً لتوقعاتي قام المفتش بالفعل بتبليغ أسرتي وأخبرهم بحقيقة وضعي. وعلاوةً على ذلك أعطى السنغاليون تصريحاً للصحافة بأنّهم سلّموني إلى بلدي، ولكن الموريتانيين والأميركيين انزعجوا من تلك الخطوة.

سألني فيما بعد مدير الاستخبارات الموريتانية:

– ماذا قلت للمفتش؟

– لا شيء.

– تكذب، أخبرتَه أن يتصل بأسرتك. لا يفوت الأمر حتى على معتوه أن يدرك أن هاتف البيت كان مراقباً.

كانت عملية التسليم سريعة. هبطنا بالقرب من الباب الخلفي للمطار حيث كان ينتظر رجلان، المفتش الموريتاني وشخص آخر أسود كبير الحجم وغريب الشكل، لا بدّ أنهما جاءا لتولي القضية.

– أين رئيس شرطة المطار؟ سأل المفتش ناظراً إلى زميله الأسود. عرفت أنّ

رئيس الشرطة كان ذات مرة في ألمانيا، آويته وساعدته على شراء سيارة مرسيدس بنز. تمنيت أن يظهر ويراني لعله يدلي بشيء لصالحي، ولكنه لم يظهر أبداً، ولم يوصِ أحداً للاهتمام بي. إنّ الاستخبارات الموريتانية هي أعلى سلطة لفرض القانون، لكنني شعرت بأنّي أغرق لذا كنت أتمسك بأية قشة أصادفها.

– سنرافقكم إلى الفندق لقضاء ما تبقّى من الليل. قال المفتش لضيوفه.

– كيف حالك؟ قالها برياء وهو ينظر إلي.

– بخير.

– هل ذلك كل ما يمتلك؟

– نعم ذلك كل شيء. كنت أراقب ممتلكاتي على الأرض وهي تنتقل من يد إلى يد كما لو أنني قد متّ مسبقاً.

– لنذهب! قال لي المفتش. عندها حمل الرجل الأسود، الذي لم يغضّ الطَّرف عنّي للحظة، أمتعتي ودفعني أمامه باتجاه غرفة صغيرة قذرة عند الباب السري للمطار في الغرفة. فكّ المدنيّ الأسود عمامته السوداء القذرة التي لم تُغسَل منذ قرن.

– قَنِّع وجهك كله بهذه العمامة. قال المفتش. هذا هو الموريتاني النموذجي، روح البداوة مازالت مهيمنة. لا بدّ أنّ المفتش قد توقّع مسبقاً أنّه سيحتاج إلى عمامة ليلفّ رأسي بها، ولكن في موريتانيا لا يكون التنظيم موجوداً عادةً، إنّه يبقى للمصادفة والنزوة. كان الأمر غير متوقعاً، ولكني لم أنسَ كيف ألفُّ عمامة حول رأسي. إنّه عمل يجب أن يتعلمه ابن الصحراء. كانت تفوح من العمامة رائحة العرق المتراكم. كان مقرفاً إلى حدّ أنك لا تطيق أن تلفّ بها فمك وأنفك، ولكني أطعت الأوامر مكرهاً وحبست أنفاسي بها.

– لا تنظر من حولك. قال المفتش عندما خرجنا نحن الثلاثة من الغرفة متجهين نحو سيارة الشرطة السرية المصطفة، ██████. جلست في الكرسي الأمامي بجانب المفتش الذي راح يقود السيارة، في حين جلس الرجل الأسود في الكرسي الخلفي صامتاً. كان الوقت أول غروب الشمس تقريباً، ولكن يصعب على المرء تحديد الوقت بدقة مع وجود غيمة من الغبار في الأفق. كانت الشوارع خالية. خالفت التعليمات وكنت أنظر من حولي كلما سنحت لي الفرصة، ولكن كان التعرف

على الأشياء ضرباً من المستحيل.

كانت الرحلة قصيرة، استغرقت عشر دقائق، حتى وصلنا مبنى شرطة الأمن. ترجلنا من السيارة ودخلنا المبنى، حيث كان حارس آخر ينتظر وصولنا، ██████. كان المكان بيئة مثالية للبعوض، وحده الإنسان غريب في هذا المكان. مرحاض قذر، جدران وأرضيات مقزّزة، ثقوب في كل الغرف، نمل وعناكب وذباب.

أمر المفتش ████████: فتّشه بالكامل.

حينها قال لي ██████ باحترام: أعطني كل ما لديك. وذلك حتى لا يضطر إلى تفتيشي. أعطيت ████████ كل شيء ما عدا قرآن الجيب. لا بدّ أن المفتش كان له علم بأن لدي قرآن للجيب، لأن ███████ عاد وسألني: هل معك قرآن؟

- نعم، معي.

- أعطني إياه! قلت لك أعطني كل شيء. وخشية ألاّ يعود الحارس مرةً أخرى، بدأ يفتشني بلطف، ولكنه لم يعثر على شيء سوى قرآن جيبي. كنت حزيناً ومتعباً وخائفاً إلى حد أنني لم أتمكن من السهر، لذا وضعت سترتي على رأسي وسقطت على الفراش الوحيد في الغرفة، ذي السماكة الهزيلة وعمر يناهز مائة عام. أردتُ النوم وألا أثوب إلى رشدي ولا أستيقظ حتى يندثر آخر الأشياء السيئة. كم من الألم أستطيع تحمله؟ سألت نفسي. هل يستخدمون الكهرباء في التعذيب؟ قرأت قصصاً عن أناس عُذّبوا حتى الموت. كيف تحمّلوا ذلك؟ قرأت عن أبطال مسلمين واجهوا عقوبة الموت برؤوس مرفوعة. كيف فعلوا ذلك؟ لا أعرف. ولكن ما أعرفه هو أنني صغير جداً أمام الأسماء التي أعرفها، حينها انتابني شعور بالخوف إلى حدّ الموت.

مع أن البعوض كان يمزّقني، فقد نمت بعمق. كنت أستيقظ بين الفينة والأخرى وأسأل نفسي: لماذا لا يحققون معي الآن مباشرةً ويفعلون بي ما يشاؤون وينهوا الأمر؟ أكره انتظار التعذيب، يقول مثل عربي: "انتظار التعذيب أسوأ من التعذيب". أستطيع التأكيد على هذا المثل فقط. تمكنت من أداء صلواتي بطريقة من الطرق. استيقظت مع منتصف الليل على حركة أشخاص كانوا يتحركون من حولي، يفتحون ويغلقون الأبواب بطريقة غريبة جداً. عندما فتح الحارس باب غرفتي لمحت وجه صديق

موريتاني شاءت الأقدار أن نكون معاً قبل فترة طويلة، عندما زرت أفغانستان في عام ١٩٩٢ خلال الكفاح ضد الشيوعية. بدا حزيناً ومعذَّباً، لا بدّ أن تعذيباً مؤلماً قد مورس عليه. كدت أفقد عقلي، لأن هذا المصير ينتظرني أيضاً، فنصيبي من التعذيب لن يكون أقل من نصيبه، إذ تربطه علاقة قربى وثيقة مع الرئيس الموريتاني، فضلاً عن نفوذ أسرته، المواصفات التي لا أمتلكها. حينها قلت لنفسي: لا بدّ أن الرجل قد تكلّم عني في التحقيق، وهذا هو سبب جلبه إلى هنا.

"انهض"، قال الحارس، "ضع عمامتك على وجهك". وضعت العمامة القذرة مستجمعاً ما تبقّى لدي من القوة، ثم تبعت الحراس إلى غرفة التحقيق، كما تقاد شاة إلى مصيرها الحتمي في المسلخ.

عندما قادوني بالقرب من الرجل الذي شاهدته قبل الآن عرفت أنه حارس، سُجِن لعدم التزامه بطريقة لبس بزّته العسكرية. كان نعسان، لا بد أنهم أيقظوه من نومه، ولم يكن قد غسل وجهه بعد. لم يكن الصديق الذي ظننته. كان القلق والرعب يسيطران على دماغي منذ ذلك الحين. رحماك يا رب! الآن ارتحت قليلاً. هل ارتكبت جريمة؟ كلا. هل ارتكب صديقي جريمة؟ كلا. هل تآمرنا لارتكاب جريمة؟ كلا. الشيء الوحيد الذي قمنا به معاً هو القيام برحلة مشتركة إلى أفغانستان في يناير ١٩٩٢ لنساعد الناس في القتال ضد الشيوعية. وبقدر ما يتعلق الأمر بي، لا يعتبر ذلك جريمة، على الأقل في موريتانيا.

إذاً، لماذا أنا خائف؟ لأن الجريمة شيء نسبي، تعرّفه الحكومة بطريقة ما، ثم تعود لتعرّفه على نحو مختلف. لا يعرف أغلبية الناس الخط الفاصل بين تجاوز القانون من عدمه. وإذا ما تمّ اعتقالك يصبح الوضع أسوأ، لأن الناس يصدّقون الحكومة ويقولون: لو لم يكن هناك مبرّر قويّ لما اعتُقل. وإذا كان لا بدّ من المعاناة فإنني لا أريد أن يعاني معي أحد، لتكن المعاناة من نصيبي وحدي. فكرت بأنهم اعتقلوا صديقي بخصوص قضية مؤامرة الألفية، وليس لأنه كان في أفغانستان ذات يوم.

دخلت غرفة التحقيق، ولم تكن سوى غرفة مدير دائرة الاستخبارات الموريتانية. كانت الغرفة واسعة ومؤثثة على نحوٍ جيد: أريكة جلدية وكرسيان مزدوجان ومنضدة وخزانة ومقعد كبير وكرسي جلدي وزوج آخر من الكراسي للضيوف غير المهمين،

وكالعادة دائماً صورة الرئيس المعلقة التي تنقل ضعف القانون وقوة الحكومة.

تمنيت لو أنهم عادوا وسلّموني إلى الولايات المتحدة، فعلى الأقل توجد أشياء أستطيع الإشارة إليها هناك، كالقانون على سبيل المثال. مع أنه في الآونة الأخيرة بدأت الحكومة والسياسة في الولايات المتحدة تتعزّزان أكثر فأكثر على حساب القانون. الحكومة ذكية للغاية، إنّها تثير الإرهاب في قلوب الناس لتقنعهم بأن يتخلوا عن حريتهم وخصوصيتهم. مازالت الحكومة الأميركية تحتاج إلى بعض الوقت لتطيح بالقانون بشكل كامل، كما في العالم الثالث والأنظمة الشيوعية. ولكن ذلك لا يشكّل عندي أي نوع من الاهتمام، ثم أن الحكومة في بلدي، والحمد لله، لا تمتلك التقنيات اللازمة لتعقّب البدو في الصحراء المترامية الأطراف.

كان هناك ثلاثة رجال في الغرفة: مدير دائرة الاستخبارات ومساعده وكاتبه. طلب منهم مدير الدائرة أن يجلبوا أشيائي إلى داخل الغرفة. أخذوا يفتشون أشيائي بشكل دقيق، لم يبقَ شيء في محله. لم يتحدثوا إلي، اقتصر كلامهم مع بعضهم البعض، ومعظمه كان همساً، لا لشيء سوى فتح باب الجحيم علي انزعاجاً. وفي نهاية التفتيش رتّبوا أوراقي ووضعوا الأوراق التي اعتقدوا أنها تهمهم جانباً. وفيما بعد سألوني عن كلّ كلمة واردة في تلك الأوراق.

– أنا الذي سأحقق معك، أريد أن أحذّرك مسبقاً بأن تقول كل الحقيقة عن حياتك، وكيف التحقت بالحركة الإسلامية. قال مدير دائرة الاستخبارات بحزم، باذلاً جهداً كبيراً ليبعد شفتيه عن غليونه.

– بالتأكيد سأفعل. أجبت.

أمر رئيس دائرة الاستخبارات بجفاء: "أعيدوه"، ثم كرّر، والحرّاس يجرّونني بعيداً عن البعوض ليدخلوني غرفة التحقيق: "إسمع، أريد أن تقول كل شيء عن حياتك، وكيف أصبحت بين صفوف الحركة الإسلامية".

حين تُعتقَل للمرة الأولى تكون لديك فرص لعدم إعطاء معلومات. لا بأس بهذا، ومع ذلك تعرف بأنّك لم ترتكب أية جريمة، وهذا يبدو معقولاً. تكون مشوشاً جداً وتريد أن تظهر نفسك قدر ما تستطيع بأنك بريء. تفترض أنّك اعتُقلت على أساس اشتباه وجيه وأنت لا تريد تعزيز ذاك الاشتباه بأي حال. والأكثر من هذا، يشمل التحقيق

الكثير من الأمور التي لا يريد أحد أن يذكرها، مثل أصدقائك وحياتك الخاصة. وخصوصاً إذا ما كانت الشكوك تتعلق بقضايا الإرهاب، حينها تكون الحكومة قاسية للغاية. تتفادى في التحقيق دائماً الحديث عن أصدقائك وحياتك الحميميّة الخاصة. وأخيراً تكون محبطاً جداً بسبب اعتقالك، ولا تكون مديناً بأيّ شيء للمحققين. على العكس من هذا، هم مدينون لك بإظهار السبب الحقيقي لحجزك، ومن ثم يتوقّف كل الأمر عليك فإما أن تُنكره أو تثبّته عليك. وإذا كان هذا السبب كافياً لسجنك فبإمكانك المطالبة بتمثيلٍ مهنيٍّ، وإنْ لم يكن السبب كافياً فإنّ اعتقالك كان من المفترض ألاّ يتمّ منذ البداية. هذا ما يعمل به العالَم المتحضِّر، وما عدا ذلك فهو دكتاتوريّة. الدكتاتورية تحكمها الفوضى.

لأكن صريحاً معكم، لقد تصرفت كأيّ إنسانٍ عادي. حاولت قدر ما استطعت أن أبدو بريئاً كطفل. حاولت حماية هويّات كلّ الذين أعرفهم، سواء أكان الشخص معروفاً أم لم يكن معروفاً من قبل الشرطة. استمرت التحقيقات على هذا النحو حتى فتحوا الملف الكندي، عندئذ ساءت الأمور بلا جدال.

وجدت الحكومة الأميركية في اعتقالي وتسليمي لموريتانيا فرصة استثنائية للكشف عن خطة أحمد رسّام، الذي كان يرفض آنذاك التعاون مع السلطات الأميركية. فضلاً عن أنّ الولايات المتحدة كانت تريد أن تعرف بالتفصيل عن أصدقائي في كندا وألمانيا، وحتى خارج ذينك البلدين. ناهيكم عن أنّ ابن عمي و ■■■■■ ■■■■ كانا مطلوبين من قبل الولايات المتحدة بمكافأة ماليّة قدرها خمسة ملايين دولار.[1] كما أن الولايات المتحدة كانت تريد معرفة كلّ شاردة وواردة، كخدمة مجّانيّة، عن قضية الجهاد في أفغانستان والبوسنة والشيشان. وللأسباب آنفة الذّكر، ولأسباب أخرى أجهلها، دفعت الولايات المتحدة بقضيتي إلى أقصى ما يمكن. لقد

١ يظهر اسم رسام هنا غير مشطوب. يتضح من السياق أن الرجل المطلوب هنا، وفي أمكنة أخرى غير مشطوب في المخطوطة، هو ابن عم محمدو ولد صلاحي وعديله أبو حفص. كان أبو حفص مطلوباً بقضية هجمات القاعدة في التسعينيات، بمكافأة مالية قدرها خمسة ملايين دولار بموجب مكافآت مكتب التحقيقات الفدرالية من أجل برنامج العدالة. وصلت مكافآت الشخصيات الكبار في القاعدة إلى خمسة وعشرين مليون دولار بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية. راجع مثلاً: وزارة الخارجية الأميركية، "نماذج عن الإرهاب العالمي"، الفهرس D، ٢١ مايو ٢٠٠٢، على الموقع: http://www.state.gov/documents/organization/20121.pdf.

سمّوني "العقل المدبّر لمؤامرة الألفية"، وطلبوا من كل بلدان العالم تقديم أيّ نوع من المعلومات عنّي مهما كانت صغيرة، وخاصةً كندا وألمانيا. وبما أنّي شخص "سيّئ" مسبقاً فإنّ القوة يجب أن تُطبّق لشوائي.

ولرعب حكومة الولايات المتحدة، لم تبدُ الأمور كما أرادت، ولم تحقّق ما كانت تريد، فمهما كانت خطط أيٍّ كان تتّسم بالذكاء، فإن خطة الله تجترح المعجزات دائماً. شعرت أنني "ضدّ العالم"، وكأني Pacis 2[1]. وهاكم السبب: إنّ كلّ ما توصلت إليه كندا كان "رأيناه مع فلان وفلان، وهم أشخاص سيئون". "رأيناه في هذا المسجد وذاك المسجد". "راقبنا مكالماته الهاتفية، ولكن في الواقع لا يوجد فيها شيء"! لقد طلب الأميركيون من الكنديين أن يقدّموا لهم البيانات المتعلقة بمكالماتي الهاتفية، ولكن بعدما قاموا بتحريرها، وهذا بالطبع لن يفيدهم لأن المكالمات أضحت مقاطع مختلفة مختارة من هنا وهناك ولا تفيد بأي معنى، مع أنهم يحاولون أن يحصلوا على معنى لها. أعتقد أن الكنديين قاموا بأحد أمرين: إمّا أنّهم رفضوا تقديم المكالمات الخاصة التي تجري في بلدهم للولايات المتحدة، أو أنّهم قدّموا كلّ تلك المكالمات غير مترجمة حتى.

وبعيداً عن الكلمات اختار الكنديون المشاركة مع زملائهم الأميركيين، وراح المحققون الأميركيون يتعلقون بكلمتين لمدة أربع سنوات وهما كلمتا الشاي والسكر.

- ماذا تعني بالشاي والسكّر؟
- أعني بهما الشاي والسكّر.

لا أستطيع أن أخبركم عن عدد المرات التي سألتني فيها الولايات المتحدة عنهما وجعلت الآخرين يسألونني هذا السؤال. ثمة حكاية فولكلورية موريتانية أخرى تدور حول رجلٍ وُلد ضريراً وقد امتلك فرصة وحيدة ليلمح فيها العالم، لكن كل ما رآه كان جرذاً، ومنذ ذلك الحين كلما أراد شخص أن يشرح شيئاً للأعمى كان يسأله: "قارنه بالجرذ: هل هو أكبر أم أصغر؟"

أرادت الاستخبارات الكندية أن أكون مجرماً، وهكذا سيعوّضون فشلهم عندما

---

[1] نسبة إلى مذبح السلام الأوغسطي (Ara Pacis Augustae) الذي دعا إلى بنائه مجلس الشيوخ في روما القديمة في صيف عام ١٣ قبل الميلاد تخليداً لانتصارات الإمبراطور أغسطس في كل من إسبانيا وبلاد الغال وعودته إلى روما في تلك السنة. وقد حكم روما مدة نصف قرن، واتّسم عصره بالسلام والازدهار الحضاري والأدبي والفني حتى صار يُعرف باسم عصر أغسطس. - المترجم.

تسلّل عبر حدود بلدهم إلى الولايات المتحدة حاملاً المتفجرات[1].
لامت أميركا جارتها كندا على أن أراضيها أصبحت قاعدة للتحضيرات الإرهابية ضد الولايات المتحدة، وهذا كان السبب وراء هلع الاستخبارات الكندية. لقد فقدوا رباطة جأشهم كليّاً، محاولين بأقصى ما لديهم تهدئة غضب الأخ الكبير؛ أميركا. لهذا بدأوا بمراقبة الناس الذين ساد الاعتقاد عنهم بأنهم أشرار، وأنا كنت واحداً من بينهم. أتذكر بعد المؤامرة حاول الكنديون زرع آلتَيْ تصوير إحداهما في غرفتي والأخرى في غرفة صديقي للتجسس علينا. سمعت أصواتاً لكنّي لم أستطع تمييزها كوني من أصحاب النوم الثقيل، أو دعوني أقل إنني لم أجد الهمّة الكافية لأستيقظ وأستكشف الأمر. أما صديقي فكان مختلفاً عني، فقد استيقظ على الضجيج وركن منخفضاً وراقب عن كثب حتى وجد الثقب الصغير وقد انفتح في الجدار، فنفخ في الثقب، وعندما فحص بعينيه وقعت عينه مباشرةً على .

أيقظني وأخبرني القصة. فقلت له: سمعت الأصوات نفسها في غرفتي يا . دعنا نلقي نظرة! كان تحقيقنا القصير في الأمر ناجحاً.

- ماذا سنفعل؟ سأل .

- نتصل بالشرطة. قلت له.

- حسناً، اتّصل بهم. قال .

لم أستخدم عن قصد هاتفنا، بل خرجت واستخدمت هاتفاً عمومياً، واتصلت بالرقم (٩١١). وصل شرطيان بعد حين، وشرحت لهما كيف أن جارنا فتح ثقبين في جدار دارنا دون موافقتنا، لهذا نطالبكم بسجنه على هذا التصرف غير القانوني بحقنا. كان طلبنا قانونياً في الأساس.

حينها قال أحد الشرطيين:

- سدّوا الثقبين وينتهي الموضوع.

- حقاً؟ لم أكن أعرف ذلك. هل أنت نجار؟ كان ذلك جوابي. ثم قلت: انظروا لقد اتصلت بكم لا لتعطوني النصائح كيف أصلح بيتي. هناك جريمة واضحة ألا وهي التجاوز والاعتداء على خصوصيتنا. إذا لم تتولوا الأمر سنضطر لتولي الأمر

---

[1] مرة أخرى يظهر أن المقصود هو أحمد الرسّام.

بأنفسنا، وبالمناسبة أريد هويتيكما.

أبرزا هويتيهما بصمت، حيث كانت تحمل الاسم على وجهٍ ومعلومات الاتصال على الوجه الآخر. من الواضح أن هذين الشرطيين كانا يسلكان بعض التوجيهات الحمقاء بغية خداعنا، ولكن كان الوقت متأخراً جداً للاستخبارات الكندية. بقينا لأيام نستهزئ بالخطة. والغريب في الأمر، بل المفارقة، أنني عشت اثني عشر عاماً في ألمانيا، وخلال هذه الفترة كلّها لم يقدّم الألمان أية معلومات تفيد بتورطي بجرم، وهذا بالطبع شيء مؤكد. بينما أقمت مدة أقل من شهرين في كندا، ومع ذلك يزعم الأمير كان أن الكنديين زوّدوهم بأطنان من المعلومات عني. الكنديون لا يعرفونني حتى! ولكن طالما أنّ مجمل العمل الاستخباراتي قائم على أساس التكهّنات فقد بدأ الموريتانيون والأميركيون بتفسير المعلومات كما يطيب لهم لكي يثبتوا النظرية القائلة بأنني العقل المدبّر لمؤامرة الألفية.

يبدو أن التحقيق سار في غير صالحي. بقيت أكرر قصة جهادي في أفغانستان في عام ١٩٩١ وأوائل عام ١٩٩٢، ولكن يبدو أن المحقق الموريتاني لم يتأثر بها. لم تُدنْ موريتانيا رحلتي إلى أفغانستان، إنّهم يفهمونها على نحوٍ جيد، ولكن إذا ما قمتَ بأية مشكلة داخل البلد ستُعتقل، بغضّ النظر عمّا إذا كنت في أفغانستان أم لم تكن. ومن جهة أخرى فإنّ مجرّد ذهابك إلى أفغانستان والبوسنة والشيشان يكفي للولايات المتحدة أن تراقبك مدى الحياة وتقفل عليك الأبواب. تنظر جميع البلدان العربية إلى القضية كموريتانيا ما عدا الدول العربية الشيوعية. فحتى الدول العربية الشيوعية أكثر عدلاً من الولايات المتحدة فيما يخصّ هذا الموضوع، لأنها تمنع مواطنيها من الذهاب إلى الجهاد أصلاً. في حين تضطهد الولايات المتحدة الناس على أساس قانون غير مكتوب. كان محقّقي الموريتاني مهتماً بنشاطاتي في كندا، تلك التي لا تنطبق عليها صفة الجريمة من أي نوع، ولكنّ أحداً لا يصدقني عن طيب خاطر، فجميع أجوبتي على السؤال: "هل عملت كذا وكذا عندما كنت في كندا؟" كانت "لا. لا. لا. لا". لقد علقتُ هناك. أعتقد أنني بدوت مذنباً لأني لم أروِ قصتي كلها حول أفغانستان، لذا ارتأيت أن أملأ تلك الفجوة حتى تبدو قضيتي أقوى. جلب المحقق معه جهازاً للتصوير ذاك اليوم، وما أن رأيته حتى بدأت أرتعد. عرفت أنهم سيجعلونني أعترف ومن ثم يذيعون اعترافي على التلفزيون الوطني، مثلما حدث في أكتوبر ١٩٩٤، عندما اعتقلتْ الحكومة الموريتانية نشطاء

إسلاميين وجعلتهم يعترفون ومن ثم أذاعت اعترافاتهم.[1] كنت مرعوباً للغاية إلى درجة أنّ قدمَي لم تحملانني. بإمكان المرء أن يستنتج أن هناك ضغطاً كبيراً على حكومتي. وفجأة قال لي المحقق: "لقد كنتُ صبوراً جداً معك أيها الولد. يجب أن تعترف وإلاّ تركتك مع الفريق الخاص". عرفت أنه يقصد فريق التعذيب، وأضاف: "تأتينا التقارير يومياً من كل حدبٍ وصوب". في الأيام التي سبق هذا الكلام لم أستطع النوم. كانت الأبواب تُفتح وتُغلق باستمرار. أنا أتأثر بالحركة من حولي كثيراً. كانت غرفتي قريبة من غرفة الأرشيف، ومن خلال ثقب صغير استطعت رؤية بعض الملفات وتسمياتها. أصابني الهذيان وبدأت أقرأ الأوراق علّني أجد شيئاً عني، ولكني لم أجد شيئاً. لا أستطيع تحمل المزيد. والتعذيب؟ مستحيل.

قلت: "أيها المدير، لم أكن صادقاً معك تماماً، وأريد أن أروي قصتي كاملة. ولكن لا أريدك أن تشارك الولايات المتحدة قصتي في أفغانستان، لأنهم لا يفهمون هذه الوصفة الجهادية إطلاقاً وأنا لست مستعداً لصبّ الزيت على النار".

فكان رد مدير الاستخبارات: "طبعاً لن أشاركهم". إنّ المحققين معتادون على الكذب على الناس، فعمل المحقق كله ليس إلا مزيداً من الكذب والتشاطر والخداع. ثم أردف: "حتى أنني أستطيع صرف كاتبي ومعاوني أيضاً إذا أردت". "لا، لا يهمني وجودهم معنا". حينئذٍ نادى مدير دائرة الاستخبارات سائقه وأرسله ليشتري بعض

---

[1] يشير محمدو ولد صلاحي في مخطوطته وفي أكثر من مكان إلى المناخ السياسي والأحداث في موريتانيا على نحو خاص، وإلى تعاون الرئيس معاوية ولد سيد أحمد الطايع مع الولايات المتحدة في ما يسمى "الحرب على الإرهاب". جاء ولد الطايع إلى الحكم بانقلاب عسكري في عام ١٩٨٤ وأصبح رئيساً للبلاد في عام ١٩٩٢. نفّذ ولد الطايع بعد توليه الحكم سلسلة من الاعتقالات طالت المعارضين السياسيين والنشطاء الإسلاميين مثل أولئك الذين ذُكروا هنا، وقد اعتقل في تلك الاعتقالات أكثر من تسعين شخصاً، بمن فيهم رئيس الحكومة السابق وعشرة قادة دينيين، ولم يُعفَ عنهم إلا بعدما اعترفوا علنياً بانتماءهم إلى منظمات محظورة. إن فرض الإجراءات الصارمة على الإسلاميين في الجيش والنظام التعليمي أدّى إلى محاولة انقلابية فاشلة في عام ٢٠٠٣، ولكن ولد طايع خُلع أخيراً عن السلطة في انقلاب ناجح في عام ٢٠٠٥. في تلك الأثناء، وبسبب دعمه لسياسات الولايات المتحدة المناهضة للإرهاب بما في ذلك تسليم محمدو ولد صلاحي، وبسبب حملته العدوانية على النشطاء الإسلاميين في موريتانيا، فقدَ ولد الطايع معظم دعمه الشعبي. انظر: http://www.nytimes.com/200508/08//international/africa/08mauritania.html?fta=y&_r=0; http://www.csmonitor.com/20050809// p07s02- woaf.html; and http:// www.ft.com/cms/s/0/ 23ab7cfc- 0e0f- 11da- aa6700000-e2511c8.html#axzz2vwtOwdNb.

الطعام. جلب سَلَطة بالفروج، أحببتها. كانت وجبتي الأولى منذ أن غادرت السنغال، كان التاريخ الآن هو الثاني عشر من فبراير عام ٢٠٠٠.

- هل ذلك كل أكلك؟ سأل المدير.
- نعم، شبعت.
- أنت لا تأكل كثيراً.
- هذه هي عادتي في الأكل.

بعد هذا الحوار بدأتُ بسرد قصة جهادي بالكامل وبالتفاصيل المملة. "أما بالنسبة لكندا أو الهجوم ضد الولايات المتحدة فليست لي علاقة لا من قريب ولا من بعيد"، أنهيت قصتي بهذه الجملة. وفي الأيام التالية لهذا اللقاء تحسنت معاملتهم لي وتحسّن الطعام أيضاً بشكل لا يقارن عمّا سبق.

كانت أجوبتي على أسئلته متماسكة ومنسجمة مع المعلومات التي كانت بحوزته من قَبل من مصادر أخرى. وعندما تيقّن مدير الاستخبارات بأنّني أقول له الحقيقة تخلّى عن تصديق أن تكون التقارير الأميركية حقائق من الإنجيل، وعلى الأرجح وضعها جانباً إن لم يكن في سلة النفايات.

ظهر ■■■■■■■■■■ للتحقيق معي. كانوا ثلاثة، ■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■ ■■■■■■■■■■■■■■■■■■. من الواضح أن السلطات الموريتانية قد أطلعت ■■■■■■ على كل مقابلاتي، لذا فإن ■■■■■■ والموريتانيين كانوا يمتلكون المعلومات نفسها.[1]

عندما وصل الفريق تمّ استضافتهم في ■■■■■■■■■■■■■■■■

[1] يمكن تقدير التاريخ من شهادة محمدو ولد صلاحي أمام هيئة إعادة النظر الإدارية في عام ٢٠٠٥ بأنه ١٥ فبراير ٢٠٠٥ تقريباً، وأن أولئك المحققين هم أميركيون على الأرجح.
قال ولد صلاحي أمام هيئة المراجعة الإدارية عام ٢٠٠٥ إن فريقاً أميركياً مؤلفاً من عميلين لمكتب التحقيقات الفدرالي وشخص ثالث من وزارة العدل أجرى التحقيق معه لمدة يومين في الفترة القريبة من نهاية حجزه في موريتانيا. إنّ احتجازه من أجل الاستجواب بطلب من الولايات المتحدة لاقى صدىً واسعاً في الصحافة المحلية والدولية. وفي تقرير لـ بي بي سي أكّد المسؤولون الموريتانيون على استجوابه من قبل مكتب التحقيقات الفدرالي. (هيئة إعادة النظر الإدارية، ص ١٠٠).

وأحاطوني علماً باليوم الذي سيأتون للتحقيق معي.[1]

– يا محمدو، لا شيء ضدك من جهتنا. أنت رجل حرّ. ولكن هؤلاء الأشخاص يريدون التحقيق معك. أريدك أن تكون قوياً، وأن تكون صادقاً معهم. أخبرني المدير.

– كيف تسمح لأجانب باستجوابي؟

– إنّه ليس قراري، ولكن الأمر شكلي. قال.

كنت خائفاً جداً لأنني لم يسبق لي أن قابلت محققين أميركيين، ومع ذلك تصورت أنهم لن يلجأوا إلى التعذيب لانتزاع المعلومات. ولكن مجمل المناخ جعلني شكّاكاً تجاه صدقية وإنسانية محقّقي الولايات المتحدة، وكأنهم يقولون لي: "لن نعذبك بأنفسنا ولكنك تعرف أين أنت"! لذا عرفت أنّ ██████ أرادوا أن يحققوا معي تحت ضغط وتهديد بلد غير ديمقراطي.

هُيئ الجو، وأُخبرت ماذا ألبس وماذا أقول. لم أجد الفرصة أبداً لأخذ دوش أو لغسل ملابسي، لذا لبست بعض ملابسي المتّسخة. لا بدّ أن رائحتي كانت تزكم الأنوف، فقد أصابني الضعف والهزال من الحجز في السجن إلى درجة أن ثيابي لم تكن تناسبني، ظهرتُ كمراهق في سروال فضفاض ككيس، لكني حاولت قدر استطاعتي أن أبدو مرتاحاً وودوداً وعادياً.

وصل ██████████ حوالي الساعة الثامنة مساءً، وقد نُظّفت غرفة التحقيق من أجلهم. دخلت الغرفة مبتسماً بعد أداء التحيات الدبلوماسية والتعارف، جلست على كرسي قاس، جاهداً لالتقاط معالم عالمي الجديد.

بدأ ██████ بالكلام: "جئنا من الولايات المتحدة لنسألك بعض الأسئلة. لك الحق في أن تبقى صامتاً. بإمكانك أيضاً أن تجيب عن بعض الأسئلة وتترك الإجابة عن الأخرى. لو كنا في الولايات المتحدة لكنّا وكّلنا لك محامياً مجانياً".

---

١ المكان يمكن أن يكون القصر الرئاسي. في مكان آخر من المخطوطة يثني محققو محمدو ولد صلاحي الأميركيون على علاقة الولايات المتحدة الوثيقة بالرئيس آنذاك معاوية ولد سيد أحمد الطايع ملمّحين إلى أنهم استُضيفوا من قبل الرئيس وأقاموا في القصر الرئاسي في الفترة التي أجروا تحقيقاتهم في البلد.

كدت أقاطع هراءه وأقول: "توقّف عن هذا الهراء واسألني أسئلتك"! يا له من عالم متحضر! كان في الغرفة فقط المحققون ████████ مع مترجم عربي. كان المحققون الموريتانيون قد خرجوا من الغرفة.

- شكراً جزيلاً. لا أحتاج أي محام. قلت.
- ولكن نريد أن تجيب عن أسئلتنا.
- بالطبع سأجيب.

بدأوا بالسؤال عن رحلتي إلى أفغانستان خلال فترة الحرب ضد الشيوعية، وأظهروا لي مجموعة من الصور، وسألوني أسئلة حول كندا، لكن بالكاد سألوني عن ألمانيا. فيما يخصّ الصور وكندا كنت صادقاً تماماً، لكني امتنعت عن قول معلومات حول رحلتي إلى أفغانستان في يناير ١٩٩١ وفبراير عام ١٩٩٢. لا بدّ أنكم تعرفون السبب وراء تكتّمي على تلك المعلومات، إذ ليس من الضروري أن تعرف الولايات المتحدة كيف ساعدتُ إخواني الأفغان ضد الشيوعيين. لوجه بطرس الرسول، كان من المفترض أن تكون الولايات المتحدة إلى جانبنا! وعندما انتهت تلك الحرب عدتُ وتابعتُ حياتي كالمعتاد. لم أخرق أي قانون موريتاني أو ألماني. ذهبت إلى أفغانستان بشكل قانوني ثم عدت. أما بالنسبة للولايات المتحدة فأنا لست مواطناً أميركياً ولم أزرها قط من قبل، لذا فأي قانون يمكن خرقه من قبلي؟ سيكون مفهوماً لي لو كنت دخلت الولايات المتحدة واعتقلوني لاشتباه منطقي، عندها كنت سأضطر لشرح حقيقة وضعي بالكامل لهم.

وماذا عن كندا؟ حسناً، لقد امتحنوني بما فيه الكفاية خلال فترة وجودي في كندا، لأن عربياً حاول أن يهاجمهم من كندا. شرحت بالأدلة القاطعة بأنني لست جزءاً من ذاك الهجوم. والآن انقلعوا واتركوني وشأني.

أخبرني المحققون ████████ بأنني لست صادقاً. "كلا، كنت صادقاً" كذبت. الجميل في الأمر أنني لم أعترف بما كانوا يتوقعون. ظلّ ████████ يكتب أجوبتي وينظر إليّ في الوقت ذاته. تساءلت كيف يستطيع أن يقوم بالعملين في آن واحد؟ فيما بعد علمت أن المحققين ████████ يدرسون حركاتك وأنت

تتكلم، يا له من أمر سخيف![1]

ثمة عوامل مختلفة تدخل في عملية التحقيق، وهذه العوامل تختلف من ثقافة إلى أخرى. بما أنّ ■■■■■■ يعرف قضيتي بالكامل الآن، فقد اقترحت أن يعود ■■■■■■ ويدقّق في النقاط التي وضعوا علامة عندها دلالة على عدم صدقي، حتى يكتشف مدى كفاءته. لقد تجاوز المحققون الأميركيون أيضاً حدود واجبهم وعملوا ما يمكن أن يعمله أي محقق آخر. فقد راحوا يسألونني عن السودان ونيروبي ودار السلام. كيف لي أن أعرف عن هذه البلدان ما لم تكن لي أرواح عديدة؟

عرض ■■■■■■ عليّ أن أعمل معهم. أعتقدُ أنّ عرضهم سيكون عبثاً ما لم يكونوا متأكّدين تماماً بأنني مجرم. لست شرطياً، ولكنني أعرف كيف يمكن أن يندم المجرمون – شخصياً، لم أفعل شيئاً أندم عليه. في اليوم التالي، وفي الوقت نفسه، ظهر ■■■■■■ مرة أخرى محاولاً أنْ يحصل، على الأقل، على المعلومات التي أدليتُ بها للموريتانيين، لكنهم لم يستطيعوا إقناعي. إلا أنّ السلطات الموريتانية أعطتهم كل شيء في حينه. لم يضغط ■■■■■■ عليّ بأية طريقة منافية للمدنية، بل تصرّفوا بطريقة ودودة. قال رئيس الفريق: "لقد أنجزنا مهمتنا. سنعود إلى بلدنا". تماماً مثل أم عمر وحمارها.[2] غادر ■■■■■■■■■■■■ نواكشوط وتمّ الإفراج عني.[3]

"هؤلاء الرجال ليس لديهم دليل من أي نوع"، قال مدير مكتب الاستخبارات

---

١ لأن شهادة محمدو ولد صلاحي أمام هيئة إعادة النظر الإدارية توحي بأن هذا التحقيق كان يجريه مكتب التحقيقات الفيدرالي، لعله يشير هنا إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي بشكل عام وإلى عميل بعينه على نحو خاص (هيئة إعادة النظر الإدارية، ص١٧). إنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي يدرج حركات الجسم كمؤشرات على خداع محتمل في المادة المنشورة على موقعه، كما أنّ عميلاً لمكتب التحقيقات الفيدرالي قد كتب وتحدث علانيةً حول هذا الموضوع. انظر:
http:// www.fbi.gov/ stats- services/publications/ law- enforcement- bulletin /june_2011/ school_violence; and http://cjonline.com/news/local/2010-11-26 / no_lie_ex_fbi_agent_ spots_fibbers.

٢ إشارةً إلى مثل في الجاهلية حول امرأة ملعونة طُردت من قبيلتها، والمقصود هنا هو شخص غير مرغوب فيه يذهب دون رجعة.

٣ أشارت صحيفة *The New York Times* في تقريرها إلى أن محمدو ولد صلاحي أُطلق سراحه من السجن في موريتانيا في ١٩ فبراير ٢٠٠٠. راجع:
http://www.nytimes.com/ 2000/02/21 /world/ terrorist- suspect-is-released-by-mauritania.html.

الموريتانية بشيء من الحزن. شعر تماماً بسوء المعاملة. لا يريد الموريتانيون أن يسلّموني إليهم لأنها قضية عديمة الفائدة، وإذا ما وجدوني مذنباً وسلموني إلى الولايات المتحدة، عندئذ سيواجهون غضب الشعب، وإنْ لم أكن مذنباً عندها سيواجهون غضب الحكومة الأميركية. وفي كلتا الحالتين سيفقد الرئيس منصبه.

إن قضية كهذه لا تتمّ تحت الطاولة.

"لم نجد شيئاً عليه ندينه به، وأنتم لم تقدموا لنا دليلاً"، هذا ما يجب أن يكون ما قاله السنغاليون. "والحالة هذه فإننا لا نستطيع سجنه. ولكن إذا ما كنتم تريدون أخذه فخذوه".

"كلا، لا نستطيع أخذه. يجب أن يكون لدينا دليل عليه أولاً"، تجيب الحكومة الأميركية.

"حسناً، لا نريد أن نفعل شيئاً به"، قال السنغاليون.

"سلموه إلى موريتانيا"، اقترحت الحكومة الأميركية.

"كلا، لا نريده، خذوه أنتم"، ردّت الحكومة الموريتانية.

"يجب أنْ تأخذوه أنتم"، قالت الحكومة الأميركية، دون أن تترك خياراً لها. ولكن الحكومة الموريتانية تريد دائماً أن تحافظ على السلم بين الحكومة والشعب. لا يريدون إثارة المشاكل.

– أنت حرّ، تستطيع الذهاب. قال مدير مكتب الاستخبارات.

– هل كان يجب أن أعطيه كل شيء؟

– نعم كل شيء. أجاب المدير. حتى أنه طلب مني أن أتفقد ممتلكاتي مرتين، ولكن ابتهاجي منعني من القيام بأي شيء. شعرت كما لو أن غول الخوف قد زال عن صدري.

– شكراً جزيلاً. قلت له. طلب المدير إلى معاونه وكاتبه أن يقلاّني بالسيارة إلى بيتي. كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر عندما انطلقت السيارة نحو بيتي.

– يستحسن ألاّ تتكلم مع الصحفيين. قال المفتش.

– نعم، لن أتكلم. حقاً، لن أنشر أبداً فضيحة انتهاك محققين أجانب لسيادة وطني. شعرت بخيبة أمل وأنا أكذب عليهم.

– هيا بنا، لقد شاهَدَنا ██████████[1] يا إلهي، هؤلاء الصحفيون سحرة.

– ربما كانوا يستمعون إلى تحقيقي. قلتها غير مقتنع.

حاولت أن أعرف طريقي إلى داري، ولكن صدقوني، لم أعرف أي شيء حتى وقفت سيارة الشرطة أمام بيتنا وأنزلوني هناك. كان قد أصبح لي سبع سنوات منذ آخر لقاء مع أسرتي.[2] لقد تغيّر كل شيء: أصبح الصغار رجالاً ونساءً، والشباب تقدّم بهم العمر، ووالدتي القويّة قد ضعفت، ومع ذلك كانت السعادة من نصيب الجميع. أختي ██████ وزوجتي السابقة بالكاد كانتا تنامان في الليل، كانتا تصليان من أجلي حتى يخفّف الله من آلامي ومعاناتي. لقد كافأ الله كل شخص وقف معي. كان الجميع من حولي: عمتي، وأصهاري، وأصدقائي. قامت أسرتي بواجبها بكرم في إطعام الزائرين، جاء البعض فقط من أجل تهنئتي، والبعض الآخر لإجراء المقابلات معي، والبعض فقط ليتعرّفوا إلى الرجل الذي اشتهر في الإعلام في الشهر الماضي.

بعد بضعة أيام كنت أنا وأسرتي نضع الخطط من أجل مستقبلي. لأختصر عليكم القصة، أرادت أسرتي أن أبقى في البلد ليتمكنوا من رؤيتي يومياً ويستمتعوا بصحبتي. وقلت لنفسي: ليكن ذلك. وجدت عملاً، وشاهدت الفرح على وجه أمي الجميل كل صباح. لكنّ السعادة لا تدوم إلى الأبد!

---

١ يبدو أن محمدو ولد صلاحي يقتبس من حديث له مع صحفي خاص بعد إطلاق سراحه.

٢ غادر محمدو ولد صلاحي موريتانيا في عام ١٩٨٨ ليدرس في ألمانيا. أدلى بشهادته في الجلسة الاستماع أمام محكمة إعادة النظر بوضع المقاتل (CSRT) بأنه زار أسرته في موريتانيا لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع عام ١٩٩٣. (CSRT، ص٥).

الفصل الثالث

موريتانيا

٢٩ سبتمبر ٢٠٠١ – ٢٨ نوفمبر ٢٠٠١

زفاف وحفلة طعام... أسلّم نفسي إلى السلطات... أخرج من السجن... يَنِخُّ الجمل على دفعتين... ظهور الشرطة السرية في بيتي... "يوم الاستقلال"... رحلة جوية إلى الأردن.

كان يومي مليئاً بالنشاط.[١] فمن جهة كنت منهمكاً في إعداد زفاف ابنة أختي المحبوبة ████████، ومن جهة أخرى كنت مدعواً إلى حفلة عشاء كبيرة أقامها رجل بارز في عشيرتي يدعى ████████. تعرّض الرجل – لسوء الحظ – لحادث سير خطر، وكان قد عاد من الولايات المتحدة في الآونة الأخيرة، حيث كان يعالج فيها. يتمتع ████████ باحترام وسط الناس الجنوبيين، وكان العشاء مكرّساً لمساعدة ما نطلق عليه "كوادر ترارزة".[٢] في الصباح طلبت من مديري في العمل بعض النقود لأساعد بها أختي في الزّفاف.[٣] لدينا في موريتانيا

١ التاريخ حسب شهادة محمدو ولد صلاحي أمام هيئة إعادة النظر الإدارية عام ٢٠٠٥ هو يوم السبت ٢٩ سبتمبر ٢٠٠١ (المصدر: نسخة هيئة إعادة...، ص١٨).

٢ ترارزة هي منطقة تقع في جنوب موريتانيا، تمتد شمالاً من الحدود السنغالية حتى العاصمة. كان الاسم يطلق أيضاً على إمارة قبل الحقبة الاستعمارية. ويبدو أن "كوادر ترارزة" هي منظمة اجتماعية.

٣ أدلى محمدو ولد صلاحي بشهادته في جلسات الاستماع أمام CSRT في ٢٠٠٤ وأمام ARB في =

عادة سيئة في تنظيم كل شيء مزاجياً، وهو إرث من الحياة الريفية لا يزال كل الموريتانيين يتّبعونه حتى اليوم. وكان دوري في الزفاف هو نقل المدعوين إلى المكان الذي يُقام الزفاف فيه.

إن وقائع الزفاف في العالم الإسلامي والعالم العربي لا تختلف من بلد إلى آخر فحسب، بل وحتى في البلد الواحد تختلف من منطقة إلى أخرى بعاداتها وطقوسها المختلفة. وكان زفاف ابنة أختي وفق العادات التي تتبعها الأسر المتوسطة ذات الاعتبار في جنوب موريتانيا. يقوم الشاب بمعظم المهام. يتقصّى المعلومات عن الزوجة المستقبلية عن طريق أحد أقاربها المتحررين الذي يثق به. وتقرير هذه "اللجنة" سينتج عنه تقييم بالمعطيات التقنية للفتاة: مواصفاتها الجسدية، وذكاؤها، وما شابه. يمكن أحياناً القفز فوق هذه الخطوة إذا ما كانت تتمتع بسمعةً جيدة من قبل. ثم تأتي الخطوة الثانية وهي الموعد، وهذا يختلف أيضاً عن النموذج الأميركي، حيث يعطي الشاب المعني موعداً لزوجته المستقبلية في دار أسرتها، وهذا يتم عادةً بوجود أفراد آخرين من الأسرة، والهدف من هذه المواعيد هو التعارف. يمكن أن يكون الحد الفاصل بين موعد وآخر شهرين أو حتى سنتين، وهذا يعتمد على الشاب والفتاة. بعض الفتيات لا يرغبن في تشكيل أسرة حتى يتخرجن من المدرسة، والبعض الآخر يشكّلن أسرة - أو دعوني أقل: ضغط الأسرة عليها وإجبار الرجل لها يجعلانها تقبل الزواج والبدء بالحياة الأسرية.

معظم الشباب لا يكونون عادةً جاهزين للزواج، لذا يقومون بـ"حجز" الفتاة ومن ثم يلتفتون إلى أعمالهم حتى يكسبوا شيئاً من المال يؤهّلهم للإقدام على الزواج. يكون العريس عادةً أكبر عمراً من العروس وأحياناً أكبر بكثير، ولكن يمكن في حالات

= ٢٠٠٥، بأنه عاد إلى موريتانيا في ٢٠٠٢ وعمل هناك كخبير إلكتروني، عمل أولاً لصالح شركة للأجهزة الطبية، ومن ثم في يونيو ٢٠٠١ بدأ العمل لصالح شركة تدعى "سمك عمان في نواكشوط"، وقد شرح ذلك في جلسة الاستماع أمام CSRT بقوله: "هذه الشركة كانت لأناس من قبيلتي، حيث أعطوني راتباً أعلى للانضمام إليهم. أرادوا مساعدتي لتطوير عملهم. كنت في الفترة الأولى أجلس في مكتبي لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا سيفعلوا بي. كان لديهم الكثير من الأجهزة الالكترونية وأرادوا مني الاهتمام بها. جهّزت مكتبي وركّبت AC التيار المتناوب، وحدثت هجمات ١١ سبتمبر. عندئذ جن جنون أميركا بحثاً عن رأس الخيط في الهجوم، وكنت ابن عم الساعد الأيمن لأسامة بن لادن. آه، لقد حصلنا عليه" (المصدر: نسخة CSRT، ص٨؛ ونسخة ARB، ص١٨).

قليلة أن تكون العروس أكبر من العريس وأحياناً أخرى أكبر بكثير، فالموريتانيون متسامحون نسبياً في قضية الفروقات العمرية.

قبل أن يطلب الشاب يد الفتاة رسمياً يرسل سرّاً صديقاً يعتمد عليه ليسأل الفتاة إن كانت ستقبل به. وعندما تنتهي تلك الخطوة بالإيجاب تأتي من بعدها الخطوة الحاسمة وهي: سؤال الشاب والدة الفتاة إن كانت تقبل به زوجاً لابنتها. يطلب الشاب يد الفتاة فقط إذا ما كان لديهم المعرفة بأنهم مقبولون، وأحياناً يرسل الشاب شخصاً ثالثاً موثوقاً لتفادي إحراج الرفض. والدة الفتاة هي وحدها التي تعطي القرار، معظم الآباء قليلاً ما يتدخلون. ومع أن هذه الخطوبة ليست رسمية، فإنّها ملزمة للطرفين. كل شخص يعرف حينها أن ████ مخطوبة لـ ████.

ممارسة الجنس قبل الزواج غير مسموح بها في موريتانيا، ليس فقط لأسباب دينية بل لأن الكثير من الرجال لا يثقون بالفتاة التي تقبل بإقامة علاقة جنسية معهم، ويفترضون أنها ما دامت قد قبلت بممارسة الجنس معهم فستقبل بممارسة الجنس مع رجل آخر وآخر في سلسلة مغامرات جنسية لا نهاية لها. ومع أنّ الدين الإسلامي يعامل الذكور والإناث معاملةً واحدة بهذا الخصوص، فإنّ المجتمع يميل إلى قبول الجنس قبل الزواج من الرجال أكثر من قبوله للنساء. يمكنكم مقارنة ذلك بمسألة الغش في الولايات المتحدة، حيث يتسامح المجتمع مع الرجل الغشاش أكثر من المرأة الغشاشة. لم أقابل رجلاً أميركياً قط يسامح الغش، ولكني التقيت الكثير من النساء الأميركيات اللواتي يسامحنه.

لا توجد حفلة، أو خاتم للخطوبة، ولكن الخطيب مؤهل الآن لتقديم الهدايا لزوجته المستقبلية. قبل الخطوبة لا تقبل سيدة الهدايا من شخص غريب.

الخطوة الأخيرة هي الزفاف الفعلي، حيث يتم الاتفاق على موعد بين الطرفين، كل طرف يحق له أن يأخذ الوقت الضروري له في نطاق العرف والعقل. الرجل هو الذي يعلن عن المهر كإجراء ضروري التزاماً بالشكليات، ولكن ليس من المناسب أن تطلب أسرة الفتاة أي مبلغ من المال، يُترك الأمر كله للرجل وما تسمح به حالته المادية. لذا فإن المهور تتراوح بين مهر منخفض متواضع ومهر غالٍ آثم. وحالما يقرر الرجل ما يستطيع دفعه فإن العديد من الأسر تأخذ مبلغاً رمزياً قليلاً وترسل بقية المال

إلى أسرة الرجل، نصف المهر على الأقل.

تُقام حفلة الزفاف تقليدياً في دار أسرة العروس، لكننا نجد في الفترة الأخيرة أن بعض الناس وجدوا عملاً مربحاً في تنظيم حفلات الزفاف في بيوت شبيهة بالنوادي. تبدأ الحفلة ابتداءً بعقد الزواج، الذي يمكن أن يتم من قبل أي إمام أو شيخ معتبر. لا يؤمن الموريتانيون بإجراءات الحكومة الشكلية، وقلّما يعلن شخص عن زواجه في مؤسسة حكومية ما لم يكن لمنفعة مالية، وهذا نادراً ما يحدث.

حفلة الزفاف تتقاسم بالتساوي بين أسرة العريس وأسرة العروس. تقليدياً، كان الموريتانيون يحتفلون سبعة أيام كاملة، ولكن صعوبات الحياة المعاصرة اختصرت تلك الأيام السبعة إلى ليلة واحدة فقط. يُسمح فقط لأصدقاء العريس من جيله أن يحضروا الزفاف، بعكس النساء اللواتي يمكن أن يكنّ من كل الأجيال. في الحفلة لا تختلط النسوة بالرجال مباشرةً، ومع ذلك يمكن أن يكونوا في قاعة واحدة، كل جنس يحترم البقعة المخصصة للجنس الآخر. ولكن الحاضرين جميعهم يتحدثون إلى بعضهم البعض ويستمتعون بالتسلية نفسها التي تجري وسط القاعة، كالمشاهد الهزلية والموسيقى والشعر. عندما كنت صغيراً، وكان النسوة والرجال يرسلون رسائل مشفّرة إلى بعضهم البعض، حيث كان الشخص المستهدف بالرسالة يفهمها بكل تأكيد، كانت الرسائل تُفتح عادةً لتفتح معها موقفاً مضحكاً يمكن أن يحدث لأي شخص وكان ذلك محرجاً بعض الشيء. كان أصدقاء الشخص يضحكون عليه أو عليها، ويُضطر الشخص، رجلاً كان أم امرأة، أن يدافع عن نفسه ويردّ عليهم مستهدفاً الشخص المجهول الذي أرسل الرسالة. لم يعد الناس يمارسون هذه التسلية المزعجة.

يُقدَّم الطعام والمشروبات بسخاء خلال الحفلة، وتنتهي الحفلة مع ما يسمّى "تعويز بيلاج" (Taweezpilage) التي ليس لها معنى حرفي، إنّها تصف المؤامرة التي تقوم بها النسوة لاختطاف العروس، وجهود الأخوة الذين يحاولون منع ذلك، حيث يُسمح لصديقات العروس أن يتآمرن ويختطفن العروس ويخبئنها، ومهمة العريس وأصدقائه هي العمل على إفشال مؤامرتهن تلك. وإذا ما فشلوا في منع الاختطاف، عندئذٍ يتوجب عليهم البحث عن العروس وإيجادها وإرسالها إلى زوجها. يجب أن تتعاون العروس مع صديقاتها، وهي عادةً تفعل ذلك، وإلا ستوصم بكل الصفات الموبقة.

وأحياناً يستغرق البحث عدة أيام حتى يجد الذكور العروس. وعندما ينجح الرجال في استعادة العروس تنتهي الحفلة وتعطى العروس للعريس، ويرافقهما أصدقاؤهما المقربون في مشوار طويل إلى بيت العائلة الجديدة، في حين يعود بقية الحاضرين إلى بيوتهم.

إن زفاف ابنة أختي المحبوبة ██████ سيجرى على هذا النحو تقريباً. من المفترض ألا أحضر الحفلة لأنني أكبر من العريس، وعلى أية حال ليس لدي الوقت الكافي. كانت لدي حفلة ممتعة أخرى تنتظرني. عندما أنهيت مهمة نقل الضيوف وقفت أنا ووالدتي على ما قمت به، فبدا كل شيء على ما يرام لذا يمكنهم الاستغناء عن خدماتي. عندما وصلت إلى الحفلة، التي كانت في فيللا جميلة ███ في "تفرلي زينة"، شعرت بدفء العشرة اللطيفة. لم أعرف أغلبية ███ الضيوف، ولكني لمحت صديقي المقرّب ██████████████ ███ غارقاً وسط الحشد. حاولت جاهداً أن أشقّ طريقي بين الحشد وجلست بالقرب من ██████.

كان سعيداً بلقائي وقدمني إلى الضيف الأكثر أهمية. انسحبنا إلى طرف الحفلة مع مجموعة من أصدقائه، وقدمني ██████ إلى أحد أصدقائه، الشاب ██████. سأل ██████ وسألني ما إذا كان بوسعه أن يدافع عن ██████، المطلوب الآن من السلطات الأميركية، بمنحة مالية قدرها خمسة وعشرون مليون دولار أميركي.[1]

– ماذا ستفعل من أجله؟ هل ستخفض حكمه من ٥٠٠ سنة إلى ٤٠٠ سنة؟ سألته ساخراً.

إنّ الناس في الأجزاء الأخرى من العالم مثل أوروبا يجدون صعوبة في فهم العقوبات الوحشية في الولايات المتحدة، ولكن موريتانيا ليس بلد قانون، لذا لا نجد صعوبة في فهم ما تفعله الحكومة، ومع ذلك، إذا ما طُبّق القانون الموريتاني فإنه أكثر إنسانية من القانون الأميركي. لماذا تحكم الولايات المتحدة على إنسان بثلاثمائة سنة طالما

[1] يبدو أن الحديث يدور حول أبو حفص الذي أصبح مطلوباً بعد هجمات ٩/١١ وهو الآن هدف مقابل ٢٥ مليون دولار.

أنه لن يعيش كل هذه الفترة؟ كنا نتحاور حول هذه المواضيع، ونستمتع بالطعام الوفير أمامنا، عندما رنّ هاتفي الخليوي. سحبته من جيبي وخطوت جانباً، كان رقم رئيس دائرة الاستخبارات الموريتانية على الشاشة.

- مرحباً، أجبت.

- محمدو أين أنت؟ لا تقلق! أين أنت؟ أنا أمام الباب الخارجي لمنزلي أريد اللقاء بك.

- حسناً، انتظرني قليلاً، أنا في طريقي إليك.

أخذت ████████ جانباً وقلت له: لقد استدعاني ████████، وأنا ذاهب لأراه.

- حالما يخلي سبيلك، اتصل بي.

- حسناً. قلت له.

كان مدير الاستخبارات ينتظرني أمام بيته، ولكنه لم يكن وحده، كان معاونه معه أيضاً، وهذا ليس مؤشر خير.

- السلام عليكم. قلت ونزلت من سيارتي.

- وعليكم السلام. ستركب معي وشخص آخر سيقود سيارتك.

- حسناً. ركبتُ أنا والمفتش مع مدير مكتب الاستخبارات واتجهنا نحو السجن السرّيّ المشهور.

- اسمع، لقد طلب أولئك الناس أن نعتقلك.

- لماذا؟

- لا أعرف، ولكن آمل أن يُطلق سراحك قريباً. إن هجمات الحادي عشر من سبتمبر أفسدت أمور جميع الناس.

لم أقل شيئاً. تركته هو ومعاونه يتحدثان قليلاً دون أن أعرهما انتباهاً. لقد حقّق مدير الاستخبارات معي مرتين بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر بأسبوعين ونصف الأسبوع، ولكن يبدو أن الولايات المتحدة لم تكن راضية عن "ياردة"، كانوا يريدون "ميلاً" في البداية، ومن ثم كل مسافة الطريق السريع، كما اتضح في النهاية.

وضعوني في الغرفة التي كنت زائراً فيها قبل عام ونصف. خرج المفتش ليعطي

التعليمات إلى الحراس ومن ثم أعطوني فرصة لإجراء مكالمة هاتفية سريعة مع ███ ████████████████.

"أنا معتقل" همست وأغلقت الهاتف حتى دون انتظار الجواب. عندئذٍ حذفت الأسماء كلها من هاتفي، ليس لأن لدي أرقاماً ساخنة، فكل ما كان لديّ هو بعض الأرقام لشركاء العمل في موريتانيا وألمانيا، بل لأنني لا أريد لحكومة الولايات المتحدة أن تتحرّش بأولئك الأشخاص المسالمين فقط لأن أرقامهم في هاتفي.

والمادة الأكثر إثارةً للضحك التي حذفتها كانت (PC Laden) تقابلها في الإنكليزية Computer Store، أي "متجر للكمبيوتر"، فكلمة Store الإنكليزية هي بالصدفة Laden بالألمانية. أعرف كم سيكون صعباً شرح هذا الأمر للمحققين الأميركيين، وأعرف أنّهم لن يصدقونني. لقد حاولوا دائماً أن يلصقوا بي أشياء ليست لي أية علاقة بها.

– أعطني هاتفك الخليوي. قال المفتش عندما عاد. وكان ذاك الهاتف القديم المضحك من بين المقتنيات التي أخذها معهم الأميركان إلى الوطن، ولكنّه كان خالياً من الأرقام. أما بالنسبة لاعتقالي فقد كان شيئاً من قبيل تعاطي المخدرات السياسية: لقد طلب مكتب التحقيقات الفيدرالي من الرئيس الأميركي التدخل من أجل اعتقالي، وطلب بوش بدوره من الرئيس الموريتاني، الذي سيُخلع عن الحكم لاحقاً، عمل معروف "له"، وما أن تلقى طلب الرئيس الأميركي حتى حرّك زميله الموريتاني قوات الشرطة التابعة له لاعتقالي.

– في الواقع ليست لدي أية أسئلة أوجّهها إليك، لأنني أعرف قضيتك. قال رئيس مكتب الاستخبارات الموريتاني، ثم غادر هو ومعاونه وتركاني مع الحرّاس ومع حشد هائل من البعوض.

بعد قضاء عدة أيام في السجن جاء مدير مكتب الاستخبارات إلى زنزانتي.

– اسمع! أولئك الناس يريدون أن يعرفوا عن ████████████████

████، وقالوا إنّك جزء من مؤامرة الألفية.

– حسناً، ████████████████ هم أصدقائي في ألمانيا،

أما فيما يتعلق بمؤامرة الأليفة فلا علاقة لي بها.

– سأعطيك قلماً وورقة، واكتب ما تعرفه.

بعد أسبوعين من الحجز في السجن الموريتاني جاء محققان أميركيان ████

███████ إلى السجن بعد ظهر أحد الأيام للتحقيق معي.[1]

قبل أن ██████████ يلتقوا بي، طلبوا من الشرطة أن يقتحموا بيتي ومكتبي ويصادروا كلّ شيء يجدونه فيه يمكن أن يقودهم إلى نشاطاتي "الإجرامية". أخذني فريق أمني خاص إلى البيت، وفتشوا بيتي ووضعوا يدهم على كل شيء اعتقدوا أنه قد يكون مناسباً للأميركان. عندما وصل الفريق كانت زوجتي نائمة، لقد أفزعوها. لم تكن قد شاهدت الشرطة تفتش داراً من قبل. أنا أيضاً لم تكن لدي مشكلة مع التفتيش، ولكنهم أزعجوا أسرتي. لم يبالِ جيراني كثيراً، أولاً لأنهم يعرفونني، وثانياً لأنهم يعرفون أن الشرطة الموريتانية غير عادلة. وفي عملية منفصلة فتّش فريق آخر الشركة التي كنت أعمل فيها، وتبيّن أنّ الأميركيين لم يكونوا مهتمين بالأشياء التافهة ما عدا كمبيوتري الشخصي وهاتفي الخليوي.

عندما دخلت غرفة التحقيق كان محققان أميركيان يجلسان على أريكة جلدية، وكانا يبدوان غاضبين جداً. لا بدّ أنهما من مكتب التحقيقات الفيدرالي، لأن الأشياء التي صادروها أصبحت في يد تلك الجهة في الولايات المتحدة.

– مرحباً. قلت مادّاً يدي، ولكن يدي وتحيتي بقيت معلقة في الهواء.

بدا ██████ أنه القائد. دفع كرسياً معدنياً قديماً باتجاهي.

– هل ترى الصور على الجدار؟ سأل ██████ مشيراً إلى صور الرئيس، و ██████ يترجمها إلى الألمانية.

– نعم.

– وعد رئيسُك رئيسَنا بأنّك ستتعاون معنا. قال ██████. فكّرت، كم أنت رخيص! شخصياً لم أشتم الرئيسين، فهما بالنسبة لي غير عادلين وسيئان.

– آه، نعم! بالتأكيد سأتعاون. قلت، واتجهت إلى الطاولة المكدّسة بكافة أنواع المشروبات والحلويات لأشرب شيئاً ما. نَتَرَ ██████ يدي وأخذ المشروب منّي بقوة قائلاً:

---

[1] في شهادته أمام ARB عام ٢٠٠٥ يؤرّخ محمدو ولد صلاحي هذا التحقيق في ١٣ أكتوبر ٢٠٠١، ويعتقد أن هذين المحققين تابعان لـFBI، ومع ذلك "هما أميركيان، يمكن أن يكونا أي شيء". ومع المحقق الأساسي كان هناك محقق "يتكلم الألمانية بشكل ملائم ولكن ليس جيداً جداً، وبلهجة سيئة" وكان يقوم بدور الترجمة أثناء المقابلة. (المصدر: نسخة ARB، ص١٨).

- لسنا هنا للاحتفال، أنا هنا لإيجاد الحقيقة عنك. أنا لست هنا لاعتقالك.
- حسناً! اسألني وأنا سأجيب عن أسئلتك.

وفي وسط هذا الخطاب دخل مقدّم الشاي الغرفة، محاولاً تهدئة ضيوفه الغاضبين. فقال ██████: "اغرب عن وجهي". كان ██████ قليل الاحترام نحو المساكين من الناس، إنه معتوه وعنصري والأقل احتراماً للذات في العالم. من جهتي تجاهلتُ كل الشتائم التي وجّهها إليّ، وبقيت متماسكاً، مع أنني كنت عطشاً جداً لأن الجلسة استمرت طوال الليل.

- قبل ٩/١١ اتّصلتَ بأخيك الأصغر في ألمانيا وقلت له: "ركّز على دراستك". ماذا قصدت بهذه الشيفرة؟
- لم أستخدم أية شيفرات. فأنا أنصح أخي دائماً أن يركّز على دراسته.
- لماذا اتّصلت بشركة للأقمار الصناعية في الولايات المتحدة؟
- ذلك لأن اتصالنا بالشبكة العنكبوتية يتم من الولايات المتحدة وكنت بحاجة إلى الدعم.
- لماذا اتصلت بهذا الفندق في ألمانيا؟
- طلب مني مديري أن أحجز غرفةً لأحد أبناء عمومته.
- كم عدد الكمبيوترات التي تملك؟
- كمبيوتري الوحيد في العمل.
- تكذب! لديك كمبيوتر محمول (لابتوب).
- هو لزوجتي السابقة.
- أين تعيش زوجتك السابقة؟
- مدير الاستخبارات يعرف.
- حسناً، دعنا نفحص هذه الكذبة. اختفى ██████ لبضع دقائق طالباً من المدير أن يبحث عن بيت زوجتي السابقة ويستولي على المحمول.
- ماذا لو كنت تكذب؟
- أنا لا أكذب.
- ولكن ماذا لو تكذب؟

- أنا لا أكذب.

هنا هددني بكل أنواع التعذيب المؤلم إذا ما تبيّن أنني كنت أكذب.

- تعرف أن لدينا بعض السود الفاعلين بأمهاتهم لا يملكون شيئاً من الرحمة في قلوبهم لإرهابيين مثلك. - قال، وعندما تقدّم في حديثه تطايرت من فمه عبارات عنصرية من مثل: أنا نفسي أكره اليهود... - لم أعلق - ... لقد أتيتم وضربتم مبنانا عن سابق إصرار.

- هذا بينكم وبين الناس الذين فعلوا ذلك. ينبغي أن تحلّوا مشكلتكم معهم، ليس لي علاقة بذلك.

بين الفينة والفينة كان ████████ يتلقى مكالمة هاتفية وكان واضحاً أنّها من سيدة، أثناء ذلك سألني المعتوه الناطق بالألمانية مجموعة من أغبى الأسئلة.

- انظر يا أفندي، صحيفة ألمانية تكتب عنكم.

عاينت مقال الصحيفة التي كانت حول وجود التطرف في ألمانيا.

- حسناً يا ████████، تلك ليست مشكلتي بأي شكل من الأشكال. وكما ترون، أنا في موريتانيا.

- أين ████████؟ أين نعمان؟ سأل ████████ بغضب.[1]

- أنا لست في أفغانستان. أنا في موريتانيا. في السجن. كيف يمكنني معرفة مكانه؟

- أنت تخبئه.

كدت أقول له: "فتّش كميّ قميصي"، ولكني أدركت أن الموقف لا يسمح بذلك.

- قال ████████ إنه يعرفك!

- لا أعرف ████████. وهذه حقيقة ما من شيء يغيّرها.

في تلك الأثناء عاد رئيس الاستخبارات ومعاونه ومعهم "لابتوب" زوجتي السابقة.

---

١ في سؤال المحقق ربما يشير إلى نعمان ولد أحمد ولد بولاهي، الذي يظهر اسمه في هامش رأي القاضي جيمس روبيرتسون الذي قبل عريضة محمدو ولد صلاحي بالمثول أمام المحكمة. يقول الهامش: "تؤكد الحكومة أن صلاحي أقسم الولاء لأسامة بن لادن في الوقت الذي أقسم نعمان ولد أحمد ولد بولاهي القسم ذاته والذي استمر حتى أصبح أحد عناصر حرس الحماية الخاص لبن لادن. لا يوجد دليل يثبت أن صلاحي له أية علاقة بـ"بولاهي". الرأي متاح على: https://www.aclu.org /files/assets/2010-4-9- Slahi- Order.pdf.

لم يسمح لهما بالدخول إلى غرفة التحقيق. قرعوا الباب فخرج ██████ من الغرفة. نظرت بطرف عيني، وتعرفت على حقيبة "اللابتوب"، كنت سعيداً بأنهم وجدوا "السر العظيم".

– ماذا لو قلت لك إنهم لم يجدوا "اللابتوب". قال ██████ محاولاً أن يبدو أذكى مما هو عليه.

– كل ما أستطيع قوله لكم هو أنني لا أمتلك "لابتوب". قلت معطياً إياه الفرصة ليعتقد أنني لم ألمح الحقيبة. بعدها لم يسألني أي سؤال آخر عن "اللابتوب".

لقد نسخوا كل ما كان على القرص الصلب وأخذوه إلى البيت ليُحملقوا فيه على مدى أربع سنوات بحثاً عن ثروة غير موجودة بالأساس. يا لسوء حظهم!

– لقد غزونا أفغانستان ونقتل الجميع. هل تعتقد ذلك أمراً جيداً؟ سأل ████ ██████.

– أنتم أدرى بما تفعلون.

– هل تعرف هواري؟[1]

– كلا!

– قال الكنديون إنّهم رأوه معك، إما أنا أكذب أو أنّهم كذبوا عليّ... أو أنك تكذب.

– أنا لا أعرفه، ولكن في الجامع وفي المقهى الذي تحته كنت أختلط دائماً مع أناس لا أعرفهم.

– باعتقادك، لماذا اخترناك من بين مليوني موريتاني؟

– لا أعرف ذلك ولكن ما أعرفه جيداً هو أنّي لم أفعل شيئاً ضدكم.

– اكتب اسمك بالعربية.

كتبت اسمي. ولسبب ما كان يلتقط الصور لي أثناء جلسة التحقيق. لقد وصلت الأمور معه حقاً إلى درجة من التشويش لم يعد فيها يميّزني عن الجحيم.

– لماذا اتصلت بالإمارات العربية المتحدة؟

---

١ هذا الاسم مكتوب في المخطوطة "هواري". ربما يشير المحقق إلى المتهم في مؤامرة الألفية "مختار هواري".

– لم أتصل.

– إذاً تعتقد أنني أكذب عليك.

– كلا، ولكني لا أتذكر أنّني اتصلت بالإمارات العربية المتحدة.

يبدو أنّه كان يكذب، لربما دون قصد. فأنا لم أتصل بالإمارات، ولكنّي تلقيت مكالمة من صديقة لي، ■■■■■■■■■■■■■■■■■، حاولت كل جهدها لتصالح بيني وبين زوجتي السابقة. لم أستطع أن أتذكر هذا خلال الجلسة، كنت حانقاً جداً. ولكن عندما أُطلِق سراحي ساعدتني أسرتي على التذكّر، لذا ذهبت إلى الشرطة وشرحت لهم حقيقة المكالمة، ومكالمة أخرى أجراها ■■■■■■■■ ■■■■■■■■■■■■■■ مع فرنسا، ليتصل بمزّوده بدوائه في باريس. في الحياة الواقعية، إذا ما أعطيت هاتفي إلى شخص أثق به فإنني لا أسأله عن تفاصيل مكالمته. ولكن إذا ما اعتُقلت يُطلب منك أن تبسط حياتك كلها، وعبارات مثل "لا أتذكر" لا تفيد.

أثناء الجلسة أطلق ■■■■■■■■■ عليّ وعلى أسرتي كل أنواع الأسماء، ومنعني من تناول المشروبات التي دفع ثمنها أبناء بلدي – هذه كانت ضريبتنا لقاء الراحة التي حققناها للضيوف الأميركيين. وفي نهاية الجلسة تقريباً، حيث كنت على وشك الجفاف، ضربني ■■■■■■■■■ بعبوة ماء سعتها ليتر ونصف، وغادر الغرفة. لم أشعر بألم جراء الضربة التي كادت تكسر أنفي بسبب الراحة النفسية التي حققتها لي مغادرة ■■■■■■■. لم يكتب ■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■ ■■■ أي شيء، الأمر الذي صعقني، لأن المحققين يريدون دائماً أن يكتبوا، ولكني أعتقد أنهم سجّلوا الجلسة. حاول ■■■■■■■■■ أقصى جهده أن يكرّر الشتائم التي صبّها عليّ ■■■■■■■■■ بسخاء. أعتقد أن ■■■■■■■■■ كان بلا قيمة للسيد ■■■■■■■■■، لقد جلبه معه فقط كمترجم.

غادر الأميركان ■■■■■■■■■. وفي اليوم التالي أطلق الموريتانيون سراحي دون توجيه أية تهم. وعلاوةً على ذلك، ذهب مدير الاستخبارات إلى المركز الإعلامي وأدلى بتصريح لهم حول براءتي من كافة التهم. قدّم لي رئيس مدير مكتب

الاستخبارات، المدير العام لقوى الشرطة الوطنية[1]، قرضاً في حال واجهتني أية مشاكل للعودة إلى عملي، وفي الوقت نفسه اتّصل مدير الاستخبارات برئيس شركتي ومديرها العام[2] ليؤكد لهم براءتي وضرورة إعادتي إلى عملي.

"لا نشك به ولو لثانية واحدة، نرحب به في أي وقت." هذا كان جواب مديري السابق. ومع ذلك أمرت الولايات المتحدة الحكومة في بلدي أن تضعني تحت الإقامة الجبرية ظلماً وبهتاناً وسوءَ استعمالٍ للسلطة. لم أكن قلقاً بخصوص الحصول على عمل بعد سَجني، لأن الموريتانيين كانوا قد سئموا اعتقال الأميركيين للأبرياء حول العالم وإلصاق التهم بهم. في الحقيقة حصلت على فرص عمل أكثر من أي وقت آخر في حياتي. قلقي الوحيد كان على أختي ████████ التي كانت تعاني الكآبة والقلق. أما أسرتي فكانت سعيدة بعودتي، وهذا كان حال أصدقائي وأقاربي الذين جاؤوا ليهنئوني بخروجي، ولكن الجمل يَنخُ على دفعتين، كما يقال.

تقول الحكاية: ركب أحد أبناء المدينة جملاً مع بدوي، جلس البدوي أمام حدبة الجمل وابن المدينة خلفها حتى يتمكن من تثبيت نفسه بالإمساك بالبدوي. وعندما وصلوا البيت أحنى الجمل رجليه الأماميتين ليَنخّ، فاختلّ توازن البدوي وسقط على الأرض. لم يتمالك ابن المدينة نفسه من الضحك على البدوي. نظر البدوي إلى صديقه وقال: "مازال الوقت باكراً على ضحكك"، وبالفعل عندما أحنى الجمل رجليه الخلفيتين ليبرك بشكل نهائي سقط ابن المدينة أرضاً على وجهه.

وبقدر ما أتذكر، لم أقع يوماً عن الجمل، ولكن كلّما استأنفت حياتي تبدأ الحكومة في الولايات المتحدة بالتآمر مع الحكومة الموريتانية لخطفي.

كانت الساعة حوالي الرابعة مساءً عندما عدتُ من العمل بعد شهر من آخر خروجي من السجن. كان يوماً طويلاً وحارّاً ورطباً. وحسب التقويم الإسلامي كان يوم الرابع من شهر رمضان، لذا كان الجميع صائمين في الأسرة ما عدا الأطفال.[3]

---

١ المدير العام لإدارة الأمن القومي مختصر هنا، وفي صفحات أخرى من المخطوطة ترد فقط المدير العام (DG) وفي هامش للمرة الثانية. وSurete National هي قوى الشرطة الوطنية ومديرها العام هو أعلى سلطة لفرض القانون في البلد.

٢ في المخطوطة (PDG) عبارة عن اختصار للعبارة الفرنسية Président- dircteur general.

٣ الرابع من رمضان كان يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر ٢٠٠١.

كان يومَ عملٍ مميّزاً. أرسلني مديري في مهمة لتقييم مشروعٍ كبيرٍ نسبياً لشركتنا الصغيرة. طُلب منّا أن نقدّم تقديراً لتمديد شبكة الهواتف والكمبيوترات في القصر الرئاسي. كنت قد حدّدت موعداً ذاك الصباح مع منسّق المشروع، والانتظار خارج مكتبه أخذ مني نصف نهار. هناك أمران يشترك بهما كل الموظفين الحكوميين: إنّهم لا يحترمون المواعيد، ولا يبدأون العمل أبداً في موعده.

خلال رمضان يحتفل معظم الناس في الليل وينامون في النهار. لم أحتفل الليلة الماضية، ولكني سهرت طويلاً لسبب آخر، وهو أنني تشاجرت مشاجرة عائلية صغيرة مع زوجتي الحبيبة. أكره المشاجرات، لهذا كنت محبطاً ولم أستطع النوم طوال الليل. ومع أنني كنت نَعساً جداً، إلا أنني حاولت الالتزام بموعدي في المكان المحدد، ليس بالضبط تماماً، ولَكن مع ذلك سبقت المنسّق بساعات. كان المكتب مغلقاً، ولم يكن هناك كرسي شاغر في الرواق، لهذا اضطرت أن أجلس القرفصاء على الأرض وظهري إلى الحائط. دبّ النعاس بين جفوني حتى أنّني غفوت عدة مرات.

ظهر ████████ حوالي الظهر وأخذني إلى القصر الرئاسي. اعتقدت أنْ ستكون هناك الكثير من الإجراءات الشكلية، وخصوصاً لـ "مشتبه بالإرهاب" مثلي، ولكن لم يحصل شيء من هذا القبيل. يجب أن تعطي اسمك قبل الزيارة بيوم، وعندما أبرزت بطاقتي الشخصية للحرّاس راحوا يدقّقون في جدول الزوار حيث ظهر اسمي مع تصريح مناسب. صُدمت، ولكن الأميركيين وحدهم يضعونني على لائحة المشتبه بهم بالإرهاب، ولا يوجد بلد آخر غير بلدهم يفعل ذلك. والمفارقة هي أنني لم أزر الولايات المتحدة قط، وكلّ البلدان الأخرى التي زرتها تقول: "الرجل على ما يرام".

وما أنْ دخلت حرم القصر حتى شعرت كما لو أنّني في بلد آخر. كانت هناك حديقة داخل القصر فيها شتى أنواع الزهور، وكانت النوافير تشكّل رذاذاً خفيفاً، وكان الطقس معتدلاً وجميلاً. دخلنا مباشرةً في صلب النقاش حول العمل. ودخلت العديد من الغرف في عدة طوابق وأخذت بعض المقاييس، ولكنهم أوقفونا عن مهمتنا ونصحونا بأن نغادر لأنّ هناك زيارة رسمية. استطعنا البقاء داخل المبنى، استغللتُ الوقت وذهبت لألقي نظرة على الهاتف المركزي للقصر لمعرفة البنية التحتية له. كان ████████ ودوداً كمعظم الناس من "عطار". كان

قد أُختير أميناً للقصر، كان الرئيس يثق به وبالناس المحيطين به كثيراً. شعرتُ بالإحباط لأن المشروع بمجمله كان بحاجة إلى عمل أكثر كما هو موصوف على الورق، لهذا كنتُ بحاجة إلى المساعدة المهنية. لم أرغب في إثارة الفوضى في القصر الرئاسي، لذا فضّلتُ الانسحاب من العمل على أن أبدأ ببيعهم أجهزة عالية التقنية من صناعة تمبكتو.

أرانا ■■■■■■ الأشياء التي كنّا بحاجة لإلقاء نظرة عليها ومن ثم اختفى ليتفرّغ لضيوفه. كان الوقت متأخراً، لذا طلب منسّق المشروع موعداً آخر لأخذ القياسات الضرورية ومن ثم تقدير البنية التحتية المطلوبة. غادرنا أنا و ■■■■■■ ■■■■ بنيّةَ أن نعود غداً وننهي العمل. وفي الوقت الذي غادرنا فيه البوابة كان تعبي قد تضاعف، وشعرت بالإرهاق كمن خرج من الجحيم. اتّصلت بمديري وأوجزت ما حدث، ثم ذهبت إلى المكتب وشرحت لزملائي أيضاً ما حدث.

وفي طريقي إلى البيت اتّصل ■■■■■■■■■■■■■■ بي ليؤكّد بأنْ أكون على العشاء في بيته. ■■■■■■■■■■ هو ■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■

■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■، بالإضافة إلى هذا فإن ■■■■■■ صديقٌ قديمٌ للأسرة. عرفتُه وتذكرتُ أنّي لعبت الورق معه عندما كنت صغيراً. كان ■■■■■■ يعدّ اليوم عشاءً كبيراً لأصدقائه، بمن فيهم أنا وأخي، الذي كان في إجازة معنا قادماً من ألمانيا. عندما اتصل ■■■■■■ كانت سيارتي قد تعطّلت. كرهتُ عطل سيارتي القديمة التي في عمر جدّي.

– هل تريدني أن آتي إليك؟ سألني.

– كلا، أستطيع أن أجد كراجاً قريباً مني. أنا متأكد أنهم سيساعدونني.

– لا تنسَ حفلة عشائنا، وذكّر ■■■■■■■■■■■■■■■■ بالمجيء! قال هو.

وجد ميكانيكي من الكراج أنّ أنبوب البنزين الموصول بالكرباتور مكسور، وقام بتصليحه. في موريتانيا الناس يصلّحون كل شيء، في حين يستبدل الناسُ كلّ شيءٍ في ألمانيا. طلب مني الميكانيكي أكثر مما توقعت، لذا اضطررت أن أدخل في مساومة معه، الأمر الذي أمقته، حتى أعطيه المبلغ الذي اتفقنا عليه. أكثر ما أحبه في ألمانيا هو

أنك لا تحتاج أن تساوم أحداً على السعر، كل شيء سعره عليه. قد تكون أخرس ومع ذلك يتمُّ التعامل معك بعدالة. المساومة في معظم الأوقات تضرُّ بصاحبها. شخصياً أريد سعراً عادلاً للطرفين الأمر الذي سيسعدهما. حينما وصلت بيت والدتي، حوالي الرابعة مساءً، لم يكن هناك سوى ██████ وأختي ██████. وكلتاهما كانتا نائمتين.[١] كانت والدتي خارج البيت لتجمع غنمها المبعثر، وكان وقت إطعامها. دخلتُ البيت ولبست "برنس" الحمام، وفي طريقي إلى الحمام رأيت أمي ورجلين من البوليس السرّي يدخلان البيت في وقت واحد.

– صلاحي، المدير العام يريد رؤيتك.

– لماذا؟

– لا نعرف. قال أحد الرجلين.

– حسناً، سأستحمُّ سريعاً وأبدّل ملابسي.

– حسناً! سننتظرك خارج البيت. قال الرجل وخرجا من الدار.

تحترمني الشرطة السرية كثيراً منذ أن ذهبت إليهم طواعيةً قبل أسبوعين، فهم يدركون أنني لست من النوع الذي يفرّ. لقد كنت تحت الإقامة الجبرية فعلياً منذ عام ٢٠٠٠، ولكن كان بوسعي الهروب من البلد في أي وقت، لكني لم أفعل، وليس لدي داعٍ للقيام بذلك.

استحممت وبدّلت ملابسي. أثناء ذلك استيقظت عمتي على صوت حركتي. أختي لم تستيقظ على حدّ علمي، وهذا كان جيداً، لأنني كنت مشغولاً بها وبالقلق الشديد الذي كانت تعانيه.

قالت والدتي ببراءة:

– أعتقد أن الشرطة استدعتك لأنك اشتريت تلفزيوناً جديداً، وهم لا يريدونك أن تشاهد التلفزيون. أليس كذلك؟

– لا أعتقد ذلك، ولكن كل شيء سيكون على ما يرام. قلت لها مبتسماً.

كانت والدتي تشير إلى الهوائي الذي نصبته ليلة أمس للحصول على استقبال أفضل للبث التلفزيوني. والمفارقة هي أن ██████ كان من بين الذين ساعدوني

---

١ سيصبح واضحاً في بضع صفحات أن الشخص الأول من العائلة المذكور هنا هي عمّة.

على نصب الهوائي.[1]

عندما كنت في السجن قبل شهر طلب مني أن أجد له عملاً لأن راتبه الذي يتلقّاه في عمله كشرطي راتب بائس. وعدته أن أسعى له بعمل، وفي الوقت ذاته طلبت منه أن يسدي لي خدمة وهي أن يساعدني في نصب الهوائي، ودفعت له مبلغاً جيداً لقاء تلك الخدمة. تلك كانت الطريقة الوحيدة لرجل مثله ليكسب لقمة عيشه. ساعدته في إيجاد العمل، وأحياناً كنا نقضي الوقت في بيتنا ونحن نحتسي الشاي ونطلق النكات.

- لم أجئ بك إلى بيتي حتى تعتقلني. قلت مازحاً.

- أرجو ألاّ تُعتقَل أبداً. قال ■■■■■■■■■.

بيت والدتي يحاذي بيت أخي، يفصل بينهما جدار منخفض. كنت أستطيع القفز ببساطة إلى بيت أخي والهرب من بابه المؤدّي إلى شارع آخر، واحزروا ماذا؟ لن يكون بمقدورهم إيجادي، ليس فقط بسبب عدد الذين سيؤونني ويخفونني عن الأنظار، بل أيضاً لأن عملاء الشرطة لن يكونوا آنئذٍ مهتمين بالبحث عني. حتى أنّي أعتقد أن الحكومة ستكون أسعد وستقول للولايات المتحدة: "لقد هرب، لا نستطيع أن نجد له أثراً".

أيها القارئ العزيز، يجب أن تعرف أنه ليس بالأمر السهل أن يسلّم بلد ما مواطنيه إلى بلد آخر.

تمنّى الرئيس لو لم يسلّمني. أتساءل لماذا؟ لأنّ الثمن كان غالياً ببساطة، فقد فَقَدَ منصبه كرئيس. أتفهّم لو أن الولايات المتحدة اعتقلتني في أفغانستان وأخذتني إلى غوانتانامو لسببٍ ما، حينئذٍ لما وقع اللوم على حكومتي لأنني اخترت بنفسي الذهاب إلى أفغانستان. ولكن اختطافي من بيتي وفي بلدي وتسليمي إلى الولايات المتحدة هو انتهاك للدستور الموريتاني وللاتفاقيات والقوانين الدولية المعتادة، وهذا أمر مشين. كان من الضروري أن تطالب موريتانيا الولايات المتحدة بأن تقدّم الدليل على إدانة بجرمٍ، وهو الدليل الذي يستحيل أن تقدّمه لأن ما من دليل لديهم مطلقاً. وحتى لو قدّمت الولايات المتحدة الدليل، كان من المفترض أن تحاكمني الحكومة حسب

[1] يبدو أن أحد الرجلين اللذين ذهبا لإحضار محمدو ولد صلاحي للاستجواب كان في بيت صلاحي لمساعدته في نصب هوائي القمر الصناعي مساء أمس.

قانون الجريمة الموريتاني وفي موريتانيا، تماماً مثلما فعلت ألمانيا مع مواطنيها المشتبه بتورطهم في هجمات الحادي عشر من سبتمبر. ومن جهة أخرى، لو قالت الولايات المتحدة: "ليس لدينا دليل"، حينئذٍ يجب أن يكون ردّ فعلهم على أميركا شيئاً من قبيل "تباً لكم"، ولكن للأسف لم يحدث شيء من هذا. لا تفهموني خطأً، فأنا، رغم ذلك، لا ألوم الولايات المتحدة بقدر ما ألوم حكومتي.

من الواضح أن الشرطة السرية كانت تريدني أن أهرب، وخاصةً الشرطي ■■■■ ■■■■، ولكنني أردت أن تسير الأمور على نحو طبيعي، ناهيكم عن أن الحكومة نفسها أكدّت لأسرتي عدم وجود أي شيء ضدي، لهذا كانت أسرتي تريدني أن أذهب إلى الشرطة كلّما طلبوا ذلك. والأمر المضحك هو أن "الشرطة السرية" في البلدان العربية عناصرها معروفون لعامة الناس أكثر من الشرطة النظامية.

أعتقد أن البلدان العربية مدعوة إلى أن التفكير بتسمية جديدة لها، وأقترح أن تكون: "الشرطة الأكثر بروزاً".

عندما خرجت من البيت مع والدتي وعمتي وجدت أربعة عناصر من الشرطة السرية في انتظاري. ظلّت والدتي رابطة الجأش، وبدأت تصلّي من أجلي باستخدام أصابعها. أما عمتي فكانت المرة الأولى التي ترى فيها شخصاً يؤخذ من قبل الشرطة، لذا أُصيبت المسكينة بالشلل ولم تصدر عنها كلمة واحدة. بدأتْ تتعرّق بغزارة وتتمتم ببعض الصلوات. ظلّت عيون الاثنتين محدّقة بي. إنّه العجز بعينه عندما تشاهد فلذة كبدك يُبعد عنك كحلم ولا تستطيع أن تحرّك ساكناً. والشيء ذاته ينطبق عليّ أيضاً، فقد ظللت أرنو إلى الاثنتين، أمّي وعمتي، وأصلّي لهما في قلبي حتى انعطفنا عند أول شارع واختفت أمّي وعمتي العزيزتين عن الأنظار.

- اهتم بنفسك، نأمل أن يكون بمقدورك أن تعود للبيت. قال أحدهما.
- ربما يسألك المدير العام بعض الأسئلة.

جلس ■■■■■■ على الكرسي الأمامي في مقدمة السيارة وهو يتقطّع حزناً، وقال:

- صلاحي، تمنيت لو لم أكن جزءاً من هذه القذارة.

لم أردّ. بقيت أتبع سيارة الشرطة المتجهة نحو السجن السرّي المشهور. لقد

سُجنتُ مرتين في ذاك السجن الخارج عن القانون، ولم يجعلني أحبه، بل كرهت البناء، وكرهت الظلام والغرفة القذرة، وكرهت المرحاض القذر، كرهت كل شيء يتعلق به، وبشكل خاص الرعب الدائم فيه.

– كان المفتش يبحث عنك باكراً هذا الصباح. إنّ مدير مكتب الاستخبارات في رحلة إلى إسبانيا. وقد سألَنا المفتش من لديه رقم هاتفك، لكني لم أقل شيئاً، مع أن رقم هاتفك عندي. حاول ■■■■■■■ أن يُظهر أنه أفضل من غيره.

والشخص الآخر الذي كان لديه رقم هاتفي كان مدير الاستخبارات ومن الواضح أنه لم يعطِه لأحد.

ها قد وصلنا إلى بوابة السجن البغيض. كان الـ ■■■■■■■ في مكتبه، وكان يرمقني بابتسامته الكاذبة، سرعان ما حوّلها إلى تجهّم.[1]

– ليس لدينا رقم هاتفك والمدير في رحلة. سيعود في غضون ثلاثة أيام، سنبقيك عندنا في السجن ريثما يعود.

قلت له محبطاً وغاضباً، وخصوصاً أنّ الرجل الملمّ بخيوط قضيتي ليس في البلد:

– لماذا ؟ لقد بتّ أسأم من الاعتقال المتكرر من دون سبب. ماذا تريدون مني؟ لقد أطلقت سراحي للتو.

– لماذا أنت خائف بهذا القدر؟ لم أكن أعرف أنّك جبان إلى هذا الحد؟ قال الـ ■■■■■■■.

– مهلاً، لقد اعتقلتموني بعد الحادي عشر من سبتمبر، وجاء محققو الولايات المتحدة إلى هنا وحققوا معي. ومن ثم، بعد ما تأكدتم من براءتي، أطلقتم سراحي. أتفهّم نوعاً ما الاعتقالات التي تمّت بالجملة بعد الحادي عشر من سبتمبر، ولكن الاعتقال الآن ليس في محله بأي حال.

– سيكون كل شيء على ما يرام. أعطني رقم هاتفك الخليوي. كذب المفتش علي مبدياً على وجهه ابتسامته المتصنّعة المعهودة. لم يكن لدى ■■■■■■■ من المعلومات ما يكفي حول اعتقالي حسب علمي، لأن الحكومة لم تشارك أحداً في معلوماتها. ولا أعتقد أن الحكومة الموريتانية توصّلت إلى قرار حول قضيتي، والرجل

---

[1] يمكن أن يكون الشخص هو "المفتش" حيث يشار إليه مرات عديدة في هذا المشهد.

الرئيسي ██████ مسافر، وبدونه لا يمكن أن يُتّخذ قرار. ما يعرفه ████ ████، وأعرفه أنا، هو أن الولايات المتحدة قد طلبت من الرئيس الموريتاني آنذاك أن يسجنني، وأن الرئيس الموريتاني بدوره طلب من المدير العام للشرطة الوطنية (الرئيس الحالي للبلاد) أن يعتقلني، وبدوره أمر عناصره بقيادة المفتش ليسجنوني باحتقار.[1]

ولكني أعتقد أنّ الولايات المتحدة لم تكن تخفي ما تريده، كانت تريدني بصورة أساسية في الأردن لذا كان هناك شخصان ██████████ ████ يعرفان بالخطة وهما: الرئيس الموريتاني ومدير الاستخبارات. ولكن بما أنّ الولايات المتحدة كانت تلحّ في طلباتها الكثيرة من حلفائها، فقد كانت الحكومة الموريتانية تحتاج وقتاً للاستيعاب والتشاور.

إن تسليمي إلى الأردن يفتح لها ملفات خطيرة، وأولى هذه القضايا هي خرق الدستور، في الوقت الذي يتمسّك به الرئيس الموريتاني كخيط من شبكة العنكبوت للبقاء في مكتبه كرئيس، وأي مشكلة من شأنها أن تهزّ أركان حكمه بقوة. لم تطلب الولايات المتحدة من الموريتانيين تسليمي إليهم مباشرة، الأمر الذي سيكون فاضحاً، بل أرادوني في الأردن، وذلك كان استهتاراً بسيادة موريتانيا. ظلّت الحكومة الموريتانية تطالب بدليل، أي دليل، يثبت تورّطي بجرم.

وفي كلّ مرّة كانت الولايات المتحدة تفشل في تقديم أي شيء، لذا فإن اعتقالي كان بحد ذاته عبئاً إضافياً على الحكومة، فكيف بتسليمي وحيداً إلى الأردن. لقد طلبت الحكومة الموريتانية الأدلّة من البلدان التي عشت فيها – ألمانيا وكندا، والبلدان لم يقدّما إلا تقارير جيدة عن حسن سلوكي فيهما. لهذا السبب ولأسباب أخرى كان الرئيس الموريتاني بحاجة أن يكون إلى جانبه رجل اعتماده الأول، رئيس الاستخبارات الموريتانية، قبل أن يقدم على أية خطوة خطيرة غير محسوبة.

ناولت المفتش هاتفي الخليوي، وقبل أن يغادر أعطى أوامره للحرّاس بالاهتمام بي. لذا اضطررت أن أستأنس بالحرّاس بدلاً من ██████ وبقية أبناء عمومتي.

---

[1] كان المدير العام للشرطة الوطنية الموريتانية في عام ٢٠٠١ هو علي ولد محمد فال الذي كان في منصب قائد الشرطة الوطنية حينما كان معاوية سيد أحمد ولد الطايع رئيساً للبلاد، وقد استولى على الحكم في انقلاب أبيض عندما كان ولد الطايع خارج البلاد في ٣ أغسطس ٢٠٠٥.

إنّ الحرّاس الذين يحرسون المعتقلين السريين في موريتانيا هم من الشرطة السرية، لذا ومهما كانت درجة تعاطفهم معك كبيرة فإنّهم يفعلون كل شيء لتنفيذ الأوامر، حتى لو كان فيها إنهاء حياتك. يمقت المجتمع هؤلاء الناس لأنّهم أذرع للدكتاتورية، وبدونهم الدكتاتور مشلول. لا يوثق بهم، ومع ذلك لم أشعر بأية كراهية تجاههم، بل بحزن عليهم لأنّهم كان بمقدورهم أن يكونوا في صفوف أغلبية الموريتانيين البؤساء. معظمهم يعرفونني من الاعتقالات السابقة.

– طلّقت زوجتي. قال لي حارس شاب.

– لماذا يا رجل؟ لديك ابنة.

– أعرف، ولكني لا أملك النقود الكافية لإيجار بيت لي ولزوجتي. ضجرتْ زوجتي من العيش في بيت والدتي، ولم يستطيعا الانسجام والتعايش معاً.

– ولكن الطلاق؟ أمرٌ غير مقبول!

– ماذا كنت ستفعل أنت لو كنت مكاني؟

لم يكن لدي أي جواب، لأن الرياضيات البسيطة كانت ضدي. راتب الحارس كان حوالي أربعين أو خمسين دولاراً شهرياً، وحتى يتمكّن من العيش بشكل لائق إلى حدٍّ ما كان يحتاج إلى ألف دولار أميركي. كان جميع حرّاسي يشتركون في شيء واحد: جميعهم كانوا يعيشون تحت خط الفقر، وبدون عمل إضافي لا يمكن لأيّ منهم العيش حتى آخر الشهر. في موريتانيا ثمة فجوة كبيرة بين ضباط الصف الأول وبين الموظفين المتطوعين.

– رأينا الكثير من الناس الذين كانوا هنا في السجن ثم احتلوا مناصب عالية في الحكومة. لا نشك بأنّك ستكون واحداً منهم أيضاً.

كانوا يضايقونني دائماً، وأنا متأكد من أنّهم يطمحون إلى أعمال أفضل في الحكومة، ولكني شخصياً لا أؤمن بالعمل مع حكومة غير مستقيمة. بالنسبة لي، إنّ الحاجة إلى رواتب بائسة ليست مبرّراً للأذى الذي يمارسونه في ظل سلطة نظام غير عادل. من جهة نظري هم مذنبون كأي شخص آخر مهما قدّموا من تبريرات. ومع ذلك فقد أبدى الحرّاس الموريتانيون، بدون استثناء، تضامنهم معي وتمنّوا لو لم يقوموا بما قاموا به حيالي. أبدوا لي كل أشكال التعاطف والاحترام، حيث حاولوا دائماً تهدئة

روعي لأنني كنت قلقاً من أن يتم تسليمي إلى الولايات المتحدة ومن ثم إرسالي إلى محكمة عسكرية. في ذلك الحين كان الرئيس الأميركي يلحّ وبصوت عالٍ على أن يُحال المشتبه به في الإرهاب إلى محكمة عسكرية، وحزمة أخرى من التهديدات المماثلة. وكنت على يقين بأنني لا أمتلك فرصة محاكمة عادلة في محكمة عسكرية أجنبية. كنا نأكل ونصلي ونتواصل اجتماعياً معاً. تشاركنا كل شيء، الطعام والشاي وكان لدينا جهاز راديو للاستماع إلى الأخبار. كنا ننام جميعاً في غرفة كبيرة لا أثاث فيها، ولكنها كانت مرتعاً للبعوض. وبما أنّه كان شهر رمضان، فقد كنّا نأكل في الليل ونسهر إلى وقت متأخر، وننام في النهار. كان واضحاً أن لديهم تعليمات بالتعامل معي بهذه الطريقة. كان الـ ████████ ينضمّ إلينا للتفتيش عن الأشياء.

عاد مدير مكتب الاستخبارات من سفره كما كان محدداً.

- مرحباً. حيّاني.
- مرحباً.
- كيف حالك؟
- بخير. لماذا اعتقلتموني؟
- كن صبوراً! إنه ليس ناراً. قال.

تساءلت: لماذا تحدث عن النار؟ لم يبدُ مرتاحاً البتّة، وكنت مدركاً أنّني لست السبب في عدم ارتياحه. كنت محبطاً وخائفاً تماماً، ما جعلني أصاب بالمرض. فقدت شهيتي ولم أستطع تناول أي شيء، وانخفض ضغط دمي على نحو خطير. استدعى المدير طبيباً لمعاينتي.

- لا يمكنك الصيام. ينبغي أن تأكل. قال الطبيب، ووصف لي بعض الأدوية. وبما أنني كنت عاجزاً عن الوقوف فقد اضطررت للتبوّل في عبوة للماء. هذا كان كل شيء لأنني لم أكن آكل أي طعام. حقاً لقد نال المرض مني، وكانت الحكومة الموريتانية قلقة جداً أن تفسد البضاعة قبل أن يأخذها الزبون الأميركي. كنت أحياناً أحاول السهر لعلّ وعسى أتناول شيئاً قليلاً من الطعام، ولكن ما أن أجلس مستقيماً حتى أُصاب بالدوار وأسقط أرضاً. طوال تلك الفترة بقيت آكل وأشرب، قدر ما استطعت، مستلقياً على فراشٍ رقيق.

قضيت سبعة أيام في السجن الموريتاني. لم يزرني أحد من أسرتي، وعلمت فيما بعد أنهم منعوهم من الزيارة، بل حتى أنهم أنكروا وجودي عندهم. وفي اليوم الثامن، الواقع في الثامن والعشرين من نوفمبر ٢٠٠١، أُبلغت بأنه سيتم ترحيلي إلى الأردن.

الثامن والعشرون من نوفمبر هو يوم استقلال موريتانيا، وهو اليوم الذي حصلت فيه الجمهورية الإسلامية المفترضة على استقلالها من الاستعمار عام ١٩٦٠. ولسخرية القدر سلّمت الجمهورية الموريتانية المستقلة ذات السيادة الكاملة في يوم استقلالها بالذات عام ٢٠٠١ أحد مواطنيها لدولة أخرى ومن أراضيها. ولعارها الأبدي لم تخرق الحكومة الموريتانية الدستور فقط، والذي يمنع إبعاد المجرمين الموريتانيين إلى دول أخرى، بل وأبعدت مواطناً بريئاً وسلّمته إلى العدالة الأميركية العشوائية.

عشية عيد الاستقلال تمّت الصفقة الثلاثية بين موريتانيا والولايات المتحدة والأردن بخصوص تسليمي إلى الأردن. سمح لي الحرّاس بالنظر إلى الاستعراض القادم من وسط المدينة باتجاه القصر الرئاسي، حيث تلاميذ المدارس برفقة جماعات أخرى يحملون الشموع المضاءة. أثار مشهد التلاميذ لدي ذكريات الطفولة، عندما كنت صغيراً مثلهم وأشترك في تلك الاستعراضات قبل تسعة عشر عاماً. في ذلك الوقت كنت أنظر ببراءة إلى يوم ميلاد الأمة، ولكن شاءت الأقدار أن أُبعَد عنها في يوم ميلادها، وفي تقديري لا يمكن أن نعتبر أمّةً ما ذات سيادة إن لم تستطع أن تعالج قضاياها بنفسها.

إن القوات السرية هي الفيلق الأكثر أهميةً للحكومة في العالم الثالث، وفي بعض البلدان التي تُعرف بما يسمى "البلدان الحرّة" أيضاً، لذا فقد دُعي مدير مكتب الاستخبارات إلى مراسيم القوات المسلحة في القصر الرئاسي صباحاً.

كانت الساعة بين العاشرة والحادية عشرة عندما دخل أخيراً، يرافقه كل من معاونه وكاتبه. استدعاني إلى مكتبه حيث يحقق مع الموقوفين عادةً، فاجأني حضوره لأنه كان يوم عطلة. رغم أنني كنت مريضاً إلا أن ضغط دمي ارتفع كثيراً جراء زيارة المدير غير المتوقعة لدرجة أنّي تمكنت من الوقوف والمشي معهم إلى غرفة التحقيق. ولكن ما أن دخلت المكتب حتى سقطت على الأريكة الجلدية السوداء الكبيرة. وتبيّن أنّ

ارتفاع ضغط دمي كان ارتفاعاً كاذباً.

صرف مدير مكتب الاستخبارات الموريتاني جميع الحرّاس إلى بيوتهم، وهكذا تركوني معه ومع معاونه وكاتبه.

أومأ لي الحرّاس بسعادة وهم يغادرون المبنى، وكأنّهم كانوا يقولون: "تهانينا"! اعتقدوا واعتقدت أنه سيتم إطلاق سراحي وسأعود مرة أخرى إلى البيت. وبما أن ظلاً من الشك كان يخيم عليّ، فإن الحركات والمكالمات الهاتفية الكثيرة التي كانت تحدث من حولي لم تعجبني. أرسل المدير معاونه في مهمة وسرعان ما عاد ومعه أشياء رخيصة: بعض الملابس وحقيبة. أثناء ذلك خرّ الكاتب نائماً أمام الباب. سحبني المدير إلى غرفة لوحدي.

– سنرسلك إلى الأردن. أبلغني مدير مكتب الاستخبارات.

– الأردن! ماذا تقول؟

– تعرّض ملكهم لمحاولة اغتيال فاشلة.

– وما علاقتي بالموضوع؟ مشكلتي هي مع الأميركان، وإذا أردت أن ترسلني إلى أي بلد فأرسلني إلى الولايات المتحدة.

– كلا، هم يريدون إرسالك إلى الأردن. يقولون إنّك شريك في جريمة ■■■■ ■■■■■■■■■■■■■■، مع أنّي على يقين بأنك ليست لك أية علاقة بـ■■■■■■ أو بالحادي عشر من سبتمبر.

– لماذا إذاً لا تحميني من هذا الظلم كمواطن موريتاني؟ سألته حينئذٍ، فكان جوابه:

– أميركا بلد قائم على الظلم وتعيش به.

– حسناً، أريد مقابلة الرئيس. قلت.

– كلا، لا تستطيع. لقد اتُّخذ القرار مسبقاً وهو غير قابل لأي تغيير.

– أريد أن أودّع أمي على الأقل.

– أيضاً لا تستطيع. هذه العملية سرية.

– إلى متى؟

– يومين أو ثلاثة أيام كحدّ أقصى. ويمكنك عدم التحدث إليهم إن شئت.

ثم أضاف:

- في الواقع، ليست لدي مشكلة بخصوص ذلك.

أدركت أنّه يتكلم من مؤخرته، لأن مصيري قد حُدِّد بإرسالي إلى الأردن بخصوص قضية ما.

- هل تستطيع أن تؤكد لي متى سأعود؟

- سأحاول. آمل أن تضيف هذه الرحلة إلى الأردن شهادة إيجابية أخرى لصالحك. يعتقد السنغاليون والكنديون والألمان وأنا أنّك بريء. لا أعرف كم شهادة تريدها الولايات المتحدة حتى تفكّ أسرك.

أعادني مدير الاستخبارات إلى مكتبه واتّصل برئيسه المدير العام، وعندما التقطه على الهاتف أخيراً لم يستطع أن يعطيه موعداً دقيقاً لعودتي ولكنه أكّد له بأنها ستكون بحدود يومين. لست متأكداً، ولكني أعتقد أن الولايات المتحدة فاقت الجميع حيلةً ودهاءً. فقد طلبت فقط أن يوصلوني إلى الأردن، وعندئذٍ ستكون هناك مفاوضات من نوع آخر.

- لا أعرف بالضبط. - أخبرني مدير الاستخبارات بصراحة عندما أغلق الهاتف.

- ولكن اسمع، اليوم هو الأربعاء. يومان للتحقيق ويوم ثالث للرحلة. إذاً ستعود إلى هنا يوم السبت أو الأحد.

فتح الحقيبة التي جلبها معاونه وطلب مني أن أجرّب الملابس الجديدة الرخيصة. لبستُ الطقم المؤلف من سروال وسترة وربطة عنق وحذاء بلاستيكي. يا له من مشهد! لم تناسبني أية قطعة، ظهرت كهيكل عظمي مرتدياً طقماً جديداً. ولكن من يهمّه أمري؟ على الأقل أنا لست واحداً منهم.

لقد تمّ التعامل معي، من اللحظة التي عرفت فيها القرار إلى الساعة التي سلمتني الولايات المتحدة إلى القوى الأردنية الخاصة، كطرد لشركة الشحن UPS.

لا أستطيع وصف مشاعري، فقد كانت مزيجاً من الغضب والخوف والعجز والإهانة والظلم والخيانة... لم أفكر قط في الهروب من السجن، مع أنني سُجنت ظلماً وبهتاناً قبل الآن، ولكني اليوم بدأت أفكّر في الفرار من السجن لأني لم أكن أعتقد حتى في الأحلام بأن أرسَل إلى بلد ثالث معروف عبر العالم كنظام يمارس

التعذيب. ولكن تلك كانت رصاصتي الأخيرة، وإذا ما استخدمتها وأخطأت الهدف فسأبدو سيئاً جداً في عيون حكومتي. ومع ذلك لن يسبب هذا مشكلة مع الولايات المتحدة، وستبقى تذعن لقراراتها حتى لو كنت ملاكاً في عيون حكومتي. وقبل كل شيء أنا الذي ذهبت إلى السجن بنفسي.

نظرت حولي بحثاً عن طريق للهروب. لنقل إنني تمكنت من الخروج من المبنى، حينئذ أحتاج إلى سيارة أجرة حال وصولي إلى الشارع الرئيسي. ولكن ليست لدي أية نقود أدفعها للسائق، ولا أستطيع أن آخذ شخصاً إلى مكان قد يعرفني فيه أحد، لأنهم سيبحثون أولاً في تلك الأمكنة. عندما فحصت الأبواب وجدت باباً واحداً ولكن من الأفضل ألاّ أقترب منه أبداً تحت أية ذريعة، لذا طلبت أن أذهب إلى الحمام. هناك شذّبت لحيتي وفكرت في الباب الآخر. كان باباً من الزجاج، لذا يمكنني أن أكسره، ولكني كنت أعرف مخطط البناء حيث كان الباب المذكور يؤدي مباشرةً إلى حارس مسلح قد يطلق عليّ الرصاص ويرديني قتيلاً في غمضة عين. وحتى إذا ما تمكنت من التسلل في غفلة من الحارس، سأضطر أن ألفّ حول مبنى وزارة شؤون الداخلية الذي يجاور الشارع الرئيسي، حيث يوجد أيضاً حرّاس يراقبون حركة الناس جيئةً وذهاباً. ثم أن المرور من البوابة أمرٌ مستحيل. قد يكون القفز من فوق الجدار أمراً محتملاً، ولكن هل أمتلك من القوة ما يكفي للقيام بذلك؟

كلا، ليست لدي. كنت مستعداً لجمع كل قواي ولجعل المستحيل ممكناً.

راودتني كل هذه الأفكار عندما كنت في الحمام. نظرت إلى السقف ولكن لم يكن هناك أي مجال للهروب، كان السقف إسمنتياً.

انتهيت من النظافة والحلاقة ثم غادرت. كانت توجد قاعة بلا سقف خارج الحمام، فكّرت بأنني قد أتمكّن من تسلّق الجدار وتجاوز كتلة المبنى بالانتقال من سطح إلى آخر، ولكن كان هناك عائقان اثنان: الأول أن ارتفاع الجدار يصل إلى عشرين قدماً ولم يكن هناك شيء أتمسك به لأتسلق، أما الثاني، فقد تطوّق الشرطة المبنى خلال دقائق، وبالتالي أينما نزلت سأقع في أيدي الشرطة بسهولة! أدركتّ أن الهرب حلم غير واقعي لشخص وجد فجأةً كل الأبواب مغلقة أمامه ماعدا باب الصعود إلى السماء.

ظلّ مدير الاستخبارات يجري المكالمات الهاتفية مع الطائرة التي كانت تحمل

فريق المهمة الخاصة. "ينبغي أن يكونوا هنا في غضون ثلاث ساعات. إنهم في قبرص الآن!" قال المدير. إنّ واجبه الطبيعي لا يفرض عليه أن يقول لي أين وصلت الطائرة، أو تحمل مَنْ، أو إلى أية جهة سأُرسَل، هذه الأمور وأخرى غيرها يريدها الأميركان أن تكون مروِّعة إلى أبعد حد. يجب ألاّ أعرف شيئاً عمّا سيحدث لي. إنّ أخذك إلى المطار معصوب العينين، وإركابك الطائرة، ومن ثم نقلك إلى بلد يبتعد مسافة إحدى عشرة ساعة جواً، هذا كله يخلق لديك شعوراً رهيباً لا يتحمّله إلاّ الذين يمتلكون أعصاباً فولاذية. ولكن مدير الاستخبارات لم يبالِ بأن يقول لي كل ما يعرفه، ليس لأنه كان خائفاً عليّ، بل لأنه كان يدرك في قرارة نفسه أن الموافقة على عملية بشعة كهذه هي موافقة ضمنية على ترك السلطة في الوقت نفسه. لقد كانت هناك اضطرابات مسبقة ضد الرئيس الموريتاني، ولكن مدير الاستخبارات يدرك أن قضية تسليمي ستكون بمثابة القشّة التي تقصم ظهر البعير، وهذا كان إحساسي أيضاً، لذا بقيت أرفع دعائي: "يا إلهي أتوسل إليك أن لا تدع الناس يريقون الدماء بسببي!"

علم مدير الاستخبارات من برج المراقبة في المطار أنّ الطائرة من المتوقع أن تصل بحدود الساعة السابعة أو السابعة والنصف مساءً. ظلّ الكاتب نائماً أمام الباب طوال تلك الفترة، لذا أرسله سيده المدير إلى البيت. كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً عندما انطلقنا أنا ومدير الاستخبارات ومعاونه بسيارته الفارهة من نوع مرسيدس. اتّصل بالمطار مرة أخرى من أجل المزيد من الاحتياطات الأمنية اللازمة حتى يتم تهريبي بعيداً عن الأنظار. تمنيت أن تسقط الطائرة وأن يبوح أحدٌ ما بالسرّ للحكومة.

سار مدير مكتب الاستخبارات الموريتاني في الاتجاه المعاكس للمطار، كان يريد تضييع الوقت حتى يصل إلى المطار مع وصول الوفد الأردني. تمنيت أن تتحطم طائرتهم، مع أنني أعرف أنّ لها بديلاً. أردت أن يتم تأجيل هبوط الطائرة، تماماً مثلما يكون لديك أنباء عن موتك وتريد تأجيله. توقف المدير عند محل للسمانة، دخل المحل واشترى لنا طعاماً جاهزاً من أجل الإفطار الذي سيحل بوصولنا إلى المطار مع غروب الشمس ومع وصول الطائرة المشؤومة. كانت سيارة بيضاء تابعة للأمم المتحدة تقف أمام المحل. دخل سائق المحل وأبقى محرك السيارة شغّالاً. لوهلة فكرت أن أخطف السيارة وأهرب بها إذا ما حالفني الحظ، ثم أن سيارة تويوتا ذات

الدفع الرباعي وذات الهيكل القوي تتفوق بما لا يقاس على المرسيدس بنز. لكني وجدت بعض العوائق التي أثبطت همتي عن القيام بالمحاولة. سيسبّب الخطف تورّط أناس أبرياء معي، كانت أسرة السائق في السيارة، ولم أكن على استعداد لإلحاق الأذى بأناس أبرياء.

كما أن اختطاف السيارة يستلزم تحييد المرسيدس الأمر الذي قد يكلف حياة ضابطين في الشرطة. فمع أنني لم أشعر بالذنب حيالهم إن قُتلا وهما يحاولان اعتقالي بشكل غير قانوني وظالم، إلا أني لم أرغب في أن أقتل أي شخص. هل حقاً أنا قادر على تنفيذ العملية جسدياً؟ لم أكن متأكداً. إن التفكير في العملية كان بمثابة حلم يقظة لإلهاء نفسي عن المجهول المخيف الذي كان بانتظاري.

يجب ألاّ أنسى أن الشرطة في موريتانيا لا تعاني رُهاب الارتياب في الآخرين كما يعاني منها الأميركان، وليست لديها تقنيات الاحتراس، من تعصيب العيون، وسدّ الآذان، وتقييد الناس بالأصفاد من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. يُعتبر الموريتانيون متخلفين بهذا الخصوص. في الحقيقة، لا أعتقد أن هناك أحداً يمارس الاحتراس كالأميركيين. لقد كنت طليقاً حتى وصلنا إلى المطار، كان بوسعي الهروب والوصول إلى المبنى العام في المطار قبل أن يمسك بي أحد. بهذا سأكون قد أوصلت رسالة قوية إلى الناس وبالتالي إلى أسرتي بأنني اختُطفت. ولكني لم أفعل ذلك، وليس لديّ أي تفسير لعدم قيامي بهذه الخطوة. لو كنت أعرف ما أعرفه اليوم لحاولت القيام بأية محاولة من شأنها إحباط الظلم، ولما عدتُ أساساً إلى السجن لأواجهه.

بعدما انتهينا من عند السمّان انطلقنا مباشرةً إلى المطار. حركة السيارات كانت شبه معدومة تقريباً لأنه كان يوم عطلة، كان الناس كالعادة يلزمون بيوتهم بسلام.

هذه هي المرة الأولى منذ ثمانية أيام أرى فيها العالم الخارجي. كان الجو كئيباً، لا بدّ أنه كانت هناك عاصفة رملية قبل يوم، انقشعت اليوم لتفسح المجال للنسيم البحري القادم من المحيط.

لقد شاهدت هذا المشهد ألف مرة ومرة، وما زلت أحبه. فكلما هبت عاصفة رملية لتقضي على الحياة في المدينة، يهبّ نسيم بحري مع انتهاء العاصفة وينفخ الروح في المدينة من جديد، فيخرج الناس رويداً رويداً من بيوتهم. كان الفجر جميلاً

ومدهشاً كما كان دائماً. تصورت أسرتي وقد أعدّت إفطارها مسبقاً، وأمّي تتمتم بالدعاء والصلوات وهي تحضّر بفتور طعاماً شهياً متواضعاً، حيث الجميع ينتظرون الشمس وهي تخطو خطواتها الأخيرة في المغيب، لتختفي فيما بعد وراء الأفق. وحالما يرفع المؤذن الأذان "الله أكبر" يهرع الجميع إلى شرب شيء ما بنهم. أخي يفضّل تدخيناً سريعاً مع كوب من الشاي قبل تناول أي شيء آخر. لا تدخّن أيٌّ من أخواتي، فتدخين السيدات يُعدُّ في ثقافتنا أمراً معيباً. الغائب الوحيد من بين الأسرة هو أنا، ولكن قلوبهم جميعاً معي، وصلواتهم جميعاً هي من أجلي. كانت أسرتي تعتقد أن حجزي لن يتجاوز بضعة أيام ومن ثم ستطلق الحكومة سراحي. لقد أخبرت الحكومة أسرتي بأنني لم أفعل شيئاً، وأنها تنتظر حتى يجد الأميركان الحقيقة ومن ثم سيتركونني وشأني. كم كانت أسرتي مخطئة! كم كنت أنا مخطئاً لأضع ثقتي في حفنة من المجرمين وأضع مصيري في أيديهم!!

يبدو أنّي لم أتعلم حتى الآن أي شيء. ويبدو أن الندم لا يفيد. لقد أبحرت السفينة. كانت سيارة المرسيدس تتجه بلا ضجيج صوب المطار، وأنا كنت غارقاً في أحلام يقظتي. عند البوابة السرية كان رئيس شرطة المطار ينتظرنا كما هو مخطط.

كرهت تلك البوابة المظلمة! كم روحاً بريئة عبرت تلك البوابة السرية؟ مررت منها مرةً، عندما جلبتني الولايات المتحدة من داكار وسلّمتني إلى حكومتي قبل عشرين شهراً. وصولي إلى البوابة وضع حدّاً لأحلامي حول منقذٍ وإنسانٍ خارقٍ يوقف السيارة بمعجزة، ويبعد ضباط الشرطة، ويحملني إلى البيت على جناحيه وأتمكن من تناول الإفطار في دفء كوخ أميّ. ما من شيء يقف في وجه ما قرره الله لنا، وأنا أذعن وأخضع كلياً لإرادته.

بدا رئيس شرطة المطار كراع للإبل. كان يرتدي "بوبو" مهترئاً، وهو اللباس الوطني، وهو عبارة عن قميص "نَص كُمّ" ودون أزرار.

- أخبرتك أنّني لا أريد أحداً يكون من حولنا. قال مدير الاستخبارات.

- كل شيء على ما يرام. قال رئيس شرطة المطار على مضض. كان كسولاً، ولا مبالياً، وساذجاً، وتقليدياً أكثر من اللازم.

أعتقد أنه يجهل تماماً ما الذي كان يحدث من حوله. بدا رجلاً متديناً وتقليدياً،

ولكن يبدو أن الدين لم يترك أي تأثير في حياته، إذا أخذنا بعين الاعتبار المؤامرة الظالمة التي كان ينفّذها مع الحكومة.

بدأ المؤذن المذهل معلناً نهاية النهار وبالتالي موعد الإفطار. "الله أكبر، الله أكبر"، "أشهد أن لا إله إلاّ الله" مرة، مرتين، ومن ثم مرتين "أشهد أن محمداً رسول الله"، "حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح" ومن ثم مرتين "الله أكبر" و"لا إله إلاّ الله"... يا لها من رسالة مذهلة! ولكن خمّن أيها المؤذّن العزيز، لا أستطيع الامتثال لأذانك، ولا أستطيع أن أكسر صيامي. تساءلت: هل يعرف هذا المؤذّن أي ظلم يجري في هذا البلد؟

لم يكن هناك مكانٌ نظيف من حولنا، فكل الميزانية البائسة التي وافقت عليها الحكومة من أجل إعادة ترميم المطار قد نُهبت تماماً من قبل عملاء الحكومة التي وثقت بهم. ذهبتُ بصمت إلى البقعة الأقل اتساخاً وبدأت أصلي. انضمّ إليّ رئيس الاستخبارات ومعاونه ورئيس شرطة المطار. وبعد أن أنهيت صلاتي قدّم لي رئيس الاستخبارات الماء وبعض الكعك المحلّى للإفطار، في تلك اللحظة هبطت طائرة رجال أعمال صغيرة نفاثة على مدرج المطار. لم تكن لدي شهية على أية حال، ولكن وصول الطائرة ختمت الحاجة إلى تناول الطعام. كنت أعرف أنني لن أبقى على قيد الحياة بدون طعام، لذا وصلت إلى الماء وشربت كمية قليلة منه، وأخذت قطعة من الخبز المحلّى ودفعتها رغماً عني في فمي، ولكن يبدو أنها واجهت ثغرة معلّقة، لقد تآمرت حنجرتي عليّ فانغلقت. كنت أفقد صوابي من الخوف مع أنني حاولت التصرف على نحو طبيعي لأستردّ رباطة جاشي. كنت أرتجف، ولكني واصلت تمتمة صلواتي. وجّه طاقم المطار الأرضي الطائرة الصغيرة باتجاه سيارة المرسيدس بنز. كادت الطائرة الصغيرة تلتصق بالسيارة عندما توقفت. فُتح الباب وهبط رجل ████████████

████████████████████████

████████████ السلّم بخطى ثابتة. كان واحداً من أولئك الذين تغرق في كل ما يشربونه. يا إلهي! لن أشترك ████████████ في الشرب مع هؤلاء الناس، حتى لو مُنحت مليون دولار. ما أن وقع عيني على الرجل

حتى أطلقت عليه لقب ██████.[1]

عندما وصل إلى الأرض كنّا واقفين أمامه. فحَصَنا بعينيه الثعلبيتين. كانت لديه ███ ██████████، وعادة قَرْص ██████ـه، ويظل يحرّك عينيه، إحداهما مفتوحة والأخرى نصف مغمضة. استطعت أن أقرأ الصدمة على وجهه بسهولة، فقد بدا أنه لم يشاهد الشخص الذي كان يبحث عنه، أعني نفسي. ولكن يمكن القول إنّ هذه ليست المرة الأولى التي يقود فيها عملية اختطاف. كان متمالكاً أعصابه تماماً كما لو أن ما يحدث ليس بذي أهمية كبيرة.

– جلبنا أناس في حقائب إلى هنا. قال لي فيما بعد مرافق ██████ في الأردن.

– كيف لا يموتون اختناقاً أثناء الرحلة؟

– نفتح فتحة لأنوفهم كي يحصلوا على الأوكسجين اللازم. قال ██████.

لا أعرف شيئاً عن قصة الحقائب، ولكني أعرف قصصاً عن حالات اختطاف الإرهابيين المشتبه بهم إلى الأردن. توقّع ██████ أن تكون فريسته مقيّدة، معصوبة العينين، مسدودة الأذنين، ولكن خلافاً لتوقعاته كنت واقفاً أمامه بلباسي المدني مفتوح العينين كأي مخلوق بشري، وذلك ما صعقه. لا، إنّ الإرهابي لا يبدو بهذا الشكل، وخصوصاً إذا كان إرهابياً من المستوى الرفيع والعقل المدبّر –المفترض – الذي يقف وراء مؤامرة الألفية.

– مرحباً. قال. من الواضح أنه لم يعتد التحية الإسلامية الجميلة: "السلام عليكم". تبادل أطراف الحديث على عجل مع مدير مكتب الاستخبارات، مع أنهما كانا يجدان صعوبة في فهم بعضهما بعضاً. لم يكن مدير الاستخبارات معتاداً على اللهجة الأردنية، ولا الضيف الأردني معتاداً على الطريقة الموريتانية في الكلام. كنت أتفوق عليهما في هذه النقطة. ما من لهجة عربية إلاّ وأفهمها نتيجة معاشرتي لأصدقاء من مختلف الخلفيات الثقافية.

قال إنه بحاجة إلى الوقود. شرحتُ ذلك لمدير الاستخبارات. تملكتني رغبة عارمة

---

[1] إن لقب محمدو ولد صلاحي لقائد الفريق الأردني القائم بالمهمة الذي يصفه هنا يبدو أنه "الشيطان"، لأنه يظهر مرتين فيما بعد دون شطب في هذا المشهد. يوحي سياق جملة "تغرق في كل ما يشربونه" بأنه ربما يقصد شوارب الرجل.

لأجعل مفترسي يعرف من أنا. أخذت حقيبتي وأظهرت استعدادي لركوب الطائرة، في تلك اللحظة أدرك ██████ أنني، أنا الهزيل، "الإرهابي" الذي أرسلوه لأخذه.

ناوله مدير الاستخبارات جواز سفري وملفّاً رقيقاً. في أعلى سلّم الطائرة كان هناك شابّان يرتديان بذلات سوداء شبيهة بزي النينجا، بَدَوا أنهما الحارسان اللذان سيقومان بحراستي في أطول رحلة في حياتي، والتي استغرقت إحدى عشرة ساعة. تحدثت إلى مدير الاستخبارات بطريقة لم يفهمها ██████.

- أخبره بألاّ يعذبني.

- هذا شاب جيد، أودّ أن تعاملوه بطريقة لائقة! قال مدير الاستخبارات بغموض.

- سنعتني به جيداً. أجاب ██████ أيضاً بكلام غامض.

أعطاني مدير الاستخبارات بعض الطعام لأتناوله أثناء رحلة الطيران، فقال ███ ██████:

- لا لزوم لذلك، لدينا ما يكفي من الطعام.

سرّني ذلك لأني أحب المطبخ الشرق أوسطي.

جلست في المقعد الذي كان مخصصاً لي، وأمر قائد العملية بتفتيش كامل بينما راحت الطائرة تنزلق على أرض المطار. كل ما وجده كان قرآني، نسخة الجيب، فأعادوه لي. عصبوا عينَيّ وسدّوا أذنَيّ، ولكن ما أن أصبحت الطائرة في العلوّ الطبيعي لها حتى أزالوا العُصابة عن عينيّ لأتمكن من الأكل. وبحدود معرفتي بأساسيات أدوات الاتصال، انتابني شعور رهيب عندما وضعوا في أذني سدادات شبيهة بسمّاعات الأذن، ظننت أنها طريقة أميركية جديدة لامتصاص المعلومات من الدماغ وإرسالها مباشرةً إلى كمبيوتر رئيسي لتحليل المعلومات.

لم أكن خائفاً مما يمكنهم امتصاصه من دماغي، ولكني كنت خائفاً من الألم الذي قد أعانيه خلال الصدمات الكهربائية. كان الأمر سخيفاً، فحين يتنابك الخوف لا تعود أنت أنت، بل تصبح طفلاً صغيراً مرةً أخرى.

كانت الطائرة صغيرة للغاية وكثيرة الضجيج. بإمكانها الطيران مدة ثلاث ساعات إلى ثلاث ساعات ونصف فقط، بعدها ستحتاج التزوّد بالوقود. "إنهم في قبرص"،

أُخبِر مدير الاستخبارات قبل وصولهم إلى نواكشوط بعدة ساعات. أعتقد أن رحلة العودة ستكون من المسار نفسه، لأن جرائم كهذه ينبغي أن تكون بتعاون جميع الأطراف المتآمرة.

قدّم █████ وجبة طعام لي. بدت لذيذة ولكن حنجرتي كانت متيبّسة وشعرت كما لو أنني أزدرد أحجاراً قاسية.

– هل ذلك هو كل أكلك؟ سألني █████.

– نعم يا █████. قلت. كلمة █████ تعني حرفياً الشخص الذي أدّى فريضة الحج إلى مكّة، ولكنك في الشرق الأوسط تشير باحترام إلى شخص لا تعرف بـ █████.[1]

في الأردن ينادون جميع السجناء بـ █████، حتى تبقى الأسماء سرية.

– كُلْ، كُلْ، استمتع بطعامك! قال █████ محاولاً أن يمنحني بعض الراحة حتى آكل وأبقى على قيد الحياة.

– شكراً يا █████، أكلتُ ما فيه الكفاية.

– هل أنت متأكد؟

– نعم يا █████، أجبت.

نظر إلي █████، وابتسم رغماً عنه ابتسامة كاذبة وساخرة لم أجد مثلها قط من قبل، كانت شبيهة بابتسامته التي كشف عنها عندما نزل من الطائرة في مطار نواكشوط.

جمع الحرّاس البقايا وأعادوا طاولة الطعام إلى وضعيتها المعتادة. كان اثنان منهم يراقبانني، أحدهما كان خلف رأسي مباشرةً، في حين كان الآخر جالساً إلى جانبي. ظلّ الأول يحدّق بي طوال الوقت إلى درجة أنني أشك بأنه أغمض عينيه لحظة واحدة. لا بدّ أنه قد خضع لتدريب قاسٍ.

– في تدريبي أكاد أفقد أعصابي. – صرّح لي أحد الجنود فيما بعد في السجن الأردني. – أثناء التدريب نأخذ إرهابياً ونقتله أمام أنظار جميع المتدرّبين. لا يتحمل البعض فينفجرون بالبكاء.

---

[1] يبدو من السياق أن محمدو ولد صلاحي يشير إلى الكلمة التبجيلية "حجي" أو "الحاج".

– أين تتدربون؟ سألته.

– في بلد عربي، لا أستطيع أن أبوح باسمه.

شعرت بالغثيان، لكني بذلت أقصى ما لدي من جهد حتى أبدو أمام الرجل بأن ما سمعته هو أمر طبيعي وأنه بطل.

– يريدون منا ألاّ نكون رؤوفين بالإرهابيين. أستطيع قتل الإرهابي الذي يهرب بطلقة واحدة فوراً. قال بحسم.

– عظيم! ولكن كيف تعرف أنّه إرهابي؟ قد يكون بريئاً. سألته لأقيس محاكمته العقلية.

– هذا ليس شأني. إذا قال رئيسي هو إرهابي، فهو إرهابي. لا يُسمح لي أن أتبع محاكمتي العقلية الشخصية. عملي هو التنفيذ.

حزنت على أبناء قومي كيف وقعوا في هذا المستوى المخيف من القسوة والشناعة. كنت أقف في تلك اللحظة أمام شخص مدرّب على أن يقتل الناس عن عمد بمجرد أن يؤمَر بذلك. عرفت أنّه لا يكذب، لأنني قابلت ذات مرّة جزائرياً كان جندياً في السابق يطلب اللجوء السياسي في ألمانيا، أخبرني عن الشناعة التي عاملوا بها الإسلاميين أيضاً. قال لي: "خلال كمين، ألقينا القبض على مراهق في السادسة عشرة من عمره، توقّف رئيسنا بينما كنا في الطريق إلى السجن، أنزله من السيارة وأطلق النار عليه وأرداه قتيلاً. لم يستطع أن يضعه في السجن، أراد الانتقام".

تساءلت: لماذا كل هذه الحيطة، علماً أنني مقيّد اليدين وهناك حارسان ومحققان وطياران. طلب الشيطان من الحارس الذي كان يجلس إلى جانبي أن يُخلي الكرسي. نهض الحارس عن الكرسي وجلس ■■■■■■■ بجانبي وبدأ يحقّق معي.[١]

– ما اسمك؟

– محمدو ولد صلاحي.

– ما لقبك؟

– أبو مصعب.

– أي ألقاب أخرى لديك؟

---

١ "الشيطان" يظهر هنا في المخطوطة غير مشطوب.

- ما من ألقاب أخرى.
- هل أنت متأكد؟
- نعم يا ██████████!

لم أكن معتاداً على محقق من بلاد الشام. لم أكن قد سمعت تلك اللهجة بهذه الطريقة النادرة. إنّ لهجة الشام هي من أجمل اللهجات في اللغة العربية، ولكن لهجة ██████████ لم تكن جميلة. كان شيطاناً وكفى: طريقته في الحركة والكلام وشكله وأكله، وكل شيء آخر فيه.

كنا نصرخ خلال الحديث القصير الذي أداره معي، ومع ذلك بالكاد كنّا نفهم بعضنا بعضاً بسبب هدير المحركات المزعج.

أكره الطائرات الصغيرة. أشعر دائماً أنني على جناح عفريت عندما أسافر فيها. "سنتوقف عن التحقيق حالياً لنستأنفه فيما بعد"، قال هو.

شكراً أيتها المحركات القديمة! أردت فقط أن يحلّ عن وجهي لبعض الوقت.

مع حلول منتصف الليل بتوقيت غرينتش تقريباً هبطنا في قبرص. هل كانت طائرة تجارية أم طائرة عسكرية؟ لا أعرف، ولكن قبرص جنة من جنات الأرض في الشرق الأوسط.

ارتدى كل من المحققين والطيارين ستراتهم وغادروا الطائرة، على الأغلب لقضاء استراحة. كان الجو يبدو كأنّه يمطر، فقد بدت الأرض مبللة بالماء، وكان الرذاذ الناعم يلاطف وجه الأرض. بين الفينة والفينة كنت أسرق لمحة سريعة عبر نافذة صغيرة مغبّشة. كان النسيم في الخارج يوحي بوجود شتاء بارد في الجزيرة.

شعرت بضجيج أصوات هزت الطائرة الصغيرة، لا بّد أنّه كان صهريج الوقود وهو يتحرك. غرقت في عالم أحلام اليقظة.

كنت أفكر: ستشكّ الآن الشرطة المحلية بالطائرة، وسيقومون بتفتيشها. أنا محظوظ لأنّني أخرق القانون بعبوري أجواء البلد بدون فيزا العبور، وسيقومون باعتقالي ومن ثم إيداعي السجن. وفي السجن سأقدم طلباً للجوء السياسي وأبقى في هذه الجنّة. لن يستطيع الأردنيون قول شيء لأنهم مذنبون بمحاولة تهريبي. لذا كلّما طال انتظار الطائرة أصبحت فرص اعتقالي أكبر.

كم كنت مخطئاً! وكم كان حلم اليقظة مريحاً! ذلك كان عزائي الوحيد حتى أتمكّن من تجاهل الشرّ المحيط بي. لقد انتظرت الطائرة بما فيه الكفاية، حوالي الساعة، ولكن لم يفتشها أحد. لم أكن موجوداً على قائمة المسافرين التي قدمها الأردنيون للسلطات المحلية. ولوهلة لمحتُ الشرطة ببزاتهم السود السميكة وهم يقتربون من الطائرة ولكنهم لم يكتشفوا وجودي لأنّي كنت مقحماً كشطيرة بين كرسيين، وكان رأسي منخفضاً إلى الأسفل، لذا بَدَوتُ ككيسٍ صغير، وما شاهدته قبل قليل ربما لم يكن سوى وهم خلقته جرّاء حاجتي الشديدة له.

عاد ██████ ومرافقه والطياران، وأقلعنا من جديد. تبادل الطياران موقعيهما. رأيت الطيار السمين يجلس أمام ██████، كان عريض المنكبين بقدر طوله. بدأ ██████ بحديث معه. مع أنني لم أسمع شيئاً، لكنني أفترض أنّه كان حديثاً ودّياً بين رجلين ناضجين وهذا بالطبع أمر جيد. بدأ ██████ ██ يتعب كالبقية، وحده الحارس الشاب ظلّ يحدق إليّ بعينيه اللتين لا تطرفان أبداً، وكان يوجّه إليّ بعض الأوامر من مثل: "أبقِ رأسك منخفضاً!" و"انظر إلى الأسفلِ!"، ولكني كنت أتجاهل أوامره. شعرتُ أنّ هذه الرحلة هي الأخيرة لي في الحياة. فكرت بأفراد عائلتي فرداً فرداً، حتى أبناء وبنات أخوتي وأخواتي. كم قصيرة هي الحياة! انتهى كلّ شيء في غمضة عين.

كنت أقرأ قرآني باستمرار في الضوء المعتم. كان قلبي ينبض بقوة كما لو أنّه يريد أن يخرج من صدري. بالكاد كنت أفهم ما أقرأه من آيات. قرأت من مائتين إلى ثلاثمائة صفحة بدون وعي. كنت جاهزاً دائماً للموت، ولكني لم أتخيل أنه سيكون على هذا النحو.

إرحمني يا رب! لا أعتقد أنّ إنساناً على وجه البسيطة سيلقى حتفه بالطريقة التي يتصورها. نحن البشر نضع كل شيء في الحسبان عدا الموت، نادراً ما يضع أحدنا الموت على تقويمه السنويّ. هل قرر الله مصيري مسبقاً كي أموت في الأردن وعلى يد بعض أكثر الناس شرّاً في العالم؟ لم أكن أبالي بالموت على أيديهم، لأنّهم سيحاسَبون أمام الله، هكذا كنت أفكر.

حوالي الساعة الرابعة صباحاً بتوقيت غرينتش ██████، ساد جو من

الهدوء الكاذب على الرحلة بين قبرص ووجهتي المجهولة. يبدو أن العصابة قد نال منها الإرهاق بسبب الرحلة الطويلة يوم أمس من عمان إلى نواكشوط، وهذه نعمة.

بدأت الطائرة تنخفض مرةً أخرى وهبطت على أرضٍ أجهلها. أعتقد أنّه كان بلداً عربياً في الشرق الأوسط، لأنّي لمحت، على ما أعتقد، لوحات إعلانية مكتوبة بالعربية من خلال النوافذ الصغيرة عندما سرقت نظرة سريعة من حارسي العفريت.

كان الجو لا يزال مظلماً، والطقس كان صافياً وجافاً. لم أجد أية علامة على الشتاء.[1]

في هذه المرّة لم أرغب بمجيء الشرطة وتفتيش الطائرة، لأنّ البلدان العربية تتآمر دائماً مع بعضها بعضاً ضد مواطنيها. يا لها من خيانة عظمى! ومع ذلك، فإن أيّ تسربٍ للمعلومات لا يضرّها. لم أعطِ ولو ثانية واحدة لحلم اليقظة ذاك.

وبالرغم من أنّنا لم نمكث طويلاً، فقد جرت الإجراءات نفسها التي شهدتُها في قبرص، من ذهاب ██████ وطياريه في استراحة قصيرة، والضجّة المرافقة لتزويد الطائرة بالوقود، ومن ثم طارت الطائرة باتجاه وجهتها الأخيرة عمان في الأردن. لا أعتقد أنّنا سنتوقّف مرة أخرى، ولكنني بقيت أخرج من الطائرة وأعود إليها حتى وصلنا الأردن.

أكثر من تسعين بالمائة من الأردنيين مسلمون. بالنسبة إليهم، وبالنسبة لمعظم المسلمين في الشرق الأوسط، يُعدّ الصيام في رمضان من أكثر الطقوس الدينية أهمية. والناس الذين لا يصومون يشجبهم المجتمع، لذا نجد الكثير من الناس يصومون تحت الضغط الاجتماعي دون أن يكونوا مؤمنين بالدين. في موريتانيا لا يتعرض الناس لذاك الضغط فيما يخصُّ الصيام والصلاة.

- تسحّر. قال الحارس. أعتقد أنني نمت قليلاً.
- كلا، شكراً.
- إنّها فرصتك الأخيرة لتناول شيء من الطعام قبل أن يبدأ الصوم.
- لا، لا أحتاج.

[1] أشار محمود ولد صلاحي بأن الطائرة غادرت عمّان مساء ٢٨ نوفمبر، وهكذا سيكون الآن الصباح الباكر لـ٢٩ نوفمبر عام ٢٠٠١.

- هل أنت متأكّد؟
- نعم ████████.

هم بدأوا بتناول سحورهم، يمضغون الطعام كالأبقار، استطعت سماع ذلك حتى والسدّادات في أذنيَّ. بقيت أختلس النظرات نحو النوافذ الصغيرة حتى شاهدت بزوغ الضوء الأول إيذاناً بميلاد النهار.

- ████████، أريد أن أصلّي. قلتُ للحارس.

تحدث الحارس مع ████████ الذي أمر بنزع السدّادات عن أذنَي.

- لا مجال للصلاة هنا. عندما نصل سنصلي أنا وإياك معاً. قال ████████.

شعرت بالراحة جرّاء هذا الكلام، لأنّه إذا كان يصلي فهذا يعني أنّه مؤمن بالله، وأنّه لهذا السبب لن يؤذي – على الأرجح – "أخاً" له في الإيمان. ولكن بدا أنّه لا يعرف حتى أبسط المعلومات عن دينه. ينبغي أداء الصلاة في وقتها وبأفضل طريقة، وإنْ تعذّر ذلك ففي قلبك على الأقل. لا يمكن تأجيل الصلاة إلا للأسباب المشروحة في القرآن الكريم. على أيّة حال، الصلاة التي وُعدتُ بها لم تتمّ قط مع الشيطان.[1]

---

١ مرة أخرى تظهر كلمة "شيطان" غير مشطوبة.

الفصل الرابع

الأردن

٢٩ نوفمبر ٢٠٠١ – ١٩ يوليو ٢٠٠٢

ضيافة أخوتي العرب... القط والفأر: اللجنة الدوليّة للصليب الأحمر ضد المخابرات الأردنية... أخبار سارّة: محاولتي المزعومة لاغتيال الرئيس الموريتاني... مركز اللياقة البدنية: ما أعرفه يقتلني... عدالة غير عادلة.

███████، حوالي الساعة السابعة صباحاً بالتوقيت المحلي.[1] بدأتْ الطائرة الصغيرة تشقُّ طريقها عبر فضاء عمّان البارد والملبّد بالغيوم، ثم سرعان ما هبطت واستقرّتْ ساكنة. كان جميع من كانوا في الطائرة يتوقون للخروج من الجحيم بمن فيهم أنا.

– انهض. قال أحد الحرّاس، نازعاً الأصفاد المعدنية التي كانت في يديّ.

حُرِّرتُ وجلستُ صامتاً أقول لنفسي: "انظر إنّهم يتعاملون بودّ. كانوا يريدون منك ألاّ تُقدم على خطوةٍ حمقاء في الطائرة. ها قد وصلنا، ولا حاجة من الآن فصاعداً إلى الأصفاد والسدّادات الأذنيّة". كم كنت مخطئاً! لقد نزعوا الأصفاد لا لتحرير يدَيّ منها بل لتقييدي من الخلف هذه المرة. وضعوا سدّادات أكبر للأذن، وفوق كل ذلك

١ إنه مازال صباح يوم ٢٩ نوفمبر عام ٢٠٠١.

غطّوا رأسي حتى رقبتي بكيس. بدأ قلبي يدق بسرعة فارتفع ضغط دمي، الأمر الذي ساعدني على الوقوف بثبات على قدمَيّ. بدأت أتمتم دعائي. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتمُّ فيها التعامل معي بهذا الشكل. بدأ سروالي بالنزول مني بسبب الضعف الذي أصابني حيث كنت بلا طعام فعليّاً منذ أسبوع.

سحبني جنديان جديدان بكل قوتهما إلى خارج الطائرة، ولدى وصولي إلى السلم تعثرت به وكدتُ أسقط على وجهي لو لم يمسكني الحارس، والسبب هو أنّني لم أكن أرى شيئاً، والحارس الغبي أيضاً لم يعطِني أيّة إشارة.

- انتبهوا! قال محقّقي المقبل ████████ للحراس. حفظتُ صوته في ذاكرتي، وعندما بدأ التحقيق معي فيما بعد ميّزت صوته منذ ذلك اليوم. عرفت الآن أنّني يجب أن أنزل السلّم حتى تلامس قدماي الأرض. فعلت ذلك وسط هواء شتائيٍّ قارس، لم تكن ملابسي مصممة لطقسٍ كهذا، فملابسي رخيصة، حصلت عليها من السلطات الموريتانيّة.

وضع أحد الحرّاس قدمَيّ داخل الشاحنة التي وقفت قريبةً من الدرج الأخير للسلّم. حاصرني الحرّاس بينهم في المقعد الخلفي وبعدها انطلقت السيارة. شعرتُ بالراحة، كان الجو دافئاً داخل السيارة، وكان صوت المحرك هادئاً. شغّل السائق الراديو بالخطأ، فسمعتُ المذيعة بلهجتها الشامية وصوتها الناعس. كانت المدينة تستيقظ رويداً رويداً من ليلةٍ شتائية باردة وطويلة. كان السائق يقود بسرعة ومن ثم يكبح المكابح على نحو فجائي. يا له من سائق رديء! لا بدَّ أنّهم استأجروه لأنّه سائق غبي. كنتُ أتحرّك إلى الأمام وإلى الخلف كدميةٍ في سيارة تتحطّم.

سمعتُ كثيراً أصوات أبواق السيارات. كانت ذروة الوقت الذي يذهب فيه الناس إلى العمل. تخيّلت نفسي في البيت في الساعة نفسها وأنا أستعدُّ للذهاب إلى العمل مستمتعاً بيوم جديد، فيهبُّ النسيم البحري الصباحي من نوافذ سيارتي المفتوحة، وأنا في الطريق لأوصلَ أبناء أختي إلى مدارسهم المحترمة. كلّما اعتقدت أن الحياة تسير لصالحك، فإنّها تخونك.

بعد مسافة أربعين أو خمس وأربعين دقيقة من السواقة المؤلمة انعطفنا ودخلنا بوابة ثم توقّفنا. سَحَبني الحراس إلى خارج العربة. ارتعش جسمي من البرد في المسافة

القصيرة التي كانت تفصلنا عن داخل المبنى. عندما دخلنا تركوني بجانب سخّان. عرفتُ كيف هو شكل السخّان مع أنّ عينَيّ كانتا مغلقتين، شعرتُ أنّه يشبه السخّان الذي كان لدي في ألمانيا. علمتُ فيما بعد من أحد الحرّاس أن مبنى السجن بنته شركة سويدية.

– لا تتحرك. قال أحد الحرّاس قبل أن يغادر مع زميله الغرفة التي خلتْ إلاّ منّي. وقفتُ ساكناً بلا حراك بالرغم من أن قدمَيّ كانتا بالكاد تحملانني وظهري كان يؤلمني جداً. تُركتُ هناك مدة تتراوح بين ربع ساعة وعشرين دقيقة إلى أن جاء ████ ██ وأمسك بقبّتي من الخلف بشدةٍ كادت تقتلني ثم دفعني ████ بقسوة صاعداً الدرج. لا بدَّ أنّني كنت في الطابق الأرضي ودفعني إلى الطابق الأول.

لسخرية الأقدار شاء العرب أن يكونوا بين أكثر الشعوب كرماً على وجه الأرض، يُجمعُ الأعداء قبل الأصدقاء على ذلك، ولكن ما شاهدته هنا كان نوعاً آخر من الضيافة العربية. دفعني ████ إلى داخل غرفةٍ صغيرةٍ نسبياً فيها طاولة وكرسيان وشخص يجلس خلف طاولة قبالتي. ████ حالما رأيته. كان ████ ████████████████████ ████████████████.

كان يرتدي كبقية الحرّاس ████████، وقَصّة شعره كانت مرفوعة ومشدودة.[1] بإمكانك أنْ تفهم أنّه كان يمارس هذا العمل منذ فترة طويلة، إذ لم تكن هناك أية ملامح إنسانية في وجهه. لقد كره نفسه أكثر من أي شخص يمكن أن يكرهه.

أول شيء رأيته كان صورتان معلّقتان على الجدار، كانت الصورة الأولى للملك الحالي عبد الله والثانية لوالده المتوفّى الملك حسين. إنّ صوراً كهذه هي برهان على الدكتاتورية في عالم غير متمّدن. في ألمانيا لم أرَ أيَّ شخصٍ يعلّق صورة الرئيس. كنتُ أرى صورته فقط عندما كنت أشاهد الأخبار، أو عندما كنتُ أتجوّل أثناء الانتخابات، حيث بإمكانك رؤية مجموعة من صور المرشحين. ربما أكون على خطأ، ولكنّي

١. في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإدارية عام ٢٠٠٥ أشار محمود ولد صلاحي بأنّه خلال فترة وجوده في السجن الأردني كان طاقم السجن كله يرتدي بذلات عسكرية (نسخة ARB، ص٢٢).

لا أثق بأيّ شخص يعلّق صورة رئيسه، أو أيّ رئيس يفوز في الانتخابات بنسبة تفوق الثمانين في المائة – إنّه لأمرٌ مثيرٌ للسخرية. وعلى الجدار الآخر رأيتُ ساعةً كبيرةً معلقة، كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف صباحاً.

– اخلع ملابسك. قال ██████████████. أذعنت لأمره وخلعتُ ملابسي ما عدا الملابس الداخليّة. لن أخلعها دون قتال مهما كان ضعيفاً. لكنّ ██████████████ ناولني بذلة زرقاء فاتحة ونظيفة. إنّ الأردن متقدّمة ماديّاً على موريتانيا بكثير، وكلّ شي في السجن كان متواضعاً لكنّه كان نظيفاً وأنيقاً. كانت هذه هي المرّة الأولى التي ألبس فيها بذلة سجن في حياتي.

في موريتانيا لا توجد بذلات خاصة للسجناء، لا لأنّ موريتانيا بلد ديمقراطي بل لأنّ السلطات كسولة وفاسدة للغاية. إنّ البذلة علامة على التخلف في البلدان الشيوعيّة. البلد الوحيد الذي يسمّى "البلد الديمقراطي" ولديه هذه التقنيّة لإكساء المعتقلين ببذلات هو الولايات المتحدة، وقد تبنّت الأردن النظام الأميركي في تنظيم سجونهم مائة بالمائة.

كان الشاب الجالس وراء الطاولة سميناً بعض الشيء. كان يتصرف كموظف، ولكنّه كان شخصاً بغيضاً.

– ما اسمك؟ ما عنوانك في عمّان؟

– لست من عمّان.

– من أي جحيم أنت إذاً؟

– أنا من موريتانيا، أجبتْ.

– كلا، أعني أين تعيش هنا في الأردن؟

– لا أعيش في أي مكان.

– هل اعتقلوك بينما كنت تعبر المطار؟

– لا يا حجي، لقد أخذوني من بلدي للاستجواب لمدة يومين هنا عندكم ومن ثم سيعيدونني إلى بلدي.[١]

١ كلمة "حجي" تظهر هنا غير مشطوبة.

أردت أن أجعل الأمر يبدو بعيداً عن الأذى قدر الإمكان، ثم قبل كل شيء هم الذين قالوا لي هذا في موريتانيا، ولكني شعرت الآن أنّ ما سمعته كان محض كذب وحتى خيانة.

- كيف تهجّئ اسمك؟

هجّأت اسمي بالكامل، ولكن بدا أن الرجل لم يكن حاصلاً حتى على الشهادة الابتدائية. كتب الاسم كما لو أنه يكتب بالعيدان الصينية التي تُستخدم في الأكل بدلاً من الملاعق. وبدأ يعبّئ استمارةً تلو أخرى ويرمي بالقديمة في سلة المهملات.

- ماذا فعلتَ؟

- لم أفعل شيئاً.

انفجر الاثنان بالضحك.

- آه، مقنع جداً! لم تفعل شيئاً ولكنك هنا!

فكرت، أية جريمة يجب أن أقولها لكي أقنعهم. قدّمت نفسي كشخص جاؤوا به من موريتانيا ليقدّم معلومات عن أصدقائه.

- أخبرني ██████ أنّه بحاجة إلى مساعدتي. قلت لهم، ولكن حينئذ فكرت: يا له من جواب سخيف. لو قدّمت المعلومات بحرية لكان بمقدوري تقديمها في موريتانيا. لم يصدقني الحرّاس على أية حال، أي مجرم يعترف بجريمته طوعاً؟

شعرت بالإهانة لأن قصتي بدت كاذبة وغريبة.

في الفوضى البيروقراطية يأخذ ضابط قيادة السجن العملية في يده. أخذ محفظتي الصغيرة ونسخ البيانات عن بطاقة الشخصية. كان ضابطاً جاداً في أواخر الثلاثينات من عمره، أشقر تماماً، قوقازي الشكل، وذو وجه ناشف. يبدو أنه قد تزوج القضية. خلال إقامتي في دار التوقيف والتحقيق[1] رأيته يعمل ليلاً نهاراً وينام في السجن. ومعظم

١ في تقريرها عام ٢٠٠٨، "الخطر المزدوج :عمليات CIA لنقل السجناء إلى الأردن"، تقول منظمة هيومان رايتس ووتش: "من عام ٢٠٠١ وحتى ٢٠٠٤ على الأقل عملت إدارة المخابرات العامة الأردنية كسجّان توكيلي (مفوض لصالح وكالة المخابرات الأميركية CIA). قامت بحجز السجناء المطلوبين من CIA وسلمت قسماً منهم إلى CIA فيما بعد". كما أن منظمة هيومان رايتس ووتش تقول في تقريرها إن محمدو ولد صلاحي وثلاثة عشر سجيناً آخرين على الأقل تمّ نقلهم إلى الأردن خلال هذه الفترة، حيث كانوا "معتقلين في المقر الرئيسي لإدارة المخابرات العامة في عمّان، الذي يقع في منطقة جنداول في وادي سير. إنّ المقرّ يغطي مساحة ما يقارب فداناً من الأرض يضم المبنى =

الحرّاس أيضاً ينامون في السجن.

إنه يعمل ████

████

██ ونادراً ما يخرج من مبنى السجن. كان يتسلل وينظر إلي من خلال كوة الزنزانة في غفلة مني.[1]

كانٍ ████ واحداً ████ في ما يسمّى "الجيش العربي". فكرت: يا لها من حفلة تنكرية! إذا كان هؤلاء هم حماتنا العرب فعلى الدنيا السلام! ينطبق عليهم المثل العربي: "حاميها حرميها".

- لماذا ينادونكم بالجيش العربي؟ سألت أحد الحرّاس فيما بعد.
- لأننا نحمي العالم العربي برمته. أجاب مفتخراً.
- آه، ذلك عظيم حقاً.

لكني كنت أفكر في قرارة نفسي بأننا سنكون في أفضل حال لو أنّكم تحموننا من أنفسكم.

بعد الانتهاء من الإجراءات المتعلقة بي قيّد ████ ██ يدَيّ خلف ظهري، ووضع العُصابة على عينَيّ، وأمسكني كعادته من خلف قبّتي. دخلنا المصعد وصعدنا إلى الطابق الثالث على ما أظن. قادني ████ ████ من خلال رواق، انعطف مرتين ومن ثم وضعني وراء باب

= الأساسي للسجن والمؤلف من أربعة طوابق، وقد زارته هيومان رايتس ووتش في أغسطس ٢٠٠٧".

وقد كتب المفتشون الذين كانوا في تلك الزيارة: "تقع المكاتب الإدارية وغرف التحقيق في الطابق الثاني من المبنى، بينما غرف الزيارة في الطابق الأرضي. أثناء قيام منظمة هيومان رايتس ووتش بجولة تفتيشية للسجن كان جميع السجناء موجودين في الطابق الثاني. كما يوجد العديد من الزنازين في الطابق الأرضي وفي الطابق الثالث، كما أنه يوجد بعض الزنازين في الطابق الرابع، وهي عبارة عن زنازين جماعية، و"قسم النساء كما كان يسميه مدير السجن، بالإضافة إلى ذلك كان يوجد القبو حيث كان يقبع السجناء من أصحاب التهم الكبيرة. إنّ السجناء المعتقلين لدى إدارة المخابرات العامة الأردنية في وادي سير كانوا في زنازين انفرادية ولا يسمح لهم بالتكلم فيما بينهم، ولكن تمكن بعض السجناء من التواصل مع الآخرين عبر النافذة الخلفية لزنازينهم. (الزنازين تطل على الباحة المركزية وكانت لها نوافذ تطل على الباحة) (خطر مزدوج: ١، ١٠-١١). تقرير منظمة هيومان رايتس ووتش متوفر على الرابط:

http://www.hrw.org/sites/default/files/reports /jordan0408webwcover.pdf.

١ هذا السلوك قد يكون هو أساس اللقب "أنا أراقبك" الذي يظهر غير مشطوب.

معدني ثقيل وأغلق الباب بعد أن فكّ القيد عن يدي ونزع العُصابة عن عيني. نظرت إلى أبعد ما استطعت فوجدت نافذة على ارتفاع يتراوح بين ٨ و٩ أقدام، كانت صغيرة وعالية حتى لا يتمكن المعتقلون من النظر إلى الخارج. تسلقت ذات مرة ونظرت منها ولكني لم أرَ سوى الجدار الدائري للسجن – كان السجن دائرياً. كانت الفكرة ذكية، لأنّه حتى إذا ما تمكّنتَ من الهروب من النافذة فإنّك ستنزل إلى الميدان الشبيه بحلبة مصارعة رومانية، المحاط بجدار إسمنتي يتراوح ارتفاعه بين ثلاثين وأربعين متراً. كان الجدار مقفراً وكئيباً، ولكنه كان نظيفاً. كان يوجد سرير خشبي وبطانية قديمة وملاءة صغيرة، هذا كان كل شيء. أغلق ██████ الباب وراءه بصوت عالٍ تاركاً إيّاي وحدي تتناهبني جحافل الخوف والتعب. يا له من عالم مذهل! لقد استمتعت بزيارة بلدان أخرى، ولكن ليس بهذا القدر من الاستمتاع!

توضأتُ وحاولت أن أصلّي واقفاً، ولكن لم يكن هناك مجال، لذا اضطررت أن أصلّي جالساً. وبعد الصلاة زحفت إلى السرير وسرعان ما أخلدتُ إلى النوم. ولكن النوم كان عذاباً، فما أن أغمضت عيني حتى هاجمني طيف الأصدقاء الذين سأُسأل عنهم في التحقيق حتماً، كانوا يريدون التحدث إلي. لم يكونوا يميزون بيني وبين الجحيم من الرعب المخيّم عليهم. استيقظت مرات عديدة وأنا أتمتم بأسمائهم. كنت في وضع لا أُحسد عليه: إذا بقيت يقظاً قتلني التعب، وإذا نمت أرعبتني الكوابيس إلى درجت أنني بتّ أصرخ في نومي.

أيقظني الحارس المناوب في الساعة الرابعة والنصف لتناول السحور. كانت الوجبات توزّع من عربة تتجول في الممرّ بين الزنازين، وبعد الانتهاء كان يأتي الطبّاخ مرة أخرى مع مركبته ليجمع الصحون الفارغة. كان يُسمح للسجناء أن يحتفظوا بكوب لديهم من أجل الشاي والعصير. وعندما وصل الطبّاخ لأخذ طبقي لاحظ أنني لم آكل إلاّ القليل.

– أهذا كلّ آكلك؟

بقدر ما أحببت الطعام، بذاك المقدار كانت حنجرتي تؤلمني. وكان الإحباط والخوف سيدَي الموقف.

– نعم، شكراً.

- حسناً ما دمتَ تقول ذلك.

لملم الطبّاخ طبقي بسرعة وابتعد بمركبته ذات العجلات. الأشياء في السجن تختلف عمّا في البيت. ففي السجن عندما لا تأكل ليست بمشكلة، يقولون لك: حسناً. ولكن في البيت يحاول والداك وزوجتك بأقصى ما لديهم من جهد أن يقنعوك: "حبيبي، كُلْ أيضاً لقمة أخرى"، أو: "هل تريد أن أعدّ لك طعاماً آخر؟ أرجوك تناول طعامك من أجلي. لماذا لم تقل لي ماذا تريد أن تأكل؟". في كلتا الحالتين من المؤكّد أنك لن تأكل المزيد، في السجن لأنّهم يُرعبونك، وفي البيت لأنّهم يدلّلونك. وهذا ما يحدث أيضاً حينما تكون مريضاً. أتذكر موقفاً مضحكاً عندما كنت أتألم من الوجع في معدتي.

- أنا مريض! هل تستطيع أن تعطيني بعض الدواء؟

- تباً لك أيها الطفل البكاء! قال الحارس.

انفجرت ضاحكاً لأنّي تذكرت حينها كيف تتعامل عائلتي حين تعلم أنّي مريض.

بعد أن سلّمت قمامتي عدت لأنام، وما أن أغمضت عيني حتى شاهدت أسرتي في الحلم، وكانت تنقذني من الأردنيين. في الحلم كنت أقول لأسرتي إن ذلك كان مجرد حلم، وهم كانوا يقولون: "كلا، إنّها حقيقة، أنت في البيت". كم كان حلماً مدمِّراً، لأنني حينما استيقظت من النوم وجدت نفسي في تلك الزنزانة الصغيرة المظلمة! أرعبني الحلم لعدة أيام. "أخبرتكم أنّه مجرد حلم، من فضلكم أمسكوني وامنعوني من الذهاب"، كنت أقول لهم. ولكنّهم لم يمسكوني ولم يمنعوني من المغادرة، كان هذا حلماً، أما حقيقة واقعي فهي أنني معتقل بشكل سرّيّ في سجن أردني وأسرتي حتى لا تستطيع أن تعرف أين أنا.

الحمد لله، لقد اختفى الحلم بعد فترة، ومع ذلك كنت أستيقظ بين فينة وأخرى وأنا أبكي بحرقة بعد احتضاني أختي الصغرى المحبوبة.

كانت الليلة الأولى في المعتقل الأردني هي الأسوأ على الإطلاق. وإذا ما تحمّلتَها فعلى الأرجح ستتحمّل بقية الليالي. كنا في شهر رمضان، لذا كانوا يقدّمون لنا وجبتَيْ طعام، إحداهما مع غروب الشمس والأخرى قبل الخيط الأول من الفجر. أيقظني الطبّاخ وقدّم لي وجبتي الباكرة، ونسمّيها السحور، إنّها بداية صيامنا الذي يستمر

حتى غروب الشمس. في البيت يكون السحور أكثر من مجرد وجبة طعام. كانت أختي الكبرى توقظ الجميع واحداً واحداً ومن ثم نجلس معاً ونتناول الطعام ونرتشف الشاي الساخن ونحن نستمتع بصحبة بعضنا بعضاً. "أعدك يا أمّي بألاّ أشكو من طعامك بعد اليوم"، كنت أقولها صامتاً في قرارة نفسي. لم أتعوّد بعد على التوقيت الأردني. لم يسمحوا لي أن أعرف الوقت والتاريخ، ولكن بعد فترة، حينما كسبت بعض الأصدقاء من بين الحرّاس، صاروا يخبرونني كم هي الساعة. كان عليّ أن أخمّن الوقت هذا الصباح. كانت الساعة حوالي الرابعة والنصف فجراً، أي حوالي الواحدة والنصف بعد منتصف الليل عندنا في البيت. تساءلت ماذا تفعل أسرتي الآن، هل يعرفون أين أنا؟[1] هل سيريهم الله مكاني؟ وهل سأراهم مرة أخرى؟ وحده الله يعلم! بدت الفرص ضئيلة جداً.

لم آكل كثيراً، في الواقع لم تكن الوجبة كبيرة، قطعة خبز وقشطة الحليب وقطع صغيرة من الخيار، ولكني كنت قد أكلت أكثر من اللازم في الليلة الفائته.

كنت أقرأ القرآن دائماً في العتمة، لم أستطع أن أتذكّر وأقرأه عن ظهر قلب لأن عقلي لم يكن يعمل على نحو سليم. وعندما اعتقدت أن الفجر قد حان بدأتُ أصلّي، وما أن انتهيت من الصلاة حتى بدأ المؤذّن بالأذان. فجّر صوته السماوي الضعيف الناعس المبحوح في داخلي شتى أنواع العواطف. كيف يمكن لأولئك المؤمنين أن يقبلوا بوجود واحد منهم مدفوناً في ظلام ■■■■■■■■■■ ■■■■ دار التوقيف والتحقيق؟

في الواقع يوجد أذانان، الأول لإيقاظ الناس كي يتسحّروا، والثاني ليمسك الناس عن الأكل ويذهبوا إلى الصلاة. لا يختلف الأذانان عن بعضهما إلاّ في نقطة واحدة وهي أنّ المؤذّن يقول في الأذان الأخير: "الصلاة خيرٌ من النوم". صلّيت مرة أخرى وقصدت السرير وأنا بين خيارين: إمّا الشعور بالخوف في اليقظة، أو النوم. كنت أترنّح بينهما كما لو أنّي ثمل.

مرّ اليوم الثاني بدون أحداث كبيرة. بقيت شهيتي كما هي دون تغيير. أعطاني أحد

---

[1] في الواقع لم تعرف أسرة محمدو ولد صلاحي شيئاً عن مكانه إلاّ بعد عام، لأنّ أخاه في ألمانيا رأى مقالاً في صحيفة دير شبيغل، في أكتوبر ٢٠٠٢، ورد فيه أن محمدو ولد صلاحي في غوانتانامو. انظر: "من ألمانيا إلى غوانتانامو: مهنة السجين رقم ٧٦٠"، دير شبيغل، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٨.

الحرّاس كتاباً للمطالعة. لم أحب الكتاب لأنه كان حول الاختلافات الفلسفية بين الأديان المختلفة. كنت بحاجة ماسّة إلى كتاب يعيد الراحة لنفسي. تمنيت لو كان هناك سلام أكثر في العالم. كنت بين اليقظة والنوم حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، الليلة التي صرخ فيها الحارس ██████ وفتح باب زنزانتي.

– أسرع!

تجمّدتُ وتنملّت قدماي، ولكنّ قلبي دقّ بعنف إلى درجة أني وثبتُ عن سريري وأذعنت لأمر الحارس. قيّد الحارس يدَيّ من الخلف ودفعني باتجاه المجهول. وبما أنني كنت مغمض العينين فقد استطعت أن أفكر بمصيري دون إزعاج، مع أنّ خطوة الحارس المرافق كانت أسرع من حدسي. شعرتُ بدفء الغرفة التي دخلتها. فعندما تكون خائفاً تحتاج إلى الدفء. أزال الحارس العُصابة عن عيني، وفكّ الأصفاد عن يدي. شاهدتُ آلة زرقاء كبيرة مثل تلك الموجودة في المطارات لفحص الأمتعة، وبعض الآلات الأخرى لقياس الطول والوزن. كم شعرتُ بالراحة! كانوا هناك لأخذ البيانات التقليدية للسجين كالبصمات والطول والوزن. ومع أنّي كنت أعلم أنه لن تكون هناك جلسة تحقيق، لكني تمنيت لو أنهم يبدأون التحقيق معي بأقصى سرعة ممكنة. وكنت خائفاً من تلك الجلسة. لا أعرف كيف أشرح الموضوع، قد يكون شرحي بلا معنى. أريد فقط التعبير عن مشاعري بأفضل الطرق.

مرّ يوم آخر. لم يكن بروتينه أفضل من اليوم الذي قبله. مع أنّي جمعت معلومات جوهرية أفضل من كل المعلومات الأخرى وهي أن رقم زنزانتي كان ██████ ██████. بعد وجبة الإفطار السريعة بدأ الحارس ينادي رقماً، فانفتح باب بصوتٍ عالٍ، وبإمكانك أن تسمع وقع خطوات المعتقلين وهم يبتعدون. ظننت أنهم يأخذونهم إلى التحقيق. تصوّرت الحارس ينادي رقم زنزانتي مائة مرة، وبعد كل نداء أدخل المرحاض ومن ثم أتوضأ. كنت شديد الشكّ بالآخرين. وأخيراً، حوالي الساعة العاشرة مساءً من يوم السبت، نادى حارس ██████ فعلياً هذه المرة.[1] ذهبت بسرعة إلى المراحيض لا لأنّي كنت بحاجة إليه، فأنا لم أشرب

---

[1] وصل محمدو ولد صلاحي إلى الأردن يوم الخميس ٢٩ نوفمبر، لذا سيكون الآن هو مساء السبت ١ ديسمبر ٢٠٠١.

شيئاً من قبل ثم أنّي تبوّلت نصف غالون، ومع ذلك كان هناك إلحاح للخروج، ما الذي سأتبوّله بعد؟ الدم؟

"أسرع، ليس لدينا وقت"، قال الحارس الذي كان يقف أمام الباب الحديدي الثقيل المفتوح. فيما بعد عرفت ██████

██████

██████. قيّد الرقيب يدَيّ وعصب عينَيّ ودفعني أمامه. أخذنا المصعد وهبطنا طابقاً إلى الأسفل، انعطفنا مرتين ثم دخلنا قسماً جديداً، فُتح الباب ونزلت درجاً. لسعتني رائحة الدخان الغريبة. كان قسماً للتحقيق حيث كانوا يدخّنون كثيراً مثل قطارٍ قديم. إنّه لأمر مقرف أن يتصاعد الدخان وتسود رائحته غرفةً ما.

كان القسم هادئاً على نحو ملفت. أوصلني المرافق إلى جدار ثم انسحب.

– كم شخصاً أرسلت إلى الشيشان؟ صرخ ██████ على معتقل بالإنكليزية.

– لم أرسل أحد. ردّ المعتقل بعربية ركيكة بلكنة تركية واضحة. الآن عرفت تماماً بأن ذاك الفصل في التحقيق كان موجّهاً لي.

– كذاب. صرخ ██████.

– لا أكذب. قالها المعتقل بالعربية، مع أنّه ظلّ يربرب بإنكليزيته الفضفاضة.

– لا يهمني إذا كنت تحمل جوازاً ألمانياً أو أميركياً، ما يهمني هو أن تقول لي الحقيقة. قال ██████. لقد تمّ الفصل على نحو تام، وكان الهدف منه هو إدخال المزيد من الرعب إلى قلبي، ومع ذلك أدركت أنّه فصل موجّه لي وكان ناجحاً.

– مرحباً ██████. قال ██████.

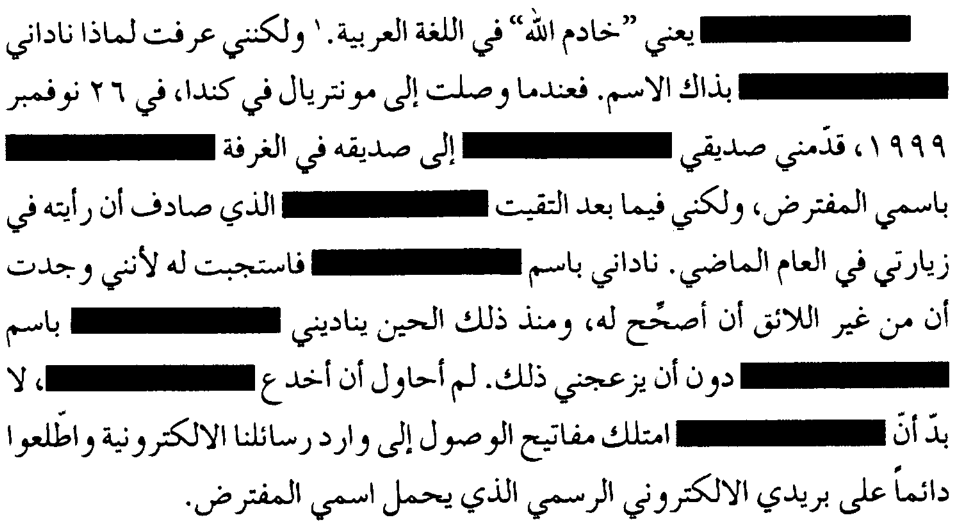
– مرحباً. شعرت بأنفاسه تلاصق وجهي. كنت خائفاً من ألاّ أفهم ما يقوله لي.

– إذاً اسمك ██████. أضاف.

– كلا.

– ولكنك أجبت عندما ناديتك باسم ██████. ناقَشَني. وجدت أن من الحماقة أن أقول له إنني كنت خائفاً إلى درجة أنّي لم أعرف بأي اسم ناداني.

– إذا أمعنتَ النظر في الموضوع فنحن جميعاً ██████. أجبته مصحِّحاً.



يعني "خادم الله" في اللغة العربية.[1] ولكنني عرفت لماذا ناداني بذاك الاسم. فعندما وصلت إلى مونتريال في كندا، في ٢٦ نوفمبر ١٩٩٩، قدّمني صديقي إلى صديقه في الغرفة باسمي المفترض، ولكني فيما بعد التقيت الذي صادف أن رأيته في زيارتي في العام الماضي. ناداني باسم فاستجبت له لأنني وجدت أن من غير اللائق أن أصحّح له، ومنذ ذلك الحين يناديني باسم دون أن يزعجني ذلك. لم أحاول أن أخدع، لا بدّ أنّ امتلك مفاتيح الوصول إلى وارد رسائلنا الالكترونية واطّلعوا دائماً على بريدي الالكتروني الرسمي الذي يحمل اسمي المفترض.

تلك كانت حكاية الاسم. ومن الواضح أن الأميركيين قد طلبوا من الأردنيين القائمين بالتحقيق معرفة لماذا اتّخذت اسم في كندا، ولكن الأردنيين فهموا القصة على نحو مختلف كلياً، لذا فقد تجاهلوا الموضوع ولم يولوه اهتماماً في التحقيقات.

- هل تعرف أين أنت؟ سأل .

- في الأردن. أجبت.

صعقه جوابي. كان من المفترض ألاّ أعرف شيئاً عن وجهتي، ولكن يبدو أن المحقق الموريتاني كان مستاءً جداً إلى حدّ أنه لم يتقيّد حرفياً بالأوامر الأميركية. كانت الخطة الأولى هي إرسالي من موريتانيا إلى الأردن مغمض العينين وألاّ أعلم إلى أين أتجه، وذلك بقصد زرع أقصى درجات الخوف والرعب في قلبي حتى أنهار. ولكن ما أن أجبت عن السؤال أدرك أن هذا الجزء من الخطة قد فشل، لذا فقد نزع العُصابة عن عيني وأخذني مباشرةً إلى غرفة التحقيق.

كانت غرفة صغيرة بطول عشرة أقدام وبعرض ثمانية أقدام، توجد فيها طاولة قديمة وثلاثة كراسٍ باهتة الألوان جرّاء تعرضها لعوامل الطبيعية. كان في .

---

[1] يبدو أن المحقق نادى محمدو ولد صلاحي باسم "عبد الله".

ومساعده ██████ كان ████████████████.
بدا عليه أنه يستطيع ارتكاب أقذر الأفعال. كما أنّه بدا ██████. قلّبت الأمر في رأسي جيداً فتعجّبت من أمر هذين المحقّقين.[1] إنّ مشكلة الإرهاب بأكمله كانت نتيجة للعدوان الإسرائيلي ضد المدنيين الفلسطينيين، ومساندة الولايات المتحدة العلنية للحكومة الإسرائيلية في عدوانها، وذلك عندما استولى الإسرائيليون على فلسطين بنيران المدافع البريطانية، مما سبب هجرة جماعية للسكان المحليين، انتهى المطاف بالعديد منهم في البلدان المجاورة وكانت للأردن حصة الأسد، أكثر من خمسين بالمائة من الأردنيين هم من أصل فلسطيني. بالنسبة لي، لم يناسب المحققين الثوب الذي يلبسونه، يصعب عليك أن تفهم أن الفلسطينيين يعملون لصالح أميركا من أجل إلحاق الهزيمة بالذين يساعدونهم. عرفت أن هذين المحققين اللذين يقفان أمامي ليست لديهما أية قيم أخلاقية، ولا تهمهم حياة الناس مطلقاً. وجدت نفسي بين فريقَيْن متحاربَيْن افتراضاً، وكل فريق ينظر إليّ كعدوّ. لقد تحالف الأعداء التاريخيون ليشووني كالدجاج. حقاً إنه لأمر سخيف ومضحك في آن واحد.

لعب ████████████████ دوراً رئيسياً في حرب الأميركيين ضد الإرهاب. كُلّف بالتحقيق مع الأفراد المختطفين الذين أرسلتهم الولايات المتحدة إلى الأردن وتوزيعهم على أعضاء فريقه المتنوع. كما أنّه جاء شخصياً إلى غوانتانامو ليحقّق مع أفراد بالنيابة عن الولايات المتحدة.[2]

فتح مصنّفاً متوسط الحجم، وتبيّن أنّه كان ملفاً سلّمته الولايات المتحدة إلى الأردنيين. بدأ يسألني أسئلة غير مترابطة، كانت هذه هي المرة الأولى التي أواجه فيها هذا التكتيك في طرح الأسئلة، والهدف من هذا التكتيك هو إيقاع الكاذب في تناقض. لم تكن مشكلة إذا ما كنت أكذب أم أقول الحقيقة، لأنني سُئلت مرات عديدة الأسئلة نفسها من قبل مختلف وكالات البلدان. إذا ما كنت قد كذبت فبإمكاني أن أكذب مرة ثانية وثالثة ورابعة، لأنني أمتلك الوقت الكافي لأرسّخ كذبي. ولكني لم

---

١ يوحي السياق بأن المحقق ومساعده هما من أصل فلسطيني.
٢ تشير شهادة محمدو ولد صلاحي أمام هيئة إعادة النظر الإدارية عام ٢٠٠٥ إلى أن ثلاثة محققين حققوا معه في الفترة التي قضاها في السجن الأردني، حيث يلقي شيئاً من الضوء على سيرتهم في هذا الفصل. ويبدو أنه كان المحقق الأكبر الذي أجرى التحقيق معه ذات مرة. (نسخة ARB، ص٢١).

أكذب عليه، وهو أيضاً لم يشك في أقوالي.

أراني في البداية صورة ██████████ الذي أجري معه التحقيق قبل الآن، وقال:

– إذا أخبرتني عن هذا الشخص فسأغلق ملف قضيتك وأرسلك إلى البيت.

لا شك أنه كان يكذب.

– لا أعرفه. أجبته بصراحة وأنا أنظر إلى الصورة. لا بدّ أنّه قال لصاحب الصورة الكلام نفسه عن صورتي، ولا بدّ أن يكون جوابه مطابقاً لجوابي لأنّه من المستحيل أن يعرفني. كان ██████ جالساً على ██████ اليسار ويكتب أجوبتي.

– هل تشرب الشاي؟ سألني ██████████.

– نعم أحب الشاي.

طلب ██████ من المستخدم أن يجلب لي كوباً من الشاي، وسرعان ما كان أمامي كوب كبير من الشاي الساخن. وعندما بدأ الكافيين يمتزج بدمي ارتفع ضغطي فشعرت بالراحة. هؤلاء المحققون يعرفون ما يفعلون.

– هل تعرف ██████؟ سأل ██████████

██. هذه ليست المرّة الأولى التي أُسأل فيها عن ██████ بل المرّة الألف، وحاولت بكلِ جهودي أن أقنع المحققين بعدم معرفتي بهذا الشخص. إذا كنتَ تجهل شخصاً فأنت تجهله الآن، وبعد الآن لن يغيّر الموقفَ شيءٌ.[1] حتى لو قاموا بتعذيبك فإنّهم لن يحصلوا على معلومات مفيدة. ولكن لسبب ما لم تكن الولايات المتحدة قد اقتنعت بعد بأنني لا أعرف ذاك الشخص، لذا أرادوا من الأردنيين أن يجعلوني أقرّ بمعرفتي به.

– كلا، لا أعرفه. أجبت.

– أقسمُ بالله أنّك تعرفه. صرخ المحقق.

---

١ يمكن أن يكون الشخص هو في هذه المرة أيضاً أحمد رسام حيث سئل محمدو ولد صلاحي عنه مراراً في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإدارية في ٢٠٠٥. قال صلاحي في شهادته: "ثم أرسلوني إلى الأردن..." كان الأردنيون يحققون معي عن دوري في "مؤامرة الألفية"، وأخبروني أنّهم مهتمون بهذا الجانب بشكل خاص. (نسخة هيئة إعادة النظر الإدارية، ص٢٠).

- لا تقسم. قلت، مع أنني أعرف أنّ استخدامه اسم الله لا يختلف عنده عن رشفة القهوة. ظلّ ■■■■ يقسم وأضفت: هل تعتقد أنّي أكذب عليك؟

- لا، أعتقد أنّك نسيت. جاء جوابه في محله المناسب. يبدو أن الأميركيين لم يقدّموا دليلاً دامغاً للأردنيين وهذا ما قيّد أيديهم بشدّة. صحيح أنّ الأردنيين يمارسون التعذيب يومياً، ولكن على أساس الاشتباه المنطقي، إنّهم لا يأخذون شخصاً ويمارسون التعذيب عليه اعتباطياً.

- سأعطيك قلماً وورق لتكتب لنا خلاصة قصتك مع أسماء جميع أصدقائك.

أنهى جلسة التحقيق بهذه الكلمات، وطلب من الحرّاس أن يعيدوني إلى زنزانتي.

لقد انتهى الأسوأ، على الأقل هذا كان شعوري. تعامل الحرّاس معي بودّ عندما قيّدوا يدي وعصبوا عيني. ثمة شيء مشترك بين حرّاس السجون في كل مكان، سواءً كانوا في أميركا أم في موريتانيا أم حتى في الأردن، وهو أنّهم يعكسون دائماً موقف المحققين، فإذا ما كان المحقق سعيداً فهم سعداء، وبالعكس. شعر الحرّاس ببعض الحرية للتحدّث معي.

- من أين أنت؟

- موريتانيا.

- ماذا تفعل في الأردن؟

- بلدي سلّمني إلى الأردن.

- هل تمزح معي؟

- كلا، أنا جاد.

- بلدك ساقط.

في السجن الأردني كما في السجن الموريتاني وفي غوانتانامو يُمنع منعاً باتاً أن يتفاعل أي حارس مع المعتقلين، ولكن نادراً ما يتقيّد الحرّاس بالأوامر.

- أنت تتضور جوعاً يا رجل. لِمَ لا تأكل الطعام؟ سألني أحد الحرّاس المرافقين.

كلامه كان صحيحاً، فعظامي كانت بارزة بشكل واضح، ويستطيع أي شخص أن يدرك خطورة وضعي.

- سآكل فقط عندما أعود إلى البيت. لا أستسيغ طعام السجن. أستسيغ فقط طعام

أميّ. قلت له ردّاً على سؤاله.

- إنشاء الله ستخرج، ولكن يجب أن تأكل.

لم أرغب في أن أجعله يبدو طيّباً لأنّ طبيعة عمله تحدّد طبيعة شخصيته، ولكنه شعر أنّ بلده على باطل. كنت محتاجاً لأية كلمة تشعرني بالراحة، وقد أفلح تماماً في هذا الجانب. انضمّ بعض الحرّاس إلينا في الممرّ وسألوه من أين أنا.

فتحوا الباب المؤدي إلى ██████. شعرت أن حملاً ثقيلاً قد زال عن كاهلي. "إنها مسألة أيام، ومن ثم سيعيدونني إلى البيت. كان مدير الاستخبارات الموريتانية على صواب" قلت في نفسي. لم يكن اضطراب الأردنيين من القضية التي سلّمهم إيّاها الأميركيون أقلّ من اضطرابي. لم تعطِ الولايات المتحدة الأردنيين أيّ دليلٍ قويٍّ يساعدهم في تأدية عملهم القذر معي. بدأ الخوف المؤلم ينكمش، وأنا بدأتُ أشعر بالجوع. ظهر "أنا أراقبك" خلسةً أمام شرّاقة زنزانتي وأعطاني ثلاثين صفحة مرقّمة ممن الورق. كان التعاون بين المحققين والحرّاس مثالياً. لقد أنجزت ما طلب مني المحقق على الفور. لقد كُلّفت من قبل ████████████ ██████ بكتابة أسماء جميع أصدقائي، ولكن ذلك كان أمراً سخيفاً لأنّه يوجد لدي أصدقاء كثر لا يكفي أسماءهم دفتر كامل. لذا أكملت قائمة بأسماء أصدقائي المقربين وبخلاصة تقليدية بمجمل قصتي غطّت عشر صفحات. ولأول مرة كنت قد نمت جيداً نسبياً في تلك الليلة.

بعد يومين أخذ ████████████████ المادة المكتوبة بما فيها الأوراق الفارغة. لقد عدّ الأوراق ورقة ورقة.

- هل ذلك كل ما كان يجب كتابته؟

- نعم يا سيدي!

كان ██████ يعمل ليل نهار وهو يتلصّص على المعتقلين من خلال شرّاقات الزنازين. لم أكن ألحظه معظم الأوقات. ذات مرّة ضبطني أتحدّث مع حارس، فأخذني وحقّق معي ليعرف ما دار بيني وبين الحارس. لقد اختفى الحارس بعد هذا الحادث ولم أره بعد ذلك.

"ضبّ أشياءك" قال لي الحارس بعد أن أيقظني في الصباح الباكر. حملت

بطانيتي وقرآني وكتاباً من مكتبة السجن العامة. كنت سعيداً للغاية لأنّي اعتقدت أنهم سيعيدونني إلى البيت.

جعلني الحارس أحمل أشيائي ومن ثم عصب عيني. لم أُرسَل إلى البيت بل وجدت نفسي في القبو ■■■■■■ بدلاً من ذلك. كانت الزنزانة وسخة. بدا أنه كان مكاناً مهجوراً منذ فترة طويلة. حتى الآن كنت لا أزال أفكر بنوايا طيبة، اعتقدت أنّها زنزانة يُنقَل إليها السجناء قبل إطلاق سراحهم.

أعدّ الإفطار حوالي الساعة الرابعة والنصف مساءً، ودبّت الحياة ببطء في عروقي. وقعت عيني على ورقة قديمة معلقة على الباب تتضمن قوانين السجن. نسي الحرّاس أن يمزقوها فقد كان من المفترض ألاّ أعرف شيئاً عن القوانين المتّبعة في السجن، ولكن طالما لا يوجد إنسان كامل فقد وجدت الفرصة واكتشفت أشياء تتعلق بعالم السجن، ومن بين القوانين المذكورة في الورقة:

١ – يُسمح لك بالتدخين شرط أن تكون متعاوناً.

٢ – يُمنع التحدث إلى الحرّاس.

٣ – تقوم اللجنة الدولية للصليب الأحمر بزيارة السجن كلّ ١٤ يوماً.

٤ – لا تتحدث إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر عن قضيتك السياسية.[١]

سررت بقراءة هذه المعلومات لأنني سأكون قادر على إرسال الرسائل عن طريق المنظمة الدولية تلك إلى أسرتي، ولكنّي نسيت نقطة جوهرية وهي أنهم كانوا ينقلونني إلى القبو بشكل دوري بهدف إخفائي عن أنظار اللجنة الدولية للصليب الأحمر في لعبة القط والفأر التي استمرت ثمانية أشهر وهي المدة الكاملة التي قضيتها في الأردن. كان الحرّاس ينقلونني كل أربعة عشر يوماً من زنزانتي إلى القبو حيث كنت أقضي يومين هناك ثم يعيدونني إلى زنزانتي، وعندما اكتشفت خدعتهم طلبت من المحقق ■■■ ■■■■ مباشرةً دون مداراة تأمين لقاء لي مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر.

– ما من لجنة دولية للصليب الأحمر هنا. هذا سجن عسكري. كذب عليّ.

– لقد وجدت فقرات قوانين السجن، وأنتم تخفونني في القبو كل أربعة عشر يوماً

---

١ تمتلك اللجنة الدولية للصليب الأحمر بموجب اتفاقيات جنيف التفويض للقيام بزيارة سجناء الحرب والمدنيين المعتقلين خلال النزعات، وآخرين اعتقلوا في ظروف العنف حول العالم. إنّ الهدف من وراء هذه الزيارات هو التأكّد من التعامل الإنساني مع السجناء ومنع حدوث التجاوزات بحقهم.

لتمنعوا المنظمة من لقائي. قلت له حينئذ.

– أنا أحميك! ولن تلتقي باللجنة الدولية للصليب الأحمر. قال ████ ██ وهو يرمقني بصرامة.

عرفت حينئذ أنّهم لن يغيّروا ما في أذهانهم، وحتى ██████ لم يستطع أن يتخذ قراراً بالقضية. إنّ جهة أعلى منه هي المسؤولة عن ذلك. إنّ المؤامرة بين موريتانيا والولايات المتحدة والأردن في اقتراف الجريمة كانت لا يشوبها النقصان. وإذا ما تمّ إثبات تورطي في الإرهاب فسيتمّ إعدامي وتنتهي الحفلة بذلك، عندئذٍ من سيدري بما حدث؟

– أريد لقاء السفير الموريتاني. طلبت من المحقق.

– هذا مستحيل.

– المخابرات الموريتانية إذاً.

– ماذا تريد منهم؟

– أريد أن أسألهم عن سبب سجني في الأردن. أنت تعرف أنني لم أرتكب أية جريمة ضد بلدكم.

– اسمع، بلدك صديق لنا وهم سلّموك إلينا. بإمكاننا أن نفعل بك ما نشاء. نستطيع قتلك أو إبقاءك عندنا رهن الاعتقال إلى أجل غير محدد، أو أن نطلق سراحك إذا ما اعترفت لنا بجرائمك.

لقد كذب ██████ بخصوص علاقة بلده ببلدي، ولكنه قال الحقيقة فيما يتعلق بالباقي. البلدان العربية ليست صديقة لبعضها البعض، بل على العكس من ذلك، إنّها تكره بعضها ولا تتعاون فيما بينها أبداً، وكل ما تعمله هو التآمر ضد بعضها بعضاً. إنّ الأردن لا قيمة له البتّة بالنسبة لموريتانيا، والعكس صحيح. ولكن في قضيتي أجبر الأميركان البلدين على أن يعملا معاً.

حاولت مراراً الاتصال بأسرتي ولكن محاولاتي كلها ذهبت سدى، بعد ذلك غسلت يدي من الشيطان وصلّيت داعياً ربي أن يحفظ أسرتي من كل بلاء ويجعلهم يعرفون أين أنا. عرفت في ذلك الوقت أنني لست الطرد السرّي الوحيد هنا. كان يوجد حوالي ثلاثة معتقلين آخرين في هذا الدرك السفلي، ثم ازداد عددهم مع مرور الوقت.

بقيت معزولاً طوال الفترة التي قضيتها في الأردن، ولكني استطعت رغم ذلك معرفة إذا ما كان هناك معتقلون في الزنازين المجاورة وذلك بالاعتماد على حركة عربة الطعام والحرّاس وحركة المعتقلين أنفسهم.

كان جاراي شابين جسورين لبعض الوقت. ومع أن الكلام ممنوع بين الزنازين، كان الشابان يصرخان بصوت عال: "عون الله قريب"، "تذكّروا أن الله إلى جانبنا والشيطان إلى جانبهم". لم يكونا يحسبان أي حساب لما يمكن أن يفعله الحرّاس بهما. كانا يعزّيان قلوب المعتقلين الآخرين بهذه الكلمات ويذكّرونهم بفرج الله الحتمي. يمكن الاستنتاج من لهجتيهما أنهما أردنيان، وهذا بحدّ ذاته له مغزى كبير، حيث من المفترض أن يتم حماية أبناء البلد أكثر من الأجانب، ولكن يبدو أن هذين الشابين قد تعرضا أيضاً إلى أشد أنواع المعاناة مع أنهما في بلدهما.

████████████ كنت المعتقل الوحيد المقيم الدائم في زنزانته، في حين كانت الزنازين المجاورة يتغير أصحابها على الدوام.[1] لقد كان جاري المباشر معتقلاً جاهلاً من لبنان يبكي على الدوام ويرفض تناول الطعام. كانت قصته حسبما أفادني بها الحرّاس كالتالي: جاء من لبنان إلى الأردن لقضاء بعض الوقت في اللهو والتسلية. صادف دورية اعتيادية للشرطة في وسط المدينة، ولاحظت الشرطة أنه يحمل مسدساً من نوع AKM-47 فأوقفته واعتقلته. إنّ حمل مسدس في لبنان لا يعتبر قضية كبيرة، ولكن في الأردن يُمنع حمل السلاح. أُخذ إلى السجن ومنذ تلك اللحظة بدأ اللبناني الشاب المشتبه به يفقد صوابه.

لم ينقطع بكاؤه ورفض تناول الطعام مدة أسبوعين على الأقل حتى إطلاق سراحه. آه كم ارتحت حينما أطلقوا سراحه! حزنت عليه كثيراً. لا ينتابني شك بأنه تعلّم درساً جيداً، وأنه لن يحمل مسدساً على خاصرته في المرة القادمة إذا ما جاء إلى الأردن.

████████████ حُكم بالسجن لسنة واحدة، وفي نهاية السنة أصابه الجنون. كان يصرخ دائماً "أريد رؤية محققي"! وعندما سألتُ الحرّاس لماذا يتصرف على هذا النحو قالوا: "لأن مدة حكمه قد انتهت، ولكنهم لن

١ في هذا القسم من مخطوطته، الذي يعنونه بـ"جيراني المعتقلين"، يبدو واضحاً أنه يتحدث عن بعض أصحابه السجناء في الأردن. إنّ الشطب المسبوق برقم ٢ يظهر أنّه يعرّف بالجار الثاني، والشطبان الآخران يبدو أنّهما يعرّفانان بمعتقلين آخرين.

يطلقوا سراحه". كان يغني أحياناً بصوت عالٍ، وأحياناً يصرخ على السجناء ويطلب منهم سيجارة. لا ألومه قط، فحتى لا تصاب بالجنون في السجن الأردني ينبغي أن تكون أعصابك من الفولاذ.

كان يسعل طوال الوقت.

- إنه مريض جداً. قال لي أحد الحرّاس.
- لماذا اعتقلوه؟ سألته.
- مكان خاطئ وزمان خاطئ. أجابني الحارس.

كان الرجل المسنّ يطلب دائماً المزيد من الطعام والدخان. أُطلق سراحه. فرحت لأجل كل شخص أُطلِق سراحه من ذاك السجن الجنوني.

إنّ ثقة مكتب التحقيقات الفدرالي بالأردنيين أكبر من الوكالات الاستخباراتية الأميركية الأخرى، وهو أمر يدعو إلى الدهشة. عندما سلّمت نفسي إلى السجن في خريف عام ٢٠٠١ صادر مكتب التحقيقات القرص الصلب لكمبيوتري، وعندما أرسلوني إلى الأردن أرسلوا محتويات كمبيوتري إلى الأردن أيضاً. كانت وزارة الدفاع الأميركية تحاول جاهدةً الحصول على ذاك القرص الصلب. من غير المعقول أن يتعاون مكتب التحقيقات الفدرالي مع منظمات أجنبية أكثر من المنظمات المحلية الأميركية، ولكني أعتقد أن صناعة الاستخبارات هي كأي صناعة أخرى، يشتري المرء أفضل المنتوج بأفضل الأسعار، بغضّ النظر عن البلد أو المنشأ. هل قدّم الأردنيون الحصيلة الأفضل في هذه القضية؟ لست متأكداً، ولكنهم يفهمون وصفة الإرهاب أكثر من الأميركيين. تفيد التقارير أنّه لولا الأردن لما أنجز الأميركان ما أنجزوه في هذا الميدان. والأميركيون يقدّرون قدرة الأردنيين أكثر من اللازم بإرسال المزيد من الناس إليهم من كافة أصقاع العالم، كما لو أنّ الأردنيين وكالة استخبارات خارقة.

- سأريك بعض الصور، قل لي ما تعرف عنهم. قال . عُيّن هو و الأردني في الآونة الأخيرة لإجراء التحقيق معي، وكان هو القائد في التحقيق. في الأردن كان التكتيك المتبع هو أن يجري معك

محققان أو أكثر التحقيق بشكل منفصل حول موضوع واحد، وذلك حتى يتأكدوا من أنك لم تغيّر أقوالك. نادراً ما كانوا يجلسون معاً للتحقيق معي.[1]

قلت: حسناً!

بدأ ■■■■■■■■ يعرض الصور أمامي، وحالما شاهدت الصور الأولى عرفت أنها أُخذت من كمبيوتري، أو بالأحرى من كمبيوتر الشركة التي كنت أعمل فيها. انتفض قلبي وشعرت أنّ طعم لعابي أصبح شديد المرارة، وتورّد وجهي كتفاحة حمراء، وثقل لساني في فمي وانعقد. ليس لأني ارتكبت أية جرائم، إذ لم يكن على القرص الصلب شيء سوى عناوين البريد الإلكتروني الخاصة بعملي ومعلومات أخرى ذات الصلة. أتذكر أنّني تلقيت أكثر من ألف وخمسمائة رسالة على البريد الإلكتروني ومجموعة من الصور. ولكن الاعتداء على حريتك الشخصية يعني الشيء الكثير. كان الكمبيوتر هو من عائدات الشركة التي وثقت بي كثيراً، ولكن أن يفتش بلد أجنبي كالولايات المتحدة القرص الصلب ويصادر المواد المحفوظة فيه فهذا يشكّل عبئاً ثقيلاً على الشركة. كان الكمبيوتر يحمل الأسرار المالية للشركة، التي لا تحبّذ الشركة أن يعرفها أحد في العالم. وعلاوةً على ذلك، كنت أعمل في شركة عائلية بالكاد كانت تميزّ بين الشركة وحياتها الخاصة، وهذا يعني أنّ الكمبيوتر ذاك يحمل أيضاً أسراراً عائلية لا تريد العائلة أن يعرفها أحد. وفوق ذلك كله كان الكمبيوتر كمبيوتراً عاماً في الشركة، وكان الجميع يستطيع استخدامه، لذا ثمة معلومات عديدة لا أعرف شيئاً عنها، ولكني على يقين تام بأنه لا توجد أية جرائم وراء ذلك، فأنا أعرف أصدقائي جيداً، وأعرف كيف يكرسون كل وقتهم من أجل عملهم وحياتهم. لقد كنت شخصياً على تواصل مع أصدقائي في ألمانيا عبر البريد الإلكتروني، حتى أن بعضهم ليسوا مسلمين، وخصوصاً أولئك الذين كانوا يقدّمون المساعدات المادية أو المعنوية للناس المضطهدين في البوسنة أو أفغانستان، وكنت أخشى أن تُفسَّر رسائلهم تلك بنية سيئة. أطلب منك أيها القارئ الكريم أن تضع نفسك في مكاني وتتخيل شخصاً يقتحم بيتك ويعبث بكل

---

[1] قد يكون هذا المحقق الأردني الثاني أو الثالث يذكرهم محمدو ولد صلاحي في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإدارية عام ٢٠٠٥، وسيعطي موجزاً عنهم في هذا الفصل. (نسخة ARB، ص٢١).

حياتك الخاصة! هل سترحب يا ترى بهذا الاعتداء؟

بدأت أجيب عن أسئلته بقدر ما كنت أمتلك من معلومات، وبشكل خاص حول صوري الخاصة. لقد وضع الصور التي أعرفها على طرف وبقية الصور على الطرف الأخر. شرحت له أن الكمبيوتر كان يستخدم من قبل العديد من الزملاء، حيث أن أحدهم كان قد أجرى مسحاً ضوئياً للعديد من الصور لزبائن مقهى الإنترنيت بما فيها صور العائلة الخاصة المختلفة. كنت غاضباً على نفسي، وعلى حكومتي والولايات المتحدة والأردن، لأنني رأيت كيف تُنتهك الحياة الخاصة للعديد من الناس. كما أنّهم واجهوني برسالتين من البريد الإلكتروني في جلسة أخرى كنت قد تبادلتهما مع ██████████. والمضحك أن مهدي كان قد أرسل رسالة بالبريد الإلكتروني قبل اعتقالي، وقد استجوبتني الحكومة الموريتانية حول تلك الرسالة، وشرحت لهم بالدليل القاطع بأنها لا تتضمن أي نوع من الشر.[1] وحالما وصلت إلى مكتبي كتبت ██████ الرسالة التالية: "أخي العزيز، من فضلك توقّف عن إرسال الرسائل لأن المخابرات تراقب بريدنا الإلكتروني وهم يزعجونني كثيراً جراء ذلك". قلت بصراحة لا أريد أية مشاكل، لذا أردت إغلاق أي باب من شأنه أن يسبب لي المشاكل.

– لماذا كتبت إلى ██████ هذه الرسالة؟ سألني ████████ ██████████. شرحت له الرسالة.

– لا، لأنّك كنت خائفاً من الحكومة أن تعرف أعمالك المؤذية مع صديقك. علقّ بسخافة.

– حسناً، هذه الرسالة موجّهة لكلٍّ من مهدي وللحكومة. كنت على علم أن بريدي مراقب من قبل الحكومة، وكنت أفترض دائماً أن الحكومة لديها نسخ من رسائلي.

---

١ يظهر اسم مهدي مرتين غير مشطوب في هذا المقطع. إنّه على الأرجح كريم مهدي، وهو من مواليد المغرب وعاش في ألمانيا، ويظهر من رأي القاضي روبيرتسون بجلسة المثول أمام المحكمة بأنه قد سافر مع محمدو ولد صلاحي إلى أفغانستان في عام ١٩٩٢. اعتقل مهدي في باريس عام ٢٠٠٣ وحكم عليه بالسجن لمدة تسع سنوات لضلوعه في تفجير في جزيرة رينيون. انظر:
http://articles.latimes.com/print/2003/jun/07/world/fg-terror7; and http://news .bbc.co.uk/2/hi/africa/6088540.stm.

– كنت تستخدم شفرة عندما كتبت ██████████████████ ██. قال لي.

– حسناً، لا بدّ أنّك تعاملت مع الرسائل المشفرة في عملك، أو لديك اختصاصيين يساعدونك في هذا المجال. استشرهم أولاً قبل أن تأخذ قرارك.

– كلا، أريدك أن تشرح لي الشفرة.

– ما من شفرة، ما تفهم من الرسالة هو الذي قصدته تماماً.

وكانت لدي مشكلة أخرى مع المحققين في الأردن. رسائلي كانت في الأصل باللغة الألمانية، ترجمها الأميركيون إلى الإنكليزية وأرسلوها إلى الأردنيين، وقاموا هم بدورهم بترجمة الرسائل الإنكليزية إلى العربية.

إنّ النّص الأصلي، والحالة هذه، تغيرّ كثيراً مما وسّع مجال التفسير الخاطئ مع كل ترجمة. لم تكن هناك نهاية للتفسيرات الخاطئة في كل ترجمة.

في صيف عام ٢٠٠١ كلفتني شركتي للقيام بمساعدة تقنية لزيارة الرئيس الموريتاني إلى مدينة "طيجيكجة". وباعتبار أن العائلة التي كنت أعمل عندها كانت من هذه المدينة، لذا تركّز اهتمامها لصالح رفاه المدينة. أنشأنا مركزاً استشارياً صغيراً لوسائل الإعلام وكان يعمل بواسطة الانترنيت لنقل زيارة الرئيس أولاً بأول. التقطت الشركة الكثير من الصور حيث أبدو أنا وأصدقائي قريبين جداً من الرئيس. وفي أقرب صورة لي معه، يقف الرئيس خلفي تماماً مندهشاً من "تعاملي الساحر مع الكمبيوتر".

– أفهم أنّك كنت تتآمر لاغتيال الرئيس. قال المحقق ██████████.

– لماذا لم أقتله إذاً؟ قلت ذلك ولم أتمالك نفسي من الضحك.

– لا أعرف، أنت أخبرني. ردّ عليّ.

– اسمع! إذا كنت قد حاولت اغتيال رئيسي في بلدي فهذا ليس شأنكم ولا هو شأن الأميركيين. أعيدوني إلى بلدي ليتعاملوا هم معي.

كنت غاضباً ومفعماً بالأمل على حدٍّ سواء، غاضباً لأن الولايات المتحدة تريد إلصاق أية جريمة بي، ومفعماً بالأمل لأنّهم سيسلمونني إلى بلدي لأواجه عقوبة الموت. لم يستطع الأميركان أن يحلموا بخيار أفضل. ولكن الأردنيين كانوا يصطادون السمك بالنيابة عن الأميركيين، وكلما لاحظتَ أن محققك يصطاد السمك فبإمكانك

القول بلا تردد إنّه مفلس. ومع أنّ ████████ شرير بما فيه الكفاية، إلا أنّه محقق عقلاني نوعاً ما، لهذا لم يسألني مرة أخرى عن مؤامرة قتل رئيسي ولا عن الصور في كمبيوتري. ومع هذا أنا نادم على عدم وضع نفسي موضع الشبهة حتى أبدو مذنباً وأجعلهم يرحّلونني إلى موريتانيا. إنّها كانت فكرة يائسة ومجنونة، ولا أعتقد أن الموريتانيين قد تحرّكوا بهذا الاتجاه لأنهم يدركون حقيقة أنّي لم أتآمر ضد الرئيس. ولكن عندما استاء وضعي في السجن الأردني فكّرت بالاعتراف بأنّ هناك عملية مستمرة في موريتانيا، وبأنني خبأت المتفجرات. كان مجمل الفكرة عبارة عن محاولة كي يعيدوني إلى موريتانيا. "لا تفعل ذلك! كن صبوراً، وتذكّر أنّ الله يرى كل شيء" قالها لي أحد الحرّاس عندما طلبت منه النصيحة. في ذلك الوقت كنت قد كسبت الكثير من الأصدقاء بين الحرّاس، كانوا يجلبون لي الأخبار ويعلمونني الثقافة الأردنية وأساليب التعذيب في السجن والتعرف بالمحققين.

كان ممنوعاً على الحرّاس التفاعل مع المعتقلين، ولكنهم دائماً كانوا يخرقون هذه القواعد ولا يلتزمون بها. لقد رووا لي آخر النكات وضيّفوني السجائر، ولكني كنت أرمي السجائر لأنني لا أدخن. أخبروني عن المعتقلين الآخرين وتهمهم، ولم ينسوا حتى إطلاعي على جانب من حياتهم الخاصة، أمور كالزواج والأولاد والحياة الاجتماعية في الأردن. عرفت تقريباً كل شيء عن الحياة في عمّان من أحاديثي معهم. كما أنهم جلبوا لي أفضل الكتب من مكتبة السجن بما فيها الإنجيل حيث طلبته بغية قراءته لما له من تأثير في رسم حياة الأميركيين في أميركا. لديهم مجموعة محترمة من الكتب مع أن بعضها كان كتباً دعائية للملك. إنّ الشيء الأجمل فيها كان استخدام السجناء لها كوسيلة لإيصال رسائلهم إرسالاً واستقبالاً بكتابات معبِّرة كنوع من العزاء بين المعتقلين. لم أكن أعرف السجناء، ومع ذلك فأوّل ما كنت أفعله دائماً هو تمحيص الكتاب بحثاً عن الرسائل التي حفظتها كلها. كان حرّاس السجن معظمهم من القبائل البدوية المعروفة بولائها التاريخي للملك، براتب شهري بائس يبلغ حوالي أربعمائة وثلاثين دولاراً أميركياً. وبالرغم من ذلك يعتبر راتباً جيداً في الأردن مقارنةً بالرواتب الأخرى، ولكن لا يستطيع الحارس أن يتزوج ويبدأ بتكوين أسرة ما لم يعمل عملاً إضافياً آخر أو يحصل على الدعم من مصدر آخر. وعندما يخدم الحارس في السجن

لمدة خمسة عشر عاماً يحقّ له أن يتقاعد بنصف الراتب أو أن يستمر في عمله ليُضاف هذا النصف إلى راتبه الاعتيادي. يعدّ الحرّاس من قوى النخبة الأردنية الخاصة، حيث يتلقون كل أنواع التدريب في دول ما وراء البحار. ولا وجود للجنس اللطيف في القوى الخاصة.

كان ██████ مسؤولاً عن نقل المعتقلين من زنزانة إلى أخرى وأخذهم إلى التحقيق والحمام للاستحمام، والزيارات التي كانت تحدث أيام الجمعة ليلتقي السجناء مع آبائهم. كنت أصاب بخيبة أمل جرّاء عدم تمكني من رؤية عائلتي مثلهم، بل على العكس من ذلك كانوا يحرمونني من الحقوق أسبوعاً بعد آخر. كان الحرّاس من المراتب الدنيا مسؤولين عن المراقبة أثناء الزيارات، وكان ██████ المسؤول عن شراء المواد الذي كان يحدث في كل سبت. كان المسؤول ██████ ██████ ينتقل بين الزنازين ومعه قائمة ليسجل فيها ما يريده المعتقل من مواد. كان بمقدور السجين أن يشتري العصير والحليب والحلويات والقمصان الداخلية والمناشف وأشياء من هذا القبيل، وفي حال توفر النقود لديك بإمكانك شراء ما تطلب، والعكس صحيح. كان معي سبعة وثمانون دولاراً أميركياً عندما أرسلوني إلى الأردن، كان مبلغاً يكفي لشراء حاجاتي المتواضعة. ذات مرة عندما دار ██████ ██████ بقائمته على الزنازين استطعت قراءة اسمي وتهمتي من على قائمته وكان مكتوباً: "الاشتراك في الهجمات الإرهابية". كان الحرّاس يمنحوننا كل يومين خمس دقائق للتنفس خارج الزنزانة. نادراً ما استفدت من هذه الفرصة، لأنهم كانوا يقيّدون السجين بالأصفاد ويعصبون عيونه بالعُصابة، فكان الأمر يبدو غير جدير بهذا الواقع. كان السجناء يحلقون شعرهم بين فينة وأخرى، وفي كل يوم أحد كان الحراس يقدّمون لنا مواد لتنظيف وتمسيح زنزاناتنا، وهم كانوا يمسحون بقية الأمكنة داخل السجن. كان السجن نظيفاً إلى حدٍّ ما. كان يدير السجن ثلاثة أشخاص: مدير السجن ██████ ومعاوناه ██████

██████

██████. كان دورهم مشابهاً لدور ██████ في خليج غوانتانامو. من المفترض أن يكونوا مستقلين عن الجهات الأمنية، ولكن في الواقع

والممارسة كان الطرفان يعملان معاً ويجمعان المعلومات، كلٌّ حسب طريقته. كان المدير رجلاً ضخماً ويرتدي بافتخار بذلاته البدوية المدنية. كان يمرّ علينا كل صباح ويسأل المعتقلين واحداً واحداً: "كيف حالك؟ هل تحتاج إلى شيء"؟ كان يوقظني دائماً من النوم ويسألني السؤال ذاته. خلال كل الفترة التي قضيتها في السجن الأردني طلبت منه ذات مرة عبوة من الماء فلبىّ طلبي. كنت أريد أن أضع الماء المثلج الذي كنت أحصل عليه من الصنبور على السخّان لتسخينه قليلاً كنوع من اهتمامي بصحتي العامة. أعتقد أنّه كان يجد المتعة في تفقّده لأوضاع المعتقلين. ولكن فرص حل المشاكل بمساعدة المدير كانت معدومة، وكان يشترك أيضاً في تعذيب السجناء. كان المدير يؤكّد على أن يحصل السجين على ثلاث وجبات يومياً، الفطور في حوالي الساعة السابعة صباحاً، ووجبة الغداء حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، وكانت في معظم الأحيان مكونةً من الدجاج والرز، وأما العشاء فكان وجبة خفيفة مع الشاي.

كان ██████████

██████████

██ يخفر الأوضاع عبر الممرّ ويتفقد السجناء ويراقب الحرّاس إذا ما كانوا يلتزمون بالقوانين أم لا. كان ██████████ مسؤولاً عمّا يسمونه "العمليات الخارجية"، كالاعتقال وتفتيش البيوت. ثم كان هناك المحققون. يعمل المحققون الأردنيون جنباً إلى جنب مع الأميركان منذ بداية العملية الموسومة: "الحرب ضد الإرهاب على الصعيد العالمي". يقومون بالتحقيقات داخل وخارج الأردن. لديهم عملاء في أفغانستان يُعرفون من خلال سيمائهم الشرق أوسطية. ومنذ البداية نُظر إلى الأردنيين بوصفهم شريكاً محتملاً في القيام بالأعمال القذرة. في الواقع استخدم الأردنيون التعذيب على نطاق واسع كوسيلة لتسهيل التحقيق، الأمر الذي استهوى السلطات الأميركية كثيراً. ولكن كانت هناك مشكلة وهي أنّ الأردنيين لا يأخذون أحداً لممارسة التعذيب عليه، لا بدّ أن يكون لديهم سبب لممارسة تعذيب جسدي كبير. وعندما بالغ الأميركيون في ارتكاب الخطايا بدأوا بوضع زمام الأمور في أيديهم في الأعمال القذرة. وبالرغم من هذا، أن تكون معتقلاً في سجن أردني لهو تعذيب بحدّ ذاته يتعذّر إصلاحه.

كان لي ثلاثة محققين في الأردن ██████████

██████████████████████

██████. كان يقود فريق المحققين في الأردن ويحقق مع المعتقلين في غوانتانامو بنفسه، وعلى الأرجح في أماكن أخرى سرية في أفغانستان وبلدان أخرى بالنيابة عن حكومة الولايات المتحدة. يبدو أنه معروف على نطاق واسع في الأردن، كما علمت من سجين أردني في غوانتانامو. يبدو أن لـ ██████ تجربة كبيرة في مجال عمله، وقد قرأ إضبارتي مرة واحدة وقرّر أنني لا أستحق أن يضيّع وقته "الثمين" عليّ، لذا لم يضايقني بعدها قط.

██████████████████████

██████████████████████.[1]

"تعرف، ██████، مشكلتك الوحيدة هي فترة وجودك في كندا. لو لم تكن ارتكبت شيئاً لما كنت في السجن". ختم ██████ حديثه بعد عدة جلسات من التحقيق.

كان خبيراً بأفغانستان، حتى أنّه حضر شخصياً معسكرات التدريب هناك كعميل سرّيّ خلال الحرب ضد الشيوعية. عندما كنت أتدرّب في معسكر الفاروق في عام ١٩٩١، كان هو يعمل كطالب خفي في خالدين.[2] لقد استجوبني حول كامل رحلتي إلى أفغانستان، وأبدى الرضا من أجوبتي. ذلك الجزء فقط كان مكلّفاً به في قضيتي. وفي شتاء ٢٠٠١ أُرسل، ربما سراً، إلى أفغانستان وتركيا لمساعدة الولايات المتحدة

---

١ مسبوقاً بالرقم (٢) في مقطع يحمل عنواناً فرعياً "المحققون" يبدو على الأرجح أن هذا الشطب هو القسم الذي يعرّفنا الكاتب بالمحقق الأردني الثاني.

٢ تشير وثائق المحكمة أن محمدو ولد صلاحي تدرّب في المعسكر التدريبي (الفاروق) القريب من خوست في أفغانستان، لمدة ستة أشهر امتدت بين أواخر عام ١٩٩٠ وأوائل عام ١٩٩١. في ذلك الوقت كان المعسكران، معسكر الفاروق ومعسكر الخالدين، التدريبيان يدرّبان مقاتلي القاعدة من أجل الصراع مع حكومة كابول المدعومة من السوفييت. وعندما أعادت محكمة الاستئناف النظر بقضية مثول محمدو ولد صلاحي أمام المحكمة كتبت: "عندما أقسم صلاحي على الولاء في مارس ١٩٩١ كانت القاعدة والولايات المتحدة مشتركتين بهدف واحد هو: إسقاط الحكومة الشيوعية في أفغانستان. انظر:

http://www.aclu.org/files/assets/2010-4-9- Slahi- Order. pdf; and http://caselaw.findlaw.com/us-dc-circuit/1543844.html.

في اعتقال المجاهدين، وقد رأيته عندما عاد من رحلته في صيف عام ٢٠٠٢ مع مجموعة كبيرة من الصور. وكان جزء من مهمته جمع المعلومات عني من المعتقلين الآخرين في أفغانستان. ويبدو أنّه لم يحصل على شيء. أراني ██████ الصور. لم أعرف أحداً منهم، وشعرت بالأسف على نفسي. لماذا أروني صورة أكثر من مائة شخص، ولا أعرف أحداً منهم؟ لا معنى لكل هذا. يسأل المحققون عادةً عن الأشخاص الذين لهم علاقة بك، لذا قرّرت أن أتعرّف على صورة واحدة، أضعف الإيمان، هذا هو:

– جمال عبد الناصر. قلت.

– هل تستهزئ بي؟ قال ██████ بغضب.

– كلا، كلا، أردتُ فقط أن أقول إنه يشبهه.

كان ██████ رئيساً سابقاً لمصر وقد وافته المنية قبل أن أولد.[1]

– هؤلاء الأشخاص هم مثلك من العصابة نفسها. قال ██████.

– ربما، ولكنّي لا أعرفهم. قلت. ولم يقل الكثير بعد ذلك، واكتفى برواية مغامراته في أفغانستان.

– أنت رائع. قلت ذلك لأدفعه لمزيد من الكلام.

– تعرف أن الأميركان يستخدمون أسلحة ذكية تتبع هدفها استناداً إلى تغيّر درجات الحرارة. اعتقل الكثير من الأخوة. روى ██████ القصة في ظلّ سحابة كثيفة من دخان سيجارته. اختفى ██████ ولم أرَه بعد تلك الجلسة.

██████ أعرف اسمه الأول الحقيقي.[2]

---

١ جمال عبد الناصر هو الرئيس الثاني لمصر، مات عام ١٩٧٠. ويبدو الشطب هنا شيئاً سخيفاً منافياً للعقل.

٢ الرقم (٣) يبدو أن الشطب هنا يشمل الجزء الذي يعرّفنا الكاتب بالمحقق الأردني الثالث، والذي يظهر أنه كان محقق محمدو ولد صلاحي الأول في الأردن. في جلسة استماعه أمام هيئة إعادة النظر الإدارية عام ٢٠٠٥ قال محمدو ولد صلاحي: "إنّ محققه الرئيسي في الأردن كان "شاباً" وشخصاً ذكياً جداً". وقال في شهادته إن هذا الشخص بالذات "ضربني مرتين على وجهي في مناسبات مختلفة ودفعني بعنف لأصطدم بالجدار الإسمنتي عدة مرات لأني رفضت التحدث إليه. هددني بالتعذيب... وأخذني إلى غرفة حيث يمارسون التعذيب فيها وكان فيها هذا الشخص وقد ضُرب بعنف فكان يبكي كطفل." (نسخة هيئة إعادة النظر الإدارية، ص٢١).

بُمْ! صفعني على وجهي ودفعني بعنف فضرب وجهي الجدار، فبدأت أجهش بالبكاء لا من الألم بل من الإحباط.

– أنت لست رجلاً! سأجعلك تلعق الأرض الوسخة وتحكي لي قصتك ابتداءً من خروجك من رحم أمك. لم ترَ شيئاً بعد.

كان محقاً، مع أنه كان أكبر كذّاب مرّ عليّ، فقد كان يكذب إلى درجة أنه كان يناقض نفسه لأنّه كان ينسى ما قاله آخر مرة حول موضوع معيّن، وحتى يعطي المصداقية لكلامه كان يقسم دائماً بالله عبثاً. كنت أتساءل في كل مرة هل يعتقد أنني أصدق هراءه التافه، مع أنّي كنت أتصرف كما لو أنّني أصدّقه. سيغضب لو سمّيته كذاباً. لقد اعتقل رجالاً كبار في القاعدة تحدثوا عني كرجلٍ سيئ وأطلق سراحهم ألف مرة ومرة من السجن عندما يقولون له الحقيقة. والطريف في الأمر أنه كان ينسى دائماً أنه اعتقلهم وأطلق سراحهم قبل الآن.

– لقد اعتقلت ابن عمك أبو حفص وقد أخبرني بكل الحقيقة. في الواقع قال: "لا تلمسوني وأنا سأقول كل الحقيقة"، وأنا لم ألمسه كما طلب، وهو قال لي الحقيقة. قال لي أشياء سيئة عنك بعد ذلك أطلقت سراحه وأرسلته سراً إلى موريتانيا حيث تمّ التحقيق معه مدة أسبوعين ثم أُطلق سراحه. ولكنكَ مختلف، تظلّ تحتفظ بمعلومات عندك. سأرسلك إلى السجن السياسي السرّيّ في قلب الصحراء، ولن يعرف أحد أقل قذارة عنك.

اضطررتُ أن استمع إلى هذه النفاية مراراً وتكراراً، والجديد في كلامه أنه غيرّ تواريخ الاعتقال وإطلاق السراح. اعتقل في أحلامه أيضاً ████████ ████████، وشخصيات أخرى من المفترض أنّها كانت تقدّم المعلومات عني. مبروك عليه. وطالما أنّه لم يضربني أو يهاجمني كلامياً فقد كنت بخير، وسأستمع بعناية إلى حكايات ألف ليلة وليلة التي يرويها.

– لقد وصلت للتو من الولايات المتحدة حيث حققت مع ████████.

من الواضح أنه كان يكذب.

– حسناً، هذا لا يعنيك، صحيح؟ وفقاً لادعائكم فقد ارتكبتُ جرائم ضد الولايات المتحدة، إذاً أرسلني الآن إلى الولايات المتحدة أو أخبرني ماذا فعلتُ

ضد بلدك؟ قلتُ بحدّة.

كان إرهاقي يتعاظم جرّاء الحديث العبثي معه وجرّاء محاولة إقناعه بعدم تورّطي في المؤامرة بأي شكل من الأشكال.

– أنا لا أعمل لصالح الأميركان. بعض أصدقائك يحاولون إلحاق الأذى ببلدي، وأنا أسألك أسئلة غير مباشرة كتكتيك في التحقيق. قال ██████ وكان يكذب.

– أيُّ أصدقاء لي يحاولون إلحاق الأذى ببلدك؟ سألته.

– لا أستطيع إخبارك!

– طالما أنّي لم أحاول إلحاق الضرر ببلدك إذاً لا لوم عليّ، أنا لست أصدقائي. هيا اذهب واعتقلهم وأطلق سراحي.

إذا حاولت أن تبدو الأشياء منطقية ولها معنى، عندئذ لا مكان لك غير غرفة التحقيق. كلّما أخبرني ██████ بأنه اعتقل شخصاً ما أدركت أن ذاك الشخص لا يزال حرّاً. مع أنّه استخدم العنف الجسدي ضدي مرتين، إلا أنه ظلّ يخيفني بأساليب أخرى قد تكون حتى أشّد من الألم الجسدي. لقد وضعوا معتقلاً مسكيناً في الغرفة المجاورة لغرفة التحقيق التي كنتُ فيها وبدأوا بضرب المسكين بشيء صلب حتى انفجر بالبكاء كطفل صغير. يا له من رخيص! كان ذلك مؤلماً. بدأتُ أرتجف، احمرّ وجهي، وأصبح طعم لعابي مرّاً كطعم البرسيم الأخضر. أمّا لساني فتحوّل إلى قطعة معدنٍ ثقيل في فمي. هذه هي الأعراض التي تظهر معي عندما أتعرّض لخوفٍ شديد، ويبدو عندها أنّ الخوف المستمر يتوقف عن ترك أي أثر فيّ. لقد وصل إحباطي إلى قمّته.

– هل تسمع ما الذي يجري في الغرفة المجاورة؟

– نعم.

– هل تريد معاناةً من نفس الطراز؟

كدت أقول نعم. كان قاسياً عليّ أن أستمع إلى شخصٍ يتعذّب وأنا عاجز عن تقديم المساعدة له. ليس بالأمر السهل أن تبكي كطفل.

– لماذا؟ أنا أتحدّث إليك! قلت له مظهراً رباطة جأشٍ كاذبة.

كان الأخ في الغرفة الأخرى أيضاً يتحدث إلى محققه. ابتسم ██████

على نحو ساخر واستمر في تدخين سيجارته كما لو أن شيئاً لا يحدث. في تلك الليلة كنت متعاوناً جداً وهادئاً. لقد اختفى الإنسان المنطقي المجادل في شخصيتي على نحو مفاجئ. كان ████████ يعرف ما يفعل، وهذه ليست المرة الأولى كما يبدو.

كان يجعلني أمرّ بصفّ من التعذيب حتى أسمع بكاء وأنين وصراخ المعذّبين. لكن الحمد لله، كان الحراس يعصبون عينَي وبذلك لم يكن بمقدوري رؤية المعتقلين. من المفترض ألاّ أراهم، ولست مهتماً برؤية أخ، أو بالأحرى أي إنسان وهو يتعذب. قال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بما معناه: "إنّ الله يعذّب كل من يعذّب نفساً بشرية"، وبقدر ما أفهم من هذا الحديث لا يهم دين الشخص أياً كان.

– سألقي بك في حوض أسماك القرش. هددني ████████ عندما رفضت التكلم معه بعد أن ضربني.

– أنت لا تعرفني. أقسم بالله العظيم لن أتكلّم معك. عذّبني. ستجد موتي ولن تجد كلمة مني. أنا آسف على التعاون الذي أبديته معك في الماضي وعلى المعلومات التي قدّمتها لك.

– قبل كل شيء إن تعاونك معنا تمّ بالقوة. لم يكن لديك خيار آخر ولن يكون لديك في المستقبل، سأجعلك تتكلم. قال ████████.

بدأ ████████ يدفعني بعنف نحو الجدار ويصفعني على وجهي ولكني لم أشعر بأيّ ألم. أعتقد أنّه لم يستخدم كامل قوته في ضربي لأنّه كالثور وبضربة حقيقية منه يمكنه أن يكسّر أسناني الاثنتين والثلاثين. صار يطرح علي الأسئلة مع الابتداء بالضرب. لا أتذكر الأسئلة ولكني أتذكّر أجوبتي. كان هناك جواب واحد: "أنا بريء". لقد أفقده جوابي صوابه، ولكنه لم يستطع أن يجبرني على الكلام.

– ليس لدي الوقت الآن، ولكنك ستتعذب بشدة غداً يا ابن الكلب، قال وغادر الغرفة على الفو.

أعادني المرافق إلى زنزانتي. كان الوقت حوالي منتصف الليل. جلست على سجادة صلاتي وبدأت أقرأ القرآن وأصلّي حتى وقت متأخر جداً. كنت بالكاد أستطيع التركيز على ما أقرأ. كنت أتساءل: كيف يبدو حوض أسماك القرش؟ سمعت بالحوض

المكهرب الذي يستخدمونه في مصر على حد علمي، ولكن حوض أسماك القرش بدا مخيفاً.

حان الموعد ومضى دون أن يتم أخذي إلى مكان التعذيب. مرّ يوم، يومان، ثلاثة أيام! لم يحدث لي شيء سوى ما استجدّ بخصوص الطعام، لا لأنّهم لم يعطوني الطعام بل لفقداني شهيتي ككلّ مرة يصيبني فيها الإحباط واليأس. عرفت فيما بعد من معتقل أردني في غوانتانامو قضى خمسين يوماً في السجن ذاته أنه لا يوجد شيء اسمه حوض أسماك القرش، ولكن لديهم أساليب أخرى للتعذيب مثل تعليق المعتقلين من أيديهم وأقدامهم وضربهم لساعات وحرمانهم من النوم لأيام حتى يفقدوا صوابهم.

– في الأردن لا يمارسون التعذيب ما لم يكن لديهم دليل. لو عرفوا ما تفعل فإنهم حتى لا يعتقلونك. طلب منهم الأميركان ذلك. قال ██████ ثم أضاف:

– يبدأ التعذيب حوالي منتصف الليل وينتهي قرابة الفجر. الجميع يشاركون في التعذيب، بدءاً بمدير السجن وانتهاءً بالحرّاس مروراً بالمحققين.

كانت معلومات ██████ تنسجم مع ما رأيته بأمّ عيني. سمعت شخصياً الضرب ولكني لم أعرف إذا ما كان المعتقلون معلّقين أم لا عندما كانوا يُضربون. وشهدت الحرمان من النوم أكثر من مرة.

عندما كنت أتحدث ذات ليلة مع أحدّ أصدقائي من الحرّاس سمعتُ أصواتاً متواصلة وكأنّ بعض الناس يتدرّبون تدريباً شاقاً وهم يصيحون بأعلى ما لديهم من طاقة على طريقة التدريب في الكونغ فو. سمعتُ أجساماً ثقيلة ترتطم بالأرض. كانت الضجة صاخبة وقريبة جداً من ██████. سألت أحد الحرّاس:

– هل تتدربون هكذا إلى وقت متأخر؟ وقبل أن ينطق بكلمة ظهر شاب آخر وهو يرتدي بذلة شبيهة ببذلات "النينجا" كانت تغطيه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. نظر الحارس إليه ثم التفت إليّ مبتسماً وسألني:

– هل تعرف هذا الرجل؟

ابتسمت ابتسامة رسمية رغماً عني.

– كلا.

نزع الرجل قناعه عن وجهه وبدا كما لو أنه الشيطان بعينه. لقد حوّل الخوف ابتسامتي إلى الضحك، وقلت:

– آه، نعم! نعرف بعضنا بعضاً.

– ██████ يسأل إذا ما كنا نحن الحرّاس نتدرب في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ سأل حارسي النينجا على نحو ساخر، فقال ذاك بسخرية:

– أجل! هل تريد أن تتدرّب معنا؟ لدينا العديد من السجناء يستمتعون بالتمارين الرياضية.

أدركت على الفور أنّه يعني التعذيب. تقلّصت ضحكتي إلى ابتسامة، وانحسرت الأخيرة أيضاً إلى شفاهٍ مُسَمَّرة. لم أرد الكشف عن خيبة أملي وخوفي واضطرابي فقلت:

– كلا، أنا بخير.

واستأنف الشيطان عمله.

سألت الحارس:

– لماذا يضعون الأقنعة لممارسة هذا النوع من العمل؟

– لا يريدون أن يعرفهم أحد. في الأردن يمكن أن تُقتَل على هذه الأشياء.

كان الرجل محقاً. فمعظم السجناء اعتُقلوا لأنّهم يعرفون شيئاً لا لأنّهم ارتكبوا جرائم، ولهذا فإنّ إطلاق سراحهم لا يطول. تمنيت لو لم أعرف عن تلك الحقيقة المرّة. يستحيل أن أنام وأنا أسمع كبار السن يبكون كالأطفال. حاولت أن أسدّ أذني وألفّ رأسي بغطاء ولكن باءت كل محاولاتي بالفشل. طالما كان هناك تعذيب فالنوم مستحيل. ولكن، والحمد لله، لم يكن التعذيب يومياً، والأصوات لا تصل دائماً إلى زنزانتي.

في شباط عام ٢٠٠٢ أصبح مدير قسم مناهضة الإرهاب الأردني هدفاً للاغتيال.[١] وقد نجا بأعجوبة. لقد زرع أحدهم قنبلة موقوتة في هيكل سيارة الهدف الأكبر للحركة الإسلامية في الأردن، وكان من المفترض أن تنفجر القنبلة في المسافة بين بيته

١ نقلت الصحف في تقاريرها المحاولة الموصوفة هنا، وكانت تستهدف الجنرال علي بورجاق رئيس وحدة مناهضة الإرهاب الأردنية في ٢٠ فبراير ٢٠٠٢ في عمّان. انظر مثلاً:
http://weekly.ahram.org .eg/2002/576/re72.htm.

ومكتبه – وهذا ما حدث. ولكن ما حصل كان بمثابة أعجوبة. في الطريق إلى عمله أراد المدير أن يشتري السجائر، فتوقّف سائقه أمام أحد المتاجر وذهب لشراء علبة دخان. أراد المدير أن يذهب مع سائقه، وما أن غادر الاثنان السيارة حتى انفجرت القنبلة. لم يصب أحد في الحادث لكنّ السيارة تحوّلت إلى حطام وقصة للتاريخ. قادتهم التحقيقات إلى مشتبهٍ به، ولكن الشرطة السرية عجزت عن العثور عليه. لا يستطيع ملك الحرب ضد الإرهاب أن يكتفي بهذا فقط، فالمشتبه بهم جميعاً يجب أن يُعتقلوا والطرف المذنب يجب أن يُعثر عليه فوراً مهما كلف الأمر. لهذا اضطرت الوكالة السرية الأردنية أن تنتقم للرأس الكبير. فقد اعتُقل أخو المشتبه به، وكان شخصاً مسالماً، وأُخِذ كرهينة مع ممارسة التعذيب عليه حتى يسلمّ أخوه نفسه إلى السلطات.

خرجت القوات الخاصة في مهمة واعتقلت الصبي البريء في مكان مزدحم بالناس، وضربوه فوق ما يتحمله الخيال. أرادوا بذلك أن يُظهِروا للناس مصير الأُسَر التي يحاول الفرد منها الهجوم على الحكومة. أخذوا الصبي إلى السجن، وكانوا يعذبونه يومياً بحضور محقّقه وبيده. قال له المحقق: "سأواصل تعذيبك، ولا يهمني كم سيطول ذلك، حتى يسلّم أخوك نفسه لنا". استطاعت أسرة الصبي الحصول على تصريح من السجن لزيارة ابنها لا لسبب إنساني بل لترى الأسرة وجهاً لوجه وضع ابنها البائس، الأمر الذي قد يدفعها لتسليم ابنها المشتبه به المختفي عن الأنظار. حلّت الكارثة بالأسرة، وسرعان ما تسرّبت الأخبار عن اختباء الابن المشتبه به في بيت أسرته. وفي وقت متأخر من تلك الليلة اقتحمت دورية البيت واعتقلته. أُطلق سراح أخيه المعتقل الرهينة في اليوم التالي، وقبل أن يخرج سأله المحقق:

– ماذا ستقول إذا ما سأل أحدهم عن الندوب والجروح التي سببتها لك؟

– لن أقول شيئاً. أجاب الصبي.

– اسمع، إننا في العادة نحتفظ بالسجناء حتى يشفوا من جروحهم، ولكنّي سأطلق سراحك. قل ما تشاء ضدي، فقد فعلت هذا بك لأسجن إرهابياً. اذهب فأنت طليق.

أما أخوه فقد تولّى المدير أمره بنفسه. ظلّ يضربه مدة ست ساعات متواصلة، هذا دون أن نذكر ما قام به كلّ محقّق من جانبه لإرضاء رئيسهم. عرفت كل هذا من السجناء بعدما لاحظت ازدحاماً مفاجئاً في السجن. لم أستطع رؤية ذلك، ولكنّ

كميات الطعام تناقصت بشكل واضح لا لبس فيه. ظلوّا يأخذون المعتقلين من الزنازين ويعيدونهم إليها في حركة مستمرة، وكلما مرّ أحدهم أمام زنزانتي كان الحرّاس يغلقون شرّاقة زنزانتي. كما أنني لاحظت أن مناوبات الحرّاس تتكرر أكثر من المعتاد. ولم يتحسّن الوضع إلا في صيف عام ٢٠٠٢.

في ذلك الوقت كان الأردنيون قد أنجزوا عملهم معي. عندما انتهى ██████ ███ من الاستماع إليّ ناولني أقوالي وقال:

– إقرأ أقوالك ووقّع عليها.

– لا أحتاج إلى قراءتها، أثق بك! كذبت عليه. لماذا يجب عليّ قراءة شيء لا أمتلك خيار الموافقة عليه أو رفضه؟ لا يمكن لقاضٍ في الدنيا أن يأخذ بعين الاعتبار أقوال شخص أُجبر على التصريح بها في سجن كالسجن الأردني العسكري.

وبعد حوالي أسبوع أخذني ██████ إلى التحقيق في غرفة جميلة.

– أُغلق ملفك. لم تكذب. وأشكرك على تعاونك معنا. وبالنسبة لي فقد قمت بواجبي تجاهك، ولكن قرار عودتك إلى البيت يتوقف على رئيسي، آمل أن يكون ذلك في القريب العاجل.

أسعدتني هذه الأخبار، توقعتها منذ زمن ولكن ليس بهذه السرعة.

– هل تريد أن تعمل لصالحنا؟ سألني.

– بودي أن أعمل ولكنني لست مؤهلاً للقيام بهذا النوع من العمل. قلت له، وأنا أكذب عليه من جهة، وأقول الحقيقة من جهة أخرى. حاول بطريقة وديّة أن يقنعني ولكني أخبرته بودّ فائق بأن العمل الاستخباراتي هو أكبر مما يتحمّله أبله مثلي.

ولكن عندما أرسل الأردنيون نتيجة التحقيق إلى الولايات المتحدة اطّلعتْ عليها ثم رمتها في وجوههم. شعرتُ بغضب العم سام على بعد آلاف الأميال، وذلك عندما عاد ██████ ولبس جلده القديم خلال الشهرين الأخيرين من سجني في الأردن. استؤنفت التحقيقات. حاولت التعبير عن غضبي قدر استطاعتي. تكلّمت أحياناً، ورفضت أخرى. أضربت عن الطعام لأيام ولكن ██████ جعلني آكل تحت التهديد بالتعذيب. أردت أن أجبر الأردنيين على إعادتي إلى وطني، ولكنّي فشلت، ربما لأني لم أكن صلب العزيمة بما فيه الكفاية.

غوانتانامو

الفصل الخامس

غوانتانامو

فبراير ٢٠٠٣ - أغسطس ٢٠٠٣

"البريد" الأول و"الدليل" الأول... ليلة الإرهاب... وزارة الدفاع تتولى الأمر... مناوبات التحقيقات على مدار الأربع والعشرين ساعة... اختطاف داخل اختطاف... الحفلة العربية - الأميركية.

اختلفت القوانين. ما لم يكن جريمة في السابق أصبح يعتبر الآن جريمة.

- ولكني لم أرتكب أية جرائم. لا تهمني قسوة قوانينكم، فأنا لم أعمل شيئاً.

- ماذا لو قدّمت لك الدليل؟

- لن تفعل، وإذا فعلت فسأتعاون معكم.

أراني ████████ أسوأ الناس في ████████. كان عددهم خمسة عشر، كنت أنا الرقم (١)، والرقم (٢) كان ████████.[١]

١ في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإدارية عام ٢٠٠٥ أخبر محمدو ولد صلاحي هيئة المحلفين "أن مكتب التحقيقات الفيدرالي في خليج غوانتانامو أصدر في عهد الجنرال ميللر قائمة بأسماء المعتقلين من الدرجة الأولى هنا في غوانتانامو. كانت قائمة باسم خمسة عشر معتقلاً. تصوروا أن رقمي كان الأول! ثم أرسلوا فريقاً خاصاً لمكتب التحقيقات الفيدرالي وكان قائد الفريق هو ████ وعملت معه وبشكل خاص فيما يتعلق بقضيتي... اعتقدته يقول لي مازحاً إنني الرقم =

- لا بد أنك تمزح معي. قلت له.

- كلا، لا أمزح معك. ألا تفهم خطورة قضيتك؟

- إذاً خطفتموني من بيتي في بلدي، وأرسلتموني إلى الأردن كي أُعذَّب، ومن ثم أخذتموني من الأردن إلى باغرام، ومازلت أسوأ من الذين اعتقلتموهم وبأيديهم السلاح؟

- نعم، أنت أخطر منهم. أنت ذكي جداً! بالنسبة إلي تنطبق عليك كافة المعايير لتكون إرهابياً من الطراز الأول. عندما أدقق في قائمة فحص الإرهابيين فإنك تحصل على أعلى الدرجات.

أرعبني كلامه ولكني حاولت أن أضغط على نفسي لإخفاء ما كنت أشعر به.

- وما هي قائمة فحصك؟

- أنت عربي، وشاب، وذهبت إلى الجهاد، وتتكلم لغات أجنبية، وزرت بلداناً عديدة، وخريج تدريب تقني.

- وأين الجريمة في كل ذلك؟

- انظر إلى الخاطفين[1]، إنّهم يتمتعون بذات المواصفات.

- أنا هنا للدفاع عن نفسي وليس للدفاع عن الآخرين. لا تذكر أحداً آخر لي. سألتك عن جريمتي وليس عن جريمة (س) من الناس أو غيره. لا يهمني شيء آخر عدا ذلك.

- لكنك جزء من مؤامرة كبيرة ضد الولايات المتحدة.

- أنت تقول ذلك دائماً. أخبرني عن دوري في هذه "المؤامرة الكبيرة"!

- سأقول لك، كن صبوراً فقط.

تواصلت جلساتي بجدال على هذه الشاكلة. بعد ذلك، عندما دخلت ذات مرة غرفة التحقيق ████████████، شاهدت جهاز الفيديو مثبتاً مسبقاً هناك. بصراحة انتابني خوف رهيب من أن يصل بهم الأمر إلى أن يعرضوا فيلماً ويقولوا لي هاهو دورك في اقتراف الهجمات الإرهابية. لم أرتكب شيئاً من هذا

= واحد في المعسكر ولكنه لم يكن يكذب بل كان يقول الحقيقة كما أثبتت الأحداث فيما بعد. بقي معي حتى ٢٢ مايو ٢٠٠٣." (نسخة هيئة إعادة النظر الإدارية، ص٢٤).

١ يقصد المحقق هنا مختطفي الطائرات في هجمات ٩/١١ الإرهابية – المترجم.

القبيل في حياتي، ولكن أخبرني سجين يدعى ████████ ████ أنّ محققه زوّر جواز سفر أميركياً يحمل صورته وأخبره "انظر: لدي الآن دليل قاطع بأنك زوّرت هذا الجواز وكنت تستخدمه لغايات إرهابية".

ضحك ████ من أعماقه على سخافة محققه وقال: "فاتك أنني خبير في الكمبيوترات، وأعرف أنه لن يصعب على حكومة الولايات المتحدة تزوير جواز سفر لي".

حينها استردّ المحقق جواز السفر بسرعة ولم يأتِ على ذكره قط بعد ذلك.

خشيت أن تكون الحكومة قد أعدّت لي سيناريو مماثلاً واختلقت أيضاً شيئاً فيما يخصّني. وباعتباري من العالم الثالث فإني أعرف كيف تلصق الشرطة الجرائم ظلماً بمنافسين سياسيين للحكومة من أجل تحييدهم، كضبط الأسلحة في بيت أحدهم، وهو أمر شائع، وذلك حتى تعتقد المحكمة أن الضحية كانت تستعد للقيام بارتكاب أعمال عنف.

- هل أنت جاهز؟ قال ████.

- نـ...عـ...ـم! أجبت محاولاً لملمة نفسي، مع أن وجهي المورّد كان يفضحني.

ضغط ████ على زرّ التشغيل وبدأنا نشاهد الفيلم. في لحظة وصل بي الأمر إلى أن أقفز في مكاني وذلك عندما وجدت نفسي أفجّر مبنىً تابعاً للولايات المتحدة في تمبكتو. ولكن الشريط كان شيئاً آخر كلياً. كان شريطاً لأسامة بن لادن وهو يتحدث إلى مساعد له لم أتعرف عليه حول هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

كانا يتحدثان باللغة العربية. استمتعت بالراحة من فهم لغة الفيلم، في حين اضطر المحققون أن يتحمّلوا الترجمة في الحاشية.

وبعد حوار قصير بين أسامة بن لادن والرجل الآخر، تحدث معلّق تلفزيوني عن مدى تناقض الشريط. كانت النوعية سيئة، لا بدّ أن قوى تابعة للولايات المتحدة استولت على الشريط في بيت آمن في جلال آباد. لم يكن ذلك هو المطلوب.

- ما شأني بهذه الترهات؟ سألت غاضباً.

- شاهدت كيف أن أسامة بن لادن هو من يقف وراء هجمات الحادي عشر من سبتمبر؟ قال ████.

– تعرف أنني لست أسامة بن لادن، أليس كذلك؟ هذا الموضوع بينكم وبين أسامة بن لادن، لا يهمني الأمر، أنا خارج القضية.

– هل تعتقد بصواب ما قام به؟

– لا دخل لي في المسألة. أمسكوا بأسامة بن لادن وعاقبوه.

– ما شعورك حيال ما حدث؟

– أشعر أنني لست جزءاً منه. لذا فأي شيء آخر سيكون خارج نطاق القضية!

عندما عدتُ إلى المبنى ██████ تحدثتُ إلى أصدقائي عن الحفلة التنكرية "للدليل القاطع" ضدي، ولكن الأمر لم يفاجئ أحداً لأن مثل هذه المهازل قد مرّت على معظم المعتقلين.

خلال حديثي مع ██████ ومساعده أثرت قضية جوهرية باعتقادي.

– لماذا تحظرون وصول رسائلي الإلكترونية؟

– دققت، ولكن لا رسائل لك.

– تحاولون أن تقولوا إنّ أسرتي ترفض الردّ على رسائلي؟

كان الأخوة الذين يقيمون في المبنى يشعرون بالأسى حيال وضعي. كنت أحلم كل ليلة بأنني تلقيت رسالة إلكترونية من أهلي. كنت أقصّ أحلامي على جيراني المجاورين، وكان مفسّر الأحلام يعطيني الأمل دائماً، ولكن لم يتحقق الأمل ولم تصلني أية رسالة. "حلمت بأنك تلقيت رسالة من أسرتك"، أصبحت هذه الجملة عبارة شائعة اعتدت سماعها. كان صعباً عليّ أن أرى المعتقلين الآخرين تصلهم صور عائلاتهم في حين لم يكن يصلني شيء، لا لأني لم أرغب بأن تصلهم الرسائل والصور، بل كنت سعيداً لأجلهم، وكأنّ ما يصلهم قد جاء من أمّي بالذات. كان من المعتاد أن تدور رسالة وصلت مجدداً بين سكان المبنى ليقرأها كل شخص، وحتى الرسائل الأكثر حميميةً بين العشاق.

كان ██████ يحاول بأقصى ما لديه أن يجعلني أتعاون معه، وكان يعلم أنني أفصحت عمّا يجول في خاطري للسجناء. لذا كان يخطط مع رجل يعمل في البريد ليجلب لي شيئاً ما. لقد أُعِدَّتْ الوصفة وطُبِخت بشكل جيد، وفي حوالي الساعة الخامسة مساءً ظهر ساعي البريد أمام زنزانتي وناولني رسالة على أساس أنّها

من أخي. وحتى قبل أن أقرأ الرسالة ناديت بأعلى صوتي ليسمعني بقية سكان المبنى: "تلقيت رسالة من أسرتي. انظروا لقد تحققت أحلامي، ألم أقل لكم؟" بدأ أصحابي السجناء يصرخون من كل زاوية: "مبروك، مرّرها إلينا بعد أن تنتهي منها".

بدأت بقراءتها بنهم، ولكن كم كانت صدمتي كبيرة عندما اكتشفت أنها رسالة ملفّقة رخيصة. لم تكن من أسرتي بل من نتاج المجتمع المخابراتي.

- أخوتي الأعزاء، لم أتلقَّ رسالة. أنا آسف!

- أبناء الزنا! لقد فعلوا هذا بمعتقلين آخرين. صاح أحد الجيران. ولكن الرسالة الزائفة واللامهنية على نحو أخرق لن ينطلي أمرها حتى على أحمق. أولاً، ليس لدي أخ بذلك الاسم، وثانياً، كان اسمي مكتوباً بشكل خاطئ، وثالثاً، أسرتي لا تعيش في المكان الذي ذكره المرسل في الرسالة، ورابعاً، لا أعرف خطوط كل فرد في العائلة فحسب بل والعبارات التي يستخدمونها في التعبير عن أفكارهم أيضاً.

كانت الرسالة من النوع الوعظي: "كن صبوراً كأسلافك، وليكن إيمانك بالله كبيراً بأنه سيجزيك على ما تعانيه". لقد أصابني مسّ من الجنون جرّاء المحاولة المكشوفة لخداعي واللعب بعواطفي.

وفي اليوم التالي جرني ██████ إلى التحقيق.

- كيف حال أسرتك؟

- آمل أن يكونوا بخير.

- لقد عملتُ جاهداً لتصلك الرسالة.

- شكراً جزيلاً على جهودك، ولكن إذا أردتم أن تلفقّوا رسالة دعوني أعطيكم بعض النصائح.

- عمّ تتحدث؟

- إن كنت لا تعرف، فلا بأس، ولكنها كانت رسالة مزيّفة رخيصة جعلتني أصدّق بأنّي تواصلت مع أسرتي العزيزة! قلت مبتسماً وناولته الرسالة الغريبة.

- لم أفعل شيئاً من هذا القبيل. قال ██████.

- لا أعرف ماذا أصدق. ولكن إيماني بالله كبير، فإن لم أستطع رؤية أسرتي في هذه الحياة فكلّي رجاء أن أراها في الآخرة، لذا لا تشغل بالك بالموضوع.

بصراحة لا أملك أي دليل في يدي إذا ما كان ██████ متورطاً في هذا العمل. ما أعرفه أن القضية برمتها أكبر بكثير من ██████، هناك حفنة من الناس يعملون خلف الستار.[1] كان مسؤولاً عن قضيتي من خلال ██████، ولكني أُخذت إلى التحقيق مرتين من قبل ██████████ ███ أخرى، بدون الحصول على موافقته أو حتى علمه. فيما يتعلق بالرسائل فقد تلقيت الرسالة الأولى من أسرتي عن طريق الصليب الأحمر في ١٤ فبراير ٢٠٠٤، أي بعد ثمانمائة وستة عشر يوماً من تاريخ اختطافي من بيتي في موريتانيا. وكان عمر الرسالة سبعة أشهر عندما وصلتني.

قال ██████ ذات يوم:

– سأريك الدليل شيئاً فشيئاً. هناك عضو كبير في القاعدة أخبرنا بأنك متورط.

– أعتقد أنك لست بحاجة إلى الأسئلة طالما يوجد لديك شاهد، وما عليك إلاّ أن تأخذني إلى المحكمة وتشويني كالفروج هناك. قلت له، وأضفت: ماذا فعلت حسب شاهدك؟

– قال إنك جزء من المؤامرة.

أتعبتني عبارة "المؤامرة الكبيرة ضد الولايات المتحدة". لم يستطع ██████ ███ أن يقدّم شيئاً ويتمسّك به خلال النقاش.

– إذا صدّقت الحكومة أنك متورط في القضايا السيئة فسيرسلونك إلى العراق أو أفغانستان. قال ██████[2].

---

١ حقاً كان هناك أناس "يعملون من وراء الستار". فمع أن FBI كان لايزال يقود التحقيق مع محمدو ولد صلاحي آنذاك، فقد وجد المفتش العام التابع لوزارة العدل أنه خلال ربيع عام ٢٠٠٣ راقبت المخابرات العسكرية عدة مقابلات مع محمدو ولد صلاحي عن طريق كل من بوليسون وسانتياغو من حجيرة المراقبة. وهذا يعني أن عملاء المخابرات العسكرية كانوا يتذمّرون من الطريقة التي يتعامل بها FBI مع الموضوع. لقد أوردت لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ أن المحققين العسكريين بدأوا بتداول مسودة "خطة التحقيق الخاصة" من أجل محمدو ولد صلاحي في يناير ٢٠٠٣. (المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص٢٩٨؛ SASC، ص١٣٥).

٢ قد يكون هذا هو وكيل المفتش العام التابع لوزارة العدل المدعو سانتياغو. لقد نقل المفتش العام في تقريره أن محمدو ولد صلاحي "وصف سانتياغو بالشخص اللطيف"، كما أورد التقرير أن محمدو نقل إلى المحققين أن "سانتياغو أخبره بأنه سيُرسل إلى العراق أو أفغانستان إذا ثبت التهم ضده". (المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص٢٩٦).

- إذا ما عذبتموني فسأقول لكم كل شيء تريدون سماعه.

- لا، اسمع: إن سألتْ أمّ طفلها ما إذا كان قد ارتكب خطأً ما فقد يكذب عليها، ولكنها إن لجأت إلى ضربه فسيعترف بما ارتكب. أجاب ███████.

لم أحر جواباً على هذا القياس التمثيلي. على أية حال، الشخص "الكبير القاعدي" الذي أدلى بشهادة ضدي تبين أنه ████████████████[1].

قال ████████████ إنك ساعدته في الذهاب إلى الشيشان مع شخصين آخرين كانا من بين مختطفي الطائرات في هجمات الحادي عشر من سبتمبر - لا أساس لهذا الكلام. فمع أنّي رأيت ██████ مرة أو مرتين في ألمانيا، إلا أني لم أعرف حتى اسمه. حتى لو كنت ساعدتهم للذهاب إلى الشيشان، فهذا لا يعتبر جريمة، ولكني لم أفعل ذلك.

في ذلك الوقت عرفت مقدار التعذيب الرهيب الذي تعرّض إليه ████████ ███ والمعاناة التي عاشها ████████ بعد اعتقاله. قال شهود عيان كانوا معتقلين معه في كراتشي: "اعتقدنا أنه مات. كنا نسمع صرخاته وأنينه ليلاً ونهاراً حتى تمّ عزله". حتى إننا سمعنا شائعات في المعسكر تقول إنه مات تحت التعذيب. من الواضح أن التعذيب في بلدان ما وراء البحار كان ممارسة شائعة تنفَّذ على نحو احترافي. لقد سمعت الكثير من الشهادات من معتقلين لا يعرفون بعضهم بعضاً ولا يمكن أن يكذبوا بأي حال. وسترون أنني شخصياً تعرضت للتعذيب في هذه القاعدة في غوانتانامو كالعديد من المعتقلين الآخرين. لعل الله يجزينا جميعاً. قال █████ ██████: "أنا لا أؤمن بالتعذيب". لم أشاركه المعلومات التي كانت لدي حول ما تعرّض إليه رمزي من تعذيب. ولكن الحكومة أرسلت معتقلين أنا من ضمنهم ████████ و ████████ إلى بلدان ما وراء البحار لتسهيل تحقيقاتنا بواسطة التعذيب، ومعنى هذا أن الحكومة تؤمن بالتعذيب، لذا فإن ما يؤمن به ███

١ على الأرجح يشير المقطع إلى رمزي بن الشيبة. شرح محمدو ولد صلاحي في جلسة الاستماع أمام ARB وفي صفحات أخرى من المخطوطة أنه اطلع على المعاملة مع بن الشيبة في معتقلات CIA السرية من المعتقلين الذين اعتُقلوا مع بن الشيبة وحُجزوا معه في المواقع السرية قبل أن يتم تحويله إلى غوانتانامو. أخبر محمدو ولد صلاحي هيئة محلفي ARB أن "شاباً يمنياً كان معتقلاً مع رمزي"، "منقول" أخبره بذلك، "عُذب رمزي. كنا نسمع صرخاته كل ليلة، كنا نسمع أنينه كل ليلة". (نسخة ARB، ص٢٥).

█████ لا وزن له إذا ما قُرِن بالعدالة القاسية للولايات المتحدة خلال الحرب.

وأخيراً جاء █████ في موعده لينقل إليّ الأسباب التي تحدو بالحكومة للإبقاء على حجزي، ولكنه لم يرني أي شيء يدينني بارتكاب جريمة.

وفي مارس ٢٠٠٢ بثّت قناة *CNN* تقريراً عني يزعم أنني كنت المنسّق الذي سهّل الاتصالات بين مختطفي الطائرات في هجمات الحادي عشر من سبتمبر من خلال دفتر الزوار على صفحتي الرئيسية.

أظهر █████ التقرير الآن[١]، وقال:

– أخبرتك أنك متورط حتى أذنيك.

– لم أصمّم صفحة رئيسية لأجل القاعدة. لقد عملت الصفحة منذ فترة طويلة حتى أنني لم أتفقدها منذ أوائل عام ١٩٩٧. بالإضافة إلى هذا، لو كنت قد قررت مساعدة القاعدة لما كنت استخدمت اسمي الصريح. كان بإمكاني أن أصمّم صفحة باسم جون سميث على سبيل المثال.

أراد █████ أن يعرف كل شاردة وواردة عن صفحتي، وما السبب لإنشاء صفحة بالأساس. اضطررت أن أجيب عن كل ذلك الهراء اعتماداً على حقي الأساسي في إنشاء صفحة باسمي الحقيقي مع بعض الروابط للمواقع المفضّلة لدي.

سألني █████ في إحدى الجلسات:

– لماذا درست الإلكترونيات الدقيقة؟

– سأدرس الجحيم الذي أريد. لم أكن أعرف أنه ينبغي استشارة حكومة الولايات المتحدة لتقول لي ما يجب أن أدرس وما لا يجب. قلت بسخرية.

– أنا لا أؤمن بمبدأ الأبيض والأسود. أعتقد أن كلاًّ منّا هو مزيج من اللونين. ألا تعتقد ذلك؟ سأل █████.

– لم أفعل شيئاً.

---

١ يبدو أن هذا يشير إلى خبر بثته قناة CNN في ٦ مارس ٢٠٠٢، وكان بعنوان "القاعدة والانترنيت من أجل الإرهاب". كما يشير محمدو ولد صلاحي هنا إلى أن الخبر يوحي بأنه كان "يدير على ما يظهر موقعاً غير ضار" حيث كانت القاعدة تتبادل الرسائل من خلال دفتر الزوار. إن الزعم القائل إن محمدو ولد صلاحي كان يدير موقعاً سهّل من اتصالات القاعدة لم يظهر في خلاصة أي دليل ضد صلاحي من غوانتانامو. انظر:
http://transcripts.cnn .com/TRANSCRIPTS/020306//lt.15.html.

- إنها ليست جريمة أن تساعد شخصاً للالتحاق بالقاعدة وانتهى به المطاف ليصبح إرهابياً! ■■■■■■■■. فهمت ما يعنيه ■■■ ■■■■. يريدني أن اعترف بأنني كنت أعمل في تجنيد الناس من أجل القاعدة.

- لعلّي لست مطلعاً على قوانين الولايات المتحدة، ولكني لم أجنّد أي شخص لصالح القاعدة بأي حال من الأحوال، ولا سألني أحد الانضمام إليها! قلت له.

وكجزء من "إظهار الأدلة ضدي" من زميل له لمساعدته. ■■■■■■■■ ■■■■■■■■، ■■■■■■■■ الذي حقق معي في الفترة ■■■■■■■■.[1] ■■■■■■■■ هو أحد أولئك الأشخاص الذين عندما يتحدث واحدهم إليك تعتقد أنه غاضب، مع أنه قد لا يكون كذلك.

قلت له:

- يسعدني أنك ظهرت ثانية، لأنني أريد أن أناقش بعض الأمور معك.

- بالطبع، ■■■■ هنا للإجابة عن أسئلتك! قال ■■■■.

- هل تتذكر عندما أتيتم إلى موريتانيا للتحقيق معي؟ هل تتذكر كم كنت متأكداً بأنني لست فقط متورطاً في مؤامرة الألفية بل ورأسها المدبّر؟ ما شعورك الآن بعد أن عرفت أنْ ليست لي أي علاقة بكل ذلك؟

- ليست تلك هي المشكلة. المشكلة هي أنك لم تكن صادقاً معنا. أجاب ■■■ ■■■■.

- ليس من الضروري أن أكون صادقاً معك. خذ مني هذا الخبر العاجل: لن أتحدث إليك ما لم تقل لي لماذا أنا هنا. قلت.

- هذه مشكلتك. قال ■■■■.

يمكن القول إن ■■■■ كان يستخدم المعتقلين المهانين الذين اضطروا، على الأرجح، للتعاون تحت ضغط التعذيب. في تلك الفترة كان يحقق مع ■■■ ■■■■■■■■.[2] كان يتحدّث بغطرسة وعنجهية ويقول:

---

١ "موريتانيا" تبدو غير مشطوبة بعد بضع جمل، والعميل هو من الواضح أحد عملاء FBI الذين استجوبوا محمدو ولد صلاحي في نواكشوط في يناير ٢٠٠٠.

٢ لعله رمزي بين الشيبة.

ستتعاون معنا شئت أم أبيت، هاها!

أعترف أنني كنت فظّاً معه، فقد كنت غاضباً لأنه اتّهمني ظلماً بأنني كنت جزءاً من مؤامرة الألفية وبسبب مراوغته في التهرب من طلبي بأن يقول بوضوح إنه هو وحكومته كانا مخطئين في حقي.

بدا ■■■■■■■ منهكاً من رحلته. كان مرهقاً للغاية في ذلك اليوم.

– لا أفهم لماذا لا تتعاون. لقد شاركوك الطعام، وتحدثوا إليك بأسلوب حضاري.

– ولماذا عليّ التعاون مع أيٍّ منكم؟ أنتم تؤذونني، تحبسونني من دون مبرر.

– لم نعتقلك نحن.

– أرسل إلي الشخص الذي اعتقلني، أودّ التحدث إليه.

بعد ذاك النقاش المتوتر غادر المحقق وأرسلني إلى زنزانتي.

في جلستنا التالية قال ■■■■■■■:

– من أجل الجلسات القادمة، طلبت من ■■■■■■■ أن يساعدني في العمل في قضيتك. أريد منك أن تكون مهذباً معه.

– ومتى ستتوقفون عن هذه اللعبة عليّ؟ في كل مرة ثمة شك جديد، وعندما يتضح أنه غير صحيح تتهموني بقضية أخرى وهكذا دواليك. هل هناك مكان في العالم لاحتمال عدم تورّطي في شيء؟

– بالطبع، بناءً على ذلك يجب أن تتعاون معنا وتدافع عن نفسك. كلّ ما أسأله هو أن تفسّر بعض الأمور التافهة لي. قال ■■■■■■■.

عندما وصل ■■■■■■■ كان يحمل مجموعة أوراق ومعها ملاحظات، وبدأ يقرأها عليّ: "اتصلت بـ ■■■■■■■ وطلبت منه أن يجلب لك بعض السكر. عندما أخبرته عن ■■■■■■■ في ألمانيا قال لك: لا تقل هذا على الهاتف". لكني لم أقل شيئاً من هذا القبيل لأحد.

– لا يهمني ماذا قال ■■■■■■■ على الهاتف. لست هنا بالنيابة عن ■■■■■■■. اذهب واسأله. تذكّر أنني أسألك ماذا فعلت أنا؟

– أريدك فقط أن تشرح لي هذه المكالمات، ثم هناك المزيد. قال ■■■■■■■.

- كلا، لن أجيب على أي شيء قبل أن تجيب أنت على سؤالي. ماذا فعلتُ؟
- أنا لا أقول إنك عملت شيئاً، ولكن هناك جملة من المسائل تحتاج إلى توضيح.
- لقد أجبت عن تلك الأسئلة ألف مرّة ومرّة. أخبرتك أنني أعني ما قلته حرفياً، ولم أستخدم أية رموز. أنتم غير عادلين ومصابون بالرُهاب. إنكم تستغلون وضعي لأنني من بلد دكتاتوري، أما لو كنت ألمانياً أو كندياً لما كانت لديك الفرصة لمجرّد مخاطبتي، لا اعتقالي.
- إننا، في طلبنا التعاون منك، نمنحك فرصة. وإن أخبرناك بسبب اعتقالك يكون قد فاتك الوقت! قال ████████.
- لا أحتاج أية فرص. فقط قولوا لي لماذا أنا معتقل، ولْيَفُتْني الوقت.

يعرفني ████████ أكثر مما عرفني ████████، لهذا حاول أن يهدّئنا نحن الاثنين. كان ████████ يحاول بثّ الخوف فيّ، ولكن كلما كان يخيفني أكثر كلما كنت أزداد تعنّتاً وعدم تعاون.

ظلّ المعسكر مغلقاً طوال النهار، وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً أخذوني من زنزانتي إلى المبنى ████████. كانت الغرفة باردة جداً. أكره أن يوقظني أحد من النوم ليأخذني إلى التحقيق... كان قلبي يخفق بعنف. لماذا يأخذونني إلى التحقيق في هذا الوقت المتأخر؟

لا أعرف كم من الوقت بقيت في الغرفة، ربما ساعتين. كنت أرتجف. قررت ألاّ أناقش المحققين بعد الآن. قلت لنفسي: "سأجلس هناك كحجر وأدعهم هم يتكلمون". لقد قرّر العديد من المعتقلين أن يفعلوا ذلك، وكانوا يأخذونهم إلى التحقيق يومياً ليجعلوهم يخرجون عن صمتهم ويتكلمون. لا بدّ أن بعضهم قد انكسرت إرادتهم لأن أحداً لا يستطيع أن يتحمل العذاب بقية حياته.

بعد أن جعلوني أتعرق، أو بالأحرى "أرتجف" لمدة ساعتين، أخذوني إلى غرفة أخرى ████████████████، حيث كان ████████ جالساً. كانت برودة هذه الغرفة مقبولة، وكان العسكريون يراقبون ويستمعون كالعادة من غرفة أخرى.

قال ████████:

- لم نستطع أن نأخذك خلال النهار لأن المعسكر كان مغلقاً. اضطررنا أن نجلبك الآن لأن ■■■■ سيغادر غداً.

لم أقل كلمة واحدة. أرسل ■■■■ صديقه إلى خارج الغرفة.

- ما مشكلتك؟ هل أنت بخير؟ هل حدث لك أي مكروه؟

بذل كل جهده ليجعلني أتكلم ولكن باءت محاولاته كلها بالفشل وبقيت صامتاً.

قرّر الفريق إعادتي إلى الغرفة الباردة مرة أخرى. قد لا تكون باردة جداً لشخص يرتدي حذاءً وألبسة داخلية وسترة كالتي يرتديها المحققون، ولكنها باردة دون شك لمعتقل غير مجهّز بكل ذلك. "تحدّث إلينا!" قال ■■■■. "بما أنك ترفض الكلام فإن ■■■■ سيتحدث إليك على أية حال".

بدأ ■■■■ محاضرته: "أعطيناك أكثر من فرصة ولكن يبدو أنك لا تستغلها، ويبدو أنك لا تريد الاستفادة منها. لقد طال الوقت كثيراً، لذا سأضع أمامك بعض المعلومات". ووضع ■■■■ ثلاث صور كبيرة لأربعة أشخاص يعتقد أنهم متورطون في هجمات الحادي عشر من سبتمبر. "هذا ■■■■ ■■■■. لقد اعتُقل ■■■■ ومنذ ذلك الحين وأنا أحقق معه.[1] أعرف عنه أكثر مما يعرف هو عن نفسه. كان متجاوباً وصادقاً معي. وما قال لي يتطابق مع ما نعرف نحن عنه. قال إنه جاء إلى بيتك بنصيحة من ■■■■ الذي قابله في القطار. وكان ■■■■ يريد شخصاً يساعده في الوصول إلى الشيشان".

ثم تابع حديثه: "كان ذلك في شهر أكتوبر عام ١٩٩٩. جاء إلى بيتك ومعه هذان الشخصان" مشيراً إلى ■■■■ و ■■■■. ثم أردف قائلاً: "أما الشخص الثالث - مشيراً إلى عطا - فلم يستطع لقاءك لأنه كان في الامتحانات". نصحتَهم أن يسافروا عبر أفغانستان بدلاً من جورجيا حتى لا يعيدوهم بسبب ملامحهم

١ يبدو أن هذا المحقق كان، أو يزعم أنه كان، يستجوب رمزي بن الشيبة في معتقلات CIA السرية. في جلسة الاستماع أمام ARB، وبذكر اسم رمزي، وصف محمدو ولد صلاحي ما يمكن أن يكون حديثاً متبادلاً مع محقق بهذه الطريقة: "حسناً، عندئذ سأله المحقق ■■■■ من FBI ليصف شخصيتي، فقال رمزي: أعتقد أنه شخص ذو نفوذ عند أسامة بن لادن ولولاه لما كنت قد تورّطت في هجمات الحادي عشر من سبتمبر. هذه تهمة كبيرة. يستطيع المحقق أن يكذب لأنهم دائماً يكذبون، ولكن ذلك ما قالوه" (نسخة ARB، ص٢٣-٢٤).

العربية، وأعطيتهم رقم هاتف شخص في كويتا يُدعى ██████. سافر هؤلاء الأشخاص إلى أفغانستان بعد لقائهم بك بفترة قصيرة، واجتمعوا بأسامة بن لادن وأقسموا على الولاء له. وقد كلّفهم أسامة بن لادن بعملية الحادي عشر من سبتمبر، وأعادهم إلى ألمانيا".

ثم قال مواصلاً حديثه: "عندما سألت ██████ عن رأيه بك أجاب أنه يعتقد بأنك المجنِّد الرئيسي لأسامة بن لادن. كان ذلك رأيه الشخصي. ولكنه قال إنه لولاك لما كان التحق بالقاعدة أبداً. ولا بد أن هؤلاء قد سافروا إلى الشيشان وماتوا هناك".

استأذن ██████ وغادر الغرفة. بقيت ما تبقّى الليل مع ██████

██████████████████████████

██████████████████████. كنت خائفاً جداً. جعلني المحقّق أصدّق أنني وراء الحادي عشر من سبتمبر. كيف حدث ذلك الاحتمال؟ قد يكون الرجل محقاً. لكن ومع ذلك فإن أي شخص لديه المعلومات الأولية عن الهجمات التي تداولتها التقارير مراراً يمكنه أن يفهم بسهولة أية جبنة سويسرية كان ██████ يحاول بيعها لي. إن الأشخاص المذكورين قد تدرّبوا -وفقاً للتقارير - في العام ١٩٩٨، والتحقوا بالقاعدة، وكلّفوا بالهجمات منذ ذلك الحين. كيف يمكنني إذاً أن أرسلهم للالتحاق بالقاعدة في أكتوبر عام ١٩٩٩، وهم لم يكونوا أعضاء في القاعدة آنئذ فحسب وإنما كانوا قد كُلّفوا بمهمة الهجوم قبل أكثر من عام؟

قضيت بقية الليل في التحقيق، وأُجبرت على مشاهدة أجزاء الأشلاء التي التُقطت في موقع البنتاغون بعيد الهجمات. كانت مشاهدتها تثير الغثيان. كنت على وشك الانهيار ولكني تمكنت من البقاء صامتاً ومتماسكاً.

- هل ترى نتيجة الهجوم؟ سألني ██████، وأضاف: لا أعتقد أن المهاجم تنبّأ بما سيكون عليه الواقع.

كانوا يتحدثون إلى بعضهم البعض، يسألون ويجيبون على أسئلتهم. صمدت في الصمت فكنت الحاضر الغائب. كانوا يعرضون تلك الصور المقرفة أمامي طوال الليل، ومع الفجر أرسلوني إلى زنزانة في مبنى آخر ██████. صلّيت وحاولت أن

أنام، ولكني كنت أضحك على نفسي. لم أستطع أن أبعد الأشلاء البشرية عن رأسي. حاول جيراني الجدد وخاصةً ██████ مساعدتي.

"لا تقلق! تحدّث إليهم وستكون الأمور على ما يرام" شجّعني جاري بهذه الكلمات. كانت نصيحته حكيمة على الأغلب، لأني شعرت بإمكانية تفاقم الأمور أكثر نحو القرف، لذا قررت التعاون.

جرّني ██████ إلى التحقيق في اليوم التالي. كنت منهك القوى لأني لم أكن قد نمت في الليل أو في النهار.[١]

"أنا مستعد للتعاون بدون شروط"، أخبرته، "لا أحتاج إلى برهان من أي نوع.

١ جاء في دراسة لـ CIA بعنوان "تقنيات السيطرة الشيوعية: تحليل للطرق المستخدمة من قبل الدولة الشيوعية في الاعتقال والتحقيق وزرع الأفكار في الأشخاص المحسوبين على 'أعداء الدولة'" ما يلي حول تأثير الحرمان من النوم واستخدام درجات الحرارة على نحو بارع كأساليب في التحقيق القسري: "يمتلك الضابط المسؤول طرقاً أخرى بسيطة وفعّالة في تطبيق الضغط. ومن بين تلك الطرق الأكثر فعّالية الإرهاق والحرمان من النوم. إن الإضاءة المستمرة في الزنزانة وضرورة الإبقاء على وضع قاسٍ أثناء النوم تضاعف من تأثير القلق والكوابيس في إنتاج الاضطرابات في النوم. وإن لم تفِ هذه بالحاجة فمن السهل عندئذ أن يتدخل الحرّاس ويوقظوا السجناء بين الحين والآخر. إن هذه الحالة تفيد على نحو خاص وفعّال إذا ما أوقظ السجين في بداية النوم كلّ مرّة وباستمرار، ويمكن أن يقصّر الحرّاس ساعات النوم المتاحة لهم أو حتى يمنعوهم من النوم. إن الحرمان المستمر من النوم ينتج عنه التشويش في الوعي وفقدان النشاط واليقظة، وكلا الأمران يضعفان من قدرة الضحية في البقاء معزولة. كما ينتج عن ذلك تعب عميق".

"وطريقة أخرى سهلة وفعّالة لممارسة الضغط هي الإبقاء على درجات حرارة الزنزانة في مستوى بارد جداً أو حار جداً حتى تصبح الراحة مستحيلة. إن الحرارة المستمرة في المستوى الذي يبقى الجسم في حالة التعرق توهن الجسم وترهقه. كما أن البرد المتواصل يخلق عدم الراحة وعدم التحمّل..."

"لا ينظر الشيوعيون إلى هذه الأساليب بوصفها 'تعذيباً'. لا شك أنهم يستخدمون الأساليب التي لا تتعارض مع الطريقة القانونية النموذجية للمبادئ الشيوعية التي تدعو إلى "عدم استخدام القوة أو التعذيب في انتزاع المعلومات من السجناء"، ولكن هذه الأساليب تشكل حتماً التعذيب والقسر الجسدي. وكل هذه الأساليب تؤدي إلى اضطرابات خطيرة في العديد من وظائف الجسم.

إن الحرمان من النوم استُخدم على نحو خاص لخلق جو يجعل السجين يقرّ باعترافات كاذبة. هناك دراسة لعالم الاجتماع ألبيرت بايدرمان التابع للقوى الجوية الأميركية عن الوسائل استطاع المحققون في كوريا الشمالية باستخدامها إجبار الطيارين الأميركان الذين وقعوا في الأسر على تقديم اعترافات كاذبة في ارتكاب جرائم حرب، وكانت تلك الوسائل هي الحرمان من النوم لإحداث الوهن والضعف، فذلك "يضعف القدرة الذهنية والجسدية على المقاومة". انظر:
http://www.theblackvault.com/documents/mindcontrol/comcont.pdf; and http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/torturingdemocracy/documents/19570900.pdf.

اسألني فقط وأنا سأجيب عن أسئلتك". وهكذا دخلت علاقتنا مرحلةً جديدة.

أثناء تحقيقه معي قام برحلتين، الأولى إلى ███████ والثانية إلى ███████، من أجل التحقيق في قضيتي وجمع المزيد من الأدلة ضدي. وفي فبراير ٢٠٠٣، وبينما كان هو في رحلته إلى ███████، سحبني أحد العملاء من الـ ███████ إلى التحقيق. قال لي:

- اسمي ███████، من ███████، جئت إلى هنا لأسألك بعض الأسئلة حول الفترة التي قضيتها في ███████.

كانت شارته تلمع بينما راح يتكلم. كان يرافقه في هذه المهمة مرافقان اثنان، أنثى وذكر، وكانا يدونان الملاحظات فقط.[1]

- مرحباً بكم! أنا سعيد بأنكم أتيتم لأنني أريد توضيح بعض تقاريركم الخاطئة عني، وخصوصاً أن قضيتي مع الولايات المتحدة تدور حول الفترة التي كنت فيها في ███████. وفي كل مرّة ناقشت الأميركيين كانوا يشيرون بالأصابع إليكم. الآن أريد منكم أيها الرجال أن تجلسوا مع الأميركيين وتجيبوا عن سؤال واحد: لماذا اعتقلتموني؟ أية جريمة ارتكبتها؟

- أنت لم تفعل شيئاً. قال ███████.

- إذاً مكاني ليس هنا، أليس كذلك؟

- ليس نحن من اعتقلك. الولايات المتحدة هي التي اعتقلتك.

- هذا صحيح، ولكن الولايات المتحدة تزعم أنكم أنتم الذين حرضتموها عليّ.

- لدينا فقط بعض الأسئلة حول بعض الناس السيئين، ونحتاج إلى مساعدتك.

- لن أقدّم لكم المساعدة ما لم تخبروا الأميركيين أمامي بأن أحداً منكما يكذب.

خرج العملاء من الغرفة وجلبوا ███████ معهم، وكان يراقب الجلسة على أغلب الظن من خلال ███████.

---

١ قد يكون هؤلاء عملاء من مصلحة الاستخبارات الأمنية الكندية (CSIS). لقد أوردت صحيفة تورنتو ستار في تقريرها أن عملاء من (CSIS) أجروا مقابلات مع المعتقلين الذين لهم علاقة بكندا في غوانتانامو، ومن ضمنهم محمدو ولد صلاحي، وذلك في يناير ٢٠٠٣. (راجع: ميشيل شيفرد، مجموعة من ثلاثة أشخاص في CSIS يستجوبون المعتقلين بقسوة في غوانتانامو) انظر:
http://www.thestar.com/news/canada/2008/27/07/csis_grilled_trio_in_cuba.htmal/

قال :

– أنت لست صادقاً، طالما أنك ترفض الإجابة عن الأسئلة. هذه هي فرصتك للحصول على مساعدة منهم.

– ، أعرف هذه اللعبة أكثر منك. توقّف عن الهراء الذي تتفوه به. قلت له ثم تابعت: اسمعوا، أنتم الذين تقولون لي دائماً إن قال كذا وكذا. الآن هي فرصتكم يا رجال أن تواجهوني بتهمي.

– نحن لا نتّهمك بأية جريمة. قال .

– إذاً أطلقوا سراحي!

– ذلك ليس في أيدينا. حاول أن يقنعني ولكن دون جدوى.

أعادوني إلى زنزانتي، ثم جاؤوا بي في اليوم التالي، ولكني جلست هناك كحجر. لم أضيّع الوقت سدىً لأنني أخبرتهم بوضوح بشروط تعاوني معهم. لقد حقق الـ أيضاً مع مراهق يدعى وأعطوا الأوامر للجيش أن يأخذوا كل مقتنياته. شعرنا نحن المعتقلون بالأسى عليه: كان لا يزال صغيراً على كل هذه الحملة.[1]

عندما عاد كان غاضباً لأن يتجاهله ويعرضني على كل من يريد. عرفت الآن أن مصيري لم يكن بيد ، إذ لم تكن لديهم القدرة على التعامل معي، ومن لحظتها فصاعداً صرت لا أستطيع الوثوق بهم. لا أستطيع التعامل مع شخص لا يفي بوعوده. عندئذٍ عرفت حقيقة أن

١ على الأرجح كان المراهق هو عمر قادر. وجدت المحكمة الكندية العليا في عام ٢٠١٠ أن التحقيقات مع قادر من قبل عملاء مصلحة الاستخبارات الأمنية الكندية (CSIS) وشعبة الاستخبارات الخارجية التابعة لوزارة الشؤون الخارجية والتجارة العالمية (DFAIT) في غوانتانامو، في يناير وسبتمبر ٢٠٠٣ ومارس ٢٠٠٤، قد خرقت العقد الكندي للحقوق والحريات، واعتبرت المحكمة العليا أن "تجريد قادر من حقوق الحرية والأمن الخاصة بالشخص لا يتطابق مع مبادئ العدالة الأساسية. إن التحقيق مع شاب معتقل حرم من الاستشارة، لانتزاع الأقوال منه حول تهم جرمية خطيرة، وفي الوقت الذي علمت فيه المحكمة أن الشاب قد تعرض أثناء ذلك إلى الحرمان من النوم، وعلمت أن نتائج التحقيق ستقع في يد النائب العام، لهي خطورة تتعارض مع المعايير الكندية الأساسية حول التعامل مع المعتقلين المشتبه بهم من الشباب".

رأي المحكمة العليا متوفر على:
http://scc-csc.lexum.com/decisia-scc-csc/scc-csc/scc- csc/en/item/7842/index.do.

■■■■■ ليس شيئاً بل هو مجرد مرحلة، وأن التحقيق الحقيقي سيقوده ■■■■■. إذا نظرت إلى الموقف سيتضح أن معظم المعتقلين قد أسروا من قبل ■■■■■ في عملية عسكرية، وأرادوا أن تبقى يدهم هي العليا في القضية. ■■■■■ ليسوا سوى ضيوف في غوانتانامو، بينما السجن يُدار من قبل ■■■■■.

تكررت الحالة مرة أخرى. عندما سافر ■■■■■ إلى ■■■■■ في مايو ٢٠٠٣، حجزني ■■■■■ من أجل التحقيق، ولم يكونوا أفضل حظاً من زملائهم في ■■■■■، وكان ■■■■■ قد أُرهب من قبل زملائه من قيادة الـ ■■■■■.

عاد ■■■■■ من ■■■■■. "تلقيت أمراً بترك قضيتك والعودة إلى الولايات المتحدة. يعتقد رئيسي أنني أضيّع وقتي سدىً. ستتولى المخابرات العسكرية قضيتك". أخبرني ■■■■■ بذلك. أحزنتني مغادرة ■■■■■ ■■■■■. ولكن لم يقلقني الأمر كلياً. كان ■■■■■ هو الشخص الذي فهم قضيتي أكثر من أي شخص آخر، ولكنه كان يفتقر إلى السلطة وإلى الدعم المطلوبين.

وفي اليوم التالي نظّم الفريق حفلة غداء جميلة. لقد اشتروا طعاماً لذيذاً على شرف الوداع. "يجب أنْ تعلم أنّ جلساتك القادمة لن تكون ودية كالتي كانت حتى الآن"، قالها لي بابتسامة ساخرة. "لن يُجلب لك الطعام والمشروبات بعد اليوم". فهمت إشارته بأن المعاملة ستكون قاسية في الأيام القادمة، ولكني مازلت أعتقد أن ■■■■■ ومرافقه ■■■■■ سيخبران السلطات المعنية بإيقاف أي اعتداء إذا ما علموا به.

"أتمنى لك حظاً سعيداً، وكل ما أستطيع قوله لك هو أن تقول الحقيقة"، قال ■■■■■. تعانقنا وحيّينا بعضنا بعضاً مودّعين.[1]

---

١ أخبر محمدو ولد صلاحي هيئة إعادة النظر الإدارية بأن آخر مقابلة له مع المحققين التابعين لـFBI جرت في ٢٢ مايو ٢٠٠٣، ويؤكد تقرير المفتش العام التابع لوزارة العدل ذلك حيث يقول: "غادر عملاء FBI الذين كانوا منخرطين في قضية صلاحي غوانتانامو في أواخر مايو ٢٠٠٣، وتولى الجيش مهمة التحقيقات مع صلاحي". (نسخة ARB، ص٢٥؛ والمفتش العام، ص١٢٢).

وبعد بضعة أيام من تولي الجيش التحقيق مع محمدو ولد صلاحي نشر عميل لـFBI تقريراً يوثّق مخاوف FBI من أساليب تحقيق الجيش في غوانتانامو. وطبقاً لتقرير المفتش العام بعد شهر، وذلك = = في ١ يوليو ٢٠٠٣، أرسل مساعد المحامي العام لـFBI سبايل بومان رسالة بالبريد الإلكتروني إلى

عندما دخلت الغرفة كانت هناك طاولة جاهزة بعدة كراسٍ على الطرف الآخر من الطاولة. وما أن قيّدني الحرّاس بالأرضية ████████

████████

████████ دخل الغرفة ████████

████████

████████. بإمكان المرء أن يستنتج أن لديهم بداية جديدة لم أمرّ بها. جلب ████████ مجلدين ثقيلين معهما، وكانا يتحادثان.[١]

– متى يُفترض بالرجل أن يأتي؟

– في الساعة التاسعة. خلافاً لعادات التحقيق، ████████

████████

████████.

كانت تقنية تُستخدم لتخويف وتهييج المعتقل. فتح الباب. "أنا آسف، كنت أفكر بالتوقيت الدبلوماسي" قال القادم الجديد. "تعرفون نحن الذين من ████████

مسؤولي FBI الكبار "تحيطهم علماً بأن الجيش بدأ يستخدم تقنيات "التحقيق العدواني" بما فيها الضرب الجسدي وتعرية السجناء وصبّ الماء البارد عليهم وتركهم عراة (أصيب أحدهم بهبوط في الحرارة hypothermia) وإجراءات أخرى مشابهة". ويرى بومان: "بلا شك أن ما يمارسونه (ولا أعرف حجمه) غير قانوني سواء مورس مع سجناء الحرب أم مع السجناء المجرمين". وقد عبّر بومان عن قلقه بأن FBI "يدهن بفرشاة القطران ذاتها" وطالب بأن يحيل FBI القضية إلى المفتش العام التابع لوزارة الدفاع، ويقول: "حتى وأنا في الخدمة لن يكون في ذهني مسألة غير ذلك". (نسخة ARB، ص٢٥؛ المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص١٢١–١٢٢).

١ يصف محمدو ولد صلاحي هذا الفريق الجديد التابع لوزارة الدفاع في جلسة الاستماع أمام ARB بقوله إن "محققة" كانت تقود الفريق وكانت "سيدة جميلة جداً ومحترمة"، وقد حدّدها على أساس أنها عميلة لـFBI. في الواقع ربما كانت تتظاهر أنها عميلة لـFBI وحسب. ووجد المفتش العام التابع لوزارة العدل أن "الشخصية التي عرّفت نفسها بـ"سامانثا" كانت في الواقع عسكرية برتبة رقيب في الجيش" ووفقاً لتقرير المفتش العام: "في مناسبات عديدة، في أوائل يونيو ٢٠٠٣، عرّفت عسكرية برتبة رقيب في الجيش في فريق المشاريع الخاصة لوكالة المخابرات التابعة لوزارة الدفاع DIA في غوانتانامو صلاحي بنفسها بوصفها عميلة لـFBI في إدارة الأمن الاجتماعي، وأن اسمها "سامانثا مارتين"، في محاولة منها لإقناع صلاحي بالتعاون مع المحققين". وفي جلسة الاستماع أمام ARB قال محمدو ولد صلاحي إن الفريق كان يضم "شخصاً غربياً اعتقدت أنه من وكالة المخابرات المركزية CIA أو شيئاً مماثلاً ولكنه كان صغيراً جداً". (نسخة ARB، ص٢٥؛ والمفتش العام التابع لوزارة العدل، ص١٢٥، ٢٩٦).

لنا توقيت آخر". كان الـ ██████ يبدو جنتلماناً شديد الاهتمام بالتأثير في من حوله. لكني لست متأكداً من مدى نجاحه. كان ██████ ██████ ██████. كان قد جلب حتى طعامه من المكدونالد معه، ولكنه لم يقدّم شيئاً منه إلى أحد.

استهل حديثه بقوله:

- لقد وصلت للتو من واشنطن. هل تعرف مدى أهميتك لحكومة الولايات المتحدة؟

- أعرف كم أنا مهم عند والدتي العزيزة، ولكني لا أعرف شيئاً عن تلك الأهمية عندما يتعلق الأمر بالحكومة الأميركية.

لم يستطع ██████ أن يتمالك نفسه عن الابتسام، مع أنه حاول جاهداً أن يبقى عابساً. كان مفترضاً أن أشاهد القسوة والخشونة.

- هل أنت جاهز للعمل معنا؟ وإلاّ سيصبح وضعك سيئاً للغاية. قال الرجل مواصلاً حديثه.

- تعرف أنني أعرف أنكم تعرفون أنني لم أفعل شيئاً. أنتم تحجزونني لأن بلدكم قوي بما فيه الكفاية ليكون غير عادل، وهي ليست المرة الأولى التي تخطفون فيها أفريقيين وتستعبدونهم.

- القبائل الأفريقية هي من باعتنا أناسها. أجاب.

- لو كنت مكانك لما دافعت عن العبودية.

استطعت أن أميّز أن ██████ كان شخصاً ذا نفوذ كبير، ومع ذلك فإن الحكومة سمحت لوكالات أخرى بأن تجرّب حظها مع المعتقلين. إن الوضع شبيه جداً بجمل ميت في الصحراء عندما تجتمع شتى أنواع الحشرات عليها للبدء بأكل لحمه.

- إن لم تتعاون معنا فسنرسلك إلى المحكمة وستقضي بقية حياتك في السجن. قال ██████.

- وهو ما أفعله تماماً!

– يجب أن تعترف بما فعلت. قال ██████ مشيراً إلى مجلد كبير أمام ██████.

– وماذا فعلت؟

– أنت تعرف ماذا فعلت.

– أنتم تعرفون ما فعلت. لست خائفاً. إذا كانت لديكم أسئلة بإمكاني الإجابة عليها. قلت.

– إنني أعمل منذ فترة مع ██████ على قضيتك. ██████ رحلوا، ولكني مازلت هنا لأمنحك فرصةً أخرى.

– احتفظ بالفرصة لنفسك، لا أحتاج إلى فرصة.

كانت الغاية من هذه الجلسة هي تخويفي، ولكنها ذهبت أبعد من ذلك. لقد اختفى ██████ وهذا جيد، ولم أره مرةً أخرى أبداً، وظل ██████ ██████ يحقق معي لبعض الوقت ولكن لم يكن هناك شيء جديد. كان ██████ ██████ كلاهما يستخدمان أساليب تقليدية مضى عليها الزمن وتقنيات بتّ أعرفها أفضل منهما.

– ما اسم زوجتك الحالية؟ السؤال المفضل لـ ██████. عندما وصلت إلى كوبا في ██████ أغسطس ٢٠٠٢ كنت متعباً جسدياً وذهنياً إلى درجة أنني نسيت اسم زوجتي الحرفي وقدمت لهم اسماً آخر مغايراً. أراد ██████ ██ أن يبرهن أنني كذّاب.

– اسمع، لن تقدم لنا معلومات لا نعرفها مسبقاً. ولكن إذا واصلت رفضك وكذبك فسنستخدم الأسوأ معك. – واصل ██████ كلامه: – لقد حققت مع معتقلين آخرين ووجدت أنهم أبرياء. لدي حقاً مشكلة مع النوم بوجود أناس يعانون في المبنى نفسه. ولكنك مختلف. أنت فريد. لا يوجد شيء يجرمك حقاً بتهمة، ولكن هناك الكثير من الأمور من المستحيل ألاّ تكون انخرطت فيها.

– وما هي القشة التي قصمت ظهر البعير؟

– لا أعرف! أجابني ██████. كان ██████ محترماً وقد

احترمت صراحة ████ كثيراً. لقد عُيّن ████ لتعذيبي ولكنه فشل كلياً، الأمر الذي أدى إلى ابتعاد ████ عن قضيتي. بالنسبة لي، كان ████ شيطاناً. كان ████ دائماً يضحك على نحوٍ ساخر.

قال لي ████ ذات مرة:

- أنت فظّ جداً.

- وكذلك أنت! أجبته.

لم تثمر جلساتنا عن شيء. كان ████ كلاهما يريدان أن أعترف بأنني جزء من مؤامرة الألفية، ولم أكن كذلك بالطبع. إن الطريقة الوحيدة لجعلي أعترف بشيء لم أرتكبه هي تعذيبي فوق الحد الذي أحتمله من الألم. "هل قلت إنني أكذب بخصوص ذلك؟ حسناً، ليكن في علمك أنْ ليس لدي مبرر لئلا أكذب. يبدو أنك لم تعد مؤثراً أكثر من مائة محقق مرّوا علي مؤخراً". قلت له. كان ████ يلعب دور المحقق الذكي - رجل سيئ.

- أنت غريب الأطوار، هل تعرف ذلك؟

- كما تشاء.

- نحن هنا لنمنحك فرصة. أصبح لي فترة في المبنى، وسأسافر قريباً، لذا إن لم تتعاون... واصل ████ حديثه.

- رحلة سعيدة! شعرت بالفرح لكون ████ سيغادر لأني لم أجد ████.

- إنك تتكلم الإنكليزية بلكنة فرنسية.

- آه، يا إلهي، اعتقدت أنني أتكلم مثل شكسبير. قلت بسخرية.

- كلا، لغتك جيدة. أنا أقصد اللكنة فقط. كان ████ مهذباً وشخصاً صادقاً.

- انظر، لدينا العديد من التقارير تربطك بشتى أشكال الجريمة، ولكن لا يوجد ما يجرمّك. هناك فقط الكثير من الأمور الصغيرة. لن نتجاهل تلك الأمور ونطلق سراحك.

- لست مهتماً برحمتكم. لا أريد أن يُطلق سراحي إلا بعد أن تكتمل قضيتي عندكم

وتغدو واضحة. لقد تعبت من إطلاق السراح والاعتقال ثانيةً في سلسلة لامتناهية.

- أنت تحتاج حريتك ونحن نريد المعلومات. أعطنا ما نحتاج لتأخذ بدورك ما تحتاج. قال ■■■■.

تجادلنا نحن الثلاثة على هذا النحو لعدة أيام دون أي نجاح. عندئذ دخل الشخص الذي أسميتُه "أنا رجل" المسرح. كان الوقت حوالي منتصف النهار عندما انضم ■■■■ إلى ■■■■ بينما كانوا يحققون معي. أشار ■■■■ إلى ■■■■ وقال:

- هذا ■■■■. إنه يعمل تحت إمرتي. سيلتقي بك غالباً من بين آخرين يعملون تحت إمرتي. ولكنك ستراني أنا أيضاً.

جلس ■■■■ هناك كحجر. لم يلقِ عليّ التحية. كان منهمكاً في كتابة ملاحظاته، وبالكاد كان ينظر إليّ، في حين كان ■■■■ الآخرون يسألونني. وفجأةً قال: دعك من التظارف، أجب فقط على أسئلة ■■■■.

أردت أن أقول "أيها أخرق". كان ■■■■ ■■■■ ■■■■ قد اختير مع آخرين للقيام بالأعمال القذرة. إنه يتمتع بالخبرة في المخابرات العسكرية. كان قد حقق مع العراقيين الذين اعتقلوا في عملية عاصفة الصحراء. يتكلم ■■■■ ■■■■ ■■■■. لم يكن يستمع إلاّ إلى صوته. كنت أتساءل دائماً: هل هذا الرجل يصغي إلى ما أقول؟ أو دعوني أقُل إنّ أذنيه كانتا مبرمجتين على ما يريد هو سماعه.[١]

قال ذات مرة: "أنا مؤخرة الحمار. هكذا يعرفني الناس، وليست لدي أية مشكلة".

اضطررت التعامل في الشهر التالي مع ■■■■ وعصابته الصغيرة. "لسنا

[١] في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإدارية (ARB)، عام ٢٠٠٥، وصف محمدو ولد صلاحي عضواً في فريق التحقيق العسكري كان برتبة رقيب أول في الجيش بقوله: "لم أكرهه ولكنه كان شخصاً كريهاً جداً". ويبدو أن صلاحي قد أعطى اسمه الحقيقي لهيئة ARB المحلّفة. أعتقد أن هذا المحقق هو نفسه الذي يلقّبه صلاحي بـ"أنا الرجل" في هذا المشهد، وبلقب "الرجل الفظ" الذي يبدو غير مشطوب في الصفحة ٢٢٢. وهكذا يبدو أن المحققين الذين يلعبون الدور الرئيسي هم في فريق المهام الخاصة المتعلقة بصلاحي. (نسخة ARB، ص٢٥).

. نحن لا نترك كذب المعتقل يذهب دون عقاب، ولكن قد لا يكون تعذيباً جسدياً"، قال . كنت شاهداً في الأشهر الأخيرة على تعذيب السجناء بموجب أوامر .[١] كان يؤخذ كل ليلة إلى التحقيق ويتعرض إلى الموسيقى الصاخبة والصور المفزعة والتحرش الجنسي. كنت أرى عندما كان يأخذه الحرّاس في المساء ويجلبونه مع الفجر. كان ممنوعاً من الصلاة أثناء التحقيق. أتذكر أنني سألت الأخوة ما العمل في مثل هذه الحالات. "صلِّ في قلبك طالما أن الخطأ ليس خطأك" قال لي شيخ جزائري كان مسجوناً عندنا في المبنى. استفدت من هذه الفتوى لأنني تعرّضت أيضاً إلى الوضع نفسه ما يقارب عاماً - لم يوفّر الغرفة الباردة. عانى الشيء ذاته، فضلاً عن ضرب الحرّاس قرآنه بالأرض من أجل كسر إرادته، كما أنهم دفعوا وجهه بعنف تجاه أرضية الغرفة الوسخة. كما تعرّض أيضاً للتحرش الجنسي.

لقد شاهدته أيضاً يأخذونه ويعيدونه كل ليلة، ناهيكم عن شابين مسكينين، يمني وسعودي، كذلك تعرّضا بقسوة للتعذيب بالطريقة نفسها.[٢] ولكن طالما أني أتحدث عن تجربتي الخاصة في هذا الكتاب، والتي تعكس مثالاً على الممارسات الشريرة التي

١ لا نعرف من هو الذي يسميه صلاحي هنا على وجه التحديد. إنها مشكلة متعلقة بالتسجيل، ولكن المحققين العسكريين في غوانتانامو كانوا تحت إمرة قوى المهام المشتركة في غوانتانامو(JTF-GTMO) التي كان يقودها في هذه المرحلة الجنرال جيوفري ميللر. وإن أساليب التحقيق المتبعة من قبل المحققين قد أجيزت بموجب مذكرة "تقنيات المقاومة المضادة" التي وقّع عليها وزير الدفاع دونالد رمسفيلد في ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٢، ومن ثم في ١٣ مارس ٢٠٠٣، برأي قانوني أبداه جون يوو من مكتب الاستشارة القانونية، ومن ثم بمذكرة تفويضية أخرى وقّع عليها رمسفيلد في ١٦ أبريل ٢٠٠٣. وجدت لجنة الخدمات المسلحة التابع لمجلس الشيوخ أن الجنرال ميللر طالب بموافقة البنتاغون الرسمية، بطلب يحمل توقيع رمسفيلد شخصياً، على "خطة تحقيق خاصة" بمحمدو ولد صلاحي. (SASC، ص١٣٥-١٣٨).

٢ إن تقرير شميدت- فيرلو، وتقرير المفتش العام التابع لوزارة العدل، وتقرير لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ، ومصادر أخرى عديدة، كلها وثّقت الإهانة الجنسية والاعتداء الجنسي على السجناء في غوانتانامو، وأنها غالباً كانت تنفّذ من قبل المحققات العسكريات. وبعد نشر تقرير شميدت- فيرلو في عام ٢٠٠٥ نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالاً بعنوان "نساء غوانتانامو" ينتقد بشدة "استغلال المرأة والحطّ من شأنها في الجيش". والملاحظ أن التقرير أورد في صفحاته المتتالية "وصفاً مرعباً لاستخدام النساء الجنديات كمادة جنسية في التحقيقات". انظر:
http://www.nytimes .com/200515/07//opinion/15fri1.html.

جرت تحت اسم الحرب على الإرهاب، فإني لا أريد التحدث عن التجارب الفردية التي شهدتها. قد آتي على ذكرها في مناسبة أخرى إن شاء الله.

عندما أخبرني ████████ عن نوايا هذا الفريق أصابني الرعب، جفّ فمي وبدأت أتعرق وبدأ قلبي ينبض بعنف، وبعد أسبوعين ظهر لدي فرط في ضغط الدم، وبدأت تنتابني حالة من الغثيان والصداع وألم المعدة. سقطت على كرسيّي، وعرفت أيضاً أنه كان يكذب بخصوص التعذيب الجسدي الخالي من الألم. لكنّي تماسكت.

قلت: لا يهمني.

تسارعت الأمور أكثر مما توقعت. أرسلني ████████ إلى المبنى حيث أخبرت أصدقائي المعتقلين بتولّي فرقة التعذيب زمام الأمور.

"لستَ طفلاً. هؤلاء المعذّبين لا يستحقون حتى التفكير بهم، ليكن إيمانك بالله قوياً"، قال ████████████████ المجاور لي. حقاً كنت أتصرف كطفل طوال النهار قبل أن يخرجني الحرّاس بصعوبة من مبنى الزنازين ذلك اليوم.

لا يمكنكم تقدير مدى الرعب الذي يصيب إنساناً يُهدَّد بالتعذيب. إنه يتحول حرفياً إلى طفل.

ظهر الفريق المرافق عند زنزانتي.

- يجب أن تنتقل.

- إلى أين؟

- هذا ليس شأنك، قال الحارس ████████ المكروه. ليست بالخطوة الذكية منه أنه كتب مصيري على قفازيه.

- صلّوا لأجلي يا إخوتي.

سيتم نقلي إلى ████████████ وكان في ذلك الحين مخصصاً لأسوأ المعتقلين في المعسكر، ولا يمكن نقل شخص إليه إلاّ بعد عدة تواقيع من بينها ربما توقيع رئيس الولايات المتحدة.

إنّ الذين قضوا بعض الوقت في ████████████████،

الذي كان مصمماً للتعذيب، هم معتقل كويتي ومعتقل آخر من ██████.[١]

عندما دخلت المبنى كان خالياً من كل مظاهر الحياة. وضعوني في آخر المبنى، وكان هناك "يمني" في أوّله، لذا لم يكن هناك أي نوع من الاتصال بيننا. ووضعوا ██████ في الوسط، ولكن بدون اتصال أيضاً. فيما بعد نُقل الاثنان إلى مكان آخر، وهكذا بقي المبنى بأكمله محجوزاً لي، يا الله ██████ ██████، والحرّاس الذين كانوا يحرسونهم. لقد تعرّضت بشكل كامل للرحمة المطلقة ██████، ولكن كان هناك قليل من الرحمة.

في المبنى بدأت الوصفة: جُرِّدت من عناصر راحتي باستثناء فراش رقيق وبطانية صغيرة للغاية ورقيقة ومهترئة. جُرِّدت من كتبي ومن قرآني ومن صابوني ومعجون أسناني ومن لفافة ورق التواليت. أما الزنزانة - بالأحرى الصندوق - فكانت درجة الحرارة قد خُفِّضت فيها إلى درجة أنني كنت أرتجف معظم الوقت. كنت محروماً من رؤية ضوء النهار، وبين الفينة والأخرى كانوا يطلّون علي وقت الراحة في الليل ليمنعوني من رؤية الآخرين أو التفاعل مع سجناء آخرين. بكلمة واحدة، كنت أعيش في الإرهاب. لم أذق طعم النوم سبعين يوماً على التوالي: كان التحقيق جارياً على مدى الأربع والعشرين ساعة، وكانت هناك ثلاث وأحياناً أربع مناوبات يومياً، ونادراً ما كان يمرّ يوم عطلة. لا أتذكر أنني نمت ليلة واحدة بهدوء. "إذا بدأت بالتعاون معنا فستأخذ قسطاً من النوم والوجبات الساخنة"، اعتاد ██████ أن يقول لي مراراً وتكراراً.

وفي غضون يومين من انتقالي ظهر ██████ من اللجنة الدولية للصليب

١ إنه الآن حوالي منتصف يونيو ٢٠٠٣. أخبر محمدو ولد صلاحي هيئة إعادة النظر الإدارية بما يلي: "حوالي الثامنة عشر من يونيو ٢٠٠٣ أخذت من مبنى مايك إلى مبنى الهند من أجل عزلي التام". إن معتقلين سابقين حجزوا مرّة في مبنى الهند وصفوا الزنازين الانفرادية الخالية من النوافذ بأن درجات الحرارة فيها كانت قاسية (انظر مثلا: "الناس الذين نسيهم القانون" بقلم جيمس ميك في صحيفة الغارديان في ٢ ديسمبر ٢٠٠٣). والسجين الثاني الذي كان يقيم في المبنى الهندي عندما وصل محمدو ولد صلاحي يبدو أنه يمني كما يحدده الكاتب في المقطع التالي. نسخة ARB، ص٢٦. انظر الرابط:
http://www.theguardian.com /world/2003/dec/03/guantanamo.usa1.

الأحمر أمام زنزانتي وسألني إذا ما كنت أرغب في كتابة رسالة.

قلت: "نعم"! ناولني ██████ ورقة وبدأت أكتب: "أمي، أحبك، أردت فقط أن أقول لك إنني أحبك"! وبعد تلك الزيارة لم ألتقِ اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلاّ بعد أكثر من عام. حاولوا رؤيتي، ولكن عبثاً كانوا يحاولون.[1]

قلت عندما جرّني ██████ و ██████ إلى التحقيق:

– بدأتم بتعذيبي ولكنكم لا تعرفون المقدار الذي يمكنني تحمّله، فقد ينتهي الأمر بقتلي.

– إننا نقوم بأشياء نُصحنا بها، ولكن القرار النهائي ليس في أيدينا، قال ██████ ██████.

– أردت فقط أن أحذّركم: أنا أعاني جرّاء الظروف القاسية التي تعرّضونني إليها. لقد تعرضت مسبقاً إلى نوبة من ألم العصب الوركي. والتعذيب لن يجعلني متعاوناً أكثر.

– وفقاً لتجربتي ستتعاون. نحن أقوى منك، ونمتلك مصادر أكثر، قال ██████ ██████.

لم يكن ██████ يريدني أن أعرف اسمه مطلقاً، ولكنه صُعق عندما ناداه أحد زملائه خطأً باسمه الحقيقي، كأنما تلقّى لكمة قوية. إنه لا يدري أنني عرفت اسمه، ولكني عرفته.

لقد تعاظم سوء ██████ مع مرور كل يوم. بدأ يستعرض قضيتي، بدأ من قصة ██████ وتجنيدي إياه من أجل هجمات الحادي عشر من سبتمبر.[2]

– لماذا يكذب علينا؟ قال ██████.

– لا أعرف.

---

١ إن سجل قوى المهام المشتركة في غوانتانامو يسرد لقاءً مستمراً بين الوفد الزائر من اللجنة الدولية للصليب الأحمر وقائد غوانتانامو الجنرال جيفري ميللر. وخلال اللقاء "أخبر جيفري ميللر قائد فريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر فينسنت كامارد أنّ ISN 760 و580 و 990 لا يمكن الاتصال بهم خلال هذه الزيارة لضرورات عسكرية". رقم محمدو ولد صلاحي هو ISN 760 .
للاطلاع على محضر اجتماع الصليب الأحمر انظر الرابط:
http://www.washingtonpost.com/wp-srv/nation/documents/GitmoMemo10-09-03.pdf.

٢ يبدو واضحاً من السياق أن المحقق يشير إلى رمزي بن الشيبة.

- كل ما لديك هو أن تقول "لا أتذكر"، "لا أعرف"، "لم أفعل شيئاً". أتعتقد أنك بهذا ستؤثر على هيئة أميركية محلّفة؟ في عيون الأميركيين أنتم مدانون. حسبك أن تنظر إلى نفسك بالبذلة البرتقالية والسلاسل، ويكفي أن تكوم مسلماً وعربياً حتى ندينك، قال ██████.

- هذا ظلم!

- نحن نعرف أنك مجرم.

- وما هي جريمتي؟

- أنت قُلْ لي، وسنخفض حكمك إلى ثلاثين عاماً، حيث ستكون لديك فرصة لتبدأ حياةً جديدة، وإلاّ لن ترى ضوء النهار أبداً. إن لم تتعاون معنا سنضعك في حفرة ونمسح اسمك من قائمة المعتقلين لدينا.

انتابني خوف شديد لأنه لو لم يكن مدعوماً من جهة حكومية عليا لما استطاع أن يتحدث بهذه اللغة. إنه لا يتكلم من فراغ.

- لا أعرف إلى أين ستمضي بي، ولكن افعل ما تشاء.

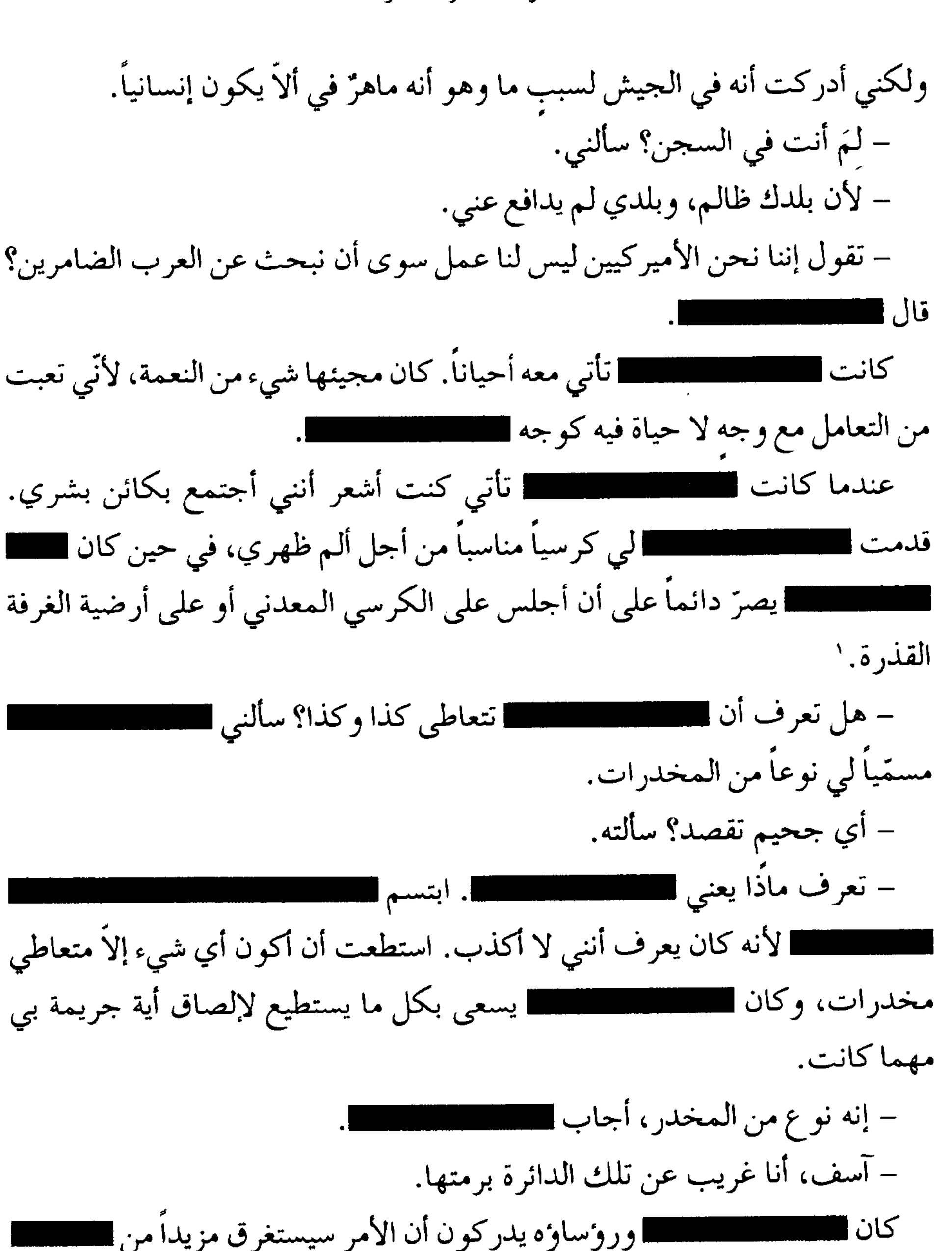
وفي جلسة أخرى عندما كان يتحدث إليّ ██ ██████████، سألني:

- أي سمٍّ تعني بـ"السكّر والشاي"؟

- عنيت ما قلت تماماً، لم أكن أتحدث بالرموز.

- تباً لك! قال ██████.

وجدت أن من الأفضل ألاّ أحطّ من قيمتي وأنزل إلى مستواه، لذا لم أرد عليه. عندما فشل في الحصول على ما يريد جعلني أنهض وظهري منحنٍ، لأن يديّ كانتا مقيدتين بقدميّ وخصري مربوط بالأرض. لقد أخفض درجات الحرارة إلى الحد الأدنى، وأكدّ على أن يقيني الحرّاس في ذلك الوضع حتى يعطي أوامر أخرى. كان معتاداً على إثارة الهرج والمرج قبل الذهاب إلى الغداء، الذي كان يستغرق حوالي ثلاث ساعات على الأقل. يحب ██████ الطعام، لم يغب عن الغداء أبداً. كنت أتساءل دائماً كيف استطاع ██████ أن يجتاز اختبار الرشاقة في الجيش،



ولكني أدركت أنه في الجيش لسببٍ ما وهو أنه ماهرٌ في ألاّ يكون إنسانياً.

– لِمَ أنت في السجن؟ سألني.

– لأن بلدك ظالم، وبلدي لم يدافع عني.

– تقول إننا نحن الأميركيين ليس لنا عمل سوى أن نبحث عن العرب الضامرين؟ قال .

كانت تأتي معه أحياناً. كان مجيئها شيء من النعمة، لأنّي تعبت من التعامل مع وجهٍ لا حياة فيه كوجه .

عندما كانت تأتي كنت أشعر أنني أجتمع بكائن بشري. قدمت لي كرسياً مناسباً من أجل ألم ظهري، في حين كان يصرّ دائماً على أن أجلس على الكرسي المعدني أو على أرضية الغرفة القذرة.[1]

– هل تعرف أن تتعاطى كذا وكذا؟ سألني مسمّياً لي نوعاً من المخدرات.

– أي جحيم تقصد؟ سألته.

– تعرف ماذا يعني . ابتسم لأنه كان يعرف أنني لا أكذب. استطعت أن أكون أي شيء إلاّ متعاطي مخدرات، وكان يسعى بكل ما يستطيع لإلصاق أية جريمة بي مهما كانت.

– إنه نوع من المخدر، أجاب .

– آسف، أنا غريب عن تلك الدائرة برمتها.

كان ورؤساؤه يدركون أن الأمر سيستغرق مزيداً من ، لذا قرروا أن يُدخلوا المحقق على الخط. أحياناً كانوا يأخذونني إلى مكاني. كان الفريق المرافق مشوّشاً.

---

١ يبدو أن محمدو ولد صلاحي يقارن بين طريقتَي تعامل اثنين من محققيه، من المحتمل أن تكون المحققة التي ذُكرت في وثائق الحكومة باسم "سامانثا" والمحقق الذي سمّاه "أنا الرجل".

- قالوا ؟ هذا غريب! قال أحد الحرّاس.

عندما دخلنا البناء لم يكن حرّاس المراقبة هناك. "اتصل بمركز عمليات السجن" قال الآخر.[١] وبعد الاتصال باللاسلكي أُمر الحارسان بالبقاء معي في الغرفة حتى يأتي محققيّ. "ثمة خللٌ ما" قال الـ . لم يدرك الفريق المرافق لي أنني فهمت ما يتحدثون عنه، فهم يفترضون دائماً أن المعتقلين لا يتكلمون الإنكليزية، وهم فعلاً كذلك. تحاول القيادة في المعسكر أن تحذّر الحرّاس دائماً من خلال لوحات إعلانية مثل: "لا تساعد العدو" و"الكلام الطائش يفشي الأسرار"، ولكن رغم ذلك كان الحرّاس يتحدثون إلى بعضهم البعض.

كانت من جهة الحجرة النظامية للتحقيق، ثم يأتي مبنى التعذيب، ومن ثم مبنى الإدارة. قلبي كان ينبض بعنف، كنت أفقد صوابي. أكره التعذيب جداً. دخل نحيل وضئيل الحجم الغرفة ثم دخل بعده السيد الرجل الفظ.[٢]

كان

. لم يلقِ التحية عليّ ولم يحرّر يدَيّ.

- ما هذا؟ سألت وعرضت عليّ كيساً بلاستيكياً بداخله قضيب لحام صغير.[٣]

- إنه بخور هندي، أجبت. هذا أول شيء خطر على بالي. اعتقدت أن تريد أن تمنحني المتعة بحرق البخور أثناء التحقيق. فكرة جيدة.

---

١ وفقاً لإجراءات العمل القياسية لـ"معسكر دلتا" في عام ٢٠٠٣، فإن مركز عمليات السجن (DOC) هو الذي يدير كل التحركات في غوانتانامو.

٢ "السيد الرجل الفظ" تظهر هنا غير مشطوبة.

٣ يبدو من الضمائر المشطوبة هنا، والتي تصبح واضحة فيما بعد في هذا المشهد من الضمائر غير المشطوبة، أن المحقق المقصود هنا أنثى. في نسخة ARB يشير محمدو ولد صلاحي بأنه بعد يومين من بداية التحقيق معه من قبل رقيب أول انضمّت محققة إلى الفريق. ويبدو أن هذه المحققة هي ثاني أربعة محققين سينفذون "خطة التحقيق الخاصة"، وستصبح الشخصية المركزية. (نسخة ARB، ص٢٥).

- كلا، أنت مخطئ! كادت ██████ أن تلصقه بوجهي.
- لا أعرف، قلت.
- الآن وجدنا دليلاً ضدك، لا نحتاج شيئاً آخر، قالت ██████.

أي جحيم يجري، هل ذلك جزء من قنبلة يريدون توريطي بها؟

- هذا قضيب لحام كنت تخبّئه في حمامك، قالت ██████.
- كيف يمكن أن يكون شيء كهذا في زنزانتي ما لم تكونوا أنتم أو حرّاسي أعطيتموني إياه؟ ليست لدي أية علاقات بأي معتقل.
- أنت ذكي، بإمكانك الحصول عليه عبر تهريبه، قالت ██████.
- كيف؟
- خذوه إلى الحمام، قالت ██████. ██████

██████

██████. أمسك بي الحرّاس وأخذوني إلى الحمام.

قلت في نفسي: "هل هؤلاء الناس يائسون إلى هذه الدرجة لإلقاء قذارة عليّ، أعني أية قذارة كانت؟" في الوقت ذاته كان حارس ██████ يشرح لـ ██████ ██████ كيف تصل قضبان اللحام هذه إلى الزنازين.

التقطت كلماته الأخيرة عندما كان الحرّاس يعيدونني من التواليت. "إنه شائع. يرميه المتعاقدون في التواليتات على الدوام بعد الانتهاء منه". صمت الجميع عند دخولي. عادت ██████ ووضعت قضيب اللحام في ظرف. ██████ لم تقدم نفسها على الإطلاق، وأنا لم أتوقع ██████ أن تفعل كذلك. وبقدر ما تكون نيّة محقق سيئة فإنه ██████ يغطي أو ██████ هويته. ولكن هؤلاء الأشخاص يُصعَقون دائماً عندما يناديهم أحد أصدقائهم بأسمائهم دون دراية، وهذا ما حصل مع ██████ عندما ناداها أحد زملائها باسمها الصريح بشكل عفوي.

- كيف هو وضعك الجديد؟ سألت ██████.
- وضعي عظيم! أجبتها. في الواقع كنت أعاني ولكني لم أرغب بإرضائهم بأنهم حققوا هدفهم الشيطاني.

- أعتقد أنه مرتاح أكثر من اللازم، قالت ████.

- إنزل عن الكرسي! قالت ████ ساحبةً الكرسي من تحتي. أفضّل أن يجلس مزارع قذر على الكرسي أكثر من حمار ذكي مثلك، واصلت ████ عندما ارتطم جسمي بالأرضية الوسخة للغرفة. تقتلني ████ ████. فمنذ العشرين من يونيو لم أحصل على راحة منهم. من الواضح أن ████ كان يتعب من التعامل معي، لذا فقد قدّم له رئيسه دماً جديداً يظهره في شخصيته ████ يفرد أمامي صور بعض المشتبه بهم في هجمات الحادي عشر من سبتمبر وبصورة أساسية ████ ████.

- انظر إلى هؤلاء الفاعلين بأمهاتهم، قال ████.

- حسناً، الآن أخبرنا ماذا تعرف عن هؤلاء الفاعلين بأمهاتهم! قال ████ ████.

- أقسم بالله أنني لن أفوه ولو بكلمة واحدة، وليحدث ما يحدث.

- انهض! يا حرّاس! إن لم تنهض ستشهد الويلات، قال ████.

وقبل أن يُدخل زمرة التعذيب الغرفة نهضتُ وظهري منحنٍ بسبب ████ ████ ████ لم أستطع أن أنهض مستقيم الظهر.[1] اضطررت لتحمّل الألم المنتشر في كل جسدي طوال النهار. تعاملت مع الألم بصمت. بقيت أناجي ربّي حتى تعب المغيرون مني وأرسلوني إلى زنزانتي مع نهاية النهار، بعد نفاد ما في حوزتهم من الإهانات في ذلك اليوم. لم أتفوّه بكلمة واحدة، كما لو أني لم أكن هناك. قل أنت أيها القارئ العزيز كلمات لهم أكثر مما فعلت.

---

١ على الأرجح بسبب التقييد بالأصفاد. قبل بضع صفحات وصف محمدو ولد صلاحي كيف أن المحقق "جعلني أقف وظهري منحنٍ لأن يدي كانتا مقيدتين إلى قدميّ وخاصرتي مربوطة بأرضية الغرفة". وجدت لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ أن تقييد محمدو ولد صلاحي بأرضية الغرفة كان موصوفاً في "خطة التحقيق الخاصة" الخاصة به. (لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ، ص١٣٧).

– إذا أردت أن تذهب إلى الحمام لقضاء حاجتك اسأل بأدب: "من فضلك هل أستطيع؟" وإلاّ ستعملها في سروالك، قالت ██████.

وقبل طعام الغداء كرّس ██████████ الوقت للحديث بالسوء عن عائلتي، واصفين زوجتي بأقذر الصفات الممكن تخيّلها. ومن أجل كرامة أسرتي أبعدتُ أسئلتهم المنحطّة عن كتابي. لكن ██████ لا يقدّم لي سوى الماء والوجبات الباردة. "أنت لا تستحق وجبة ساخنة ما لم تتعاون معنا"، قالت ██████ مرة. كلما كانوا يبدأون بتعذيبي كنت أرفض تناول الماء والطعام. جلبت ██████ طعامها من الخارج لإغاظتي.

– لذيذ، لحم فخذ الخنزير شهي، قالت ██████ وهي تتناول وجبتها.

تلك الفترة من بعد الظهر كانت مخصصة للتحرش الجنسي. ██████ ████████████████████ ████████████ البلوزة وتهمس في أذني: "أتعلم كم أنا شهية في السرير؟" و"الرجال الأميركيون يحبّون أن أهمس في آذانهم. ████████████ ████████████████████ ██████ جسمي عظيم!". بين الحين والآخر كانت تُظهر لي الجانب الآخر من العملة. "إذا بدأت بالتعاون معنا فسأتوقف عن التحرش بك، أما إذا لم تتعاون فسأظل أعمل الشيء نفسه معك بل وأسوأ من ذلك في كل يوم. أنا ████████████ لهذا السبب اختارتني حكومتي للقيام بهذا العمل. كان عملي ناجحاً على الدوام. ممارسة الجنس مع شخص لا تعتبر تعذيباً".[1]

كانت ██████ تقود المونولوج ████████████ ██████. بين لحظة وأخرى كان ██████ يدخل ويحاول أن يجعلني

[1] هذه الحادثة موثّقة بشكل جيد في تقرير شميدت– فيرلو (الضابط الملازم راندلشميدت والضابط الملازم جون فيرلو) وهو بعنوان "نظام الجيش ٦–١٥: التقرير النهائي – التحقيق في مزاعم مكتب التحقيقات الفيدرالي حول الإساءة إلى المعتقلين في السجن الكوبي في خليج غوانتانامو"، ص٢٢–٢٣؛ وتقرير المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص١٢٤، وتقارير أخرى.

أتكلم. "لا يمكنك أن تهزمنا. لدينا الكثير من الناس وسنظلّ نهينك بـ ■■■ ■■■ الأميركية".

"عندي صديقة ■■■ سأجلبها معي غداً لمساعدتي" قالت ■■■. "على الأقل ■■■ تتعاون"، قالت ■■■ بسخرية. لم تجرّدني من لباسي ولكنها كانت تلمس أعضائي الخاصة بجسمها.

بدأت مرة أخرى في عصر ذلك اليوم بممارسة التعذيب على معتقل مسكين آخر. استطعت سماع الموسيقى الصاخبة.

- هل تريد أن أرسلك إلى ذاك الفريق، أم أنك ستتعاون؟ سأل ■■■.

لم أحر جواباً.

اعتاد الحرّاس أن ينادوا ■■■ لأن معظم التعذيب كان يجري في تلك المباني وفي الليل، عندما يخيم الظلام على المعسكر الحزين.[1]

أرسلني ■■■ إلى زنزانتي وهو يتوعّدني: "اليوم كان فقط البداية، ما سيأتي سيكون أسوأ".

ولكن من أجل أن يعرف ■■■ مدى التعذيب الذي يتحمله المعتقل، فإنهم يحتاجون إلى مساعد طبي. أرسلوني إلى طبيب كان ضابطاً في البحرية، يمكنني وصفه بـ"الشخص الإنساني واللطيف".[2]

"■■■. أنا لا أفحص الناس الملوّثين بتلك القذارة" قال لـ ■■■ المرافق.

---

١ قد يكون هذا هو "النادي الليلي" الذي يشير إليه محمدو ولد صلاحي في مكان آخر في مخطوطته عندما يتحدث عن معتقل كان "عضواً في النادي الليلي" وكان الجندي "أحد رواد النادي الليلي".

٢ إن أوراق المحكمة المحفوظة في ملف استئناف دعوى مثول محمدو ولد صلاحي أمام المحكمة تشير إلى سجلات قد تكون لها علاقة بهذا الفحص الطبي: "توثّق السّجلات الطبية ازدياداً في الألم في أسفل الظهر لأنه كان في الأيام الخمسة الماضية معزولاً وتحت ضغط تحقيق أكثر شدةً وتوتراً". ويلاحظ التقرير أن دواء الألم الذي وُصف له لم يتم تلبيته إدارياً خلال شهر يونيو عام ٢٠٠٣ لأنه كان في تلك الفترة في "الحجز". (إيجاز ٩ يونيو ٢٠١٠ للمستأنف ضده) متوفر على:
https://www.aclu.org/sites/default/files/assets / brief_for_appellee__july_8_2010.pdf.

فقال المرافق: "إن السيد يعاني من ألم شديد في العصب الوركي".

أخبرتُ الطبيب: "لم أعد قادراً على تحمّل الظروف التي أنا فيها".

"أنا متوقف عن أخذ دواء ألم الظهر وعن تناول "الإنشور" وهما ضروريان لبقائي على قيد الحياة"، قلت له. كان المحققون ينظمون الجلسات في الفترة التي كان من المفروض أن آخذ فيها دوائي.

كنت آخذ نوعين من الدواء: حبوب من أجل ألم العصب الوركي، و"الإنشور" لتعويض النقص في الوزن الذي بدأت أعانيه منذ اعتقالي. آخذ دوائي عادةً بين الساعة الرابعة والخامسة مساءً، وكان المحققون يأخذونني إلى التحقيق في تلك الفترة حتى يضمنوا أنني معهم وكانوا يمنعونني من أخذ الدواء. ولكن بربكم، أية فائدة سيجنون ما دام المحققون يعملون لإيذاء ظهري ومن ثم يعطونني دواءً لألم الظهر، أو يسبّبون لي سوء تغذية ثم يريدونني أن أستعيد وزني؟

"ليست لي سلطة كبيرة، أستطيع أن أكتب توصية لأجلك، ولكن يبقى القرار بيد الآخرين. قضيتك في منتهى الخطورة"، قال لي الطبيب وغادر العيادة مع بعض الأمل، ولكن وضعي ازداد سوءاً.

"اسمعوا، لقد قال الطبيب إن ضغطي عالٍ، وذلك خطير لأنني أعاني أساساً من ضعف النبض كما تعرفون"، قلت للمحقق ██████ عندما أخذوني إلى التحقيق بعد لقائي مع الطبيب.

"أنت بخير، تكلّمنا مع الطبيب"، أجابني المحققون، عندئذٍ عرفت أن وصفتهم وليست وصفتي هي التي ستُطبَّق وتستمر.

كان التعذيب يزداد يوماً بعد يوم، واشترك الحرّاس فيه بنشاط. كان ██████ ██ يخبرهم ماذا عليهم أن يفعلوا بالمعتقلين عند إعادتهم من التحقيق إلى المبنى الذي يحرسونه. كان الحرّاس الذي يحرسونني يقرعون باب الزنزانة بقوة بهدف حرماني من النوم، وكانوا يلعنوني من دون سبب، ويوقظونني من النوم مراراً، إن لم يكن لديهم قرار من المحققين بتركي آخذ قسطاً من الراحة. لم أشتكِ للمحققيّ حول ممارسات الحرّاس لأنني كنت على يقين بأنهم هم الذين خططوا كل شيء لهم.

كما وعد، جرّني ██████ في وقت مبكر ذلك اليوم. كنت وحيداً في

زنزانتي عندما سمعت الحرّاس حاملين السلاسل الثقيلة ويصرخون أمام باب زنزانتي "الحجز"! انتابني خوف شديد وبدأ قلبي يخفق بعنف لأنني كنت أتوقّع الأسوأ. في الواقع إن منعي من رؤية الضوء جعلني "أستمتع" بالرحلة القصيرة بين زنزانتي الباردة الاستثنائية وغرفة التحقيق. كانت نعمة كبيرة أن تضربني شمس غوانتانامو الحارة. كنت أشعر بأن الحياة تتسلل إلى كلّ خلية من خلايا جسمي. كنت أحصل على هذه السعادة الوهمية لفترة قصيرة جداً على الدوام. كان هذا الشعور شبيهاً بشعور من يتعاطى المخدرات.

– كيف حالك؟ سألني مرافق بورتوريكي من الحرّاس بلغته الإنكليزية الضعيفة.

– أنا بخير، شكراً، وأنت كيف حالك؟

– لا تقلق ستعود إلى أسرتك، قال لي.

عندما قال ذلك لم أتمالك وانفجرت في ■■■■■■■■.[1]

لقد أصبحت في الآونة الأخيرة سريع التأثر بالكلمات. ماذا أصابني؟ إن كلمة واحدة لتهدئة الخاطر في هذا المحيط من العذاب كافية لتبكيني. ■■■■■■ ■■■■■■■■■■■■ كانت لدينا شعبة كاملة من البورتوريكيين.[2] كانوا يختلفون عن بقية الأميركيين، لم يكونوا مثلهم حذرين وعدوانيين. كانوا يأخذون المعتقلين أحياناً إلى الاستحمام. أحبّهم الجميع. ولكن كانوا يدخلون في المشاكل مع المسؤولين عن المعسكرات بسبب طريقة تعاملهم الإنساني والودود مع المعتقلين. لا أستطيع أن أتحدث بشكل موضوعي عن البورتوريكيين لأني لم أقابلهم بما فيه الكفاية، ولكن إذا ما طاب لك السؤال وسألت: هل مرّ عليك شخص سيئ من بورتوريكو؟ سيكون جوابي: كلا. وإذا ما سألت: هل يوجد بينهم أناس سيئون؟ حينئذٍ سأقول: لا أعرف. ينطبق هذا الكلام على السودانيين أيضاً.

قال: "■■■■■■■■■■■■■■ ولا تعطوه كرسياً" قال عامل D.O.C على اللاسلكي عندما أنزلني الفريق المرافق في ■■■■■■■■■■■■■ ■■■■■■ دخل ■■■■■■■■■■■■■ الغرفة. جلبوا

---

١ يبدو أمراً غير معقول أن تكون حكومة الولايات المتحدة قد شطبت كلمة "البكاء" هنا.

٢ ربما يشير محمدو ولد صلاحي هنا إلى مجموعة زنازين خاصة في كامب دلتا كان يحرسها حرّاس بورتوريكيين.

صورة رجل أميركي أسود يدعى ████████، وبعد أن رشوني بكرسي قديم[1] قالوا: "ستتحدث اليوم عن ████████ ████".

– لقد أخبرتكم ما أعرفه عن ████████.

– كلا، ما قلته كان قذارة. هل ستخبرنا بما يفيد؟

– كلا، ليس لدي ما يفيدكم.

سحب الـ ████ الجديد الكرسي المعدني من تحتي وتركني على الأرض.

– الآن، أخبرنا عن ████████!

– كلا، ذلك شيء من الماضي، قلت.

– نعم، أنت محق. وما دام من الماضي فحدثنا لنا عنه، فهو لن يؤذيك، قال الـ ████ الجديد.

– كلا.

– إذاً سنعلّمك اليوم الجنس الأميركي العظيم، انهض عن الأرض! قال ████ ████.

نهضت وأنا أعاني من الوضع المؤلم الذي رافقني على مدى الأيام السبعة الأخيرة.[2] أفضل أن أتبع الأوامر حتى لا يتفاقم الألم أكثر بتدخل الحرّاس في المشهد. كان الحرّاس يستغلون كل فرصة لضرب السجناء ضرباً مبرحاً. "حاول المعتقل أن يقاوم"، واستدركوا: كانت "حقيقة إنجيلية". تصوروا ماذا يمكن أن يُصدق؟ "أنت ذكي جداً، إن لم تقف على قدميك ستلقى ما لا يعجبك"، ████.

حالما وقفت على قدمي خلع ████ قميصيهما وبدأا يهرفان بكل القذارات التي يمكن للمرء تخيّلها، والتي لم أبالي بها كثيراً. ما جرحني في العمق هو إجباري على المشاركة في ممارسة الجنس ثلاثياً بأكثر الطرق انحطاطاً. إن ما لا يدركه الكثير من ████ هو أن الرجال يشعرون

١ لقد أصبح واضحاً الآن أن المحقق الأول كانت ترافقه محقّقة أخرى عندما هدّده محققه في الجلسة السابقة.

٢ ذاك الوضع هو على الأرجح الانحناء الإجباري السريع الذي سببه تقييد الرسغين بأرضية الغرفة.

بالأذى كالنساء تماماً عندما يُجبرون على ممارسة الجنس، وربما أكثر حتى نظراً للوضع التقليدي للرجل في المجتمع. التصق الاثنان ■■■■ بي، ولأقلها بشكل مكشوف: واحد من الأمام والآخر الأكبر عمراً من الخلف، وبدأ الذي كان من خلفي يفرك جسمه ■■■■ كله بي. وراح الاثنان يتفوهان بأقذر الكلمات معي، ويلعبان بأعضائي الجنسية. سأعفيكم هنا من اقتطاف أكثر الكلمات بذاءةً وقرفاً وانحطاطاً، والتي سمعتها من الظهر حتى الساعة العاشرة مساءً. وعندما عادوا سلّموني إلى ■■■■، الشخصية الجديدة التي ستتعرفون عليها عمّا قريب.

لأكن صادقاً وعادلاً، لم يجرّدني ■■■■ من لباسي أبداً، كان يتعامل معي وأنا مرتدٍ بذلتي. كان ■■■■ يراقب كل صغيرة وكبيرة ■■■■
■■■■
■■■■.[١] بقيت أصلّي طوال الوقت.

"كفّ عن الصلاة السخيفة! تمارس الجنس مع ■■■■ الأميركان، وتصلّي؟ أي نفاقٍ هذا!" قال ■■■■ بغضب وهو يدخل الغرفة. رفضت أن أتوقف عن تلاوة صلواتي وكانت نتيجة عدم امتثالي لأوامره هي حرماني من طقوس الصلاة مدة عام تقريباً بعد هذا الحادث. كما تمّ حرماني من الصيام في شهر رمضان المبارك الذي كان في شهر أكتوبر حسب التقويم الغربي لعام ٢٠٠٣، بالإضافة إلى إطعامي بالقوة.

كما أنني رفضت أثناء هذه الجلسة تناول الطعام أو الماء، مع أنهم كانوا يقدّمون لي الماء من حين لآخر. "ينبغي أن نعطيك الطعام والماء، ويا ويلك إن لم تأكل". كما أنهم قدموا لي وجبة جاهزة مقرفة من الوجبات التي يتناولونها في المعسكر. يعرف المعتقلون أن ■■■■ قد جمع معلومات عنهم فيما يخص الطعام المفضل لديهم، والطعام الذي لا يستسيغونه، ومتى يصلّون،

١ ككل التحقيقات يبدو أن هذه الجلسة كانت تراقَب من غرفة المراقبة. إن إجراءات العمل القياسية في كامب دلتا في عام ٢٠٠٣ تفوّض بأنه أثناء التحقيقات "سيوضع جهاز مراقبة من نوع JIIF في غرفة المراقبة المجهزة بمرآتين ثنائيتي الاتجاه و CCTV أو فقط في غرفة CCTV". (SOP، ص٢-١٤).

وأشياء أخرى سخيفة.

كنت أتمنى أن يُغمى عليّ حتى أتفادى هذه المعاناة، وهذا كان السبب الرئيسي لإضرابي عن الطعام. كنت على يقين من أن أناساً من هذا النمط لا يتأثرون بالإضراب عن الطعام. لا شك أنهم لا يريدونني أن أموت، ولكنهم يدركون أن هناك الكثير من الخطوات قبل أن يموت المرء. "لن تموت، سنطعمك حتى التخمة يا حمار"، قال ████████.

لقد استباح فريق وزارة الدفاع كل المحرمات منذ أن بدأوا بتعذيبي لإجباري على الاعتراف بأشياء لم أفعلها.

عزيزي القارئ: لن تستطيع أن تعرف مقدار الألم الجسدي والنفسي الذي تعرّض له أناس مثلي مهما حاولت، ومهما حاولت أن تضع نفسك في مكاني. لو كنت ارتكبت ما اتّهموني به لكنت قد ارتحت منذ اليوم الأول، ولكن المصيبة هي أنك لا تستطيع الاعتراف بشيء لم تقم به، لأنك تحتاج أن تسرد التفاصيل. وكيف يمكن أن تسرد تفاصيل عمل لم تقم به من الأساس. إنها ليست مسألة "نعم فعلت" وانتهى. كلا، لا تسير الأمور على هذا النحو، بل يجب أن تختلق قصة ذات معنى حتى تكون مقبولاً لدى الصمّ والبكم. إنّ أصعب الأمور هو أن تروي قصة غير حقيقية وتؤكدها بإيراد الدليل، وهذا هو لبّ المشكلة. من غير المعقول أن أورّط نفسي بجرائم مدمِّرة – وخاصةً في الظروف الحالية، حيث تنقضّ حكومة الولايات المتحدة على كل مسلم وتحاول إلصاق أية جريمة به.

"سنفعل بك هذا كل يوم ما لم تتحدث لنا عن ████████ وتعترف بجرائمك"، قال ████████.

"يجب أن تقدّم لنا أثراً ما عن أحد أصدقائك. إن شيئاً من ذاك القبيل سيشفع لك عندنا"، قال ████████ في جلسة التحقيق الأخيرة، "لماذا يجب عليك أن تتعرض لكل هذا مادام بإمكانك وقفه؟"

قرّرت أن أبقى صامتاً أثناء التعذيب، وألاّ أتكلم إلا إذا وفّروا لي الراحة. بل وأدركت أنني بالطلب من المحققين للذهاب إلى الحمام بأدب، وهو حق طبيعي

لي، أكون قد أعطيتهم شيئاً من السيطرة التي لا يستحقونها. عرفت أن القضية لا تكمن فقط في طلب الذهاب إلى الحمام، بل في سعيهم الدؤوب لإهانتي كي أدلي بالمعلومات التي يريدون سماعها.

إن المسألة الجوهرية لدى أي محقق هي اهتمامه بجمع المعلومات، والقاعدة المتّبعة لديهم هي أن الغاية تبرر الوسيلة. ذلك سبب آخر من أسباب رفضي تناول الطعام والماء على حدٍّ سواء. وهكذا لن أحتاج إلى استخدام التواليت. لقد أسفر ذلك عن نتيجة.

إن العناد للحظة منحني مزيداً من القوة، وكان قراري هو أني سأقاتل حتى آخر قطرة من دمي.

"نحن أقوى منك، لدينا أناس أكثر، ولدينا مصادر أكثر، سنهزمك ولكن إذا بدأت بالتعاون معنا فستبدأ بالتمتع بقسط من النوم وبوجبات الطعام الساخنة"، قال لي ■■■ ■■■ مرات عديدة، "وإن لم تتعاون فلا طعام لك ولا علاج".

إن الإهانة والتحرش الجنسي والخوف والجوع هي القانون السائد يومياً حتى الساعة العاشرة مساءً. يعمل المحققون كل جهدهم لمنعي من معرفة الوقت، ولكن الكمال لله وحده، كانت ساعاتهم دائماً تشي بالوقت. سأعتمد على خطئهم هذا فيما بعد عندما يضعونني في المنفردة.

"سأرسلك إلى زنزانتك الآن، وغداً سنمارس أشياء أسوأ حتى"، قال ■■■ ■■■ بعد أن استشار زملاءه ■■■.

كنت سعيداً لأنني سأرتاح. كنت أريد فقط الحصول على استراحة وأن أُترك وحيداً. كنت منهك القوى، والله وحده يعرف بحالي. ولكنّ ■■■ كذب عليّ، فقد ابتدع ■■■ خدعةً نفسية لإيذائي أكثر، وكنت أبعد من أن أرتاح. كان مركز عمليات السجن يتعاون - بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى - عندما يتعلق الأمر بالتعذيب، ومع ذلك فقد أرسل فريقاً آخر. ما أن وصلت إلى عتبة باب ■■■ حتى سقطت على وجهي، رفضت قدماي حملي وكل نقطة في جسمي كانت تتآمر ضدي.

فشل الحرّاس في دفعي للوقوف على قدمي، لذا اضطروا لسحبي على رؤوس

أصابع قدمَيّ. "أعيدوا الفاعل بأمه!" صرخ ██████، وهو من عناصر زمرة التعذيب.[1]

كان حوالي ████████████، طوله ستة أقدام، وجسمه رياضي، و ████████████████████

████████████████████████████

████. كان ████ يدرك أنه يرتكب جرائم حرب خطيرة، لهذا نصحه رؤساؤه بإخفاء شخصيته. ولكن لو كان هناك أي نوع من العدالة الأساسية لكان رؤساؤه قاموا بتوبيخه، لأنه جعلنا نعرف أسماءهم ورتبهم.

عندما تعرفت على ████ أكثر وسمعته يتكلم بدأت أتساءل: كيف يستطيع رجل ذكي مثله القبول بهذا العمل المنحطّ، الذي يبدو بلا شك أنه سيلازمه بقية حياته؟ ولكن يجب أن أقول كرمى لوجه العدالة والصدق إنّ ██████ كان يتكلم على نحو مقنع، مع أنه لم يكن يمتلك المعلومات وكان مضللاً في التحقيق بشكل كامل. لعلّ فرصه في الحياة كانت ضئيلة، لأن العديد من الناس في الجيش هم من الأسر الفقيرة، ولهذا السبب يكلّفهم الجيش القيام بأعمال قذرة. أعني، نظرياً، أن ████ يستطيع أن يرفض ارتكاب جرائم حرب، الأمر الذي قد يصرفه من الخدمة. فيما بعد، ناقشت بعض الحرّاس في سبب تنفيذهم قرار منعي من الصلاة طالما أنه قرار غير قانوني. "كنت أستطيع رفض القرار ولكن رئيسي سيعطيني عملاً قذراً أو يحوّلني إلى مكان سيئ. أعرف أن ما فعلته بك قد يوصلني إلى جهنم"، صرّح لي أحد الحرّاس بهذا الكلام. إنّ التاريخ يعيد نفسه: أثناء الحرب العالمية الثانية لم يكن الجنود الألمان يُعفون من الخدمة عندما كان يجادلون في الأوامر التي يتلقّونها.

"إنّك تخلق لـ ████ أوقات صعبة"، استمر ████ في حديثه، مجرجراً إياي إلى غرفة مظلمة بمساعدة الحراس. رمى بي على الأرض الوسخة.

---

[1] إن المحقق الثالث المقنعَ من المحققين الأربعة الذين سينفّذ معهم "خطة التحقيق الخاصة" المتعلقة بمحمدو ولد صلاحي يدعى "السيد X" في تقارير كل من شميدت- فيرلو والمفتش العام التابع لوزارة العدل ولجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ. وفي جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإدارية في عام ٢٠٠٥ قال محمدو ولد صلاحي بذكاء متميز: كان هذا المحقق مغطى دائماً: كحجاب النساء في السعودية، مع "فتحات لعينيه" و"قفازات من نوع o.j سيمبسون في يديه". (نسخة هيئة أعادة النظر الإدارية، ص٢٥-٢٦).

كانت الغرفة حالكة السواد. شغّل ██████ مقطعاً صوتياً بصوت عالٍ جداً - أعني جداً جداً. كانت الأغنية هي "دع الأجسام ترتطم بالأرض". قد لا أنسى هذه الأغنية ما حييت. في الوقت نفسه أشعل ██████ بعض الأضواء الوامضة الملونة التي تؤذي العيون، وهددني قائلاً: "إذا نمت أيها الممحون، سأؤذيك". لم يكن لدي خيار سوى أن أستمع إلى الأغنية مرة بعد أخرى دون انقطاع حتى صباح اليوم التالي. بدأت أصلّي.[1]

"توقف عن الصلاة القذرة" قال بصوت عالٍ. كنت في تلك اللحظة متعباً ومرعوباً على حدٍّ سواء، لذا بدأت أصلّي في قلبي. كان ██████ يعطيني الماء من حين لآخر، وكنت أشرب مخافة الأذى. كنت قد فقدت الإحساس بالوقت آنذاك. على حد علمي أرسلني ██████ إلى زنزانتي حوالي الساعة الخامسة صباحاً.

"مرحبا بك في الجحيم"، قال الحارس ██████ عندما اجتزت عتبة المبنى. لم أردّ عليه لأن ██████ لا يستحق الردّ، ولكنّي كنت ميالاً لأقول له: "أعتقد أنك تستحق الجحيم أكثر مما أستحقه أنا لأنك أنت الذي تطيع طاعةً عمياء للوصول إلى هناك!"

عندما انضمّ ██████ إلى الفريق كانوا قد أعدّوا نظاماً للمناوبات على مدار الساعة - أربعاً وعشرين ساعة. كانت المناوبة الصباحية تبدأ مع ██████ ██████ بين الساعة السابعة والتاسعة وتنتهي بين الساعة الثالثة والرابعة بعد الظهر، والمناوبة المسائية تبدأ مع ██████ بين الساعة الرابعة والنصف حتى العاشرة أو الحادية عشرة مساءً. والمناوبة الليلية كانت مع ██████. كان يتولى الأمر عند يغادر ██████، كان ██████ يسلّمني إليه شخصياً. واستمر هذا الوضع حتى ٢٤ أغسطس ٢٠٠٣، ونادراً ما كنت أحصل على استراحة

[1] إنّ لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ، التي راجعت سجلات التحقيق لقوى المهام الخاصة في غوانتانامو، ترى أن هذه الجلسة ربما كانت في ٨ يونيو ٢٠٠٣. في ذلك اليوم وجدت اللجنة أنه "تم التحقيق مع صلاحي من قبل السيد (x)، وأنّه قد تعرض خلال التحقيق إلى أنواع متنوعة من الأضواء وإلى سماع موسيقى الروك وإلى لحن أغنية "البركة الغارقة" و"دع الأجسام ترتطم بالأرض"" (SASC، ص١٣٩).

أو على قسط من الراحة في مناوبة من المناوبات.[1] "ثلاث مناوبات! أليست كثيرة لإنسان واحد يتم التحقيق معه أربعاً وعشرين ساعة يوماً بعد يوم؟" سألت ███ ███ الأقل شيطانية من بين الشياطين الآخرين محاولةً مني للتحدث إليه كإنسان. قد تستغربون لو أخبرتكم أنّ ███ كان يتمتع بصفات جيدة كشخص. وبقدر ما كرهت ما يقوم به من أفعال، يجب أن أكون عادلاً ومنصفاً وصادقاً.[2]

"نستطيع أن نزيد عدد الموظفين ونشكّل مناوبة رابعة. لدينا المزيد من الناس"، أجاب ███. وذلك ما حدث بالضبط. تمّ تعزيز الفريق بـ ███ ███ آخرين، وبدلاً من فريق بثلاث مناوبات اضطررت للتعامل مع أربعة أشخاص جدد في فترة الأربع والعشرين ساعة. "أنت ساقط" قال لي حارس حدث أنه اضطر أن يرافقني من مبنى إلى آخر مرتين في يوم واحد. "ماذا تفعل هنا؟ كان ينبغي أن تكون في الحجز أساساً!"، "إنهم يستجوبونني على مدار الأربع والعشرين ساعة"، فهقهه الحارس عالياً وكرّر على نحو شيطاني "أنت ساقط!". نظرت إليه فحسب وابتسمت.

ظهر ثلاثة أشخاص من المناوبة والفريق المرافق أمام باب زنزانتي في الصباح الباكر، وكنت قد نمت للتو بعد عشرين ساعة من التحقيق القاسي. هل تعرفون ما معنى أن تنام للتو ويسيل لعابك من فمك؟ صاح أحد الحرّاس: "الحجز"! بالكاد حملتني قدماي. "أسرع"! غسلت وجهي وفمي بسرعة. كنت أقتنص كل فرصة لأبدو نظيفاً، مع أنني حُرمت دون المعتقلين الآخرين من حق الاستحمام. كان الفريق يريد إهانتي. "يا لها من رائحة! ███" اعتاد ███ قولها كلما دخل الغرفة التي كان يحقق فيها معي. "رائحتك كرائحة الغائط يا رجل!" قال لي أحد الحرّاس أكثر من مرة. لقد حصلت على فرصة الاستحمام وتبديل ملابسي فقط عندما لم يستطع السافل ███ تحمل رائحتي. "خذه ليستحم، فرائحته

---

١ استناداً إلى وصف محمدو ولد صلاحي لجلسات التحقيق التي كانت تجري، أعتقد أن المناوبات كانت ربما على النحو التالي: صباحاً/ فترة مسائية أولى كانت المناوبة مع الرقيب الأول (أنا الرجل) المحقق السيد الرجل الفظ، والفترة المسائية الثانية/ مساءً كانت المناوبة تبدأ مع المحققة التابعة لفريق المشاريع الخاصة/ والفترة الباقية من الليل مع المحقق المعروف بالسيد X.

٢ هذا المقطع يمكن أن يشير إلى عضو مؤنث في فريق المشاريع الخاصة.

نتنة". حينذاك فقط حصلت على فرصة للاستحمام لأشهر قادمة. "أسرع! أسرع!" ظلّ يقولها الحارس بإلحاح ودون انقطاع. ████████████████

████████████████████████████████

████████. كنت أعاني من الصداع والغثيان وحرقة في المعدة بسبب عدم حصولي على النوم عدة أيام متواصلة. أما عيناي فكانتا تلعبان معي. كرهت المكان الذي سيأخذونني إليه. رماني الحرّاس في ████████████ ████. لم يكن هناك أحد في الغرفة. كان يغلبني النعاس وأنام نوماً خفيفاً بينما كنت أنتظر ██████. آه كم تؤلمني عنقي! لم أكن أريد ظهوره لأنني كرهت أن أنام بتلك الطريقة، كان سيحرمني حتى من ذلك النوم أيضاً. إنّ ████ ████ من أكسل الناس الذين شاهدتهم في حياتي. لم يكن يبذل أي جهد لقراءة التقارير لذا كثيراً ما كان يخطئ بيني وبين مشتبهين آخرين. كان يأتي متأخراً معظم الأحيان، ولكنه كان يحجزني باكراً على أية حال، لذا لم أستطع النوم.[١] لم يكن هناك الكثير من الأخبار: كنت أنا و ██████ نواجه بعضنا بعضاً على المواضيع ذاتها، مثل فيلم "يوم الخنزير الأرضي". ولكن ازداد توتري لأنّهم كانوا يحرمونني حلاوة النوم. وسارت مجريات النهار على النحو التالي: قرأ ██████ بعض الهراء الذي جلبه معه ثم بدأ يطرح عليّ الأسئلة.

- لماذا ذهبت إلى كندا؟
- أردت أن أجد عملاً وحياة لائقة.
- تباً لك! انهض!
- أفضّل البقاء واقفاً حتى الموت على التكلّم مع وجهك البشع!

عندما جعلني ██████ أقف على قدمي تأكّد من أن الحرّاس قد نفذّوا أوامره عندما كان يحشو معدته الكبيرة أثناء الغداء، وكلّما حاولت أن أعدّل وضعيتي قليلاً كان الحرّاس ينبعون من تحت الأرض ويجبرونني على الانتصاب واقفاً قدر ما أستطيع. وكان المحققون يتأخرون أحياناً عن الوجبات لأسباب من هذا النوع. لم

١ ولأنها تشمل فترة الغداء، أيضاً يبدو أن محمدو ولد صلاحي يصف روتين محقق المناوبة النهارية الأولى.

يكن ████ تفوته أية وجبة مهما كانت الأسباب.

– إن توقفت عن إنكار ما فعلته فسنبدأ بإعطائك وجبات ساخنة وقسطاً من النوم. نحن أقوى منك.

– لا أحتاج ما ليس لدّي.

– سنضعك في حفرة بقية حياتك. أنت مدان مسبقاً. لن ترى أسرتك أبداً.

– الأمر ليس بيدك. إن كان بيدك فافعل ما تشاء الآن. خير البرّ عاجله!

كان ████ يمرّ أحياناً على ملصقات دعائية لمعتقلين يفترض أنهم مطلقو السراح. "انظر إلى هذا الرجل، هو مجرم ولكنه اعترف بكل شيء وهو الآن حرّ طليق يعيش حياةً طبيعية". أقصد أن جميع المحققين يكذبون، ولكن أكاذيب ████ كانت أكثر من واضحة، مع أنّ محققاً أخر عندما يكذب فإن مظهره يتغير، ولكن ████ يروي كذبة كما لو أنها حقيقة، إذ إن لوجهه النظرة الكريهة الدائمة ذاتها.

عندما أصبح الألم لا يطاق بدأتُ بالمفاوضات بمرونة. سمح بالجلوس على كرسي غير مريح، ولكنه سرعان ما صُدم عندما لم أعطِه الأجوبة التي يريد سماعها.

"سأعمل كل شي مسموح لي لأحطِّم إرادتكَ!" قال ████ بغضب. لقد هددني ████ بكل أنواع السيناريوهات المرعبة: "ستقضي بقية حياتك في السجن. سنمحو اسمك من قاعدة البيانات، ونضعك في جحر بحيث لا يعرف أحد شيئاً عنك. لن تلتقِ أسرتك أبداً". وكانت أجوبتي دائماً هي: "افعل ما يجب عليك فعله! فأنا لم أفعل شيئاً!" وما أن كنت ألفظ كلماتي هذه حتى كان يبدأ يجنّ كالوحش كما لو أنه يريد افتراسي حيّاً. لذا كنت أتجنّب الإجابة عن أسئلته وأتركه يتحدث معظم الوقت. كما قلت، يحب ████ أن يتكلم ويكره أن يستمع. كنت أشك أحياناً بأن أذنيه تقومان بوظيفتهما. كان يتكلم كما لو أنه يقرأ الإنجيل. كنت أتساءل وحسب كيف كان مقتنعاً بأنني مجرم.

– ████، ماذا لو كنتَ مخطئاً في ما تتهمني به؟ سألته.

– يبدو أنّني أضيّع وقتي، أجابني.

– هذا عادل بما فيه الكفاية.

– إن قدّمت لنا معلومات عن تورط أحد ما في الجريمة تؤدي إلى إدانته، فستتغير حياتك نحو الأفضل، قال ████████████.

لم أجبه، لأنني لا أملك ما كان يبحث عنه. ████████████ ███ إنّ نظرة العدالة كانت قاسية: حتى لو قدّمت له ما يريد فإنّه سيخفض حكمي من عقوبة الإعدام بالكهرباء إلى السجن المؤبّد، حينئذٍ ربما أقضي ثلاثين سنة في السجن. بصراحة لم أكن مهتماً بعرضه.

أثناء مناوبته كان ████████ يرسل تقريره إلى رئيسه في فترة الاستراحة. لم أكن متأكداً مَنْ كان رئيسه في تلك النقطة، من المحتمل أن يكون ████████ ████████████. ولكني متأكد من أنّ أعلى سلطة في سلسلة قيادته في غوانتانامو هو ████████، الذي كان يقدّم بانتظام موجزاً عن قضيتي، ويعطي الأوامر لما يجب القيام به في الخطوة التالية مع "ابن الزنا ذاك". وفقاً لـ ████████، فإنّ الرئيس بوش كان يصله الموجز بانتظام عن وضعي، وكذلك ████████. حتى أن ████████ كان يرسله لسكرتيره ████████ ███ ليحقق في أمري في صيف ٢٠٠٤. سألني بعض الأسئلة الاستخباراتية، مع أن الوضع المتشدد كان قد مال إلى الهدوء في ذلك الوقت.[1]

قضيت فترة المناوبة المسائية الأولى مع ████████. مثلما ذكرت سابقاً كان ████████ الأقلّ شراً من بين الجميع. وسارت الأمور في ذاك اليوم كالشكل الآتي: عندما سحبني ████████ إلى التحقيق أخبر ████████ ███ الـ C.O.D بألاّ يعطوني كرسياً للجلوس عليه، لذا كنت مضطراً للجلوس على الأرض الوسخة – ولكن حتى ذلك لم أحصل عليه لأن D.O.C كان يطلب دائماً من الحرّاس أن أبقى واقفاً حتى تصل ████████. عندئذ كانت ████████ ███ تقرّر إذا ما كانت ستسمح لي بالجلوس أو الوقوف طوال مدة مناوبتها. وبعد

---

١ عندما كانت تجري جلسات يوليو عام ٢٠٠٣ هذه، قدّم الجزال ميللر "خطة التحقيق الخاصة" المتعلقة بصلاحي إلى قائد المنطقة الجنوبية الجنرال جيمس هيل للموافقة عليها. وفي ١٨ يوليو ٢٠٠٣ رفع الخطة إلى سكرتارية وزير الدفاع رامسفيلد. وافق وكيل سكرتارية وزارة الدفاع بول وولفوفتيز على الخطة في ٢٨ يوليو ٢٠٠٣، ووقّع عليها رامسفيلد في ١٣ أغسطس ٢٠٠٣. (من أجل المزيد من التفاصيل بخصوص تطور وتفويض "خطة التحقيق الخاصة" المتعلقة بصلاحي، راجع لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ (SASC)، ص١٣٥–١٤١).

ذلك جعلتني أبقى واقفاً فيما تبقّى من الأربع والعشرين ساعة.[١]

بدأت أتلو القرآن بهدوء لأن الصلاة كانت ممنوعة. قال ████ ذات مرة:

- لِمَ لا تصلّي؟ اذهب وصلِّ!

- يا له من ودود! ولكن ما أن بدأت أصلي حتى راح ████ يستهزئ بديني، لذا تمسكت بالصلاة في قلبي حتى لا أعطي ████ فرصة التجديف على الله. إنّ الاستهزاء بدين شخص آخر هو من أكثر الأفعال بربرية. يصف بوش حربه المقدسة ضد ما يسمّى "الإرهاب" بالحرب بين العالم المتحضر والعالم البربري، ولكنّ حكومته ارتكبت أعمالاً بربرية أكثر من الإرهابيين أنفسهم. يمكنني تسمية آلاف الجرائم التي ارتكبتها حكومة بوش.

كان هذا اليوم الخاص هو أحد أقسى الأيام في التحقيق الذي سبق نهاية شهر أغسطس بيوم، حيث هو "عيد ميلادي" كما أطلق عليه ████. جلب ████ شخصاً من جنود البحرية، وكان يرتدي ████

████

████. قدّم لي ████ كرسياً

---

١ إنّ الضمير (her) غير مشطوب هنا، وبالتالي يبدو واضحاً أن المناوبة المسائية الأولى هي مع أنثى من فريق التحقيق، يرد وصفها هنا بـ"الأقل شراً" من بين الشرور التي يواجهها، وعلى الأرجح هذه هي المحققة ذاتها التي يصفها بـ"الأقل شراً من بين العديدين" قبل بضع صفحات. عندما أصدر وزير الدفاع رامسفيلد تفويضه الأصلي باستخدام تقنيات للتحقيق تذهب أبعد من تلك المتضمنة في كتيب حقل الجيش، يتضمن الوقوف الإجباري على القدمين، وأضاف هذه الملاحظة المشهورة: "أقف على قدمي من ٨ إلى ١٠ ساعات يومياً، لماذا خفّضت إلى أربع ساعات؟" ولكن ألبيرت بايدرمان وجد في دراسته عن تقنيات التحقيق القسرية المستخدمة في التحقيقات في كوريا الشمالية أثناء الحرب الكورية "أنّ العائدين إلى الوطن من الخدمة العسكرية في الخارج، الذين خضعوا لفترات طويلة من الوقوف والجلوس...، يقولون إنّه ليس هناك ما هو أشد ألماً منه" ويتابع بايدرمان شرحه: "عندما يُطلب من شخص الوقوف لفترة طويلة على قدميه يطرأ عامل آخر على الموقف. إنّ مصدر الألم المباشر هو ليس المحقق بل الضحية نفسها. إنّ النزوع الداخلي يصبح بطريقة ما أن الفرد يقف ضد نفسه، وهنا تُنهك القوة التحريضية للفرد نفسها في هذه المواجهة الداخلية. إنّ إجبار الشخص على أن يتصرف "عكس إرادته" له فوائد إضافية للمحقق؛ إنّه يؤدي إلى تعظيم قوة المحقق عند السجين. وبقدر ما يقف السجين على قدميه فإنّه يعزو القوة إلى سجّانه لفعل شيء أسوأ ضده، وينبغي هنا ألاّ يكشف المحقق عن أوراقه بأنه عاجز عن القيام بما يظنه السجين". انظر:
http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/torturingdemocracy/documnts/19570900.pdf.

معدنياً وقال: "أخبرتك بأنني سأجلب بعض الناس لمساعدتي في التحقيق معك"، وجلس على مسافة قريبة أمامي بينما جلس الضيف لصق ركبتي تقريباً. بدأ ■■■ يسألني بعض الأسئلة لا أتذكرها الآن. "نعم أو لا"، صرخ الضيف عالياً ■■■ أكثر مما يصدق في استعراض لبثّ الرعب فيّ، وربما ليؤثر في ■■■، من يدري؟ وجدت أن طريقته كانت في منتهى الصبيانية والسخافة. نظرت إليه، ابتسمت وقلت:

- لا هذا ولا ذاك!

سحب الضيف الكرسي من تحتي بعنف فوقعتُ على السلاسل. آه كم تأذيت!

"انهض أيها الفاعل بأمّه"، صرخ الاثنان معاً في وقت واحد. عندئذ بدأت جلسة للإهانة والتعذيب. بعد أن أنهضاني بدأا يسألانني مرة أخرى، لكن كان الوقت قد فاتهما منذ زمنٍ طويل، لأنني أخبرتهما مليون مرة: "لو حاولتما تعذيبي فلن أفوه ولو بكلمة واحدة".

بقي هذا التصريح دقيقاً طيلة ذاك اليوم الذي اقتصر فيه الكلام على المحققَين وحدهما.

شغّل ■■■ مكيف الهواء بأدنى درجات الحرارة ليجعلني أتجمّد برداً. لقد بدأوا يمارسون هذا النوع من التعذيب منذ أغسطس ٢٠٠٢ تقريباً. لقد وجدتُ أناساً يتعرضون لهذا النوع من التعذيب في الغرفة المجمّدة يوماً بعد يوم، وكانت القائمة طويلة آنئذٍ: إنّ نتائج الغرفة الباردة كانت كارثية، كالـ ■■■ ■■■ تيزم، ولكنه كان يظهر بوضوح فيما بعد لأنه يستغرق وقتاً حتى يفعل فعله في العظام. لقد كانت زمرة التعذيب مدرّبة أحسن تدريب إلى درجة أنها كانت تنجز جرائم مثالية، دون أن تترك أي دليل واضح. لم يكن هناك شيء متروك للمصادفة، بل كانوا يضربون أماكن محددة مسبقاً. لقد مارسوا أبشع الأساليب التي لا تظهر نتائجها إلا فيما بعد. كان المحققون يديرون مكيّف الهواء على الدرجة صفر، ومن الواضح أن مكيّفات الهواء ليست مصمّمة لقتل الإنسان، لذا فإن غرفة معزولة بشكل جيد يمكن أن يوصل مكيف الهواء درجة حرارتها إلى تسع وعشرين درجة على مقياس فهرنهايت، وإذا كنت مهتماً مثلي بالرياضيات فإنّه يقابِل تسع درجات وأربعة أجزاء

من الدرجة على المقياس المئوي، بكلمات أخرى إلى درجة باردة جداً، وخصوصاً لشخص مضطر للبقاء فيها أكثر من اثنتي عشرة ساعة، لا يرتدي سوى بذلة رقيقة بدون ملابس داخلية، أو لشخص من بلدٍ حار. إنّ شخصاً من المملكة العربية السعودية لا يستطيع أن يتحمّل البرد أكثر من شخص من السويد، والعكس بالعكس عندما يتعلق الأمر بالطقس الحار. يأخذ المحققون هذه العوامل بعين الاعتبار ويستخدمونها على نحوٍ فعّال.

قد يحظر في بالك وتسأل أين يكون المحققون بعد أن يضعوا المعتقل في الغرفة الباردة؟ سؤال جيد في الواقع. أولاً، لا يبقى المحققون في الغرفة، ولا يدخلونها إلا للإهانة والحطّ من القدر وتثبيط الهمة أو لعوامل تعذيبية أخرى، بعد ذلك يخرجون من الغرفة الباردة ويذهبون إلى غرفة المراقبة المجاورة. وثانياً، يرتدي المحققون ملابس كافية، فعلى سبيل المثال يرتدي ■■■■■■■■ ملابس شبيهة بملابس الشخص الذي يدخل حجرة اللحوم المثلجة. وبالرغم من ذلك لا يبقون فترة طويلة مع المعتقل في الغرفة. وثالثاً، ثمة فرق نفسي كبير بين أن تكون معرّضاً للبرودة في مكان من أجل التعذيب وأن تذهب إليه فقط من أجل التسلية والتحدي. وأخيراً، يظل المحققون يتحركون في الغرفة، وهذا معناه أن هناك دورة دموية وبالتالي دفء وحرارة، في حين أن المعتقل كان ■■■■■■■■ طوال الوقت بالأرض، وواقفاً على قدميه معظم الوقت.[1] كل ما استطعت فعله هو تحريك قدمَيّ وفرك يدَيّ. ولكن ضاقت عين رجل البحرية ومنعني حتى من الفرك وذلك بتقييد يدي بسلسلة وربطها بالجهة المعاكسة لفخذي. عندما أحتدّ أبدأ دائماً بفرك يدي والكتابة على جسمي، وبذلك أُفقد المحققين صوابهم.

"ماذا تكتب؟ إمّا أن تخبرني أو تتوقف عن ذلك" صرخ ■■■■■■■■، ولكني لم أستطع التوقف، كانت حركة بلا هدف. بدأ رجل البحرية يرمي الكراسي من حولي وينطحني بجبهته واصفاً إيايّ بنعوت شتى من دون سبب.

"لقد التحقت بالفريق الخاطئ يا ولد. إنك تقاتل من أجل قضية خاسرة"، قالها لي مع سيل من الكلمات البذيئة ومع الحطّ من قدر عائلتي وديني وشخصيتي ناهيكم

١ مرة أخرى يبدو مقيّداً.

عن التهديدات ضد أسرتي بأنها ستدفع ثمن "جرائمي"، كلام يتنافى مع أي منطق. كنت أعلم أنه لا يمتلك السلطة، ولكني كنت أعلم أيضاً أنه يتحدث بالنيابة عن أقوى دولة في العالم، وبدعم واضح من حكومته. ولكن أيها القارئ الكريم، أودّ أن أجنّبك هراءه: كان رجلاً مخبولاً. سألني عن أشياء لم أكن أعرف عنها أي شيء، وعن أسماء لم أسمع بها قط. قال ███:

– لقد كنت في ███، وهل تعرف من كان مضيفنا؟ الرئيس! قضينا وقتاً ممتعاً في القصر.

وأخذ رجل البحرية يسأل أسئلة ويجيب عنها هو نفسه.[1] وعندما فشل في التأثير عليّ بعد كل كلامه وإهانته وتهديده باعتقال أسرتي، طالما أن ███ خادم مطيع للولايات المتحدة، بدأ يؤذيني أكثر. فقد جلب ماءً جليدياً وصبّه عليّ وأنا مرتدٍ ملابسي. كان الأمر فظيعاً، لقد بدأت ارتجف كمريض مصاب بالباركنسون.

لم أكن قادراً على الكلام بعد. كان الرجل أبله، كان يقتلني ببطء. أومأ ███ ███ إليه ليتوقف عن صبّ الماء الجليدي عليّ. أخبرني أحد السجناء بأنّ محققاً "طيباً" اقترح عليه أن يأكل حتى يضعف تأثير الألم عليه، ولكنّي لم آكل شيئاً، ولم أعد قادراً أن أفتح فمي بأي حال. كان الرجل عنيفاً عندما أوقفه ███ لأن ███ كان خائفاً من تقرير للجيش في حال موتي. لذا وجد تقنية أخرى بدلاً من الماء، حيث جلب مشغّلة للأقراص الصلبة ومضخماً للصوت، وبدأ بتشغيل بعض موسيقى الراب. لا أبالي بالموسيقى لأنّها تجعلني أنسى ألمي. في الواقع كانت الموسيقى نغمة مخادعة، وكنت أحاول أن أفهم معاني الكلمات. كل ما استطعت فهمه هو أن الأغنية كانت عن الحب. هل يمكنك تصديق ذلك! أجل الحب! ولكن كلّ ما عشته في الآونة الأخيرة لم يكن سوى الكراهية أو النتائج المنبثقة عنها. "استمع إلى ذلك أيها الفاعل بأمّه!" قال الضيف وهو يغلق الباب وراءه بقوة. "ستحصل على القذارة ذاتها يوماً بعد يوم. واحزر ماذا أيضاً؟ سيصبح الأمر أسوأ، فهذا ليس إلاّ البداية" قال ███. بقيت أصلي متجاهلاً ما كانوا يفعلونه:

– ساعدني يا الله... ارحمني يا الله.

---

[1] لعل المحقق يشير إلى موريتانيا وإلى رئيسه في ذلك الوقت معاوية ولد سيد أحمد الطايع.

ظلّ ██████ يسخر من صلواتي:

– الله... الله... لا وجود لله، لقد تركك تنهار!

ابتسمت، كم أنت جاهل يا ██████ بكلامك بهذه الطريقة عن الله. ولكن الله صبور، ولا يحتاج أن يهرع لإنزال العقاب بك لأنّه لا مفّر منه.

كان المعتقلون يعرفون السياسة المتّبعة في المعسكر، وهي إذا ما اعتقدت المخابرات العسكرية أنك تخفي معلومات حاسمة فإنّهم يعذبونك في كامب ███ ██████████████████، يخطفونك إلى مكان سري ولا يعرف أحد ماذا يفعلون بك. أثناء الفترة التي كنت فيها في كامب ██████ اختُطف شخصان واختفيا، وأعني ████████████████████████ ██ ████. بدأتُ أشعر أنني أنا الآخر سأُختطف لأنّي وصلت إلى نقطة حرجة مع محققيّ، فبدأت أجمع المعلومات.

– المخيم هناك سيئ للغاية، قال أحد عناصر الشرطة العسكرية.

– ألا يحصلون على الطعام؟ سألت.

– شيء من ذاك القبيل، أجاب.

بين الساعة العاشرة والحادية عشرة سلّمني ██████ إلى ██████ ██ وأعطى الأوامر للحرّاس لينقلوني إلى غرفة معدّة خصيصاً له[1]. كانت باردة جداً ومليئة بالصور التي تظهر أمجاد الولايات المتحدة: مصانع الأسلحة، والطائرات، وصور جورج بوش. "لا تُصلِّ! ستُهين بلدي إذا ما صلّيت أثناء النشيد الوطني. نحن أكبر بلد في العالم الحرّ ولدينا أذكى رئيس في العالم"، قال لي. اضطررت أن أستمع إلى النشيد الوطني للولايات المتحدة طوال الليل. أكره كل الأناشيد الوطنية. كل ما أستطيع تذكره هو بداية النشيد: "آه، قل هل تستطيع رؤية..." استمعت إليه مرة بعد مرة. كنت سعيداً حيث لم يكن هناك ماء بارد يُصبّ عليّ. حاولت في البداية أن أسرق بعض الصلوات، ولكن ██████ كان يراقب عن كثب بواسطة ██████ ██████████. "توقف عن الصلاة السخيفة، إنك تهين بلدي!"

---

١ يبدو أن هذا وصف لجلسة مناوبة ليلية مع السيد X . يُذكر المشهد مرة أخرى في نهاية الفصل.

كنتُ متعباً ومنهك القوى، وكنتُ بغنى عن المشاكل، لذلك قررت أن أصلّي في قلبي. كنت أرتعد طوال الليل.

أطلقني ████████ بين الساعة الرابعة والخامسة صباحاً، ثم عاد وأخذني بعد ساعتين ████████████████████ لأواجه الروتين ذاته.

أصعب خطوة هي الخطوة الأولى، وأصعب الأيام كانت الأولى، ومع مرور الوقت ازددت قوةً وتماسكاً. أثناء ذلك كنت الموضوع الرئيسي في المعسكر. ومع أن العديد من السجناء كانوا يعانون الأقدار ذاتها، إلا أنني كنت "المجرم رقم واحد"، وعلى هذا الأساس كان يتم التعامل معي. عندما كنت أتواجد أحياناً في ساحة التنفس كان السجناء يصرخون: "كن صبوراً. تذكّر أن الله يمتحن من يحبّ من عباده". كانت تلك النصائح هي عزائي الوحيد، إلى جانب إيماني بالله.

لم يتغير شيء مثير في الروتين الذي كنت أعيشه: غرفة باردة، والبقاء واقفاً لساعات طويلة، وتهديدات المحققين المتكررة بخطفي وسجني مدة الحياة.[1]

---

١ لقد وصف الجيش، ووزارة العدل، ومحققو مجلس الشيوخ هذه التهديدات بمزيد من التفصيل. وفقاً لحاشية في تقرير شميدت - فيرلو (في ١٧ يوليو ٢٠٠٣) قال المحقق المقنّع إنه رأى في حلمه أن موضوع التحقيق الثاني يموت. لقد قال بالتحديد إن موضوع التحقيق الخاص الثاني في الحلم هو أنه "رأى أربعة معتقلين مقيدين ببعضهم بسلسلة من القدمين، حفروا حفرة بطول ستة أقدام، وبعمق ستة أقدام، وبعرض أربعة أقدام. ثم لاحظ المعتقلين وهم يرمون تابوتاً مسطّحاً من خشب الصنوبر مع رقم المعتقل عليه وباللون البرتقالي في الحفرة. لقد أخبر المحقق المقنّع المعتقل بأن حلمه يعني أنه لن يغادر غوانتانامو ما لم يتكلّم، ذلك أنه سيموت حتماً هنا من الشيخوخة، وسيُدفن في "التراب المسيحي... في ظل السيادة الأميركية". وفي ٢٠ يوليو ٢٠٠٣ أخبر المحقق المقنّع (السيد X) موضوع خطة التحقيق الخاصة الثانية بأن أسرته سُجنت. ويواصل التقرير: "إنّ مذكّرة مؤرخة في ٢ أغسطس ٢٠٠٣ تشير إلى أن موضوع التحقيق الخاص الثاني جاءه رسول في ذلك اليوم ليوصل إليه رسالة"، وتمضي في سردها للقصة فتقول: "كانت تلك الرسالة بسيطة ومفادها أن أصدقاء المحقق قد مرضوا من سماع الأكاذيب نفسها مراراً تكراراً وأنه يفكر جديّاً في أن يغسل يديه منه. وحالما يفعل ذلك فإنّه سيختفي ويصمت إلى الأبد. اكد المحقق للمعتقل مرة أخرى بأن يستخدم خياله ويفكر بالسيناريو المحتمل الأكثر سوءاً الذي قد ينتهي إليه. أخبر المعتقل بأنّ الضرب والألم الجسدي ليسا أسوأ الأشياء في العالم. وبعد كل هذا، بعد أن تُضرب لبعض الوقت، يميل الإنسان أن يفصل الدماغ عن الجسد ويجعله منطلقاً. ولكن هناك أشياء أسوأ من الألم الجسدي. أكّد المحقق للمعتقل أنه سيتكلم أخيراً، لأنّ كل شخص يفعل ذلك، ولكن حتى ذلك الحين على الأرجح سيختفي في حفرة مظلمة جداً، سيحمي وجوده، وأنّ ملفه الإلكتروني سيُحذف من الكمبيوتر، وملفاته الورقية ستُحزم وتُرسل بعيداً، وسيُنسى وجوده من قبل الجميع. لن يعرف أحد ما حدث له، وأخيراً لن يهتم أحد" (شميدت- فيرلو، ص٢٤-٢٥).

جعلني ██████ أكتب آلاف الأوراق عن حياتي. ولكنّي لم أُرضِه قط. ذات ليلة خلع عني ملابسي بمساعدة ██████، وهو حارس ذكر. كنت قد ارتديت السروال القصير فوق السروال الطويل متوقعاً الغرفة الباردة لأخفف البرد الذي كان يخترق عظامي، ولكنه كان مجنوناً إلى أبعد حدّ، حيث جعل الحارس ██████ يجرّدني من ملابسي. شعرت بانتهاك فظيع. وقفت طوال الليل في غرفة باردة جداً أصلّي، متجاهلاً كل نباحه وأوامره بالتوقّف عن الصلاة. لم أستطع أن أخفف التفكير بشأن ما يمكن أن يقدم عليه.[1]

خرج ██████ من خلف المَشهد، أخبرني ██████ مرتين قبل زيارة ██████ شخص رفيع المستوى من الحكومة سيزورني ويتحدث إلي حول أسرتي. لم آخذ الموضوع بسلبية. اعتقدت أنه سيجلب بعض الرسائل من أسرتي، ولكني كنت مخطئاً، لأنّ الزيارة كانت لإيذاء أسرتي. كان ██████ ██████ يصعّد الموقف معي بدون شفقة. جاء ██████ حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً برفقة ██████ والـ ██████ الجديد. لقد تكلّم بإيجاز وبشكل مباشر:

– اسمي ██████. أعمل لصالح ██████. حكومتي يئست من الحصول على معلومات منك. هل تفهم؟[2]

---

١ يوحي السياق بوجود حارسين أحدهما ذكر والآخر أنثى، وأن الحارسة هي التي "جرّدته من ملابسه". إنّ الحادثة التي "جُرّد فيها محمدو ولد صلاحي من ملابسه من قبل محققة" وردت في تقرير المفتش العام التابع لوزارة العدل. والتقرير يشي بأن تاريخ تلك الجلسة كان ١٧ يوليو ٢٠٠٣. (المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص١٢٤).

٢ إن التاريخ، حسب تقرير المفتش العام، هو ٢ أغسطس ٢٠٠٣. ورد في تقرير المفتش العام: "في ٢ أغسطس ٢٠٠٣ حضر إلى محمدو ولد صلاحي محقق عسكري مختلف عرّف بنفسه بوصفه رئيس البحرية في البيت الأبيض"، ويصف كل من تقرير لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ وتقرير المفتش العام التابع لوزارة العدل الرسالة التي أوصلها إليه. وحسب لجنة الخدمات المسلحة كانت الرسالة تبدأ بـ"إنّ أمّه قد اعتقلت، وسيتم التحقيق معها، وإنْ لم تكن متعاونة فربما تُسفَّر إلى غوانتانامو". أما تقرير المفتش العام فجاء فيه "إن الرسالة أشارت إلى الصعوبات الإدارية واللوجستية لوجودها في هذه البيئة الذكورية بمجملها"، و"أن المحقق أخبر صلاحي أنّ أسرته في خطر إذا هو (٧٦٠) لم يتعاون". توضح تقارير كل من المفتش العام ولجة الخدمات المسلحة وتقرير شميدت – فيرلو بشكل جلي أنّ محققه في الواقع هو رئيس "فريق المشاريع الخاصة" لمحمدو ولد صلاحي، ويشير تقرير شميدت – فيرلو أنّه قدّم نفسه باسم "الكابتن كولينز". ويصفه محمدو ولد =

- نعم.
- هل تستطيع القراءة بالإنكليزية؟
- نعم.

سلّمني ████ رسالة. كان واضحاً أنّها ملفّقة. كانت من وزارة الدفاع، وتقول بصورة أساسية: "ولد صلاحي متورّط في مؤامرة الألفية، وجنّد ثلاثة من المختطفين في هجمات الحادي عشر من سبتمبر. وبما أنّ صلاحي رفض التعاون فإنّ حكومة الولايات المتحدة ستعتقل والدته وتضعها في سجن خاص".

قرأت الرسالة وقلت: أليس هذا عملا قاسياً وظالماً؟

- لست هنا لصون العدالة، بل أنا هنا لمنع الناس من تحطيم الطائرات في المباني في بلدي.
- إذاً اذهب وامنعهم، فأنا لم أفعل شيئاً ضد بلدك.
- أمامك خياران: إمّا أن تكون متّهماً أو شاهداً.
- لا أريد أيّاً من الخيارين.
- ليس لديك خيار، أو أنّ حياتك ستتغير لا محالة.
- افعلها فحسب، ومهما كان أسرع يكون أفضل! قلت.

عاد ████ ووضع الرسالة المزوّرة في حقيبته وأغلق الحقيبة بغضب، وغادر الغرفة على وجه السرعة. سيقود ████ الفريق الذي سيعمل على قضيتي حتى أغسطس أو سبتمبر عام ٢٠٠٤. كان يحاول دائماً جعلي أصدّق أن اسمه الحقيقي هو ████، ولكن ما لا يعلمه هو أنني كنت أعرف اسمه حتى قبل أن ألتقيه: ████.[١]

= صلاحي هنا بأنّه خرج من خلف الكواليس. أما جيس برافن مراسل وول ستريت جورنال فيقول في كتابه **محاكم الإرهاب: العدالة القاسية في خليج غوانتانامو** (نيوهافن: مطبوعات جامعة بيل، ٢٠٠٣) إنّ رئيس فريق المشاريع الخاصة الذي نفّذ هذه الخدعة في التحقيق مع محمدو ولد صلاحي قبل شهر في يوليو عام ٢٠٠٣ هو اليوم الذي وافق فيه الجنرال ميللر على "خطة التحقيق الخاصة" به. (تقرير المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص١٢٣؛ تقرير لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ، ص١٤٠؛ تقرير شميدت- فيرلو، ص٢٥؛ وكتاب برافن، **محاكم الإرهاب**، ص١٠٥).

١ المحقق الذي قدّم نفسه بأنه "الكابتن كولنز" وقاد فريق التحقيق الخاص بمحمدو ولد صلاحي عُرف في وثائق المحكمة الموجودة في ملف استئناف المثول أمام المحكمة، في حواشي تقرير =

بعد ذلك اللقاء ████████████ كان يطلب فقط الشكليات القانونية المطلوبة ليخطفني من المعسكر إلى مكان مجهول. "وجودك هنا يحتاج تواقيع كثيرة. نحاول منذ مدة حتى أوصلناك إلى هنا"، أخبرني بهذا أحد الحرّاس فيما بعد. كان ████████████ يجمع الفريق الذي سينفّذ الاختطاف. كان ينفّذ كل ذلك بسرية تامة، وكان المشتركون في الفريق يعرفون الأمور بقدر الحاجة. أعرف أن ████████ لم يكن يعرف بالتفاصيل المتعلقة بالخطة.

في يوم الاثنين، الخامس عشر من شهر أغسطس عام ٢٠٠٣، احتُفظ بي على ذمة التحقيق. ████████████[1]عندئذ كنت قد قضيت عطلة نهاية الأسبوع في ████████، الذي كان خالياً من المعتقلين تماماً، بقصد عزلي عن بقية المعتقلين. ولكنني وجدته أمراً إيجابياً حيث كانت الزنزانة أدفأ واستطعت أن أرى ضوء النهار، في حين كنت في ████████ محشوراً في صندوق جليدي.

- الآن لدي السلطة المطلقة، أستطيع أن أفعل بك ما أشاء، حتى أنني أستطيع نقلك إلى كامب ████████████.

- أعرف لماذا نقلتني. إنك لا تريد أن أرى أحداً.

لم يعلّق ██████ ولكنه اكتفى بابتسامة. كان حديثاً أقرب إلى الوديّة. وفي حوالي الساعة الخامسة والنصف جلب لي ████████ وجبتي من الوجبات الجاهزة الباردة. بدأت أتناول وجبتي. كان ████████ يدخل ومن ثم يخرج. لم يكن ذلك أمراً غريباً. كان ████████ دائماً يتصرف على ذاك النحو. بالكاد كنت قد انتهيت من وجبتي عندما سمعنا فجأةً أنّ ████████ اهتياجاً، حرّاس يقذفون الشتائم بصوتٍ عالٍ: "أخبرتك أيها الفاعل بأمك..!" أشخاص كانوا يدقّون

= لجنة الخدمات المسلحة وفي مصادر أخرى منشورة، بـ"ل. ت. ريتشارد زولي". في كتاب **محاكم الإرهاب** يصف برافنُ زوليَ بأنه ضابط في شرطة شيكاغو وجندي احتياطي في البحرية. (تقرير لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ، ص١٣٥؛ برافن، **محاكم الإرهاب**، ص١٠٠-١٠٥؛ إيجاز للمستأنف ضدّه، ص٢٣).

١ إنّ الوقت هو فترة المناوبة المسائية الأولى، والضمائر المشطوبة والسياق فيما بعد تظهر أن هذه محققة في الفريق.

الأرض بأحذيتهم الثقيلة بقوة، نباح كلاب، وأبواب تُغلق بصوت عالٍ. تسمّرت في مقعدي. ذهب ██████ دون أن يقول شيئاً. كنا نحدّق في بعضنا بعضاً غير عارفين بما يجري. بدأ قلبي يتوثّب في صدري لأني كنت أعرف أن معتقلاً سيتم إيذائه. نعم، وذاك المعتقل كان أنا.

ثم فجأةً اقتحم فريق من الكوماندوس مؤلف من ثلاثة جنود وكاهن ألماني غرفة التحقيق التي كنّا فيها. لقد حدث كل شيء بأسرع ممّا يمكن توقعه. لكمني ████ ████ بعنف فأسقطني أرضاً على وجهي.

"أيها الفاعل بأمك، أخبرتك أنّك انتهيت" قال ██████.[1] واصل شريكه لكمي في كل مكان من جسمي، وبصورة رئيسية على وجهي وأضلاعي، كان هو الآخر مقنّعاً من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، كان يلكمني بشكل متواصل دون أن يتفوه حتى بكلمة واحدة لأنه كان حريصاً على ألاّ يتم التعرّف على هويته. الرجل الثالث لم يكن مقنّعاً، كان يقف على الباب ممسكاً بطوق كلب، جاهزاً لإطلاقه عليّ.

"من قال لك أن تفعل ذلك؟ إنك تؤذي المعتقل!" صرخ ██████، الذي لم يكن رعبه أقل من رعبي قيد أنملة. كان ██████ قائد الحرّاس المهاجمين وكان ينفّذ أوامر ████████████. بالنسبة إلي، لم أستطع استيعاب الموقف. في البداية اعتقدت أنّهم أخطأوا بيني وبين معتقل آخر، ثم ذهب بي التفكير إلى القيام بمحاولة للتعرّف على محيطي بإلقاء نظرة من حولي في الوقت الذي كان أحد الحرّاس يضغط وجهي بالأرض. ولكني نجوتُ من مهاجمة الكلب. شاهدت ██████ واقفاً ينظر بيأس وعجز إلى الحرّاس المنهمكين بتعذيبي.

"عصّبوا عيون الفاعل بأمه، إذا ما حاول أن ينظر..."

ضربني أحدهم على وجهي ثم وبسرعة عصّب عينَيّ وسدّ أذنَيّ ووضع على رأسي كيساً صغيراً، لم أستطع بذلك أن أميّز من أين تأتيني الضربات ومن يضربني. شدّوا السلسلة على كاحلَيّ ورسغَي إلى أن نزفتُ دماً. كل ما استطعت أن أسمعه هو لعنات ██████ ينثرها هنا وهناك. لم أقل كلمة واحدة، كنت مندهشاً لما يحصل،

---

[1] سيتضح جلياً أن هذا هو السيد x.

اعتقدت أنّهم سيقضون عليّ.

لقد عجزت عن الوقوف جرّاء الضرب المبرح، لذا فقد جرّني ████████ والحارس الآخر إلى خارج غرفة التحقيق على رؤوس أصابعي ورمياني في سيارة انطلقت على الفور. واصل فريق التعذيب هذا تعذيبي مدة ثلاث أو أربع ساعات أخرى قبل أن يسلّمني لفريق آخر ليبدأ هو الآخر حفلةً أخرى من التعذيب بتقنيات مختلفة.

"توقف عن الصلاة أيّها الفاعل بأمّه، أنت تقتل الناس" قال ████████ ولكمني بعنفٍ على فمي. بدأ فمي وأنفي ينزفان دماً، وتورمّت شفتاي إلى درجة عجزت عن الكلام. تبيّن أنّ زميل ████████ كان أحد حرّاسي ████████ ████████. أخذ كل من ████████ و ████████ جهة وبدأا بلكمي وضربي بعنف بمعدن السيارة. ضربني أحد الرجلين ضربة قوية، كدت أختنق بسبب عدم قدرتي على التنفس، شعرت أنني أتنفس من أضلاعي. كنت على وشك الاختناق دون أن يعرفوا ذلك، كان تنفسي صعباً بالأساس مع وجود كيس في رأسي، فجاءت اللكمات والضرب على أضلاعي حتى توقفتُ لحظةً عن التنفس.

هل أُغمي عليّ؟ لست متأكداً، ولكني أعرف تماماً أن ████████ رشّ ماء النشادر عدة مرات في أنفي. والأمر المضحك هو أن السيد ████████ كان في الوقت نفسه "منقذ حياتي"، فقد بقيت أتعامل مع بقية الحرّاس خلال العام التالي، وكان مسموحاً للجميع أن يقدمّوا لي العلاج الطبي والإسعافات الأولية.

وبعد ما يقارب ربع ساعة توقفّت السيارة عند الشاطئ، وسحبني فريق المرافقة إلى خارج السيارة ووضعوني في زورق فائق السرعة. لم يعطني ████████ استراحة مطلقاً، ظلّوا ينهالون عليّ بالضرب من كل الجهات و ████████ ████████ كي يطعنوني[1]. "أنت تقتل الناس" قال ████████. أعتقد أنّه كان يفكّر بصوتٍ عالٍ، فقد كان يعلم أن جريمته هي من أكثر الجرائم جبناً في العالم: تعذيب معتقلٍ لا حولَ له ولا قوة له، جاء إلى السجن بإرادته. يا له من عمل شجاع! كان ████████ يحاول إقناع نفسه بأن ما يفعله، هو، هو الصواب.

في الزورق جعلني ████████ أشرب الماء المالح، أعتقد أنه كان من

١ ربما كان مرافقو محمدو ولد صلاحي يسحبون القيد في يديه أو يتفننون به ليسبّب له الألم.

المحيط مباشرةً، فقد كان مذاقه مقرفاً ما جعلني أتقيأه. كانوا يضعون أي شيء في فمي ويصرخون: "إبلع أيها الفاعل بأمه!" ولكنني قررّت داخلياً ألاّ أبتلع الماء المالح المدمِّر للأعضاء. كدت أختنق عندما استمروا بصبّه في فمي "إبلع أيها الأبله!" فكرّت بسرعة وقرّرت ابتلاع الماء المقرف والمدمّر للأعضاء كي أتفادى الموت.

رافقني ████████ و ████████ لما يقارب ثلاث ساعات في زورق فائق السرعة. إنّ الهدف من رحلة كهذه هو: أولاً، تعذيب المعتقل ثم الادّعاء بأن السجين نفسه قد "جرح نفسه خلال الرحلة". وثانياً، لجعل المعتقل يعتقد أنه سيُنقل إلى سجنٍ سريٍّ في مكان بعيد. نحن المعتقلون نعرف هذا كله، وهناك سجناء أفادوا أنهم داروا بالزورق مدة أربع ساعات ثم عادوا إلى حيث انطلقوا - إلى السجن. عرفت منذ البداية أنّهم سينقلونني إلى ████████ في رحلة تستغرق خمس دقائق. كان لـ ████████ سمعة سيئة للغاية، ومجرد سماع اسمه يصيبني الغثيان.[1]

---

١ وجدت لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ أنّ "خطة التحقيق الخاصة للجيش الخاصة بمحمدو ولد صلاحي كانت تتضمن مشهداً مسرحياً هو أنّ "الجيش بكامل عدة الشغب يأخذه من زنزانته ويضعه في زورق ويدور به في الجوار لجعله يعتقد بأنه يؤخذ إلى مكان آخر بعيداً عن الجزيرة". ثم نقلت اللجنة في تقريرها: "سيؤخذ صلاحي إلى كامب إيكو"، حيث زنزانته وغرفة تحقيقه، وهي عبارة عن كوخ معزول شُبّه بشاحنة مقطورة فيها كل الأجزاء العاملة وقد "عُدِّلت بطريقة لا تصلها المؤثرات الخارجية إلا بحدّها الأدنى". وجاء في الخطة: "ينبغي أن تُسدَ الأبواب بإحكام بحيث يُمنع دخولِ الضوء الغرفة، والجدران يمكن أن تُطلى بالدهان الأبيض أو الورق لإزالة كل الأشياء التي يمكن أن يركِّز عليها السجين، وأن تحتوي الغرفة مسماراً له حلقة مثبتة بالأرضية، ومكبرات للصوت". كما أن لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ كتبت أنّ رسالة الكترونية في ٢١ أغسطس ٢٠٠٣، من خبير استخبارات قوى المهام الخاصة في غوانتانامو إلى الضابط الملازم ريتشارد زولي، وقفت على الترتيبات النهائية لكوخ كامب إيكو: "وصفت الرسالة إغلاق باب زنزانة صلاحي في كامب إيكو إغلاقاً محكماً بحيث يمنع دخول الضوء إليها وتغطية القسم الخارجي بأكمله بقماش مشمّع يمنعه من التواصل المرئي مع الحّراس".

وبحسب تقرير المفتش العام التابع لوزارة العدل، إنّ الخطة الأصلية للتحقيق الخاص التي وقّع عليها الجنرال ميلر في ١ يوليو ٢٠٠٣ "ذكرتْ أنّ صلاحي يجب أن يُعلّق بخطاف وتطير به الهليكوبتر حول خليج غوانتانامو مدة ساعة أو ساعتين لإقناعه بأنه نُقل خارج غوانتانامو إلى حيث القوانين مختلفة". ولكن المفتش العام أفاد أن المستجوبين العسكريين أخبروا المحققين في النهاية "بأنّهم لم يستخدموا طائرة الهليوكوبتر لأنّ الجنرال ميللر رأى أن إنجاز العملية بنجاح صعب بالمعنى اللوجستي، ثم أن مجموعة كبيرة من الناس في القاعدة سيعلمون أنّ هذه العملية قد تمّت". وبدلاً من ذلك، "في ٢٥ أغسطس ٢٠٠٣ نُقل صلاحي من زنزانته في كامب دلتا، مجهزاً بنظارات عاتمة واقية للشمس، وأُخذ في رحلة بالزورق حيث سُمح له أن يستمع إلى أحاديث مخادعة بين المسافرين =

عرفت أنّ الهدف النهائي من الرحلة كلّها هو الترهيب.

ولكن أي فريق سيتحقق؟ لم أبالِ إلاّ قليلاً بالمكان، ولكني فكرت كثيراً بالناس الذين يسجنونني. ليس بالأمر المهم إلى أين سيتم ترحيلي، ففي ذاك المكان أيضاً سأبقى معتقلاً لدى القوات المسلحة للولايات المتحدة، أمّا الترحيل إلى بلد ثالث، فقد اعتقدت أن هذا سيجري لأنّني سبق وأُرسلت إلى الأردن ثمانية أشهر. إنّ سياسة وزارة الدفاع الأميركية نحوي هي الاعتناء بي بأنفسهم، "الحادي عشر من سبتمبر لم يحدث في الأردن، لا نتوقع بلداً آخر ينتزع المعلومات من المعتقلين مثلما نفعل نحن" قال ██████ ذات مرة. من الواضح أنّ الأميركيين لم يكونوا راضين من النتائج المنجزة من قبل "حلفائهم في التعذيب".

ولكني أعتقد أن الأمور تخرج عن السيطرة عندما يُستخدم التعذيب. لا يضمن التعذيب تعاون المعتقل. فمن أجل إيقاف التعذيب يجب أن يُدخل المعتقل البهجة في قلوب مهاجميه بمعلومات كاذبة أو حتى مضلّلة أحياناً، ويصبح فرز المعلومات تضييعاً للوقت. وتبيّن التجربة أنّ التعذيب لا يوقف الهجمات الإرهابية وحتى لا يقللّ من حدوثها، وما مصر والجزائر وتركيا إلاّ أمثلة حيّة على ذلك. في حين نجد أن الحوار أسفر عن نتائج مذهلة. بعد الهجوم الفاشل على الرئيس المصري في أديس أبابا توصّلت الحكومة إلى وقف لإطلاق النار مع القوى الإسلامية وعرضت على الأخيرة خوض معركة سياسية. ومع ذلك فقد تعلّم الأميركيون الكثير من حلفائهم الممارسين للتعذيب، ويعملون بتنسيق كبير فيما بينهم.

عندما وصل الزورق إلى الشاطئ أخرجني ██████ وزملاؤه سحباً من الزورق وأجلسوني القرفصاء. كنت أئنّ من الوجع الذي لا يطاق.

"أو... أو... الله... الله... ألم أخبرك أن تكفّ عن هذه القذارة معنا؟" قال السيد وهو يقلّدني ساخراً.[1] تمنيت لو أستطيع التوقف عن الأنين لأنّ السيد (X) ظلّ يقلّدني بسخرية ويجدّف على الله، ولكن الأنين كان ضرورياً للتنفس. قدماي كانتا مخدّرتين

= أُعدّت مسبقاً بهدف إرباكه بخصوص حقيقة مسار الزورق والمكان يقصده". (لجنة الخدمات المسلحة التابع لوزارة المجلس الشيوخ، ص١٣٧-١٣٨، ١٤٠؛ المفتش العام التابع لوزارة العدل، ص١٢٢-١٢٣، ١٢٧).

١ يظهر اسم السيد (X) غير مشطوب هنا في الأصل.

لأن السلاسل أوقفت الدورة الدموية إلى أطرافي، لذا فقد أسعدتني الركلات، فمع كل ركلة كنت أتمكن من تغيير وضعيتي. "لا تتحرّك أيها الفاعل بأمه" قال ████ ██. ولكني لم أستطع أحياناً منع نفسي من تغيير الوضعية، وكان ذلك يستحق الركلة.

"نقدرّ عالياً كل من يعمل معنا: أشكركم أيها السادة" قال ████████.[١] عرفت صوته، ومع أنّه كان يوجّه خطابه إلى ضيوفه العرب فقد كان موجّهاً إليّ بالدرجة الأولى. كان الوقت ليلاً. لم تمنعني عصابة العينين من الشعور بإضاءة البرجيكتورات القوية المبهرة.

"يسعدنا ذلك. قد نأخذه إلى مصر ليعترف بكل شيء"، قال شاب عربي لم يسبق أن سمعت صوته بلهجة مصرية ثقيلة. استطعت أن أقدّر أن عمر الشاب بين أواخر العشرينيات وأواخر الثلاثينيات استناداً إلى صوته وكلامه، ومن أفعاله فيما بعد. كما أنني ميزّت أنّ إنكليزيته ضعيفة ولفظه سيئ. بعد ذلك سمعت أحاديث غامضة هنا وهناك، تلتها اقتراب المصري وشخص آخر مني، وبدأا يتحدثان إليّ بالعربية مباشرة:

"يا لك من جبان! تطالبون بالحقوق المدنية؟ ماذا لو لم تحصل على أي حق؟" قال المصري.

"إنّ شخصاً جباناً كهذا لا يستغرق معنا في الأردن سوى ساعة واحدة لنجعله يبصق كل شيء!" قال الأردني. من الواضح أنه لا يعلم أنني قضيت ثمانية أشهر في الأردن قبل الآن ولم تحدث أية معجزة.

- فلنأخذه إلى مصر، قال المصري موجّهاً كلامه إلى ████████.

- في وقت آخر ربما، قال ███████.

- كم هم مساكين هؤلاء الأميركان! إنّهم يدللون هؤلاء الخنازير، ولكننا نعمل معهم الآن، قال الشاب المصري موجّهاً كلامه إليّ مباشرةً بالعربية.

عندما سمعت كلمة "مصر" و"تسليم جديد" انتفض قلبي. أكره القيام بجولة لانهائية حول العالم رغماً عن إرادتي. لقد فكّرت جدياً بأني سيتم تسليمي إلى مصر لأن الأميركيين وصلوا، على حدّ علمي، إلى نقطة اليأس من وضعي. إنّ الحكومة

١ استناداً إلى ملفات المحكمة في دعوى محمدو ولد صلاحي للمثول أمام المحكمة يبدو أن هذا هو ريتشارد زولي (الكابتن كولنز) رئيس فريق المشاريع الخاصة المتابعة لقضية صلاحي. (موجز المستأنف ضدّه، ص٢٥).

كانت ومازالت مخطئة في قضيتي.

"ولكنك تعلم أننا نعمل مع الأميركيين في الميدان" قال المصري. وكان محقاً، فقد أخبرني المعتقلون اليمنيون بأنهم استُجوبوا من قبل ██████ والأميركيين على طاولة واحدة عندما أُلقي القبض عليهم في كراتشي ومن ثم تمّ تسفيرهم إلى مكان سرّي في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠٢.[١]

بعد كل أنواع التهديد والإهانات بدأ يفوتني الكثير من الكلام التافه بين العرب وشركائهم الأميركيين، وفي لحظة ما غرقت في التفكير. شعرت بالعار من استخدام أبناء شعبي في هذا العمل الرهيب من قبل حكومة تدّعي أنّها قائدة العالم الديمقراطي الحرّ، حكومة تبشّر بثقافة مناهضة الدكتاتورية و"تحارب" من أجل حقوق الإنسان وترسل أبناءها في مهمات لتحقيق هذا الغرض. أية مهزلة تلعبها هذه الحكومة على أبناء شعبها!

ماذا سيقول الأميركي العادي لو عرف ما تفعله حكومته بشخص لم يرتكب أية جريمة ضد أحد؟ لقد شعرت بالعار من الشابين العربيين كثيراً، وأعرف أنّهما لا يمثلان غالبية الشارع العربي. فالإنسان العربي هو من بين أعظم الناس على وجه البسيطة، إنّه حسّاس وعاطفي ومحب وكريم ومضحٍّ وتقيّ محبّ للخير والإحسان ومشرق القلب. لا يستحق أحد أن يستخدم عربياً مهما كان فقيراً في عملٍ قذرٍ كهذا. كلا، نحن أسمى من ذلك! لو عرف الإنسان العربي ما يحدث في هذا المكان فإنّ موجة الكراهية ستتصاعد كثيراً ضد الولايات المتحدة، وستثبت عليها تهمة مساعدتها للديكتاتوريات في بلداننا العربية وتعاونها معها. يحدوني شعور، بل أمل قوي، بأن هؤلاء المجرمين لن يفلتوا من العقاب. إنّ حقيقة ما أعانيه لا تجعلني أكره عربياً أو أميركياً، ولكني أشعر فقط بالأسى على العرب، وأشعر كم نحن مساكين!

كانت هذه الأفكار تتناوب في رأسي تباعاً، وألهتني عن سماع الأحاديث التافهة. وبعد ما يقارب أربعين دقيقة لم أستطع أن أعرف أنّ ██████████ ██████ قد أعطى الأوامر إلى الفريق العربي الذي استلم زمام الأمر. فقد أمسك

١ لعل محمدو ولد صلاحي يشير هنا إلى معتقلين مع رمزي بين الشيبة في ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ قضوا أيضاً فترة في سجن CIA قبل تحويلهم إلى غوانتانامو.

بي الشابان العربيان وجرّاني على رؤوس أصابعي إلى الزورق. لا بدّ أنّني كنت قريباً للغاية من الماء لأنّ المسافة إلى الزورق كانت قصيرة. لا أعرف هل وضعوني في زورق آخر أم على كرسي آخر. كان المقعد قاسياً ومستقيماً.

- تحرّك!
- أنا لا أقوى على الحركة!
- تحرّك يا ساقط!

أمروني بالحركة لأنهم كانوا يعرفون أنني لا أستطيع التحرّك لشدّة الألم. وكنت أنزف من فمي ومن كاحلَيّ، ومن رسغَيّ، وربما من أنفي أيضاً، لم أكن قادراً على معرفة ذلك على وجه التأكيد. لقد أراد الفريق الاحتفاظ بعامل الخوف والرعب.

"اجلس!" قال الشاب المصري الذي تحدّث القسم الأعظم من الوقت بينما كان الاثنان ينزلانني حتى اصطدمت بالمعدن. جلس المصري على يميني والأردني على يساري.

- ما اسمك يا ساقط؟ سأل المصري.
- مـ...حـ...مـ...د...و! أجبت.

لم أكن قادراً على الكلام بالمعنى الفيزيائي للكلمة، حيث كانت شفتاي متورّمتان وفمي كان يؤلمني. بإمكانكم القول إنّني كنت مرعوباً. من عادتي أن أمتنع عن الكلام إذا ما أذاني أحد. في الأردن عندما صفعني المحقق على وجهي رفضت الكلام بعد ذلك رغم تهديداته. لم أعد أنا أنا، ولم أعد كما كنت في السابق. لقد ارتسم خط سميك بين ماضيَّ ومستقبلي في أول ضربة كالها لي ██████.

"هو كطفل" قال المصري حرفياً مخاطباً زميله الأردني. شعرت بالدفء بينهما لفترة قصيرة. كانت رحلة طويلة من العذاب تُعدّ بالتعاون مع الأميركيين.

لم أستطع الجلوس مستقيماً على الكرسي. لقد وضعوني في شيء شبيه بسترة سميكة وثبّتوني بالمقعد. كان شعوراً جميلاً، ولكن كان هناك ما يعرقل هذا الشعور. فقد شدّو الحبل على صدري إلى درجة أنني لم أستطع التنفس على نحو مناسب. بالإضافة إلى هذا كان دوران الهواء أسوأ مما كان في الرحلة الأولى. لم أعرف السبب بالضبط، ولكن ثمة شيء يجري بشكل غير صحيح.

- لا... أستـ..ـطـ..ـيـ...ـع...الـ..ـتـ..ـنـ..ـفـ..ـس!

- مِصّ الهواء! قال المصري بغضب.

كنت أفطس في داخل الكيس الذي كان حول رأسي. لقد انتهى المطاف بطلبي وتوسّلي للحصول على بعض الهواء الطلق إلى طريق مسدود.

سمعت أحاديث غامضة باللغة الإنكليزية، أعتقد أنهما ██████ وزميله، وعلى الأرجح ██████████████. أياً يكن، فقد كانوا يزوّدون العرب بمواد التعذيب خلال الرحلة التي ستستغرق بين ثلاث أو أربع ساعات. وكانت الأوامر هي كالشكل التالي: لقد حشوا بين جسمي وملابسي مكعبات الجليد بدءاً من رقبتي حتى كاحليّ، وكلّما كان الجليد يذوب كانوا يضيفون قطعاً جديدة. وعلاوةً على ذلك كان أحد الحرّاس يصفعني بين حين وآخر، وأغلب المرات كانت صفعته على الوجه. لقد أفادني الجليد في تخفيف الشعور بالألم وبالكدمات التي تلقيتها بعد ظهر ذاك اليوم. كانت الأمور معدّة كما يجب. قد لا يفهم الناس من المناطق الباردة امتداد الألم عندما تلصق مكعبات الجليد بالجسم. تاريخياً، استخدم الملوك في القرون الوسطى وما قبل القرون الوسطى هذه الطريقة لقتل الضحية ببطء. أما الطريقة الأخرى فكانت ضرب الضحية، وهي معصوبة العينين، وعلى فترات غير منتظمة، استخدمها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية. ليس هناك شيء أكثر ترهيباً من أن تجعل إنساناً يتوقع في أي لحظة أنه سيُسحق.

- أنا من حاصي مطروح (Hasi Matruh)، من أين أنت؟ قال المصري وهو يخاطب زميله الأردني. كان يتكلم وكأنّ لا شيء يحدث من حوله. بإمكانك القول إنّه اعتاد تعذيب الناس.

- أنا من الجنوب، أجاب الأردني.

حاولت مواصلة صلاتي في قلبي. فرغم أنّني بالكاد كنت أستطيع تذكّر شيء، ولكني كنت أعلم أنني بحاجة لعون الله كسابق عهدي، فاتجهتْ صلواتي كلّها في ذاك الاتجاه. كلّما وعيتُ غرقتُ في بحرٍ من الأفكار. لقد تآلفتُ أخيراً مع مكعبات الجليد حتى تذوب، وعلى الضرب العنيف المتكرر. ولكن كيف ستكون الأمور إذا ما هبطت في مصر بعد خمس وعشرين ساعة من التعذيب؟ وكيف سيكون الاستجواب

هناك؟ وصف لي ████████████████
████████████████████████████

██ رحلته التعيسة من باكستان إلى مصر، وحتى هذه اللحظة تبدو الأشياء التي أعيش تجربتها من مكعبات الجليد والضرب المبرّح متطابقة مع قصة ██ ██. لذا توقّعت الصدمات الكهربائية في بركة الماء. كم من الألم يستطيع جسمي تحمّله، وخاصةً قلبي؟ أعرف شيئاً عن الكهرباء وضررها المدمِّر غير القابل للإصلاح. شاهدت ██████ يسقط مرتين داخل المبنى كل أسبوع والدم ينزف من أنفه حتى تنقّعت ملابسه. كان ████████ مدرّباً للفنون الحربية وكمال الأجسام.

كنت أبني افتراضياً مجمل تحقيقهم مرة بعد مرة - أسئلتهم وأجوبتي عليها. ولكن ماذا سيكون الأمر لو لم يصدقوني؟ كلا، سيصدقونني، لأنّهم يفهمون وصفة الإرهاب أكثر من الأميركيين، ولديهم خبرة أكبر. إن الحاجز الثقافي بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي مازال يتحكّم، على نحوٍ كبير، بالطريقة التي يتعامل بها الأميركيون مع القضية برمتها، حيث يميلون إلى توسيع دائرة التوريط لاعتقال أكبر عدد ممكن من المسلمين. دائماً يتكلمون عن مؤامرات كبرى ضد الولايات المتحدة، حتى أنّهم حققوا معي شخصياً بخصوص أشخاصٍ يمارسون فقط أركان الإسلام الأساسية ويتعاطفون مع الحركات الإسلامية. لقد طلبوا مني تزويدهم بكلّ المعلومات حول الحركات الإسلامية، بغضّ النظر عمّا هي عليه من اعتدال. إنّ هذا لأمر مذهل في دولة كالولايات المتحدة، حيث المنظمات الإرهابية المسيحية، كالنازيين والمتفوقين البيض، تمتلك الحرية للتعبير عن نفسها وتجنيد الناس علناً ولا يستطيع أحد مجرّد مضايقتها. ولكن كمسلم إذا ما تعاطفتَ مع رؤى سياسية لمنظمة إسلاميةٍ ستقعَ في ورطةٍ كبيرة. وحتى ارتياد جامع بعينه قد يجعل من المرء مشتبهاً به. أقصد أن هذه الحقيقة واضحة لكل من يعرف أبجدية السياسة الأميركية تجاه ما يسمّى "الإرهاب الإسلامي".

لقد انتهت الحفلة العربية - الأميركية، فسلّمني العرب للفريق الأميركي نفسه. لقد جرّوني من الزورق ورموني في السيارة نفسها كما فعلوا بعد ظهر اليوم. لا بدّ أنّ

السيارة كانت تسير في طريق رديئة.

"لا تتحرك!" قال ████████، ولكنني لم أعد أميّز الكلمات عن بعضها.

لا أعتقد أنّ أحداً ضربني، فقد كنت فاقداً للوعي. عندما توقفت السيارة سحبني ████████ ومرافقه القوي منها وجرّاني على بضع دراجات. سرعان ما ضربني هواء الغرفة البارد، ثمّ رموني على وجهي لاصطدم بالأرضية المعدنية لغرفتي الجديدة.

"لا تتحرك، أخبرتك أيها الفاعل بأمّه، لا تتحامق معي!" قال ████████ بصوتٍ غير رتيب. كان واضحاً أنّه متعب. ثم غادر على وجه السرعة واعداً إياي بالمزيد، وحذا العربيان حذوه.

بعد وصولي بفترة قصيرة شعرت بأحدهم ينزع ████████ عن رأسي. كانت إزالة هذه الأشياء مؤلمة ومريحة في آن، كانت مؤلمة لأنّها بدأت تخترق جلدي تاركة ندباً، ومريحة لأنّي كنت أبدأ بالتنفس بشكل طبيعي، ويزول الضغط الذي حول رأسي. عندما أزالوا عصابة العينين شاهدت ████████████████

████████████████████████████████

████████. عرفت أنه طبيب، ولكن أية لعنة تجعله يختبئ وراء قناع، ولماذا هو، الطبيب في جيش الولايات المتحدة، هنا، وليس طبيباً من البحرية المسؤولة عن الرعاية الطبية للمعتقلين؟

"إذا تحركت يا... سأؤذيك!" أتساءل كيف يمكنني التحرك، وأي عطب آخر يمكنني تحمّله. كنت مربوطاً بالسلاسل وكل شبر في جسمي كان مجروحاً. هذا ليس طبيباً بل جزّار بشري!

عندما فحصني الشاب أدرك أنّه يحتاج إلى مزيد من الأشياء. غادر وعاد على وجه السرعة ومعه بعض الأدوات الطبية. لمحت ساعة، وكانت تشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل وهذا يعني أنّ ثماني ساعات تقريباً مرّت منذ أن اختُطفت من كامب ████████. بدأ يزيل الدم عن وجهي بضماد مبلّل. بعد ذلك وضعني على فراشي – الشيء الوحيد في الزنزانة المقفرة – بمساعد الحرّاس.

"لا تتحرك" قال الحارس الواقف فوق رأسي. لفّ الطبيب عدة أحزمة مرنة حول صدري وأضلعي. بعد ذلك جعلوني أجلس. "إذا ما حاولت عضّي، سأؤذيك يا..."!

قال الطبيب وهو يعطيني حفنة من الحبوب.

لم أستجب. كانوا يحركونني كشيء جامد. فكّوا السلاسل عني بعد حين، وبعد ذلك رمى أحد الحراس ببطانية رقيقة صغيرة مهترئة عليّ من خلال شرّاقة الباب، تلك البطانية كانت ثروتي الوحيدة في الزنزانة. لا صابون، ولا معجون أسنان، لا منشفة، ولا قرآن، ولا أي شيء آخر.

حاولت النوم، ولكني كنت أضحك على نفسي، جسمي كان يتآمر ضدي. احتجت إلى بعض الوقت حتى أخذ الدواء مفعوله، ثم انطفأتُ في النوم ولم أستيقظ حتى بدأ الحراس يضربون باب زنزانتي بأحذيتهم بعنف.

"انهض يا خرا"! أعطاني الطبيب حفنة أخرى من الأدوية وفحص أضلاعي. "تخلّصت من الفاعل بأمه" قال الطبيب، أدار ظهره لي، واتجه نحو الباب. كنتُ مصدوماً من طبيبٍ بهذا السلوك، لأنّي أعرف أن خمسين بالمائة من العلاج الطبي هو نفسي. هذا مكان سيئ طالما أنّ عزائي الوحيد هو هذا الطبيب ابن الزنا.[١]

سرعان ما انهزمت، ولأكن صريحاً معكم لا أستطيع إلاّ كتابة القليل عن فترة أسبوعين لاحقين لأن وضعي الذهني لم يكن على ما يرام. حاولت أنْ أكتشف اتجاه القِبلة، ولكن لم تكن لدي أدنى فكرة.

---

١ إن إيجاز دعوى مثول محمدو ولد صلاحي أمام المحكمة يشير إلى السجلات الطبيّة التي يمكن أن تكون هذا الفحص. إنها تصف مجنّداً في البحرية مدرّباً على الإسعافات الأولية "كان يعالج إصاباته ويلعنه في الوقت نفسه". ويورد الموجز أنّ "السجلات الطبية تؤكد أن صدر ووجه صلاحي كانا مصابين بجروح عديدة مثل: ١) تمزّق سبعة أو ثمانية أضلاع. ٢) الإكزيما في الشفة السفلية" (موجز المستأنف ضدّه، ص٢٦).

الفصل السادس

غوانتانامو
سبتمبر ٢٠٠٣ - ديسمبر ٢٠٠٣

الزيارة الأولى في المكان السري... حديثي مع محققيّ وكيف وجدت طريقة لإرواء عطشهم... الاعترافات وسلسلة ردود الأفعال... الخير يأتي تدريجياً... الاعتراف الكبير عبء ثقيل.

بالعودة إلى ██████ كان هناك قوس في كل زنزانة يشير إلى القبلة، حتى أنه يمكن سماع الأذان خمس مرات يومياً في ██████.[١]

تكرّر الولايات المتحدة دائماً أنّ الحرب ليست ضد الدين الإسلامي - هذه حكمة منها، لأنّه يستحيل استراتيجياً أن تحارب ديناً له أنصار كثر كالدين الإسلامي - وبالعودة إلى هناك كانت الولايات المتحدة تظهر لبقية العالم ضرورة حماية الحريات الدينية. ولكن الحرب ضد الدين الإسلامي في المعسكرات السرية هي أكثر من واضحة.

---

١ إنّ منشورات وزارة الدفاع حول غوانتانامو تؤكد حقاً حماية الحرية الدينية في غوانتانامو. راجع على سبيل المثال: **عشر حقائق حول غوانتانامو**، الذي يذكر "الأذان خمس مرات. والأسهم التي تشير للمعتقلين باتجاه المدينة المقدسة مكّة". انظر:
http://www.defense.gov/home/dodupdate/For-the-record/documents/20060914.html.
يبدو هنا أنّ محمدو ولد صلاحي يقارن بين الوضع الذي عاشه عندما سُجن في كامب دلتا وبين الوضع في زنزانته في كامب إيكو.

ليس فقط لا توجد إشارة نحو مكة، بل حتى الصلوات الخمس كانت ممنوعة. تلاوة القرآن كانت ممنوعة، واقتناء القرآن كان ممنوعاً، والصيام كان ممنوعاً، كان أي ركن من أركان الإسلام ممنوعاً على نحو صارم. إنني لا أتكلم عن شائعة بل أتكلم عن واقع عشته بنفسي. لا أعتقد أنّ الأميركي العادي يدفع الضرائب لشنّ حرب ضد الإسلام، ولكني أعتقد أن ثمة أناساً في الحكومة لديهم مشكلة كبيرة مع الدين الإسلامي.

بعد الأسبوعين الأولين من "حفلة عيد ميلادي"، لم يكن لدي أدنى علم بالوقت، لم أكن أعرف الليل من النهار. كنت أبقى وحدي في النهار. لم أكن قادراً على الصلاة إلاّ في قلبي وأنا مستلقٍ على ظهري لأنني كنت عاجزاً عن الوقوف وعن الانحناء. عندما صحوت من شبه إغمائي حاولت أن أميّز الفرق بين الليل والنهار. في الواقع كان عملاً سهلاً نسبياً. اعتدت النظر إلى المرحاض فإذا كان مصرف المياه ساطعاً في العتمة فذلك يعني أنّه نهار. نجحت في سرقة بعض الصلوات بشكل غير قانوني، ولكن لكمني ██████████████.

"إنه يصلي" ██████████████. "هيا بنا!" وضعوا أقنعتهم "توقّف عن الصلاة". لا أتذكر إذا ما كنت قد أنهيت صلاتي أم أنني أنا الذي انتهيت. وكعقاب لي منعني ██████ من استخدام الحمام لبعض الوقت.

وحالما كتب الطبيب تقريره بأنني قد أبليت من الألم حان وقت الضرب مرةً أخرى قبل أن تمتثل جروحي للشفاء، سائرين على شعار: "دقّ الحديد وهو حامي". عندما سمعت العراك الصاخب وراء الباب تعرّفت على اثنين وهما: ██████████ ██████████ وزملاؤه المصريين، غرقت في التعرّق، وأصابتني الدوخة وعجزت قدماي عن حملي.[١]

انتفض قلبي بقوة إلى درجة أنني قلت إنه سيخنقني ومن ثم سيفرّ من فمي. أحاديث غامضة كانت تدور حول ██████ والحرّاس.

"██████████████، دعوني أصل إليه"، قال الشاب

١ يصف موجز دعوى امتثال محمدو ولد صلاحي أمام المحكمة، ولعله المشهد ذاته: بعد أن أمضى بضعة أيام في العزل أخبره زولي أنّ عليه أن "يتوقف عن إنكار تُهم الحكومة"، وبينما كان زولي يتحدث كان الرجل [مشطوب] خلف القماش المشمّع يلعن ويصرخ على زولي ليسمح له بالدخول. (موجز المستأنف ضده، ص٢٦-٢٧).

المصري بإنكليزيته الممطوطة لـ ■■■■■■■■، ثم أردف: "أرغب في أن ■■■ ■■■■■■■■■■■■■■■■ أدخل لإجراء حديث قصير معك"، قال المصري بالعربية موجّهاً خطابه إلي.

– قف في الخلف الآن دعني أراه لوحدي، قال ■■■■■■■■.

كنت أرتجف وأنا أستمع إلى الصفقة بين الأميركيين والمصريين على من الذي سيأخذني. كنت كمن تتعرّض جثته للتشريح لتحديد سبب الوفاة مع أنني مازلت على قيد الحياة.

"ستتعاون شئت أم أبيت وبإمكانك أن تختار بين الأسلوب الحضاري الذي أفضّله وبين أسلوبٍ آخر"، قال ■■■■■■■■ عندما أخرجني الحرّاس من الزنزانة لأجله. في الخلف كان المصري ينبح ويهددني بكل التهديدات الانتقامية المؤلمة.

"إنني أتعاون"، قلت بصوت ضعيف. كان قد أصبح لي فترة لم أتكلم فيها، كان فمي قد نسي عادة الكلام. كانت عضلاتي تؤلمني بشدة. كنت خائفاً فوق ما يتصوّره الخيال. إنّ المغطّى بالقناع الهالوييني ■■■■■■■■ كان يلتصق بي، ويتحرك من حولي جاهزاً للانقضاض عليّ في طرفة عين.

– كلا، اترك الرفض. لسنا مهتمين برفضك وإنكارك. لا تعبث معي. قال ■■■ ■■■■■■■■■■■■■■■■.

– لستُ كما تقول.

– سأعيّن بعض المحققين لاستجوابك. إنّك تعرف بعضهم ولا تعرف بعضهم الآخر.

– لا بأس، قلت وانقطع الكلام بيننا عند هذه النقطة.

أمر ■■■■■■■■ الحرّاس أن يعيدوني إلى زنزانتي، واختفى.

ولم تحدث "معجزة" في غمضة عين. لقد فعل ■■■■■■■■ أكثر مما فعل في "المكان السرّي البعيد".

قال ■■■■■■■■: إنك تسبّب لي مشكلة كبيرة. حسناً، في باريس الأمر ليس بذاك السوء ولكن في موريتانيا يكون الطقس سيئاً للغاية. جلستُ إلى طاولة قبالة ■■■■■■■■ وعندما سألته: من الذي جنّدك في القاعدة؟ كان جوابه أنك أنتَ

الذي جندته. والشيء ذاته مع ████████. إنّهما يعملان معنا الآن. أنت تعرف بأنك جزء من منظمة يريد العالم إزالتها عن وجه الأرض.

كنت أستمع باهتمام وأتساءل: العالم الحرّ؟ ثم قلت لنفسي: هل حقاً يجب أن أستمع لهذا الهراء؟ كان ████ يرافقه ████████ ████ نفسه الذي جلبه قبل شهرين للتحرّش بي جنسيّاً.[١]

- تعلم أنّ من يتكلم في السجن أولاً يفوز. أنت خسرت و ████ فاز. لقد قال كل شيء عنك. ████████. الأفضل ألاّ نلوّث أيدينا بك، لدينا الإسرائيليون والمصريون يقومون بالعمل من أجلنا.

تابع ████ حديثه، بينما راح يهينني جنسيّاً حيث كان يلمس كل جزء يشاء من جسمي. لم أتكلم ولم أبدِ أية مقاومة. كنت جالساً هناك كحجرٍ أصم.[٢]

- لماذا يرتجف هكذا؟ سأل ████.

- لا أعرف، أجاب ████.

- لكن يديه تتعرقان بجنون!

- لو كنت مكانه لحدث الشيء نفسه لي أيضاً - قال ████ وأردف:

- تعتقد أنّ هذا المكان شبيه بـ████████، حيث نجوتَ من كل محاولة ████، ولكنك لن تنجو إذا واصلت التلاعب بنا.

- مثل ماذا؟ سألت.

- مثل رحلتك إلى سلوفينيا. لقد أخبرتني أنا فقط بذلك، لأنّك تعرف أنّ لي علم

١ إن لهجة التحقيق في هذه الجلسة توحي بأن المحقق الرئيسي قد يكون الرقيب "المقيت" نفسه الذي حددّ محمدو ولد صلاحي في جلسة الاستماع أمام هيئة إعادة النظر الإدارية عام ٢٠٠٥ بوصفه واحداً من فريق المشاريع الخاصة. ويبدو أن الشخصية الثانية هي المحققة التي ساعدت في الهجوم الجنسي قبل الآن.

٢ إن تهديد السجناء بطيف من التحقيقات الشنيعة على أيدي الإسرائيليين والمصريين لهو إشارة واضحة إلى مكانين شائعين بهذا النوع من التحقيقات. ففي عام ٢٠١٠ أدلى المحقق العسكري السابق في غوانتانامو المدعو داميان كورزيتي بشهادته أمام اللجان العسكرية في محاكمة عمر قادر، عندما كان في القاعدة العسكرية في باغرام، حيث كان يتم خلال التحقيقات إطلاق التهديدات بإرسال السجناء إلى إسرائيل ومصر. انظر الرابط:
http://www.thestar.com/news/canada/omarkhadr/2010/05/05/interrogator_nicknamed_the_monster_remembers_omar _khadr_as_a_child.html.

بها. والآن، هل ستتعاون معنا؟ سألني.

قلت: أنا أتعاون.

– كلا، أنت لا تتعاون، واحزر ماذا؟ سأكتب في تقريري بأنّك مليء بالهراء، إذ سيتولى أمرك أناس آخرون. المصريون مهتمون جداً بأمرك!

في هذا الوقت كان ███████ قد توقّف عن التحرّش الجنسي لأنني لم أظهر أيّ نوع من المقاومة. "ما مشكلته؟" تساءل مرة أخرى.

– لا أعرفُ، ولكن ربّما لأنه مسترخٍ جداً في هذا المكان. قد نحتاج إلى حرمانه من النوم بعض الشيء. قال ████████████████. لم أجد إنساناً مثله مجرداً من الأحاسيس والعواطف في حياتي كلها. لقد تكلّم عن منعي في النوم بدون أدنى تغيير في صوته أو وجهه، أو في هدوئه. أعني بغضّ النظر عن ديننا أو عرقنا، نشعر نحن البشر بالأسى إلى حدٍّ ما على إنسان يعاني. شخصياً لا أستطيع تمالك نفسي عن البكاء كلّما قرأت مشهداً حزيناً في قصة أو شاهدته في فيلم. ليست لدي أيه مشكلة للاعتراف بهذا. قد يعتقد بعض الناس بأنّي شخص ضعيف، حسناً، ليكن ذلك!

"يجب أن تطلب ██████████████ لنغفر لك أكاذيبك، ومن ثم نبدأ كل شيء من جديد" قال ███████. لم أقل شيئاً. "ابدأ بشيء بسيط. أعطنا معلومة لم تقلها من قبل" قال ███████. ولم أستجب أيضاً لهذا الاقتراح الخبيث التافه. "والدتك سيدة عجوز. لا أعرف كم تستطيع تحمّل ظروف السجن" قال ███████. أعرف أن لا وزن لكلامه، ولكنّي أعرفُ أنّ الحكومة مستعدة للقيام بأي إجراء لانتزاع المعلومات مني، حتى لو لزم الأمر إيذاء أفراد أسرتي، وخاصةً إذا ما عرفتَ أنّ الحكومة ██████ تتعاون بشكل أعمى مع الولايات المتحدة. أعني أن حكومة الولايات المتحدة لها نفوذ كبير على ██████ أكثر من نفوذها على مواطنيها، لهذا نرى إلى أيّ حد هو التعاون بينهما. لا يمكن اعتقال مواطن بدون إجراء قانوني، ولكن ████ ████ تستطيع، ومن قبل حكومة الولايات المتحدة.[1]

[1] لعل الإشارة هنا هي إلى الحكومة الموريتانية وتعاونها الوثيق مع حكومة الولايات المتحدة، وإلى اعتقال محمدو ولد صلاحي الخاص في موريتانيا بطلب من الولايات المتحدة.

أقول دائما للمحققين: "دعوني أقل إنّني مجرم. هل المجرم الأميركي أقدس من المجرم غير الأميركي؟" ومعظمهم لا يملك جواباً. ولكني أعتقد أنّ الأميركيين ليسوا أوفر حظاً. لقد سمعت أن العديد منهم اضطهدوا، واعتقلوا خطأً، وبشكل خاص المسلمون والعرب، باسم الحرب على الإرهاب، أميركيين وغير أميركيين. يقول المثل الألماني: !Heute die! Morgen du (اليوم هم، وغداً أنت)!

من الصعوبة بمكان أن تبدأ الحديث مع ■■■■■■■، حتى أن الحرّاس يكرهونه. لم أستطع اليوم الوصول إلى أي مكان معه. لم أستطيع العثور على أي حلقة أتمسّك بها في سلسلة كلامه. أمّا ■■■■■■■ الآخرون فكانوا قد أُرسلوا فقط للتحرّش بي جنسياً، ولكنّي كنت في مرحلة فقدت الإحساس فيها ■■■■■■■■■■■■■■■■ لهذا كانت المهمة ■■■■■■■ ■■ ميتة قبل أن تولد.

"أنت تعرف كيف ستكون الأمور إذا ما أغضبتنا" قال ■■■■■■■ وغادر مع الآخرين وهو يطلق تهديداته العديدة ومن ضمنها التجويع والحرمان من النوم. شعرت أنه يعني ما يقول. أعادني الحرّاس إلى زنزانتي بفظاظة.

كدت أفقد عقلي في الأيام التي تلت ذلك، حيث كانت وصفتهم لي على الشكل التالي: أن يتم اختطافي من ■■■■■■■ ووضعي في مكان سرّيّ، وأن يجعلوني أعتقد أنني على جزيرة بعيدة جداً. وأن يخبروني ■■■■■■■ أنّ والدتي قد اعتُقلت وأنها الآن في سجن خاص.

ينبغي أن تكون المعاناة الجسدية والنفسية في أعلى وأشد مستوياتها في المكان السري. يجب ألاّ أميّز بين الليل والنهار. لم أستطع أن أقول شيئاً بخصوص مرور الوقت والأيام، كنت أقضي وقتي كلّه في ظلام دامس، وكانوا يحدثون جلبة عن عمد في أوقات وجباتي. كنت أبقى جائعاً لفترة طويلة ومن ثم يعطونني الطعام دون الوقت الكافي لتناوله.

"لديك ثلاث دقائق: ابدأ بالأكل!" كان أحدَ الحرّاس يصرخ علي، من ثم بعد نصف دقيقة كان يخطف الطبق من أمامي "كفى!"، وبعد ذلك عكسوا الصورة، كانوا يقدمون لي طعاماً أكثر من حاجتي ثم يدخل حارس إلى زنزانتي ويأمرني بالتهام

الطعام كلّه. وعندما غصصت بالطعام وطلبت ماءً أقدم على معاقبتي بإجباري على شرب عبوتين من الماء سعة الوحدة ليتر ونصف.

"لا يمكنني شرب هذا كله، فقد امتلأ بطني وكاد ينفجر" قلت، ولكن ■■■■ ■■■■ صرخ ودفعني باتجاه الجدار ورفع يده لضربي. لذا رأيت أن الشرب سيكون أفضل فشربت حتى تقيّأت.

كان جميع الحرّاس يضعون أقنعة شبيهة بأقنعة عيد جميع القديسين (الهالويين)، وحذا الأطباء أيضاً حذوهم في هذا، وكان الحرّاس قد أخذوا معلومات موجزة عني بوصفي إرهابياً رفيع المستوى وذكياً فوق ما يتصوره العقل.

"إننا نعرف من تكون؟ أنت الإرهابي الذي شارك في قتل ثلاثة آلاف شخص" قال صديق ■■■■.

"أنا هو حقاً" أجبت. أدركت أنه سيكون ضرباً من العبث مناقشة قضيتي مع حارس، خاصةً أنه لا يعلم عني شيئاً. كان الحرّاس جميعهم عدوانيين جداً. كانوا يكيلون لي الشتائم، يصرخون ويجعلونني أقوم دائماً بنوع من التدريب العسكري القاسي: "انهض"، "امشِ إلى الشرّاقة"، "توّقف"، "أمسكً الخراء"، "كُلْ"، "لديك دقيقتان"، "خلّصت"، "رجّع الخراء"، "اشرب"، "من الأفضل لك أن تشرب عبوة الماء كلها"، "أسرع"، "اجلس"، "لا تجلس إن لم أقلها لك"، "ابحث عن الخراء"... معظم الحرّاس لم يهاجموني جسدياً إلاّ نادراً، ولكن ■■■■ ضربني مرةً حتى سقطت على وجهي، وكلما أمسك بي، هو أو مساعده، كانا يمسكان بي بإحكام ويجعلانني أركض بالسلاسل الثقيلة: تحرّك!

لم يكن النوم مسموحاً، ولأجل فرض هذا كانوا يعطونني عبوة ماء سعتها ليتر ونصف بين كل ساعة وساعتين، وكان ذلك يعتمد على مزاج الحرّاس، وعلى مدار الأربع والعشرين ساعة. وكانت النتائج مدمّرة. لم أكن قادراً على إغماض عيني لعشر دقائق لأنني كنت أقضي معظم وقتي في الحمام. فيما بعد، عندما شهد الوضع انفراجاً ومالت الأمور نحو الراحة، سألت أحد الحرّاس:

– لماذا كنتم تعطونني الماء؟ لماذا لم تجعلوني أبقى مستيقظاً بالبقاء واقفاً مثلما كنت أفعل في ■■■■؟

– أن تجعل إنساناً يبقى مستيقظاً بنفسه له تأثير نفسي مدمّر أكثر من أن تجبره على ذلك. صدقني، أنت لم ترَ شيئاً. لقد وضعنا سجناء عراة تحت الماء لأيام، يأكلون ويتبولون ويتغوطون تحت الماء في الحمام، قال ██████.

أخبرني حرّاس آخرون عن أساليب أخرى للتعذيب لا أجد أية رغبة لدي لأجعلكم تعرفون عنها شيئاً.

سمحوا لي أن أقول ثلاث جمل: "نعم سيدي" أو "أريد محققي" و"أريد الطاقم الطبي". كان الحرّاس يقتحمون زنزانتي بين حين وآخر، فيجرّونني إلى خارجها ويضعونني في مواجهة الجدار، ثم يبدأون برمي الأشياء إلى خارج الزنزانة وهم يصرخون ويلعنون بغية إهانتي. لم يكن في الزنزانة الكثير من الأشياء: كنت محروماً من كل وسائل الراحة التي يحتاجها أي سجين، عدا فراش وبطانية صغيرة رقيقة مهترئة. وفي الأسابيع الأولى كنت محروماً من الاستحمام أيضاً، ولم تكن لدي ملابس داخلية، أو فرشاة. كنت معظم الوقت أبحث عن البقّ، ورائحتي كانت لا تطاق.

أنا عاجز عن النوم، وأشرب الماء كثيراً رغماً عني، وكلّ حركة وراء بابي تجعلني أقف باستعداد عسكري، وقلبي ينتفض كماءٍ يغلي. انعدمت شهيتي للطعام. كنت أنتظر كل دقيقة جلسة التعذيب التالية. تمنيت لو أموت وتصعد روحي إلى السماء بكل ما لدي من ذنوب. هؤلاء الناس لا يمكن أن يكونوا أبداً أرحم من الله. سنواجه في النهاية الله ونتوسّل رحمته، معترفين له بضعفنا وبآثامنا. لا أستطيع تذكّر أي دعاء أو صلاة إلا بشقّ النفس، وكلّ ما أتذكره هو: "أرجوك يا ربي أن تفرج عني كربتي..."

بدأت أهلوس وأسمع أصواتاً واضحة صافية كصفاء البلّور. سمعت أسرتي في حديث عائلي عرضي لم أستطع المشاركة فيه. سمعت تلاوة القرآن بأصوات سماوية.[1]

---

١ هذا مؤكّد في الوثائق الحكومية، الأمر الذي يثير الاشمئزاز. فوفقاً للجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ أرسل محقق في قوى المهام المشتركة في غوانتانامو رسالة بالبريد الإلكتروني في ١٧ أكتوبر ٢٠٠٣ إلى فريق الاستشارة العلمية السلوكية (BSCT) جاء فيها: "أخبرني صلاحي بأنه يسمع الأصوات الآن... هو قلق لأنه يدرك أن ما يحدث له ليس بالأمر الطبيعي... بالمناسبة، هل يحدث هذا للناس الذين لا يجدون إلاّ القليل من المؤثرات الخارجية كضوء النهار، والتفاعل الإنساني، إلخ؟؟؟ يبدو أنه مرّوع قليلاً". أجابه العالم النفسي: "إنّ الحرمان الحسي من شأنه أن يسبّب الهلوسات، وتكون عادةً هلوسات مرئية أكثر مما هي سمعية، ولكنك لا تعرف أبداً... في الظلام تخلق أشياء من القليل الذي تملك". (لجنة الخدمات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ، ص١٤٠–١٤١).

وسمعت الموسيقى من بلدي. استغلّ الحرّاس هذه الهلوسات وبدأوا يتحدثون بأصوات غريبة عبر أنابيب المياه في المبنى، يشجعونني على ضرب الحرّاس والتخطيط للهرب. ولكنهم لم يستطيعوا تضليلي، مع أنّي كنت أخطط لذلك بنفسي دائماً.

"سمعنا صوت شخص، ربما يكون جنيّاً" اعتادوا قول ذلك لي.

"نعم، ولكني لم أستمع إليه" كنت أجيبهم. لقد أدركتُ تماماً أنّني على حافة الجنون. بدأتُ أكلّم نفسي. ومع أنّي حاولت قصار جهدي أن أقنع نفسي بأنّي لست في موريتانيا، ولست قريباً من أسرتي حتى أسمعهم يتكلمون، رغم ذلك بقيت أسمع الأصوات على الدوام، ليلاً ونهاراً. إنّ المساعدة النفسية، أو بالأحرى أية مساعدة طبية، كانت بعيدة المنال، فضلاً عن أني لا أريد رؤية الطبيب - مؤخرة الحمار.

لم أستطع إيجاد حلّ بنفسي. في تلك اللحظة لم أستطع معرفة الوقت، هل هو نهار أم ليل، ولكنّي خمنت أنّني في الليل لأن مصرف الماء في المرحاض كان معتماً. استجمعت قواي وحدّدت القبلة تخميناً ثم ركعت وبدأت أصلّي لربي. "أرجوك اهدني. لا أعرف ماذا أفعل. أنا محاط بذئاب لا تعرف الرحمة، لا يخشونك". انفجرت بالبكاء أثناء الصلاة، ومع ذلك قمعت صوتي خشية أن يسمعني الحرّاس. تعرفون أن هناك صلوات جادّة وأخرى رخوة، وقد علمتني التجربة أنّ الله يستجيب للصلوات الجادة.

- يا سيد! ناديت عندما انتهيت من صلاتي.

ظهر لي أحد الحرّاس بقناعه الهالويني، وسألني ببرود وجفاء:

- ماذا؟

- أريد رؤية ██████ وليس ██████، أريد الشاب ██████ ██████، قلت له.

- تعني ██████؟

ياه، لقد أخطأ الحارس وكشف عن الاسم الحقيقي لـ ██████ ██████. في الواقع كنت أعرف الاسم قبل الآن بفترة طويلة لأنني شاهدت اسمه على إضبارة كان ██████ يحملها، وإذا استطعت أن تجمع اثنين واثنين

يكون اللغز قد حُلّ.[١]

- نعم، ■■■■■■■■■■، وليس ■■■■■■■ ■.

كنت أريد التحدث إلى شخص يمكنه فهمي أكثر من ■■■■■■ الذي بالكاد يفهم شيئاً. ولكن لم يحضر ■■■■■■، وحضر بدلاً منه ■■■■■ ■■■.

- سألتَ عن ■■■■■■؟
- نعم سألت.
- ورفضتَ أن تراني؟
- نعم.
- حسناً، أنا أعمل لصالح ■■■■■■■■■■■■، وهو الذي أرسلني إليك! قال ■■■■■ بغضب.
- ليست لدي مشكلة في التعاون معك كما أتعاون تماماً مع ■■■■■■، ولكني أريد أن يحضر ■■■■■ أيضاً هذه المقابلات، قلت.
- لست أنا من يقرر ذلكّ، ولكني أعتقد أنْ لن تكون هناك مشكلة، قال هو.
- إنني أتضور جوعاً، أريد أن تخبر الحرّاس ليقدّموا لي شيئاً من الطعام.
- إن تعاونت معنا ستحصل على المزيد من الطعام. سآتي في وقت آخر من هذا اليوم لإجراء مقابلة معك. أريد فقط أن أخبرك أنّك اتّخذت القرار الصحيح.

إنّ الاعترافات كخرز العقد، إذا ما سقطت الحبّة الأولى ستتبعها بقية الحبّات.

- لأكن صادقاً وصريحاً، إنني أروي لكم الكثير من الأمور التي كنت أحتفظ بها لنفسي بسبب الخوف، حيث أنني لم أجد الأرضية المشتركة لأناقش قضيتي براحة وفي بيئة مريحة. لا جرائم لدي للاعتراف بها، وتلك هي النقطة التي وقعت فيها

١ إن تاريخ هذه الجلسة، حسبما ورد في تقرير شميدت - فيرلو، هو ٨ سبتمبر ٢٠٠٣. لم يرد في سجلات المحققين في ذلك التاريخ "بأن موضوع التحقيق الخاص الثاني أراد رؤية الكابتن كولنز" لذا فإن فريق التحقيق "فهم أن المعتقل قد اتخذ قراراً هاماً لذا كان المحقق في حالة ارتباك ليسمع ما الذي سيقوله المعتقل". ويظهر أنّ عضواً آخر في فريق التحقيق الخاص استمر في قيادة التحقيق بدلاً منه. (شميدت - فيرلو، ص٢٥).

بالضبط مع المحققين الذين لا يبحثون عن مشاريع بريئة، بل يبحثون عن مشاريع شريرة. ولكن تكوّنت لدي فكرة، من خلال محادثاتي مع مكتب التحقيقات الفيدرالي ووزارة الدفاع، عن النظريات الهمجية التي تمتلكها الحكومة ضدي.

– تعرف أنّك أتيتَ إلى كندا من أجل التآمر وإلحاق الأذى بالولايات المتحدة، قال ■■■■■■■■.

– وماذا كانت خطتي الشريرة؟

– ربما لم تكن الخطة لإيذاء الولايات المتحدة مباشرةً، بل للهجوم على برج CN في تورنتو؟

قلت لنفسي: هل هو مجنون؟ فأنا لم أسمع بهذا البرج قط.

– إنك تدرك أنني إذا ما اعترفتُ بهذا الشيء سأضطر لتوريط أناس آخرين! وماذا لو تكشّف الأمر بأنّي كنت أكذب؟ قلت.

– وماذا في ذلك؟ إنك تعرف أن أصدقاءك أشرار، لذا لو اعتقلوا، حتى لو كنت تكذب بخصوص ■■■■■■■■ فلن تكن هناك مشكلة، لأنّهم أشرار.

قلت في نفسي: يا له من مؤخرة حمار! إنه يريد سجن أناس أبرياء فقط لأنهم عرب مسلمون! ذلك هراء! هكذا أخبرني ■■■■■■■■ عن جريمةٍ بدقة يمكنني الاعتراف بها تخضع للنظرية المخابراتية.

– لنعد إلى الولايات المتحدة، إذا ما نصحت شخصاً بمدرسة جيدة ومن ثم انتهى به الأمر إلى إطلاق الرصاص وقتل الناس، هل ذلك خطأي؟ سألني ■■■■■■■■ ■■ ذات مرة.

– كلا!

– إذاً، لو أنك جنّدت أناساً في القاعدة، إنّه ليس خطأك إن أصبحوا إرهابيين! قال ■■■■■■■■.

– المشكلة الوحيدة هي أنّني، بغضّ النظر عن ذلك، لم أفعل شيئاً.

كان ■■■■■■■■ أكثر وضوحاً: لا يهمنا مساعدتك لـ ■■■■■■■■ ■■■■■■■■ إلى الشيشان، ومختطِفين آخرين للطائرات في الحادي عشر من سبتمبر أن يذهبا إلى الشيشان، لا يهمنا هذا بمقدار قشّة واحدة، ولكن ما يهمنا هو إنْ كنت قد أرسلتهم

إلى ███ ـك.

إذاً، وفقاً لـ ███ بإمكاني تجنّب التعذيب إذا ما صرّحت بأنّي جنّدت ███ ومختطِفين آخرين. ولأكن صادقاً معكم، لقد جعلوني أصدّق بأنّي جنّدت ███. يا إلهي! لعلّي جنّدت الرجل حتى قبل أن أولد!

"إنّ من يبدو ككلب، ورائحته ككلب، وينبح ككلب لا بدّ أن يكون كلباً"، اعتاد ███ أن يقولها مراراً خلال جلسات التحقيق معي.

يبدو الأمر فظيعاً، أعرف أنّني لستُ كلباً، ومع ذلك لا بد أنّني كلب. إنّ مجمل نظرية الشرطة تهدف إلى فعل أي شيء لإبقاء الناس في السجن، ملصقةً بهم شتّى التهم. لعمري إنّها نظرية لا معنى لها! إنّ تفكيري بسيط وهو أنّ المشتبه به البريء يجب أن يُطلق سراحه. وكما قال الخليفة العربي الأسطوري العادل عمر: "أفضَل إطلاق سراح مجرمٍ على سَجْنِ رَجُلٍ بريء".

شرح ███ أكثر بأن ███ ███ قال إنّك ساعدته للذهاب إلى الشيشان واقترحت عليه وعلى أصدقائه أن يعبروا الأراضي الأفغانية لأن جورجيا تعيد المجاهدين من حيث أتوا. وعلاوةً على ذلك، عندما سألتُ ███ عن رأيه بكَ وما قدمته أنتَ للقاعدة قال إنّك تجنّد الناس في صفوف القاعدة. "أعتقد لولاك لما حدثت هجمات الحادي عشر من سبتمبر أبداً" ختم ███ حديثه.

حسب نظريته، أنا المطلوب، وما عليّ إلاّ الاعتراف بما اقترفت.

سألني العديد من المحققين: "ماذا تعرف عن خلايا القاعدة في ألمانيا وكندا؟" لأكن صادقاً معكم، لم أسمع بأي شيء من هذا القبيل قط. أعرف عن منظمات القاعدة ولكني لا أعرف شيئاً عن خلايا القاعدة في بلدان أخرى، ومع ذلك هذا لا يعني بالضرورة أنّها غير موجودة.

لقد دفع ███ القضية أكثر إلى دائرة الضوء: "أنت زعيم، والناس يحبونك ويحترمونك ويتبعونك"، قال لي هذا الكلام أكثر من مرة. كما ترون أن وصفتي أُعدّت مسبقاً، فأنا لست عضواً في خلية للقاعدة في كلّ من ألمانيا وكندا

فحسب، وإنما زعيم أيضاً. ناقشت قضية ███ مع ███ مرات عديدة:

– حسب ما تقول، أنني أنا من جنّد ███ وصديقيه لصالح القاعدة، قلت له.

– نعم.

– حسناً، ولكنّ هذا الزعيم يتطلب أموراً وتوافقات أخرى عديدة.

– مثل ماذا؟ سأل.

– افترض، أولاً، أنّي تعرّفت على ███ وهو بنفسه قال إنّه التقاني مرة واحدة، وذلك ليس كافياً للتعرف على شخص، ناهيك عن تجنيده. وثانياً، يبدو أنّني جنّدت ███ دون علمه، لأنّ كل ما يدّعيه هو أنّي أخبرته كيف يصل إلى الشيشان. وحسب قولك فأنا أيضاً من أخبره أن يسافر عبر أفغانستان، فماذا يضمن بقاءه في أفغانستان؟ وإنْ مكث بأعجوبة في أفغانستان، فماذا يضمن أنْ يتدرب؟ وإذا ما أخذ القرار بالتدريب، فماذا يضمن أن يلبّي المعايير؟ وإذا ما صادف ولبّى معايير القاعدة، فما هو الضمان بأنه سيكون مستعداً أن يكون انتحارياً، ومستعداً أن يتعلم كيف يقود الطائرات. إنّ هذا أمر مضحك، ليس إلاّ.

– إنكَ ذكي جداً، قال ███.

– في ظلّ هذه الظروف أشاطرك الرأي بأني أكثر من ذكي: أنا خارق للطبيعة؟ ولكن ما الذي يجعلكم تعتقدونني شريراً جداً؟

– من يدري، ولكن الأذكياء لا يتركون أي أثر. على سبيل المثال، كان لدينا ███ الذي كان يعمل لصالح روسيا على مدى عشرين عاماً دون أن يلحظه أحد، قال ███.[1] مازال لدينا أشخاص يعتقدون أنّك تآمرت مع ███ قال ███ عندما أخبرتها أنْ لا تسألني عن ███ لأنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي سوّت قضيته منذ أن بدأ يتعاون.[2]

---

١ إن الإشارة هنا ربما إلى روبيرتو هانسن، عميل FBI الذي تجسس لصالح روسيا ومن ثم لصالح دوائر الاستخبارات الروسية من عام ١٩٧٩ حتى اعتقاله والحكم عليه عام ٢٠٠١.

٢ ربما يشير هذا إلى أحمد رسام وتعاونه مع سلطات الولايات المتحدة.

- من الواضح أنه لا توجد طريقة للوصول إلى نتيجة معكم، قلت لـ ██████ ████.

- كيف؟ سأل ████████.

الآن ليس لدي ما أخسره بفضل الألم المبرّح الذي كنت أعانيه، لذا سمحت لنفسي أن أقول أي شيء لأرضي مهاجمي، جلسة تلو جلسة منذ أن ناديت ████████ ████████████████.

- الناس سعداء بما تقوله، قال ████████ بعد الجلسة الأولى.

أجبت على كل أسئلته بأجوبة تؤكد تورّطي في الجريمة. بذلت قصارى جهدي لأبدو بأسوأ صورة ممكنة وتلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تسرّ بها محققيك. لقد قررت أن أقضي بقية حياتي في السجن، إذ إن معظم الناس يتحمّلون حكماً غير عادل في السجن، ولكن لا أحد يتحمل العذاب يوماً بعد يوم بقية حياته.

بدأ ████████ يأخذ شكل كائن بشري، مع أنه كائن سيئ.

- أكتب تقريري كمقال صحفي، وأعضاء المجتمع يعلّقون عليه. إنّهم سعداء حقاً، قال ████████.

- وكذلك أنا، قلت.

كنت أتساءل عن وجه ████████████████████████ الجديد نصف المبتسم، فهو شخص عبوس. عندما يتكلم معك فإنّه ينظر دائماً إلى السقف، نادراً ما ينظر إلى عيني الشخص، بالكاد يستطيع أن يقود حواراً، ولكنه بارع حينما يتعلق الأمر بالمونولوج: "طلقتُ زوجتي لأنّها كانت مزعجة جداً"، قال لي ذات مرة.

- إنّ طلبك بخصوص رؤية ████████ لم يوافق عليه في الوقت الحالي، إنّني أعمل على قضيتك، قال هو.

- حسناً، كنت أعلم أنّ ████████████████████████ كانتْ محاكمةً، وأنّ وزارة الدفاع مازالت تريد مني التعامل مع "الرجل السيئ".

- ████████████████████████، قال الرجل.

- ولكن بما أنّك لا تعرف حدودي، فإنّك تقودني إلى ما ورائها.

استجبت لكلامه. عندما بدأت أتكلم بسخاء إلى ████████ أعادني ████

████ إلى الوراء، إلى الصورة، ولسبب ما أراده الفريق أن يعود ████ ████ أيضاً.

– شكراً جزيلاً على إعادة ████، قلت.

بدا ████ حزيناً وسعيداً في آن واحد.

– أنا أستمتع بالحديث معك، الكلام سلس معك ولديك أسنان جميلة، قال لي ████ قبل خطفي من ████.

كان ████ أقرب الناس إليّ. كان ████ الشخص الوحيد الذي يمكنني التواصل معه.[1]

– لا أستطيع أبداً أن أفعل ما يفعله ████، لا همّ لديه سوى إنجاز عمله، قال ████ معلقاً على أساليب ████ عندما يكون ████ غائباً.

إنّ ████ يحققون معي تباعاً. لقد كرّسوا وقتهم حتى حوالي العاشر من سبتمبر عام ٢٠٠٣. إنهم يستجوبونني حول كندا والحادي عشر من سبتمبر. لم يسألوني سؤالاً واحداً عن ألمانيا، حيث شكّلت مركز جاذبية حياتي فيها. وكلّما سألوني سؤالاً عن شخص ما في كندا كانت لديّ معلومات تدينه حتى لو لم أكن أعرفه. وكلّما فكرت بهذه الكلمات "لا أعرف" يصيبني الغثيان، لأنني كنت أتذكر كلمات ████: "كل ما هو لديك هو لا أعرف، لا أتذكر. سنفعل بك!" أو ████: "لا نريد أن نسمع إنكارك بعد الآن!" وهكذا مسحت هذه الكلمات من قاموسي.

– نريدك أن تكتب أجوبتك على الورق، لأننا لا نستطيع أن نجاريك في الكلام، وربما تنسى أشياء عندما ترويها لنا، قال ████.

– تمام! كنت سعيداً بهذه الفكرة لأنّي أفضّل التحدّث إلى الورق على التحدث إليه، فعلى الأقلّ لن يصرخ الورق في وجهي أو يهددني. أغرقني ████ في كومة من الأوراق التي ملأتها بالكتابة كما ينبغي. كانت هذه الخطوة مخرجاً جيداً لإحباطي ويأسي.

---

١ إن الضمائر المشطوبة والوصف: "الشخص الأقرب إليّ" و"الشخص الوحيد الذي يمكنني التواصل معه"، توحي بأن المعني هو عضو أنثى في فريق المشاريع الخاصة التي قادت الجولة الثانية من التحقيقات.

- أنت سخي جداً في أجوبتك المكتوبة، حتى إنّك كتبت الكثير عن ████ ████ الذي لا تعرفه في الواقع، قال لي ██████ بالحرف ناسياً أنّه منعني من قول "لا أعرف".

- يقرأ ██████ كتابتك بكثير من الاهتمام، قال ██████.

كنت في أشدّ درجات الخوف، لأنّ هذا التصريح كان غامضاً.

- سنكلّفك بمهمة حول ██████. هو معتقل في فلوريدا ولا يستطيعون جعله يتكلم، فهو يواصل إنكار كل شيء. من الأفضل أن تقدّم لنا دليلاً ضده، قال ██████.

كنت حزينا للغاية. يا له من رجل جلف! يطلب مني أن أقدّم دليلاً حول شخص بالكاد أعرفه.

- كل ما أستطيع قوله هو أنّ "أحمد ل" مجرم ويجب أن يُسجن بقية حياته.[١] أنا جاهز لأدلي بشهادتي ضده في المحكمة، قلت مع أنّي لم أكن مستعداً للكذب في المحكمة لأحرق روحاً بريئةً.

- يواجه ██████ عقوبة الإعدام إذا ما استطعنا أن نجعله مذنباً في تهريب المخدرات، قال ██████ ذات مرة مظهراً لي صورته.

انفجرت في الضحك حالما شاهدتُ تعابير وجهه وهو يرتدي بذلة السجن من صنع بوب باكر - كالفن كلاين.[٢]

- علامَ تضحك، سألني ██████.

- إنّه أمر مضحك!

- كيف تستطيع أن تضحك على صديقك؟

شعرت بالذنب مباشرةً، مع أنّي كنت أعرف أنني لا أضحك عليه. وقبل كل شيء

١ "أحمد ل." يظهر في المخطوطة غير مشطوب. قد يؤشر إلى أحمد لعبيدي، التونسي الذي كان يعيش في مونتريال عام ٢٠٠٠ واعتُقل فيما بعد في الولايات المتحدة بتهمة انتهاك لقانون الهجرة. سُجن لعبيدي في سجن الهجرة في الولايات المتحدة ومن ثم رُحّل إلى تونس في سبتمبر ٢٠٠٣.

٢ شركة بوب بيكر المتحدة التي تعرّف نفسها بوصفها "مزوّدة السجن الرائدة في الولايات المتحدة". وهي أكبر شركة تزوّد وزارة الدفاع المدني ببذلات السجن. انظر:
http://news.google.com/newspapers?nid=1454&dat=20020112&id=6gJPAAAAIBAJ&sjid=Ux8EAAAAIBAJ&pg=5765,3098702.

كان وضعي أسوأ من وضعه. كنت أضحك على الموقف: استطعت أن أقرأ كل شيء يدور في رأسه من التعبير على وجهه. جعلوني آخذ صورة في تلك الوضعية في السنغال وموريتانيا وألمانيا والأردن وباغرام وفي غوانتانامو. أكره الوضعية، أكره الطلعة، أكره قياس القامة. دعوني أقُل لكم شيئاً: كلّما شاهدت وجهاً بنظرة كئيبة في بذلة سجن يقف أمام مقياس القامة الموضوع على الجدار، بإمكانك أنْ تجزم أنّ صاحب الوجه ليس إنساناً سعيداً.

في الواقع شعرت بالأسى على ذلك الشاب. كان قد طلب اللجوء في كندا لفترة معينة لكن طلبه قوبل بالرفض لأنّهم اعتبروه ناشطاً إسلامياً. كان ██████████ يحاول أن يجرّب حظه في الولايات المتحدة حين واجه واقعاً قاسياً وبيئة مكهربة بشدّة ضد المسلمين والعرب، لقد أعطته الولايات المتحدة اللجوء في سجن شديد الحراسة، يحاول رجالها الآن أن يلصقوا به أية جريمة. عندما رأيتُ وجهه بدا كما لو أنّه يقول: أقنعوا هؤلاء الأميركيين، كيف لي أن أكرههم! ماذا يريدون مني؟ كيف انتهى بي الأمر في السجن وأنا أتيت طالباً الحماية؟

– تحدثتُ اليوم مع الكنديين وأخبروني أنّهم لا يصدقون قصتك المتعلقة بـ ████ ██████ وقصة انخراطه في تهريب المخدرات إلى الولايات المتحدة، ولكننا نعرف أنه كان كذلك، هو الذي أخبرني ذات مرة.

– أستطيع أن أخبرك بما أعرف، قلت له.

– ولكننا نريد منك أن تعطينا دليلاً على علاقة ████████ بمؤامرة الألفية، وأشياء كدعمه للمجاهدين أو إيمانه بالجهاد، هذه أمور جيدة ولكنها ليست كافية لتبقيه في السجن مدى الحياة، قال لي.

– آه نعم، سأعطيكم، قلت.

ناوَلَني رزمة من الورق، وعدتُ إلى زنزانتي. يا ربي، أنا أظلم بحق نفسي وبحق أخوتي، بقيت أفكر، ثمّ أردّد: "لن يصيبنا مكروه... سيذهبون إلى الجحيم... لن يصيبنا مكروه... سيذهبون إلى..." بقيت أردّد هذا الدعاء في قلبي وأكرّره مراراً. أمسكت بالقلم وبدأت أكتب كل أنواع الأكاذيب التي تدين المسكين بالجريمة، والذي لم يكن في الواقع إلاّ شخصاً يريد الحصول على اللجوء في كندا ويبدأ بجمع

بعض النقود حتى يتمكّن من تكوين أسرة. وعلاوةً على ذلك هو شخص معاق. شعرت بالأسى عليه وبقيت أردد دعائي بصمت: "لن يصيبك مكروه يا أخي العزيز..." ونفخت على الأوراق بعد الانتهاء منها. كان من المستحيل أن أقول الحقيقة فقط عن المسكين، لأنّ ████ أعطاني مسبقاً النقاط.

– إنّ ████ ينتظر شهادتك ضد ████ باهتمام بالغ!

أعطيت الواجب إلى ████ وبعد تقييمه رأيت ████ يبتسم للمرة الأولى. كتابتك عن أحمد كانت ممتعة جداً، ولكننا نريد منك أن تقدّم المزيد من المعلومات المفصلّة.

فكّرتُ، أية معلومات يريدها المعتوه مني؟ لا أتذكر حتى ما كتبت للتو.

– نعم، ليست مشكلة.

كنت سعيداً لأن الله قبل دعائي بخصوص ████ وذلك عندما علمت في عام ٢٠٠٥ أنهم أطلقوا سراحه من السجن دون شروط وأرسلوه إلى بلده. كان ████ اعتاد أن يقول لي: "إنّه يواجه عقوبة الإعدام". لم أكن في وضع أفضل بأي حال.

– بما أنني أتعاون معكم، ماذا ستفعلون بي؟ سألت ████.

– حَسَبْ، إذا ما قدّمت لنا مقداراً كبيراً من المعلومات التي لا نعرفها فإنّها سترجّح الكفّة الأخرى من الميزان عند الحكم عليك. على سبيل المثال، عقوبة الإعدام تُخفَّض إلى السجن مدى الحياة، ومدى الحياة إلى ثلاثين سنة، أجابني.

رحماك يا ربي! أية عدالة قاسية هذه!

– آه، هذا عظيم، أجبت.

شعرت بالحزن على كل شخص أُلحق به الأذى جرّاء شهاداتي الكاذبة، وعزائي الوحيد في ذلك هو أنّي لم أؤذي أحداً مثلما آذيت نفسي، ثم أنني لا خيار أمامي سوى ذلك، وأنا على يقين بأنّ الظلم سيُهزم، إنّها مسألة وقت ليس إلاّ. علاوةً على ذلك، أنا لا ألوم أحداً على تقديمه معلومات كاذبة عنّي تحت التعذيب. وأحمد لم يكن إلاّ مثالاً. أثناء هذه الفترة كتبتُ أكثر من ألف صفحة عن أصدقائي وكلها معلومات زائفة. اضطررتُ أنْ ألبس البذلة التي خاطتها لي المخابرات الأميركية،

وهذا ما فعلت بالضبط. مع بداية هذه المرحلة من التعاون لم يُخفَّف الضغط عليّ إلا قليلاً. كان يتم استجوابي ████████████████
██████████████████████████████
████████. كانت فظاظة كبيرة مجرد أن تسأل شخصاً بتلك الطريقة وقد أبدى استعداده للتعاون. جعلوني أكتب أسماء الناس، وأسماء الأمكنة ████
██████████████████████████████
██████████████████████████. أروني آلاف الصور. لقد حفظتها عن ظهر قلب لأنني شاهدتها مرات ومرات. كل شيء كان déjà-vu. يا لهم من أناس عديمي الرحمة!

كان الحرّاس يتصرّفون معي بجنون دائماً. كان ██████ يقول لهم: "لا ترحموه. زيدوا الضغط عليه. اجعلوه يجنّ في جحيمكم". وهذا ما كان يفعله الحرّاس بالضبط. كانوا يضربون باب الزنزانة بعنف ليحرموني من النوم ولأبقى مرعوباً. وكانوا يخرجونني من زنزانتي بالقوّة مرتين على الأقل لتفتيشها، ويأخذونني في منتصف الليل إلى خارج زنزانتي لإجباري على القيام بتمارين كنت أعجز عن ممارستها بسبب وضعي الصحي، ويضعونني في مواجهة الحائط واقفاً لمرّات عديدة يومياً مع كيل من التهديدات المباشرة وغير المباشرة. وأحياناً كانوا يحقّقون معي، ومع ذلك لم أقل كلمة واحدة عن سلوكهم للمحقّقين، لأنّي كنت أعرف أنّ المحقّقين هم الذين يريدون كل ذلك.

– هل تعرف من تكون؟ قال ██████.

– أوه...

– أنت إرهابي.

– نعم سيدي!

– لا جدوى من قتلك مرة واحدة. يجب أن نقتلك ثلاثة آلاف مرّة. ولكننا نطعمك بدلاً من قتلك!

– نعم سيدي. لقد مارسوا تعذيبي بجعلي أشرب الكثير من الماء.

– لم ترَ شيئاً بعد.

كانوا يقولون لي هذا الكلام دائماً.

– لستُ متلهفاً لرؤية ذلك. أنا بخير دون مزيدٍ من الإجراءات.

كان الحرّاس يحرسونني في مناوبتين روتينيتين، مناوبة نهارية ومناوبة ليلية. وكلّما استلمتْ مناوبةٌ عملها كانوا يسجّلون حضورهم بضربٍ قويٍّ على باب زنزانتي لبثّ الرّعب فيّ. كان ينتفض قلبي مع مجيء كل مناوبة لأنّ الحرّاس كانوا يفاجئونني دائماً بأشياء جديدة ليحيلوا حياتي جحيماً حقيقياً، مثل إعطائي كمية قليلة من الطعام ومنحي من ثلاثين ثانية إلى دقيقة لتناولها، أو إجباري على أكل الكمية في وقت قصير جداً. "يستحسن أن تنتهي!" كانوا يصرخون. أو أنهم كانوا يجعلونني أنظّف الدوش على نحو مفرط، أو كانوا يطلبون مني ثني منشفتي وبطانيتي بطريقة مستحيلة مرة بعد مرة حتى ترضيهم. ولمنعي من أي وسيلة للراحة أضافوا إلى ما سبق قوانين جديدة: أولاً، يجب ألاّ أستلقي أبداً، وكلما ظهر الحارس أمام شرّاقة زنزانتي يجب أن أكون مستيقظاً أو أستيقظ مجرّد أن يدخل الحارس منطقتي. لم يكن نوماً أبداً بالمعنى الذي نعرفه. وثانياً، يجب أن يكون مرحاضي جافاً دائماً، وكيف يمكن تحقيق ذلك وأنا أبول فيه وأشطفه بالماء؟ ولتنفيذ الأمر كنت أضطر لمسح المرحاض ببذلتي الوحيدة حتى يجفّ تماماً ومن ثم أعود وأرتدي البذلة المنقوعة بالقذارة. وثالثاً، كان يجب أن تكون زنزانتي مرتّبة مسبقاً، وتكون البطانية مطوية، لذا لم أكن أستطيع استخدام البطانية أبداً. تلك كانت وصفة الحرّاس. وكنت أظهر لهم درجة من الخوف أكبر مما كنت أشعر به كنوع من تكتيك دفاعي. لم أكن أرغب في القيام بدور البطل الذي لست إياه، ولكنّي لم أكن أخشى الحرّاس لأنّي أعرف أنهم يتلقون الأوامر من فوق. وإذا ما نقلوا إلى من يعطي الأوامر أنّ "المعتقل ليس مرعوباً!" عندئذٍ ستُزاد الجرعة.

في الوقت نفسه، كانت لدي أيضاً وصفتي الخاصة. قبل كل شيء كنت أعرف أنني لست سوى حجر رُمي به من ██████████.[1] كان المحققون والحرّاس يلمّحون دائماً بأنّني في أرض مهجورة من أرض الله الواسعة، ولكني كنت أتجاهلهم تماماً، وعندما كان الحراس يسألونني: "أين تظن نفسك؟"

---

١ ربما يشير محمدو ولد صلاحي إلى المسافة بين الزنزانة المعزولة حيث هو الآن وبين السجن الرئيسي في كامب دلتا حيث كان مسجوناً سابقاً.

كنت أجيبهم: "لست متأكداً، ولكني لست قلقاً طالما أنني بعيد عن أسرتي، لا يهمني إذاً أين أكون بالضبط". كنت دائماً أغلق باب الحديث كلما أشاروا إلى المكان. كنت أخشى أن يُقْدِموا على تعذيبي لو علموا أنّني أعرف أين أنا، وما معرفة أنّي قريب من بقية السجناء إلا نوع من المواساة.

ذات مرة اكتشفت كيف يمكن التمييز بين الليل والنهار. بدأت أعدّ الأيام بتلاوة عشر صفحات من القرآن يومياً. ففي كل ستين يوماً كنت أختم القرآن لأعود وأبدأ من جديد، وهكذا استطعت أن أعرف الأيام. "اخرس يا...! لا يوجد شيء تغنّي عليه"، كان ■■■■■■■ يقول عندما يسمعني أتلو القرآن. بعد ذلك بدأت أتلو القرآن بهدوء بحيث لا يسمعني أحد. ولكن أيام الأسبوع ظلّت متداخلة عندي، فشلت في متابعة مسارها حتى لمحت ساعة ■■■■■■■ وذلك عندما أخرجها من جيبه لمعرفة الوقت. كان حذراً ومحترساً للغاية، ومع ذلك فاته الوقت. شاهدت الاثنـ ■■■■■■■، ولكنه لم يلحظني. إنّ السبب وراء تعقّب الأيام هو متى سيكون يوم الجمعة لما لهذا اليوم من مكانة خاصة عند المسلمين، بالإضافة إلى هذا كنت أكره أن يحرموني من حقٍّ طبيعيٍّ وأساسيٍّ لي. حاولت معرفة أسماء جميع الذين ساهموا في تعذيبي – لا للثأر أو الانتقام أو شيء من هذا القبيل، بل لأني لا أريد أن تكون لهؤلاء اليد العليا فوق أيٍّ من أخوتي أو أي شخص آخر مهما كان. أعتقد أنهم يجب أن لا يُجرَّدوا من سلطاتهم وحسب بل وأن يُسجنوا أيضاً. نجحت في معرفة أسماء الـ ■■■■■■■ اثنين من محققيّ، واثنين من الحرّاس، ومحققَين آخرَين لم ينخرطا في التعذيب مباشرةً ولكنهما كانا شاهدين.

عندما التقيت الأميركيين في البداية كرهت لغتهم بسبب الألم الذي جعلوني أعانيه بدون أدنى مبرر. لم أرغب في تعلّمها. لكن ذلك كان ردّ فعل، في حين كان نداء العقل أقوى، لذا قرّرت أن أتعلّم لغتهم. ومع أنني كنت أعرف من قبل كيف أصرّف فعل الكون (to be) وفعل الملكية (to have)، إلاّ أن متاعي من اللغة الإنكليزية كان خفيفاً للغاية. وبما أنني كنت ممنوعاً من اقتناء الكتب، فقد تعلّمت معظم اللغة من الحرّاس وأحياناً من محققيّ، وبعد فترة وجيزة استطعت أن أتكلم كعامة الناس:

"He don't care. she don't care. I ain't done nothin'. me and my friend did so and so. F— this and F— that. damn x and damn y..."

(لا يهتم، لا تهتم، لم أفعل شيئاً، أنا وصديقي فعلنا كذا وكذا، تبّاً لهذا وتبّاً لذاك، اللعنة على فلان وعلان...)

كما أنني درست الناس من حولي، وأسفرَتْ ملاحظاتي عن نتيجة مفادها أن الأميركيين البيض فقط قد تمّ تعيينهم للتعامل معي، حرّاساً ومحققين. كان هناك حارس أسود واحد فقط، ولكن لم يكن له معي أيّ كلام. كان مرافقه ██████ أبيض وأصغر عمراً منه وكان يتولى المسؤولية دائماً. قد تقول: "كيف تعرف رُتَب الحرّاس وهي محجوبة؟" من المفروض ألاّ أعرف من هو المسؤول، ومن المفروض عليهم أيضاً ألاّ يعطي أحدهم إشارة تدلّ على من هو الرئيس، ولكن ليس هناك أسهل من ملاحظة من يكون الرئيس في أميركا؛ إنّه لا يخيّب ظنك أبداً.

إنّ اعتقادي بأنني قريب من ██████ تمّ تأكيده، وذلك عندما حصلت ذات يوم على بعض الطعام الذي اعتدت الحصول عليه بالعودة إلى ██████.

– لماذا أعطوني وجبة ساخنة؟ سألت رئيس الحراس.

– طلب الأطباء ذلك.

حقاً لقد أصبحتُ كشبح لا لحم له بل عظام فقط. وفي غضون أسابيع شاب الشَّعر على صدغيّ، وهي ظاهرة يعرفها الناس في بلدي ويحيلون سبب ذلك إلى أنّ صاحب الشَّعر الشائب قد تعرّض لحالة من الكآبة الشديدة.

إنّ الإبقاء على الضغط كان من المسائل الجوهرية في عملية التحقيق معي، وكانت الخطة المعمول بها: المزيد من الضغط يعني المزيد من القصص التي سأرويها لمحققيّ ليسعدوا بها ويغيّروا سلوكهم تجاهي.

بعد ذلك، وبالتدريج، تلقّى الحراس نصائح ليعطوني فرصة لأفرشي أسناني، وإعطائي المزيد من الوجبات الساخنة والسماح لي بالاستحمام أكثر من ذي قبل. بدأ المحققون بالتحقيق معي ██████

██████

██████ كان هو الذي خطا الخطوات الأولى، ولكني متأكد بأنه كان هناك اجتماع حول ذلك. أدرك الجميع في الفريق أنني بدأت أفقد عقلي نظراً لوضعي النفسي والجسدي. كان قد أصبح لي فترة طويلة في العزل.

- أرجو أن تخرجوني من هذا الجحيم الحقيقي، قلت لهم.

- لن تعود إلى جموع السجناء قريباً، أخبرتني ████████. كان جوابها قاسياً لكنه كان صحيحاً.[1] لم تكن هناك خطة لإعادتي. كان جلّ اهتمامهم مركّزاً على إبقائي في العزل أطول فترة ممكنة لجمع المعلومات مني.

مازلت لا أملك شيئاً في زنزانتي. كنت أمضي معظم وقتي في تلاوة القرآن بصمت. وما تبقّى من الوقت كنت أفكر فيه بحياتي وبالسيناريوهات الأسوأ التي يمكن أن تحدث لي. كنت أعدّ ثقوب القفص الذي كنت فيه. إنّ عدد الثقوب هو أربعة آلاف ومائة ثقب. وربما لهذا السبب بدأ ████████ عن طيب خاطر يعطيني بعض الألغاز لأقضي وقتي في حلّها.

اعتاد ████████ أن يقول لي كلّما أعطاني لغزاً:

- إذا اكتشفنا أنك كذبت علينا فسترى غضبنا وسنسحب منك كل شيء. وقد تعود الأمور كما كانت في الماضي، أنت تعرف ذلك جيداً.

كان قلبي ينتفض، ولكن يا له من حمار! لماذا لا يستطيع أن يسمح لي بالاستمتاع بـ"مكافأتي" في الوقت الحاضر؟ غداً يومٌ آخر.

بدأت أُغني مفرداتي. بدأت أكتب الكلمات التي لا أفهمها على ورقة وكان ████ ████████ يشرحها لي. وإذا كانت فيه أيّ مزيّة إيجابية فهي غنى مفرداته. لا أتذكر بأني سألته سؤالاً إلاّ وشرحه لي. كانت الإنكليزية هي لغته الحقيقية الوحيدة، علماً أنه يزعم أنه يستطيع التحدث بالفارسية أيضاً. "أردت أن أتعلم الفرنسية ولكني كرهت طريقة لفظهم للكلمات لذلك تركتها" كان يقول.

- يريد ████████████████████ أن يراك بعد يومين، قال ████████. انتابني خوف شديد، فأنا بخير الآن بدون زيارته تلك.

- أهلاً به، قلت. بدأت أذهب إلى المرحاض بلا هوادة. ارتفع ضغط دمي بشكل جنوني. تساءلت كيف ستكون الزيارة، ولكن والحمد لله كانت الزيارة أسهل مما توقّعت. جاء ████████، يرافقه ████████. كان كعادته عملياً ووجيزاً.

---

١ الضمير (her) يظهر هنا من غير أن يشطب.

- أنا سعيد جداً لتعاونك. هل تتذكر عندما قلت لك إنّني أفضّل الأساليب الحضارية في الكلام؟ أعتقد أنك قدّمت ٨٥% مما لديك، ولكني متأكد بأنك ستقدّم لنا الباقي أيضاً. قال لي وفتح كيس مثلجات فيه بعض العصير.

- آه، نعم، وأنا أيضاً سعيد. قلت له، وأجبرت نفسي على شرب العصير، فقط لأبدو كما لو أنني طبيعي من تصرفي، ولكني لم أكن كذلك. إنّ نسبة ٨٥% هي نسبة كبيرة خرجت من فمه. نصحني ■■■■■ أن أبقى متعاوناً.

- لقد جلبت لك هذه الهدية. قال وناولني وسادة. نعم وسادة. تلقيت الهدية بسعادة غامرة مصطنعة، لا لأني كنت أموت حسرةً على وسادة، بل أخذت الوسادة كعلامة على نهاية التعذيب الجسدي. لدينا نكتة في الوطن تتعلق برجل وقف عارياً في الشارع. عندما كان يسأله أحدهم: كيف يمكنني مساعدتك؟ كان يجيب: أعطني حذاءً. ذلك ما حدث لي بالضبط. كل ما أحتاجه هو وسادة! لكنها كانت الشيء الوحيد في زنزانتي. لقد قرأت الرقعة عليها مرات ومرات.

"تتذكر عندما أخبرك ■■■■■ عن الـ١٥% من المعلومات التي تحتفظ بها"، قال ■■■■■ بعد يومين من زيارة ■■■■■ ثم أضاف: "أعتقد أنّ قصتك عن كندا لا قيمة لها. إنك تعرف ما لدينا ضدك، وتعرف ما لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي ضدك".

- فما الذي له قيمة؟ سألت.

- أنت تعرف بالضبط ما الذي له قيمة، قال بسخرية.

- أنت محق. كنت مخطئاً بخصوص كندا. ما فعلته بالضبط هو...

- أريد أن تكتب ما قلته للتو. إنّ له قيمة كاملة، وقد فهمت، ولكني أريد ذلك على الورق.

- بكل سرور يا سيدي، قلت.

> أتيت إلى كندا ومعي خطة لتفجير برج CN في تورنتو. وكان شركائي في الجريمة هم ■■■■■
> ■■■■■
> ■■■■■ و ■■■■■ . ذهب

████ إلى روسيا ليحصل لنا على المتفجرات. كتب ████ ████ برنامجاً مزيفاً للمتفجرات، وقد التقطته وجرّبته بنفسي ثم سلّمت المعلومات محفوظةً إلى ████. والأخير كان من واجبه أن يرسلها مع كامل الخطة إلى ████ في لندن للحصول على الفتوى النهائية من الشيخ. كان ████ ██ أن يشتري كمية كبيرة من السكّر لمزجها مع المتفجرات وذلك بهدف زيادة الضرر. قدّم ████ التمويل المالي. وبفضل المخابرات الكندية اكتُشفت الخطة وحُكِم عليها بالفشل. أعترف أنني مذنب كأيّ مشارك آخر، وأنا آسف للغاية وأشعر بالعار مما قمت به.
التوقيع: محمدو ولد صلاحي.

عندما سلّمت ████ الورقة قرأها بسعادة.

– هذا التصريح له قيمة كاملة الآن.

– إن كنت مستعداً للشراء فأنا أبيعه، قلت.

لم يستطع ████ أن يتمالك نفسه على الكرسي، أراد أن يغادر على الفور. اعتقدَ أن الصيد كبير وكان ████ مفعماً بالنشوة لأنه توصّل إلى اختراق لم يتوصّل إليه جميع المحققين من قبله، بالرغم من أربع سنوات تقريباً من التحقيق المتواصل الذي اشتركت فيه وكالات شتى من ستة بلدان. يا له من نجاح باهر! كاد ████ أن يصاب بجلطة لشدة الفرح.

– سأذهب للقائه!

أعتقد أنّ الشخص الحزين الوحيد في الفريق كان ████، لأنّ ████ ████ شكك بصحة القصة التي رويتها. وفي اليوم التالي جاء ████ ██ لمقابلتي وكان يرافقه ████ كالعادة.

– هل تتذكر عندما أخبرتك بأنك تحتفظ بـ ١٥% من المعلومات؟

– نعم أتذكر.

– أعتقد أنّ هذا الاعتراف قد غطّى الـ١٥%، النسبة التي كنت تحتفظ بها.

كنت على وشك أن أقول: نعم، إلى الجحيم! لكني قلت:

- أنا سعيد لأن الأمر قد تمّ.
- من قدّم المال؟
- قدّمها ██████.
- وأنت أيضاً. سأل ██████.
- كلا، كنتُ مهتماً بالجانب الكهربائي.

لا أعرف لماذا أنكرت المشاركة المالية. هل سيغيّر ذلك شيئاً في الموضوع حقاً؟ ربما لأني أردت الحفاظ على تماسك وانسجام عناصر القصة.

- ماذا لو قلنا لك إننا وجدنا توقيعك على بطاقة ائتمان مزيفة؟ قال ██████ ███.

أدركت أنّه يختبرني فقط لأني لم أتعامل قط مع أمور مريبة كهذه، لكني لم أجادله في الأمر.

- هل من الأفضل أن أقول نعم أم لا. أريد منك أن تخبرني الجواب الصحيح؟ سألته. عند هذا الحد تمنيت لو كنت منخرطاً في شيء ما حتى أستطيع الاعتراف وأريح نفسي من الكتابة عن كل مسلم متدرّب سبق وقابلته، وعن كلّ منظمة إسلامية سمعت بها. سيكون الأمر أسهل بكثير أن تعترف بجريمة حقيقية وتسمّي الأمور بأسمائها.

- هذا الاعتراف ينسجم مع المعلومات التي بحوزتنا وبحوزة الوكالات الأخرى، قال ██████.

- هذا يسعدني.
- هل القصة صحيحة؟ سأل ██████.
- اسمع، إنّ الناس الذين تعاملتُ معهم كانوا أناساً سيئين على أية حال، ويجب أن يُسجنوا، وفيما يخصني لا يهمني شيء طالما أنكم سعداء. لذا إن كنتم تريدون الشراء فأنا أبيع.
- لكن ينبغي أن ندقّق في الأمر مع الوكالات الأخرى، وإذا كانت القصة غير صحيحة فسيكتشفون ذلك، قال ██████.

قدّم لي ██████ بعض المشروبات والسكاكر أجبرت نفسي على تناولها. بدا طعمها سيئاً لأنني كنت متوتّراً للغاية. أخذ ██████ وخرج

وحرّضه عليّ. عاد ██████ يتحرّش بي ويهددني بشتى أشكال العذاب والمعاناة، ██████████████████████

████████████████████████████

████.

– لقد جرّبت غضبنا وتعرف تماماً كيف هو، قال ██████.

كدت أصرخ، أيّ لعنة يريدها مني مؤخرة الحمار هذا؟ إذا كان يريد اعترافاً فها قد قدّمت له واحداً. هل يريد منّي أنْ أحيي الموتى؟ لست نبياً، ولا هو يؤمن بالأنبياء. فقد اعتاد أن يقول: "إنّ الكتاب المقدس يتناول فقط تاريخ الشعب اليهودي، ليس إلاّ". إن كان يريد الحقيقة فقد أخبرته أنني لم أفعل شيئاً. لم أستطع أن أجد طريقة للخروج من هذا المأزق.

– نعم!... نعم!... نعم!

بعد أن جعلني ██████ أتصبّب عرقاً اتّصل ██████ به وأوصاه بخصوص الخطط الجديدة الخاصة بي. غادر ██████ واستمر ████

████.

كان كل شيء بيد ██████. وإذا كان سعيداً فالجميع من حوله سعداء، وإنْ لم يكن سعيداً فالجميع غير سعداء. بدأ ██████ يسألني أسئلة أخرى حول أمور أخرى. استغللتُ كلّ الفرص لأجعل من نفسي على أسوأ حال.

– سأتركك وحيداً مع القلم والأوراق، وأريدك أن تكتب كل شيء تتذكّره حول خطّتك في كندا!

– حاضر يا سيدي!

عادوا وظهروا أمام باب زنزانتي بعد يومين.

– انهض! أخرج يدك من الشرّاقة! قال أحد الحرّاس العدوانيين.

لم أرحّب بالزائر. لم تغبْ عن بالي وجوه المحققين في عطلة نهاية الأسبوع، وقد حوّلوا حياتي إلى جحيم. قيّدني الحراس وأخذوني إلى خارج المبنى إلى حيث كان ██████████ ينتظرونني. إنّها المرة الأولى التي أرى فيها ضوء النهار. لا يشعر العديد من الناس بضوء النهار لأنّه أمر طبيعي عندهم، ولكن

حين تكون محروماً منه فلا بدّ أنّك ستقدّره. كان نور الشمس ساطعاً فلم أتمكّن في البداية من فتح عينيّ إلا وهما نصف مغمضتين، ومن ثم تكيّفتا مع الجو. لقد غمرتني الشمس بدفئها، ولكني كنت أرتعدُ وأرتجف.

- ما مشكلتك؟ سألني أحد الحرّاس.
- لست معتاداً على هذا المكان.
- لقد أخرجناك لترى الشمس. لدينا المزيد من المكافآت كهذه.
- شكراً جزيلاً. تمكّنت من قولها مع أن فمي كان جافاً ولساني كان ثقيلاً كقطعة فولاذ.
- لن يصيبك مكروه إن أخبرتنا عن الأشياء السيئة. أعرف أنّك خائف من أن نغيّر رأينا تجاهك. قال ████ بينما كان ████ يدوّن الملاحظات.
- أعرف.
- دعنا نتكلّم افتراضياً. هل تفهم ما المقصود بـ"افتراضياً"؟ قال ████ ██.
- نعم، أفهم.
- دعنا نفترض أنّك قمتَ بما اعترفتَ به.
- ولكني لم أقمْ بما اعترفت به.
- فقط أقول من باب الافتراض.
- حسناً.

كان ████ من الرتب العالية، وكان من أسوأ المحققين الذين قابلتهم حتى الآن، أقصد بالمعنى المهني. فهو يقفز من هنا إلى هناك، من البداية إلى النهاية دون التركيز على أي شيء بعينه. لو خُيّرت في تقييمِه لقلتُ إنّه يصلح لأيّ شيء عدا أن يكون محقّقاً يحقّق مع الناس.

- من كان المسؤول منكما أنت و ████؟
- حَسَبْ، ففي الجامع كنت أنا المسؤول، وخارج الجامع كان هو المسؤول.

أجبت على سؤاله. افترض المحقق بأسئلته بأنني والحَنَشي عضوان في عصابة، ولكني حتى لا أعرف السيد ████، ناهيك عن التآمر معه كجزءٍ من التنظيم

الذي لا وجود له أساساً.[1] ولكن على أية حال لا أستطيع أن أقول شيئاً من هذا القبيل لـ ■■■■■، لذا اضطررتُ أن أقول له شيئاً يشوّه صورتي.

– هل تآمرت أم لم تتآمر مع هؤلاء الأفراد كما اعترفت؟

– هل تريد الحقيقة؟

– نعم!

– كلا، لم أتآمر معهم، قلت.

حاول كل من ■■■■■ و ■■■■■ أن يلعبا معي كل الخدع، ولكني كنت أعرفها جميعاً، ثم إنني أخبرتهم بالحقيقة قبل الآن، لذا كان اللجوء إلى الخدع نوعاً من العبث. ولكنهم اقتادوني إلى (catch-22) غير المعروف جيداً: إن كذبتُ عليهم يقولون "سترى غضبنا"، وإن قلت الحقيقة سأبدو جيداً عندهم، ولكن ذلك سيجعلهم أيضاً يعتقدون أنني مازلت أحتفظ بمعلومات لم أكشف عنها بعد، فعيونهم تشي بأنهم يرونني مجرماً، ولا يمكنني تغيير هذا الاعتقاد.

ناولني ■■■■■ نسخة مطبوعة ممّا يُعرف بـ"برنامج حماية الشاهد"، ومن الواضح أنّه نسي التاريخ في الهامش، لذا استطعت قراءته. كان من المفترض ألا أعرف التاريخ، لكن ما من أحد كامل.

– شكرا جزيلاً، قلتُ له.

– إذا ساعدتنا فستدرك كم أنّ حكومتنا سخيّة، قال ■■■■■.

– سأقرأه.

---

[1] قد يشير "حنشي" إلى رؤوف حنشي، وهو مواطن كندي من أصل تونسي عاش في مونتريال أيضاً في عام ٢٠٠٠. يظهر من تقرير "تقييم المعتقل" لعام ٢٠٠٨، ومن قرار مثول محمدو ولد صلاحي أمام المحكمة، بأنّ الاعترافات الشبيهة بالتي يصفها صلاحي هنا أصبحت جزءاً من مزاعم الحكومة ضده. يظهر اسم كل من حنشي وأحمد لعبيدي في تقرير "تقييم المعتقل" وفي مذكّرة المثول للقاضي جيمس روبيرتسون لعام ٢٠١٠. في كلاهما تصف الحكومة كلاً من محمدو ولد صلاحي وحنشي ولعبيدي بوصفهم أعضاء في خلية مونتريال للقاعدة، حيث كان حنشي زعيم الخلية ولعبيدي مموّلها. تصف حاشية للقاضي جيمس روبيرتسون بشكل خاص أن تصريح صلاحي الذي جاء في التحقيق بأن لعبيدي هو الإرهابي الذي دعم الانتحاريين بالتفجيرات جاء في جلسة تحقيق يعود تاريخها إلى ١٦ سبتمبر ٢٠٠٣ بالتحديد، وهو تاريخ قريب من تاريخ المشهد الذي يصفه صلاحي هنا. "تقيم المعتقل – ٢٠٠٨" متوفر على الرابط:
http://projects.nytimes.com/guantanamo/detainees/760-mohamedou-ould-slahi. DetaineeAssessment. 10; Memo- randum Order. 26- 28.

- أعتقد أن هذا مناسب لك.

- بالتأكيد.

أومأ ██████ للحرّاس كي يعيدوني إلى زنزانتي. ما زالوا يمسكون بي في كل مرّة ████████████████. [١]

ما أن غادر فريق التحقيق حتى فتح الحرّاس زنزانتي وأخذوا يصرخون: "انهض أيّها الفاعل بأمّه" يا إلهي، مرة أخرى! أخذني ████████████ ███ إلى خارج الزنزانة وأوقفني قبالة الحائط.

- أيها الـ... لِمَ لا تعترف؟

- قلت لكم الحقيقة.

- لا لم تقل الحقيقة، قال ثم أضاف: لا يسأل المحققون أبداً إن لم يكن بحوزتهم دليل. إنّهم يريدون فقط اختبارك، وتصوّر ماذا كانت النتيجة؟ لقد فشلت، ونسفت حظك بيدك.

كنت أتعرق وأرتعد، حتى أنني أبديت خوفاً أكثر مما شعرت به في الواقع.

أضاف أيضاً:

- كان الأمر في منتهى البساطة. أردنا منك فقط أن تقول ماذا فعلت، وكيف فعلت، ومَنْ كان مشتركاً معك. إننا نستخدم هذا المعلومات لمنع هجمات أخرى محتملة. أليس ذلك بالأمر اليسير؟

- نعم إنّه سهل.

- إذاً لماذا تصرُّ أن تبقى فَرْجاً.

- لأنّه خليع! قال ████████████████. ثم واصل الآخر كلامه:

---

١ يشير محمدو ولد صلاحي فيما بعد في مخطوطته بأنّه بقي في الزنزانة نفسها التي حُوّل إليها في نهاية اختطافه المسرحي حتى كتابة المخطوطة. لا توجد أيّة دلائل منذ ذلك الحين على أنّه انتقل منها. وصف تقرير لصحيفة واشنطن بوست في عام ٢٠١٠ "رقعة صغيرة داخلية مسيّجة في السجن العسكري" يتّفق مع وصف وضعه في الفترة التي كانت تُكتب فيها المخطوطة. راجع بيتر فين، "من أجل المعتقلين اللذين رَويَا ما يعرفان: غوانتونامو يصبح قفصاً مطليّاً بالذهب"، واشنطن بوست، ٢٤ مارس ٢٠٠٤، على الرابط:
http://www.washingtonpost.com/wpdyn/content/article/2010/24/03/AR2010032403135.html.MOSanuscript.233.

– هل تعتقد أنّ ██████ أعطاك معلومات عن "حماية الشاهد" من أجل التسلية؟ يا سافل، كان يجب أن نقتلك ولكننا بدلاً من ذلك نكافئك. سنعطيك مالاً وبيتاً وسيارة جميلة. كم هذا محبط! وما أنت إلاّ إرهابيّ. من الأفضل أن تقول لهم كل شيء في ظهورهم المرتقب. خذ قلماً وورقة واكتب كلّ شيء.

يعتقد المحققون والحرّاس أن "برنامج حماية الشاهد" خاصية أميركية، ولكنّه ليس كذلك، فهو – البرنامج – يُستخدم في كلّ أرجاء العالم وحتى في البلدان الدكتاتورية الأشدّ ظلاماً، وحتى المجرمين بوسعهم الاستفادة من برنامج كهذا.

قدم لي ██████ قصصاً عن مجرمين آخرين أصبحوا أصدقاء لحكومة الولايات المتحدة، مثل ████████████ وشيوعي آخر هرب من الاتحاد السوفييتي إبّان الحرب الباردة.

لم أتنوّر بما قاله من معلومات، ولكني أخذت الورق على أيّة حال، وذلك لأقرأ شيئاً إلى جانب رقعة الوسادة. لقد قرأتُ ما هو مكتوب على الرقعة مرات عديدة، ومازلت أقرأها لأنني أحب القراءة وليس لدي ما أقرأه.

– هل تتذكر ما قلته أنت لـ ██████ عندما أخبرك أنّك تخفي ١٥% من المعلومات؟ قال ██████ في الجلسة التالية.

– نعم، ولكن كما ترون لا أستطيع خوض النقاش مع ████████ ████████، وإلاّ سيجن جنونه.

أخذ نسخة مطبوعة من اعترافاتي وبدأ يقرأها، ثم أخذ يبتسم.

– أنت لا تؤذي نفسك فقط بل تؤذي أناساً آخرين أبرياء أيضاً.

– هذا صحيح، ولكن ما عساي أفعل؟

– قلتَ إنكم أردتم أن تخلطوا السكر بالمتفجرات؟

– نعم فعلت.

ابتسم ██████.

– ولكن ليس هذا ما نريده عندما سألناك ماذا تقصد بـ"السكّر". في الواقع ███ ████████████████████ ████████████████.

- ██████ حقاً لا أعرف ذلك.
- لا يمكنك أن تكذب بخصوص مسألة كبيرة كهذه. لدينا خبير عالي الكفاءة يمكن أن يأتي ويسألك. ما رأيك بـ █████████████████████؟
سألني ██████.
- ██████ أتحرّق شوقاً إلى ذلك!
مع أن قلبي بدأ ينتفض لأنني أدركت أن الفشل في الاختبار قد يكون من نصيبي حتى لو قلت الحقيقة.
- سأنظّم ██████ لك بأسرع ما يمكن.[1]
- أعرف أنك تريد أن تظهر نفسك بأنك جيد.
فردّ ██████ بنبرة لا يشوبها الزيف:
- كلا. يعنيني أمرك، أريد أن تخرج من السجن وتعيش حياة طبيعية. هناك بعض المعتقلين أريدهم أن يبقوا هنا طوال حياتهم، ولكن أنت، لا أريدك أن تبقى!
- شكراً جزيلاً.
غادر ██████ بذاك الوعد، وأنا عدتُ إلى زنزانتي كئيباً بلا حدود.
قال ██████: "تذكّر أن ██████ هام في حياتك، بلا جدال"، قالها مرة، قبل أن يخرج من إحدى جلسات التحقيق بفترة قصيرة، محاولاً أن ينتزع مني معلومات لا وجود لها عن طريق منفّذه ██████. لقد أرعبني جداً لأنّ حياتي كلها معلّقة الآن على ██████.
- نعم يا سيدي أعرف.
- من تودّ أن يكون معك أثناء الـ██████؟ سألني ██████ قبل

١ إنّ السياق، بما فيه ظهور كلمة poly في مكان آخر من هذا المقطع، يوحي بأنّ موضوع هذا المقطع الطويل والذي يليه، اللذين طالهما الشطب، هو على الأغلب الفحص عن طريق مكشاف الكذب (poly graph) الذي يصفه محمدو ولد صلاحي في نهاية شهادته أمام هيئة إعادة النظر الإدارية. بعد رواية رحلة الزورق وما يليها ذكر صلاحي: "لأنّهم قالوا لي إمّا أن تتكلم أو سنستمر في فعل هذا. فقلت لنفسي سأقول لهم كل شيء يريدون سماعه... أخبرتهم أنني كنت في طريقي للقيام بأشياء، فقالوا لي اكتبها فكتبت، ووقّعت عليها. لقد جلبت الكثير من الأبرياء معي لأنني اضطررت أن اختلق قصة تكون لها معنى. اعتَقدوا أنّ القصة كاذبة لذا أجروا لي اختباراً على البوليغراف - مكشاف الكذب". (هيئة إعادة النظر الإدارية، ص٢٧).

يومين من الـ ██████.

– أعتقد أنّ ██████ لن يكون فكرة جيدة، ولكني سأكون بخير فقط عندما تكون هنا!

– أو الـ ██████ الآخر، ██████.

– نعم، قلت على مضض. ولكن لِمَ لا تأتي؟

– سأحاول، وإنْ لم أكن أنا فسيكون ██████.

– أنا خائف للغاية لأن ما قال ██████، قلت لـ ██████ في اليوم الذي سبق الاختبار.

– اسمع، لقد اختُبِرتَ مرات عديدة ونجحت في الاختبار. كل ما تحتاجه هو أن تصفّي ذهنك وتكون صادقاً وواثقاً. أجاب ██████.

– سأفعل ذلك.

– خمِّنْ ماذا ██████؟ قال ██████ ██ ناظراً إليّ من خلال قفص زنزانتي.

وقفت مباشرةً أمام شرّاقة الزنزانة.

– نعم يا سيدي!

اعتقدت أن ██████ هو أحد الحرّاس. جفل ██████ ونظر إليّ ██████، وابتسم.

– آه، إنّه أنت! آسف، اعتقدتُ أنّك أحد الحرّاس. أتيت من أجل ██████ ██، أليس كذلك؟

– نعم، سأعود في غضون ساعتين مع ██████. أريد فقط أن أكون جاهزاً.

– حسناً، أشكرك جزيل الشكر.

غادر ██████. توضأتُ وحاولتُ أن أسرق صلاةً من الحراس. لا أعرف هل أدّيتها كما يجب أم لا. "يا إلهي، أريد عونك أكثر من أي وقتٍ مضى. أتوسل إليك أن تقنعهم بأنّ ما أقوله هو الحقيقة. أتضرّع إليك أن لا تعطي هؤلاء الناس عديمي الرحمة أي مبرر لإيذائي. أرجوك، أرجوك، أرجوك!" مارست نوعاً من اليوغا بعد الصلاة. لم أمارس تلك الطريقة في التأمل من قبل، ولكني جلست الآن على سريري ووضعت

يدَيّ على فخذَيّ وتخيّلت جسمي موصولاً بجهاز كشف الكذب (poly)[١] وبدأتُ أسأل نفسي: "هل ارتكبت أية جرائم ضد الولايات المتحدة؟" كلا. هل سأنجح؟ اللعنة عليهم! لم أرتكب أية جرائم، لِمَ الخوف إذاً؟ إنّهم شياطين. وعندئذ فكّرت: كلا، هم ليسوا بشياطين، من حقّهم الدفاع عن بلدهم. إنّهم أناس طيبون. حقاً هم طيبون! ومرّة أخرى اللعنة عليهم، لا أدين لهم بشيء. هم الذين عذّبوني، وهم مدينون لي! لقد عملتُ ████ مع كل الأسئلة المحتملة.

- هل أخبرتنا الحقيقة عن ████████؟
- كلا.

هذه مشكلة كبيرة لأنّ ████ قال: "عندما نعرف أنّك تكذب علينا حينئذ سترى غضبنا". اللعنة على ████، لن أكذب لأرضيه وأدمّر حياتي. محالٌ. سأقول الحقيقة أيّاً كانت النتائج. ولكن ماذا لو فشلتُ في الاختبار حتى لو أجبت بصدق وصراحة؟ لا بأس! ليست مشكلة، سأكذب. ولكن ماذا لو أظهر ████ ████ أكاذيبي الجديدة؟ عندئذ لا بدّ أنّي سأقع في الفخ. وحده الله قادر على إنقاذي. وضعي خطير والأميركيون مجانين. لا تقلق بشأن ذلك، خذ فقط ████ ████ وستكون على ما يرام. صرتُ أذهبُ إلى المرحاض مرات عديدة إلى درجة أنني اعتقدت أن كليتَيّ ستخرجان مع تبوّلي.

قُرِع جرس الباب وتدفّق ████ مع ████████ ████████████ ████████.

- اسمي ████. سررتُ بلقائك.
- سررتُ بلقائك أيضاً، قلت وصافحته. عرفت أنه لم يكن صادقاً بخصوص اسمه. لقد اختار، لسوء الحظ، الاسم الخاطئ، ████████ ██، الذي أعرفه هو أنّه اسم متعلّق بجنسٍ من الأحياء، ولكني لم أبالِ. ولكن السؤال هو: أيّ محقّق يصدق في ما يقول؟ كان بوسعه أن يقدّم نفسه باسم ████ ██ وبنفس الدرجة من التأثير.

[١] تظهر كلمة poly غير مشطوبة.

- ستعمل معي اليوم. كيف حالك؟

- متوتر جداً، أجبت.

- عظيم، هذا ما يجب أن تكون عليه. لا أريد معتقلين مرتاحين. أعطني دقيقة، سأركِّب ████████████████.

في الواقع ساعدته أنا و ████████████████████ ████████████████████████████████ ██████.

- الآن، أريدك أن تجلس وتنظر إليّ طوال الفترة التي أتحدث فيها معك.

لم يكن يبدو ██████ محققاً خبيثاً. كان على ما أعتقد شكّاكاً ولكنه عادل.

- هل ████████████████ من قبل؟

- نعم.

- إذاً تفهم الـ ████████████████.

- أعتقد ذلك.

ولكنّ على أية حال ████████████████████ ████████████████████████████████ █████...

████████████████████████████████
████████████████████████████████
████████████████████████████████
████████████████████████████████
████████████████████████████████
████████████████████████
████████████████████████████████
████████████████████████████████
████████████████████████████████

<ins>الفصل السابع</ins>

غوانتانامو

٢٠٠٤ – ٢٠٠٥

الأخبار السارة... وداع كأفراد أسرة واحدة... التلفزيون و"اللابتوب"... الضحكة الأولى غير الرسمية في محيطٍ من الدموع... الوضع الراهن... ورطة معتقلي الجزيرة الكوبية.

– أنا سعيد و ██████████ مسرور جداً، قال ██████ عندما ظهر ██████ بعد يوم من ██████، برفقة ██████ أبيض ██████ في ██████ أواخر العشرينيات.[١]

– ماذا تعني "pleased"؟ سألتُ ██████. انتابتني فكرة، أردت أن أكون

١ في محاكم الإرهاب نشر جيس برافن تفاصيل الفحص بجهاز مكشاف الكذب لمحمدو ولد صلاحي في ٣١ أكتوبر ٢٠٠٤. نقل برافن في تقريره أنّ محمدو ولد صلاحي أجاب: "كلا" على خمس أسئلة حول إذا ما كان له علم بمؤامرات الألفية في ٩/١١ أو أنّه اشترك فيها، أو فيما إذا كان يكتم أيّة معلومات عن الأعضاء الآخرين في القاعدة أو مؤامراتهم. والنتيجة حسبَ تقرير برافن هي إما أنه "لم يتم الإشارة إلى أي خداع" أو "لا تواجد أيّة فكرة"، وهي نتائج اعتبرها كلٌ من المقدّم ستيوارت كوش والنائب العام لمهام الجيش "معلومات مبرّئة محتملة ويجب أن يتشاركها محاموه ووزارة الدفاع إذا ما كان محمدو ولد صلاحي قد اتُّهم أو أُدين من قبل" (برافن، محاكم الإرهاب، ص١٠-١١).

واضحاً طالما أنّ الكلمة كانت سؤالاً من ■■■■■.

– "pleased" تعني سعيداً جداً.

– آه، حسناً. ألَمْ أخبركم بأني لم أكن أكذب عليكم؟

– بلى وأنا سعيد، قال ■■■■■ مبتسماً. كانت سعادة ■■■■■ ■■ واضحة وصادقة. لم تكن سعادتي أكبر من سعادة ■■■■■ إلاّ بالكاد.[١]

الآن أستطيع التكهّن بأنّ التعذيب المقيت كان يتجه باتجاه آخر، ببطء ولكن بشكل مؤكّد. ومع ذلك مازلت أشك في الأمر لأنني مازلت محاطاً بالناس أنفسهم الذين كنت محاطاً بهم منذ اليوم الأول.

اعتاد ■■■■■ أن يقول:

– انظر إلى بذلتك وبذلتنا. أنت لست واحداً منّا. أنت عدوّنا.

– أعرف!

– لا تنسَ.

– لن أنسى!

إنّ أحاديث من هذه الشاكلة لا تترك شكّاً في أنّ العداوة لدى الحرّاس قد دُفِع بها إلى حدّها الأقصى. كنت أشعر في معظم الأحيان بأنّهم تدرّبوا على التهامي حيّاً.

قدّم ■■■■■ مرافقه ■■■■■ لي: "هذا محقق آخر يستطيع أن ■■■■■ مثلي". كان المحقق الجديد ■■■■■ ■■■■■ هادئاً ومهذّباً. لا أستطيع أن أقول شيئاً سلبياً واحداً عن ■■■■■. كان شديد الحب للعمل ولم يكن منفتحاً على الآخرين. ■■■■■ يتبع حرفياً أوامر رئيسه ■■■■■، وأحياناً كان يعمل مثل الكومبيوتر.

– هل تعرف عن رحلة ■■■■■ إلى العراق في عام ٢٠٠٣؟ سأل ■■■■■ ■■■■■ ذات مرة.

– ما مشكلتك يا ■■■■■، أنت تعرف بأنني سلّمت نفسي في عام ٢٠٠١، فكيف لي أن أعرف ماذا جرى في عام ٢٠٠٣؟ لا معنى لهذا السؤال، أليس

١ إنّ الضمائر المشطوبة وأسلوب هذه المحادثة يوحيان بأنّ المحقق الرئيسي قد تكون امرأة وعضواً في فريق التحقيق الخاص. في هذا المشهد يبدو أنّها تقدّم محققاً جديداً سيعمل أيضاً على قضية محمدو ولد صلاحي، والتشطيبات تلمّح إلى أنّ هذا المحقق هو الآخر امرأة ربّما.

كذلك؟ سألته. ابتسم ■■■■■■■.

– أردت أن أعرف ذلك.

– ولكنّك تعرف أنني معتقل منذ عام ٢٠٠١ ■■■■■■■! قلت له.

كان ■■■■■■■ حذراً جداً، بل حذراً أكثر من اللازم: كان حريصاً أن يخبّئ رتبة ■■■■■■■ واسم ■■■■■■■ دائماً. ولم يكشف ■■■■■■■ عن معتقدات ■■■■■■■ بأيّ شكلٍ من الأشكال. شخصياً، كان ذلك مبعث راحة واطمئنان لديّ، طالما أن ■■■■■■■ لا يقسو عليّ.

– أحب طريقتك في التواصل. قال ■■■■■■■ بابتسام في تلك الجلسة.

يميل المحققون جميعاً أن يدخلوا البيت من النافذة وليس من الباب، إنّهم لا يسألونك سؤالاً مباشراً بل يطرحون أسئلة مختلفة تدور حول السؤال المباشر. اعتبرت ذلك نوعاً من التحدّي لي، لذا كنت أبحث دائماً في سيل الأسئلة عن السؤال الرئيسي وكنت أجيب عنه.

"أسئلتُك هي إمّا أو ليس..." كنت أقول. وكان ■■■■■■■ يبدو أنّه يحب هذا الاختصار. ولكن من رأى في التاريخ البشري كلّه تحقيقاً استمرّ أكثر من ست سنوات متواصلة؟ ومع ذلك لا ولم يستطع محقّق واحد أنْ يضيف شيئاً جديداً. لقد استمعت إلى شتى أنواعهم، وكلّ محقّق جديد يأتي بحزمة من النظريات والأكاذيب الأكثر سخافةً. إنّهم حقاً خريجو مدرسة واحدة. وقبل أن يفتح المحقق فمه أعرف أنّه ■■■■■■■ أو ماذا سيقول.[1]

– أنا محقّقك الجديد. لديّ تجربة طويلة في هذا الميدان. لقد أرسلوني خصيصاً من واشنطن لأقيّم قضيتك. أنت المعتقل الأكثر أهميةً في هذا المعسكر. إذا تعاونت معي فإنني سأرافقك إلى المطار شخصياً، وإنْ لم تتعاون فستقضي بقية حياتك في هذه الجزيرة. أنت ذكيّ جداً، لا نريد أن نبقيك في السجن، نريد أن نمسك بالسمكة الكبيرة ونطلق سراح الأسماك الصغيرة من أمثالك. إنّك لم تقد طائرة لتصدم بها مبنىً. إنّ تورّطك يمكن مسامحته بحديث لمدة خمس دقائق فقط. إنّ الولايات المتحدة

١ يوحي السياق بأنّ الكلمة المشطوبة في هذه الجملة هي (or she). وإن صحّ ذلك فإنّه سيكون مثالاً منافياً للعقل بل ومضحكاً على محاولات الولايات المتحدة لإخفاء بأنّها استخدمت إناثاً كمحققات.

هي أكبر بلد في العالم لذا نفضّل أن نسامح الآخرين لا أنْ نعاقبهم. لقد تحدّث العديد من المعتقلين عنك بسوء. أنا شخصياً لا أصدقهم، ولكني أريد أن أسمع منك عن دورك في القصة، وذلك حتى أتمكن من الدفاع عنك على نحو مناسب. ليس لدي شيء ضد الإسلام، حتى أنّ لي أصدقاء كثر من بين المسلمين. لقد ساعدت الكثير من المسلمين على الخروج من هذا المكان بكتابة تقرير إيجابي يذكرون فيه الحقيقة كلها فقط... وهلمّ جرا، وكعادة كلّ المحققين عندما يلتقون بالمعتقلين سرد محقّقي الجديد أيضاً مقدمة طويلة للدخول إلى لبّ ما يريد في قضيتي. لا يتمالك المحققون أنفسهم عن الضحك عندما يضطرون للاستماع إلى هراء "يوم جرذان الأرض" هذا. في الواقع كانت هذه تسليتنا الوحيدة في حُجيرة التحقيق. قال أحد السجناء أنّ محققه أخبره: "أعرف أنك بريء". ضحك أحد الأصدقاء المسجونين وقال: "أفضّل أن أكون مجرماً وأجلس في البيت مع أطفالي". أعتقد أنّ أيّ شيء يفقد قيمته عندما نكرره. عندما تسمع للمرة الأولى تعبيراً كـ"أنت أسوأ مجرم على وجه الأرض" ينتابك رعب جهنمي، ولكن الخوف يبدأ بالتقلص والانكماش مع كل مرة تسمعه فيها، وفي لحظة ما يفقد تأثيره كليّاً ويتحول إلى شيءٍ شبيه بالتحيّة اليوميّة.

ولكن دعونا ننظر إلى الأمر من منظور المحقّقين. لقد ترعرعوا على كرهنا نحن المعتقلين: "هؤلاء الناس هم أكثر الكائنات شراً على الأرض... لا تساعد العدو... لا تنسَ أنّهم أعداء... انتبه، العرب هم الأسوأ، وبصورة خاصة السعوديون واليمنيون... إنّهم ذوو عقيدة صلبة... إنّهم همج... انتبه، لا ██████████ ██████ ما لم تضمّن كل شيء..." في غوانتانامو يُعلّم المحققون حول السلوك المحتمل للمعتقلين أكثر من قيم المخابرات العقلية، لذا فقد أخفق المحقّقون الأميركيون حتى في فهم أكثر المعلومات تفاهةً عن معتقليهم. أنا لا أتحدث عن تجارب الآخرين بل أتحدث عن تجربتي الخاصة.

– لقد تكلّمَ ██████ عنك! قال لي ██████ ذات مرة.

– ██████ لا يعرفني، فكيف يستطيع أن يتكلم عني؟ اقرأ ملفي فقط مرة أخرى.

– أنا متأكد من أنه يعرفك. سأريك! قال ██████. لكنّه لم يفعل ███

█████ ذلك لأنّ █████ كان مخطئاً. إنّ █████ هو أسوأ مثال على جهل المحققين بمعتقليهم. إنّ الحكومة تحتفظ عندها بمعلومات أساسية وتخفيها عن محققيها لأسبابٍ تكتيكية، ومن ثم تخبرهم: "إنّ المعتقل الذي أوكل أمره إليك متورط في الإرهاب ولديه معلومات جوهرية عن الهجمات المرتكبة وعن التي في الطريق. ومهمتك هي أن تنتزع كل شيء منه". في الواقع، نادراً ما التقيتُ معتقلاً تورّط في جريمة ضد الولايات المتحدة.

لهذا يكون لديك محققون تدرّبوا بشكل منهجي وحُرِّضوا على ملاقاة أسوأ أعدائهم. ولديك في المقابل معتقلون اعتُقلوا وسُلِّموا إلى قوات الولايات المتحدة بدون أي إجراء قضائي مناسب. بعد ذلك يتعرضون لأسوأ معاملة، ثم يجدون أنفسهم وقد سُجنوا في النصف الآخر من الكرة الأرضية، في خليج غوانتانامو، ومن قبل بلدٍ يزعم أنّه الحارس الأمين لحقوق الإنسان في كل أصقاع العالم - ولكنه بلدٌ يشكّ الكثير من المسلمين بأنّه يتآمر مع قوى أخرى شريرة لمحو الدين الإسلامي عن وجه الأرض. إن البيئة برمتها ليست بيئة صالحة للمحبة والمصالحة، بل هي بيئة للكراهية الشديدة. وهي تُغذّى هنا على نحو كثيف. صدّقوا أولا تصدّقوا، لقد شاهدت حرّاساً يبكون عندما اضطروا إلى ترك واجباتهم في غوانتانامو.

"أنا صديقك، لا يهمّني كلام الناس" قال لي أحد الحرّاس قبل أن يغادر.

"لقد لُقِّنتُ أشياء سيئة عنك، ولكن محاكمتي العقلية تقول لي شيئاً مغايراً. أحبّك كثيراً وأحبّ التحدث إليك. أنت شخص عظيم" قال آخر.

"آمل أن يُطلَق سراحك" قال █████ من كلّ قلبه.

"أنتم جميعاً أخوتي" همس آخر.

"أحبك" قالها █████ أحد أفراد الطاقم الطبي ذات مرّة لجاري الفكه الذي استمتعت بالتحدث إليه أيضاً. أُصيب بالصدمة حينما سمع الكلام.

"ماذا... لا حبّ هنا... أنا مسلم!".

لقد أضحكني ذاك الحب "الممنوع". ولكني لم أتمالك نفسي عن البكاء عندما رأيت حارساً █████ من أصلٍ ألماني يبكي على █████ لأنّه كان يعاني من جرح بسيط. والأمر المضحك هو أنني كنت أُخفي مشاعري لأني لم

أرغب في أن يُساء فهمي من قبل أخوتي، أو يُفهم على أنّه ضُعف أو خيانة. في لحظة ما كرهت نفسي كرهاً شديداً. بدأتُ أسألُ نفسي أسئلة حول العواطف الإنسانية التي أمتلكها تجاه أعدائي. كيف يمكن لك أن تبكي على شخص سبّب لك الكثير من الألم ودمّر حياتك؟ وكيف يمكن أن تحبّ إنساناً يكره دينك ولا يعرف عنه شيئاً؟ كيف تتحمل هؤلاء الأشرار الذين يؤذون أخوتك؟ كيف تحب شخصاً يعمل ليل نهار ليلصق بك القذارة؟ كنتُ في وضع أسوأ من وضع عبد، فعلى الأقل لا يقيّد العبد بالقيود دائماً، ولديه بعض الحرية، وليس مضطراً للاستماع إلى محقّق يصبّ عليه الشتائم يومياً.

غالباً ما كنت أقارن نفسي بالعبيد. لقد أُخذ العبيد بالقوة من أفريقيا، وكذلك أنا. بُيع العبيد مرتين في الطريق إلى وجهتهم الأخيرة، وكذلك أنا. سُلِّم أمر العبيد إلى شخص لم يختاروه، وكذلك أنا. وعندما ألقيت نظرة على تاريخ العبيد لاحظت أنّ العبيد كانوا أحياناً ينتهي بهم المطاف في بيت سيّد لا ينقصه شيء.

لقد مررتُ بأطوار عديدة خلال أسري. كان الطور الأول هو الأسوأ من بينها. كنتُ أفقد عقلي تقريباً وأنا أصارع للعودة إلى أسرتي وإلى الحياة التي اعتدتها. وكانت ذروة عذابي هي في راحتي، فكلّما أغمضت عيني وجدت نفسي أشكو إليهم ما حدث لي. "هل أنا معكم حقاً أم أنّه مجرد حلم؟"، "كلا، أنت حقاً في البيت!". "من فضلكم أمسكوني، لا تسمحوا لي بالعودة!" ولكن سرعان ما كان الواقع يصدمني عند استيقاظي لأجد نفسي في زنزانة كئيبة مظلمة، أنظرُ من حولي لبعض الوقت كي أنام ثانيةً وأعيش الحلم مرةً أخرى.

لم أستوعب وجودي في السجن إلا بعد عدة أسابيع، ثم أدركت أن عودتي إلى البيت لن تكون قريبة. وبقدر ما كانت هذه الخطوة قاسية، كانت ضرورية لأدرك واقعي الجديد وأتعامل موضوعياً معه حتى أتجنّب الأسوأ، بدلاً من ضياع الوقت مع ذهني لإلهائي باللعب. فشل العديد في تجاوز هذه المرحلة وفقدوا عقولهم. شاهدت العديد من السجناء انتهى بهم الأمر إلى الجنون. أمّا الطور الثاني فهو عندما تدرك أنّك حقاً في السجن ولا تملك شيئاً سوى التفكير الدائم بحياتك - مع أنّ السجناء في غوانتانامو يجب أن ينشغل بالهم بالتحقيق اليومي. تدرك أنْ لا سيطرة لك على شيء، لا تقرّر متى تأكل، متى تنام، متى تستحم، متى تستيقظ، متى يفحصك الطبيب،

متى تلتقي بالمحقق. ليست لك أيّة خصوصية، حتى أنّك لا تستطيع التبوّل دون أن يراقبك أحد. في البداية كان أمراً مرعباً أن تفقد كل الامتيازات في غمضة عين، ولكن صدقوني، الناس يعتادون ذلك. لقد اعتدت ذلك شخصياً. في حين أن الطور الثالث هو طور اكتشاف بيتك الجديد وأسرتك. أسرتك تشمل حراسك ومحققيك. صحيح أنّك لم تختر هذه الأسرة، ولم تكبر فيها، ولكنها أسرة شئتَ أم بيت، مع كل امتيازات الأسرة ومساوئها. أنا شخصياً أحببت أسرتي ولن أبيعها مقابل الدنيا كلها، ولكني كوّنت أسرة في السجن أعتني بها أيضاً. وكل مرة يغادر فيها أحد الأفراد الطيبين من أسرتي الحالية أشعر كما لو أن جزءاً من كبدي قد قُطع، ولكنني أشعر بسعادة كبيرة عندما يُجبر فرد سيئ من الأسرة على المغادرة.[1]

- سأغادر قريباً، قال ██████ قبل يومين من مغادرة ██████.

- حقاً؟ لماذا؟

- حان الوقت. ولكن ██████ آخر سيبقى معكم. لم يكن ذلك بالأمر المريح، ولكن المناقشة هي العبث بعينه، لا جدوى منها. إنّ نقل عملاء المخابرات العسكرية موضوع غير قابل للنقاش.

- سنشاهد فيلماً معاً قبل أن أغادر، أضاف ██████.

- آه، جميل! قلت.

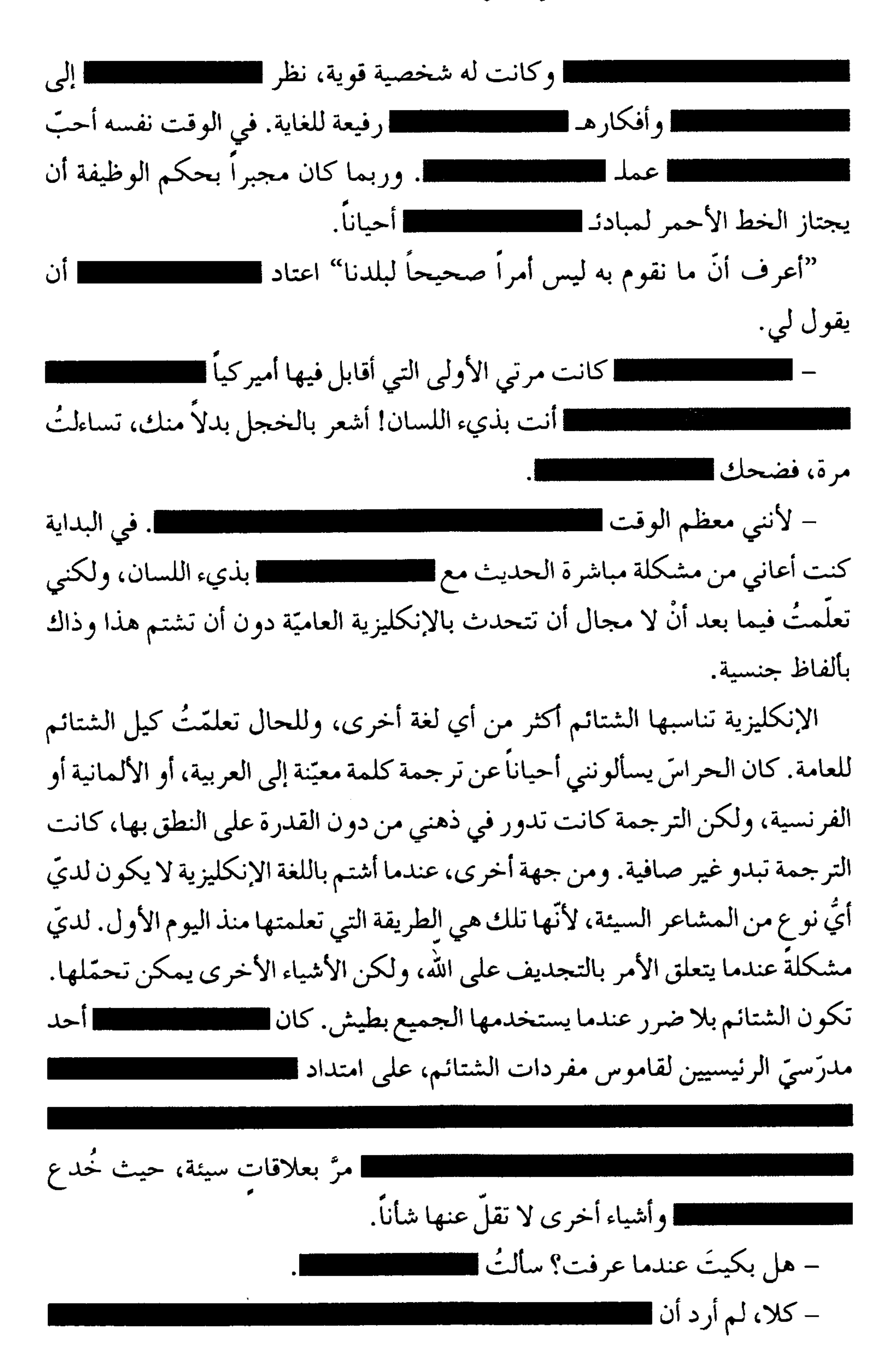
لم أستوعب النبأ حتى الآن. إنّ الاحتمال الكبير هو أن ██████ قد درس علم النفس، وهو من الساحل الغربي، وربما من كاليفورنيا ██████

██████

██████ في أوائل العشرينيات من العمر ██████. أعتقد أن ██████ من أسرة فقيرة نوعاً ما. كان ██████ يقدّم قدراً كبيراً من الفرص للناس من الطبقات الدنيا، ومعظم الناس ██████ الذين شاهدتهم كانوا من الطبقات الدنيا. كان ██████ له علاقة متفرّعة مع ██████

---

[1] يضيف محمدو ولد صلاحي ملاحظة هنا في الهامش في المخطوطة الأصلية: "والطور الرابع هو التعوّد على السجن والخوف من العالم الخارجي".



███████ وكانت له شخصية قوية، نظر ███████ إلى ███████ وأفكاره ███████ رفيعة للغاية. في الوقت نفسه أحبّ ███████ عمل ███████. وربما كان مجبراً بحكم الوظيفة أن يجتاز الخط الأحمر لمبادئ ███████ أحياناً.

"أعرف أنّ ما نقوم به ليس أمراً صحيحاً لبلدنا" اعتاد ███████ أن يقول لي.

- ███████ كانت مرتي الأولى التي أقابل فيها أميركياً ███████ ███████ أنت بذيء اللسان! أشعر بالخجل بدلاً منك، تساءلتُ مرة، فضحك ███████.

- لأنني معظم الوقت ███████. في البداية كنت أعاني من مشكلة مباشرة الحديث مع ███████ بذيء اللسان، ولكني تعلّمتُ فيما بعد أنْ لا مجال أن تتحدث بالإنكليزية العاميّة دون أن تشتم هذا وذاك بألفاظ جنسية.

الإنكليزية تناسبها الشتائم أكثر من أي لغة أخرى، وللحال تعلّمتُ كيل الشتائم للعامة. كان الحراسّ يسألونني أحياناً عن ترجمة كلمة معيّنة إلى العربية، أو الألمانية أو الفرنسية، ولكن الترجمة كانت تدور في ذهني من دون القدرة على النطق بها، كانت الترجمة تبدو غير صافية. ومن جهة أخرى، عندما أشتم باللغة الإنكليزية لا يكون لديّ أيُّ نوع من المشاعر السيئة، لأنّها تلك هي الطريقة التي تعلمتها منذ اليوم الأول. لديّ مشكلةً عندما يتعلق الأمر بالتجديف على الله، ولكن الأشياء الأخرى يمكن تحمّلها. تكون الشتائم بلا ضرر عندما يستخدمها الجميع بطيش. كان ███████ أحد مدرّسيّ الرئيسيين لقاموس مفردات الشتائم، على امتداد ███████

███████

███████ مرَّ بعلاقاتٍ سيئة، حيث خُدع ███████ وأشياء أخرى لا تقلّ عنها شأناً.

- هل بكيتَ عندما عرفت؟ سألتُ ███████.

- كلا، لم أرد أن ███████

████████████████████████

████. لديّ مشكلة عندما يتعلق الأمر بالبكاء.

– فهمتُ، ولكني شخصياً لا أجد ذلك مشكلة. أبكي كلما رغبت في البكاء، وهذا يجعلني أقدر على الاعتراف بضعفي.

كان ████ قد استُغلّ من قِبل ████ وزميله ████ وآخرين خلف المشهد. أعرف أنني أبحث عن أعذار لأبرّئ ████ وأنّه لم يكن كبيراً بما فيه الكفاية ليعرف أنّ ما يقوم به ████ كان خطأً، وقد استطاع ████ أن يحافظ ████ على عمله، وجعل ضباطاً ذوي رُتبٍ عالية يُسرّحون من الخدمة. لقد كان ████ مساهماً في الضغط الذي مورس عليّ. ولكني أعرف أيضاً أنّ ████ لا يؤمن بالتعذيب.

اعتدت الاستهزاء باللوحات التي وُضعتْ للمحققين والحرّاس من أجل رفع معنوياتهم: "الشرف مرتبط بالدفاع عن الحرية". استذكرتُ ذات مرة ما كُتب على لوحة كبيرة لـ ████.

– أكره تلك اللوحة، قال ████.

– كيف يمكنكم أن تدافعوا عن الحرية وأنتم تدوسونها؟ كنتُ أقول.

لاحظ الرؤساء العلاقة الوثيقة التي تطورت بيني وبين ████، لذا فصلوا ████ عني. عندما اختُطفت كانت آخر الكلمات التي سمعتها: "أنت تؤذيه! من أعطاك الأوامر؟" صرخ ████ وتلاشى كـ ████ و ████ وسحبني إلى خارج الغرفة في ████. وعندما قرروا إعطائي فرصة بإجراء تحقيق نصف إنساني ظهر ████ في المشهد مرة أخرى، ولكن هذه المرّة كان ████ عدوانياً بعض الشيء تجاهي، وكان يستغل كل فرصة ليظهر بأنّ أقوالي غبية. لم أستطع فهم تصرّف ████. هل كان ذلك لصالحي أم أن ████ ضاق ذرعاً بالجميع؟

لن أحكم على أحدٍ، سأترك ذلك لله عز وجلّ، وفقط أقدّم لكم الحقائق كما

شاهدتُها وعشتها، ولم أستغنِ عن شيء لأجعل من شخص ما يبدو جيداً أو سيئاً. أدركُ أنْ ما من أحد كامل، وأفهم أنّ كلّ شخص منّا لديه أشياء جيدة وأخرى سيئة. ولكنّ السؤال الوحيد هو ما مقدار كلّ نوع؟

- هل تكره حكومتي؟ سألني █████ بينما كان يعاين خارطةً.
- كلا، لا أكره أحداً.
- كنت سأكره الولايات المتحدة لو كنت في مكانك! لا أحد يعلم لماذا نحن هنا وماذا نفعل. فقط فئة قليلة في الحكومة تعرف ذلك. قال █████.
- حقاً؟
- نعم. الرئيس يقرأ ملفات بعض السجناء وقضيّتك أيضاً من بينها.
- حقّاً؟

كان █████ يستمتع بمكافأة المعتقلين أكثر من معاقبتهم. أستطيع القول بدون شك إن █████ لم تستمتع بالتحرش بيّ، مع أن █████ حاول أن يبديَ █████ وجهاً "رسمياً". ومن جهة أخرى سُرَّ █████ █████ للغاية عندما أعادوا لي بعض الأشياء. وكان █████ هو من جاء بمعظم الأفكار المتعلّقة بالأدب الذي أعطوني إيّاه من أجل المطالعة.

"هذا الكتاب من █████" قال ذات يوم وناولني رواية سميكة كانت على ما أظن بعنوان **الحياة في الغابة**.[1] كانت رواية تاريخية كتبها روائي بريطاني، وقد غطّت قدراً كبيراً من التاريخ القروسطي وغزو النورمندي. تلقيت الكتاب بامتنان وقرأته بنهم ثلاث مرات على الأقل. وفيما بعد جلب لي █████ عدّة كتب من **حرب النجوم**. وكلما أنهيتُ كتاباً كان █████ يستبدله بآخر جديد.

- آه، شكراً جزيلاً!
- هل أحببت **حرب النجوم**؟
- بالتأكيد أحببته.

في الحقيقة لم أحبّ كتب **حرب النجوم** ولغتها، ولكني كنت مضطرّاً للإعراب عن

---

١ يوحي الوصف بأنّ الكتاب ربما هو الرواية التاريخية **الغابة** للروائي إدوارد روزرفيرد، التي صدرت عام ٢٠٠٠.

إعجابي بكلّ كتابٍ يعطونني إيّاه. في السجن ليس لديك شيء سوى عالم التفكير بحياتك وبأهدافها. أعتقد أنّ السجن هو أقدم وأعظم المدارس على الإطلاق. تتعلم فيه عن الله، وتتعلم الصبر. إنّ سنواتٍ في السجن تعادل عقوداً من التجربة خارجه. بدون شكّ ثمّة جانب مدمّرٍ في السجن، وخصوصاً للأبرياء من السجناء، الذين يعيشون الجانب القاسي من السجنِ إلى جانب أنّهم يعانون من الأضرار النفسية الناتجة عن الاحتجاز بدون جريمة. يفكّر العديد من السجناء الأبرياء بالانتحار.

تخيّل نفسك فقط تذهب إلى السرير، تضع كلّ قلقك جانباً وتقرأ مجلتك المفضلة كي تنام، وتكون قد أخذت الأولاد إلى أسرّتهم، وأسرتُك قد نامت مسبقاً، وأنت لستَ خائفاً من أن يجرّك أحد من سريرك في منتصف الليل إلى مكان لم تره من قبل قط، وتُحرم من النوم، ناهيك عن بثّ الرعب فيك في كل لحظة. وتخيّل الآن أنك ليس لديك أيّ قرار في أيّ شيء من حياتك: متى تنام، ومتى تستيقظ، ومتى تأكل، وأحياناً متى تذهب إلى المرحاض. وتصوّر أنّ مجمل عالمك لا يشمل سوى زنزانة طولها ستّة أقدام وعرضها ثمانية أقدام كحدٍّ أقصى. إذا ما صوّرتَ كلّ هذا، مع ذلك لن تفهم السجن ما لم تعش تجربته واقعياً.

ظهر ██████ بعد بضعة أيام كما وعد ومعه "لابتوب" وفيلمان، وقال لي:

- بإمكانك أن تقرّر أي فيلم منهما تريد مشاهدته.

اخترت فيلم "Black Hawk Down – سقوط البلاك هوك"، لا أتذكّر اسم الفيلم الآخر.

كان الفيلم دموياً و محزناً. أبديتُ اهتماماً كبيراً بعواطف ██████ والحرّاس أكثر من الفيلم نفسه. كان ██████ هادئاً بعض الشيء، كان يوقف الفيلم بين الفينة والأخرى ليشرح لي الخلفية التاريخية لمشاهد معينة.

في حين أُصيب الحرّاس بالجنون لأنّهم شاهدوا الكثير من الأميركيين يُطلَق النار عليهم حتى الموت. ولكن فاتهم أنّ عدد الإصابات بين الأميركيين كان شيئاً لا يذكر بالمقارنة مع الإصابات في صفوف الصوماليين الذين هوجموا في عقر دارهم. وتساءلت كم يمكن أن يكون الإنسان ضيّق التفكير. عندما ينظر الناس إلى شيء من

منظورٍ واحد فإنّهم يفشلون في رؤية الصورة بشكل كامل، هذا هو السبب الرئيسي في معظم حالات سوء الفهم الذي يؤدي أحياناً إلى مواجهات دموية. بعد انتهائنا من مشاهدة الفيلم وضّب ██████ الكمبيوتر واستعد للمغادرة.

- بالمناسبة، لم تقل لي متى ستغادر؟

- انتهيت. لن تراني بعد اليوم!

تجمدّتُ في مكاني. لم يخبرني ██████ أنه سيغادر بمثل هذه السرعة. كنت أعتقد أنّ ذلك ليس قبل شهر أو ثلاثة أسابيع، شيء من هذا القبيل، ولكن اليوم؟ كان ذلك مستحيلاً في عالمي. تخيّل أنّ الموت يفترس أحد أصدقائك وأنت تراقبه عاجزاً عن فعل شيء لإنقاذه من الهلاك.

- هل حقاً بهذه السرعة؟ فوجئتُ! لم تخبرني. وداعاً. أتمنى لك كل الخير. قلتُ.

- يجب أن أطيع الأوامر، ولكني سأتركك في أياد أمينة.

ومضى ██████ في سبيله واختفى. عدتُ مكسور الخاطر إلى زنزانتي وانفجرتْ دموعي كما لو أنّي فقدت ██████ وليس شخصاً كان عمله إيذائي وانتزاع المعلومات منّي بكل الوسائل المبرّرة. لقد كرهت نفسي وشعرت بالأسف في آن على ما يمكن أن يحدث لي.

- هل أستطيع رؤية محقّقي من فضلك؟ سألت الحرّاس على أمل الإمساك بـ ██████ قبل أن يصلوا إلى البوابة الرئيسية.

- سنحاول، قال ██████.

انسحبت إلى داخل الزنزانة، ولكن سرعان ما ظهر ██████ أمام باب زنزانتي.

- هذا غير منصف. تعرف كم عانيت من التعذيب ولا أتحمّل جولةً أخرى منه.

- لن تُعذَّب. يجب أن تثق بحكومتي. وطالما أنّك تقول الحقيقة فلن يصيبك مكروه!

بالطبع قصد ██████ الحقيقة كما هي معرّفة رسمياً، ولكني لم أرغب في مناقشة ██████ حول أي شيء. قلت:

- فقط لا أريد أن أبدأ كل شيء من البداية مع محقق جديد.

– لن يحدث ذلك. كما أنّك تستطيع الكتابة إليّ، سأجيب على كل رسائلك الإلكترونيّة.

– كلا، لن أكتب إليك.

– كما تشاء، قال ██████.

– هل أنت على ما يرام؟ سأل ██████.

– لستُ على ما يرام ولكنك ستغادر بالتأكيد.

– لن أغادر حتى تؤكد لي أن كل شيء على ما يرام، قال ██████.

– قلتُ ما كان يجب قوله. رحلة موفّقة، وليُهدِك الله. سأكون بخير.

– أنا متأكد بأنك ستكون بخير. سيستغرق معك الوقت أسبوعاً كحد أقصى لتنساني.

لم أتكلم بعد هذا الكلام، بل عدت واستلقيت. بقي ██████ مدة دقيقتين و ██████ يكرر:

– لن أغادر قبل أن تؤكد لي أنّ كل شيء على ما يرام.

بعد أن غادر ██████ لم أر ██████ أبداً، ولم أحاول حتى الاتصال بـ ██████. وهكذا فإن مرحلة ██████ معي قد خُتمت.

– سمعت أنّ وداع يوم أمس كان عاطفياً للغاية، لم أفكر بك على هذا النحو. هل تصف نفسك بأنّك مجرم؟ قال لي ██████ في اليوم التالي.

– إلى حدٍّ ما، أجبت بحذر. لم أرغب في الوقوع في أي فخّ، مع أنني شعرت بأنّه يسأل بصدق وبراءة، الآن أدركَ أن نظرياته الشريرة عني لا قيمة لها.

– لقد انتهت مرحلة الأسئلة الشريرة، قال ██████.

– لن أشتاق إليها، قلت.

جاء ██████ ليحلق شعري. كان زمناً مختلفاً. حيث أن إحدى أدوات عقابي كانت حرماني من الحلاقة النظيفة، ومن غسل الأسنان بالفرشاة، أو حلاقة الشعر، لذا يُعتبر اليوم يوماً عظيماً. لقد جلبوا حلاّقاً مقنّعاً، كانت نظراته تنمُّ عن الخوف، ولكن الرجل قام بالواجب. كما جلب

████ لي الكتاب الذي وعدني به منذ أمد بعيد. كان الكتاب هو Fermat's Last Theorem – **نظرية فيرما الأخيرة**. وقد استمتعت بالكتاب كثيراً إلى حدّ أني قرأته مرتين بنهم. والكتاب من تأليف صحفي بريطاني يتناول نظرية فيرما الشهيرة القائلة إنّ المعادلة ($A^n + B^n = C^n$) ليس لها حل طالما أن n أكبر من اثنين.

بقي علماء الرياضيات في كل مكان ولأكثر من ثلاثمائة عام يتنطعّون لإيجاد حلٍّ لهذه المعادلة غير المؤذية في شكلها ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل، إلى أن جاء عالم رياضيات بريطاني في عام ١٩٩٣ ووجد برهاناً معقّداً لها، ولكن ليس الحل الذي أراده فيرما، حيث كتب: "لدي برهان دقيق للمعادلة ولكن ليس هناك فراغ في صفحتي".

حلقت شعري، ومن ثم استحممت حماماً لائقاً. لم يكن ████ شخصاً كثير الكلام. سألني ████ سؤالاً واحداً فقط عن الكمبيوترات.

– هل تتعاون مع الـ████ الجديد؟

– نعم.

– أو أي شخص سيعمل مع ████؟

– نعم.

أراد الحرّاس أن يتكنّوا بأسماء الشخصيات في أفلام **حرب النجوم**.

– من الآن فصاعداً نحن الـ████ وذلك ما تنادوننا به. اسمك بيلو.

قال ████.

عرفت أخيراً من الكتاب أنّ ████ هم نوعٌ من الرجال الخيّرين الذين يقاتلون ضدّ قوى الشر. لذا كنت في الوقت الحاضر أمثّل قوى الشر والحرّاس يمثّلون قوى الخير.

– ████، ذلك هو الاسم الذي أطلقته عليّ، قال.

كما أنني أطلقت عليه اسم ████

████

████، كان في أوائل الأربعينيات من عمره، متزوج وله أولاد، صغير الحجم ولكن ذو جسم رياضي. عمل لبعض الوقت في ████

█████، ومن ثم انتهى به المطاف إلى القيام بـ"المهام الخاصة" من أجل █████ "████████████████████
████████████████████████████
█████. مضى على عملي في ████████████"، أخبَرَني.

– لقد أنجزت عملكَ وأنا انكسرت، أجبته.

– لا تسألني أيّ شيء. إذا أردت أن تسأل عن أيّ قضيةٍ ما لك إلا محققك.

– فهمتك، قُلت.

سيبدو الأمر مشوشاً أو حتى متناقضاً لو قلت إن █████ كان إنسانياً، بالرغم من أنه كان رجلاً فظاً. بإمكانك القول بكلمات أخرى إن نباحه كان أسوأ من عضه. فَهِمَ █████ ما لا يفهمه العديد من الحرّاس: إذا تكلمت وأخبرت محققيك بما يريدون سماعه، سيمنحونك الراحة. ظل الكثير من المغفّلين يضاعفون الضغط عليّ بلا مبرِّر.

كان █████ مسؤولاً عن كلِّ الحرّاس.

– عملي هو أن أجعلك ترى النور، قال █████ موجّهاً كلامه إليَّ في المرة الأولى عندما كان يراقبني وأنا أتناول طعامي. لم يكن مسموحاً للحرّاس أنْ يتكلّموا معي أو أن يكلّموا بعضهم بعضاً، وأنا لم أستطع التكلّم معهم. لم يكن ███ ███ رجلاً نظرياً بل كان يفكّر أكثر من أي حارس أخر، وكان هدفه هو أن يجعل بلده ينتصر بأيّ وسيلة كانت.

– نعم يا سيدي، أجبت دون أن أفهم حتى ما قصد، فكرت بالمعنى الحرفي للنور الذي لم أره منذ أمدٍ طويل، وأعتقد أنّه أرادني أن أتعاون حتى يكون بوسعي رؤية ضوء النهار. ولكنّ █████ قصد معنىً مجازياً. كان █████ يصرخ عليّ دائماً ويرعبني، ولكنّه لم يضربني قط. لقد استجوبني بشكل غير قانوني عدّة مرات، وهذا هو السبب وراء تسميتي له بـ ████████████
███، أرادني أن أعترف بالمعلومات الموجودة في النظريات الوحشية بخصوصي لدى المحققين. فضلاً عن أنه كان يريد جمع المعلومات حول الإرهاب والتطرّف.

أعتقدُ أن حلمه في الحياة كان أن يصبح محققاً. يا له من حلم بائس!

█████ جمهوري معتَرف به، ويكره الديمقراطيين وبشكل خاص بيل كلينتون. إنّه لا يؤمن بتدخل الولايات المتحدة في شؤون البلدان الأخرى، ولكن إذا ما هاجم بلدٌ أو مجموعة الولايات المتحدة حينئذٍ ينبغي سحقها بلا رحمة.

– أنت عادل بما فيه الكفاية، قلت له. أردته أن يتوقف عن الكلام. إنّه من النوع الذي لا يتوقف أبداً إذا ما بدأ بالحديث عن موضوع ما. لقد أوجع أذني! عندما بدأ █████ بالحديث معي في المرة الأولى رفضت الاستجابة له، لأنّ كل ما كان مسموحاً لي هو فقط: "نعم سيدي"، "لا سيدي"، "أحتاج إلى مساعدة طبية"، "أريد المحققين"، ولكنه كان يرغب دائماً في فتح حوار معي.

– أنت عدوي، قال █████.

– نعم سيدي.

– دعنا إذاً نتحاور كعدوَّين، قال █████. فتح باب زنزانتي وقدّم لي كرسياً. استلم █████ القسم الأعظم من الحديث. كان يتحدث عن عظمة الولايات المتحدة وقوتها: "أميركا هي هذه، أميركا هي تلك، يحب الأميركيون كذا وكذا..."، كنت فقط أُبدي إعجابي وأومئ برأسي استخفافاً. كنتُ أؤكد له بين فينة وأخرى بأنّي أتابع حديثه وذلك بقول كلمات من قبيل: "نعم سيدي... حقاً؟... أوه، لم أكن أعرف... أنت على حق... أعرف...". كان يحاول خِلسةً أن يجعلني من خلال هذه الأحاديث أعترف بأشياء لم أفعلها.

– ما كان دورك في ١١ سبتمبر؟

– لم أشارك في ١١ سبتمبر.

– هراء، صرخ عليّ بجنون.

أدركتُ أنّ من الأفضل لبقائي حيّاً ألاّ أبدو بريئاً، على الأقل في الوقت الحاضر، لذا قلتُ:

– كنت أعمل لصالح القاعدة في الاتصالات الإذاعية.

بدا أكثر سعادةً مع الكذب.

- ما كانت رتبتك؟ استمرَّ في الحفر.
- كنت سأصبح ملازم أول.
- أعرف أنّك زرت الولايات المتحدة.

خَدَعَني بهذا الكلام، وهي خدعة كبيرة لا استطيع أنْ أُكذّبها. استطعت أنْ أبتلع الكثير من الأشياء التي قمت بها في أفغانستان لأنّ الأميركيين لا يستطيعون إثباتها أو نفيها، ولكنّهم يستطيعون أن يعرفوا إذا ما كنت قد زرتُ بلدهم أم لا، فأجبت: "في الواقع لم أزر الولايات المتحدة"، ومع ذلك كنت جاهزاً لتغيير جوابي إن اضطررت لذلك.

- ولكنّك زرت ديترويت. ابتسم على نحوٍ ساخر، فابتسمت بعده.
- فعلاً لم أزرها.

لم يصدّقني ████████. ظلّ يلحُّ على الموضوع كثيراً. كان ████████ ██ مهتمّاً بفتح حوار معي. لقد أعطاني مقابل اعترافاتي هذه كمية إضافية من الطعام وتوقّف عن الصراخ عليّ. في حين بقي الحرّاس الآخرون يصرخون عليّ ويغلقون الباب المعدني لزنزانتي بعنفٍ وذلك بهدف الاستمرار في الرعب الذي كان يمارسه معي ████████. وفي كلّ مرة كان قلبي ينتفض بقوة مع صوت ارتطام الباب، ولكن كلمّا أكثرَ من هذه الأفعال قلّ تأثيرها عليَّ.

- لماذا ترتجف؟ سألني ████████ ذات مرة عندما أخرجني من الزنزانة لتجاذب أطراف الحديث معه. لقد كرهته وأحببته في آن واحد عندما تكون مناوبته. كرهته لأنّه كان يحقق معي، ولكنّي أحببته لأنّه كان يعطيني المزيد من الطعام وبذلات جديدة.

- لا أدري، أجبت.
- لن أؤذيك.
- حسناً.

استغرق بعض الوقت حتى قبلتُ بالكلام مع ████████. بدأ يعطيني الدروس وجعلني أتمرّن عليها تمريناً قاسياً. وكانت الدروس عبارة عن أقوال مأثورة وعبارات أرادني أن أحفظها لأستعملها في حياتي. مازلتُ أتذكر الدرس

التالي: ١) فكّر قبل أن تتصرّف. ٢) لا تخلط بين اللطف والضعف. ٣) ████ احتفظ دائماً بالأسئلة في ذهنك عندما تُسأل عن شخص ما. وكلما اعتبر ██████ أنني خرقت درساً من الدروس كان يخرجني من زنزانتي ويبعثر كل مقتنياتي في المكان، وبعد ذلك يطلب منّي أن أعيد كلّ شيء إلى مكانه في غمضة عين. كنت أفشل دائماً في إعادة ترتيب أشيائي، ولكنه كان يُجبرني على القيام بالعملية مرات عديدة، ثم وبأعجوبة كنتُ أتمكن من إعادة الأشياء إلى مكانها المعتاد في الوقت المطلوب.

تطورت علاقتي مع ██████ بشكل إيجابي مع مرور كل يوم، ومع بقية الحرّاس أيضاً، لأنهم يحترمونه كثيراً.

"تباً! عندما أنظر إلى بيلو لا أظن أنه إرهابي، أظن أنه أحد أصدقائي القدامى، وأستمتع باللعب معه" قال لبقية الحرّاس. ارتحت نوعاً ما وكسبت بعض الثقة بالنفس. لقد اكتشف الحرّاس الآن الجانب الفكه في شخصيتي، فبدأوا بقضاء أوقاتهم معي من أجل التسلية. لقد استخدموني لتصليح مشغّلات DVD الخاصة بهم وكمبيوتراتهم الشخصية، وبالمقابل كانوا يسمحون لي بمشاهدة فيلم. كان كمبيوتر ████ ███ قديماً، وعندما سألني ██████ ما إذا كنت قد شاهدت كمبيوتر ██████ الشخصي، قلت:

- تعني تلك التحفة.

- جيد أنّه لم يسمع ما قلته، قال ████████████████ بضحكة عالية.

- لا تخبره!

شيئاً فشيئاً كانت الأمور تأخذ مسارها فأصبحنا مجتمعاً وبدأنا ننهمك في القيل والقال عن المحققين ونطلق عليهم أسماء. في تلك الأثناء علّمني ██████ ██ قواعد لعبة الشطرنج. لم أكن أعرف الفرق بين البيدق والحصان، ولم أكن لاعباً ماهراً، ولكني وجدت تسليةً عظيمة في الشطرنج، خاصةً وأن السجين يحكم سيطرةً كاملة على قطعه، وهذا ما يعيد إليه بعض الثقة. وعندما بدأت ألعب كنت عدوانياً في اللعب ربما لأنّي أردت أن أسحق الإحباط في داخلي وأطرده شر طردة من عالمي،

وهذه حالة غير مقبولة في الشطرنج، وكان ناصحي الأول وقد غلّبني في أول جولة لي في عالم الشطرنج، ولكني كسبت الجولة الثانية، ومن بعدها كل الجولات التي تلتها. يجتمع في لعبة الشطرنج الفن والرياضيات والإستراتيجية. إنها تتطلّب تفكيراً عميقاً. هي لعبة خالية من الحظ، والانتصار أو الهزيمة فيها يتوقفان على أدائك في اللعب.

جلب لي رقعة شطرنج لذا أصبحت ألعب مع نفسي. عندما رأى الحرّاس رقعتي أصبح الجميع راغباً في اللعب معي، وعندما بدأوا اللعب معي كانوا يفوزون دائماً. وكان هو الأقوى بين الحرّاس. علّمني كيف أحمي المركز، وجلب لي بعض الكتب المتعلقة بالشطرنج وقد شحذت مهاراتي على نحو لا يقبل الجدال.

بعد ذلك لم يتمكن الحرّاس من التغلب عليّ أبداً.

علّق غاضباً عندما ربحت لعبة:

– هذه ليست الطريقة التي علمتك إياها في لعب الشطرنج.

– وما عساي فعله؟

– عليك أن تبني استراتيجيتك وتنظّم هجومك! ذلك هو السبب وراء عدم انتصار العرب.

– لماذا لا تلعب مع الرقعة بنفسك؟ سألته حينئذٍ.

– الشطرنج ليس لعبة وكفى.

– تصور أنك تلعب مع الكمبيوتر!

– هل أبدو لك مثل الكمبيوتر؟

– لا.

بنيت استراتيجية في المرة التالية لأجعل يفوز في اللعب، فعلّق قائلاً:

– الآن فهمتَ كيف يجب أن يُلعب الشطرنج.

عرفت أن لا يستطيع التعامل مع الهزيمة ويعتبرها قضية، لذا لم أستمتع باللعب معه لأني لم أشعر بالراحة في ممارسة معلوماتي التي اكتسبتها حديثاً. يعتقد أن ثمة نوعين من الناس: الأميركيون البيض وبقية العالم، وأن

الأميركيين البيض يمتازون بالذكاء وهم أفضل الناس. كنت أحاول دائماً شرح الأمور له، على سبيل المثال قلت له مرةً: لو كنت أنا أنت أو أنت أنا. وقبل أن أكمل كلامي قاطعني غاضباً: كيف تجرؤ مقارنتي بك أو مقارنة أي أميركي بك؟

أصبت بالصدمة، ولكني تصرفت كما قال. في نهاية المطاف ينبغي ألاّ أقارن نفسي بأحد. كان ■■■■■ يكره بقية العالم، وخصوصاً العرب واليهود والفرنسيين والكوبيين وآخرين. وقد تحدث أيضاً بإيجابية عن إنكلترا.

بعد جولة من الشطرنج معه قلب الرقعة وقال:

– اللعنة على شطرنجك الزنجي، هذا شطرنج يهودي.

سألته:

– هل لديك مشكلة مع السود؟

– Nigger هنا لا تعني الزنجي بل الأحمق، أضاف شارحاً.

خففنا العديد من مثل هذه النقاشات. كان هناك حارس أسود وحيد ولم يكن له أي قرار، وعندما كان يعمل مع ■■■■■ لم يكن بينهما أي تفاعل. كان ■■■■■ يمقته. كانت شخصية ■■■■■ شخصية قوية، مهيمنة، سلطوية، أبوية، متغطرسة.

أخبرني بافتخار: زوجتي تناديني بـ"مؤخرة الحمار".

كان يستمع معظم الأوقات إلى موسيقى "روك أند رول" وشيء من موسيقى الريف. كانت أغانيه المفضلة هي: "Die Terrorist Die – مت أيها الإرهابي مت"، و"The Taliban Song – أغنية الطالبان" و"Let the Bodies Hit the Floor – دع الأجساد ترتطم بالأرض". ■■■■■

■■■■■

■■■■■ لم تسنح لي الفرصة قط لرؤية وجهه لأنه غادر

■■■■■

■■■■■. لم يكن ذلك يشكّل لي أية مشكلة، ففي تلك الفترة لم أكن مهتماً برؤية وجه أحد. في البداية كان فظاً معي حيث كان يجرجرني بعنف ويجعلني أركض وأنا مقيّد اليدين

وهو يصرخ ورائي: تحرّك!![1]

– هل تعرف من تكون؟

– نعم سيدي!

– أنت إرهابي!

– نعم سيدي!

– إذاً دعنا نجري عملية حسابية: إذا كنت قد قتلت خمسة آلاف شخص بارتباطك مع القاعدة، فيجب أن نقتلك إذاً خمسة آلاف مرة. ولكننا لا نفعل هذا لأننا أميركيون، بل وبدلاً من ذلك نطعمك وعلى استعداد أن نقدم لك النقود أيضاً إذا أعطيتنا معلومات.

– ذلك صحيح سيدي!

ولكن بعد أن أمر ■■■■■■■■■■ الحرّاس أن يكونوا ودودين معي بدأ ■■■■■ يعاملني كإنسان. كنت أستمتع بالنقاش معه لأن إنكليزيته كانت محترمة، مع أنه كان دائماً "محقاً" في موقفه.

اعتاد أن يقول ساخراً: عملنا هو أن نقدّم خدمة لك! تحتاج إلى خادمة في البيت.

وبما أن الحرّاس ينقلون الكلام عن بعضهم البعض، فقد أراد أن ينقل ■■■■■ ■■■■■■■■ كلام المفتش ■■■■■■■■■■ ■■■■ الذي كان يحب تفتيش غرفتي ليتأكد من أن كل شيء في مكانه المطلوب، الملاءة مطوية تحت حافة الفراش بزاوية ٤٥ درجة، وأشياء أخرى من ذاك القبيل. وكان يفتش الحمام أيضاً وبشكل دائم، وإذا ما شاهد شعرة فيه كان يجعلني ■■■■ ■■■■ ومعه ■■■■■■ أن أنظّف كل شيء من جديد، ينبغي أن يبدو كل شيء كاملاً بغضّ النظر عن عدد المرات التي قمت فيها بالتنظيف.

لقد اهتم ■■■■■■ بشكل خاص بالطريقة التي استطعت بها الحفاظ على "الروزنامة" في رأسي لمعرفة الأيام والليالي بالرغم من إجراءات الحرّاس التشويشية

١ في هذا القسم الذي عنونه محمدو ولد صلاحي بـ"حرّاس" يقدم لنا العديد من الشخصيات. إن جميع التشطيبات من بداية هذا القسم وحتى هذه النقطة تشير إلى الحارس رقم واحد، ومن الواضح أنه رئيس الحرس. ولكن التشطيبات اللاحقة تجعلنا نميّز بصعوبة بين حارس وآخر، مع أن هذا التشطيب يشير إلى الحارس رقم اثنين، الذي انتهت جولته قبل أن يسمح محققو فريق المشاريع الخاصة لحرّاس محمدو ولد صلاحي أن يزيلوا أقنعتهم في حضوره.

لجعلي أضيّع حركة الزمن وتعاقب الليل والنهار. حاولوا ذات مرة أن يجعلوني أعتقد أن عيد الميلاد هو عيد الشكر (يوم الخميس الأخير من نوفمبر - المترجم) ولكني لم أشترِ خدعتهم تلك.

- إنّها ليست بمشكلة، ولكنّي أعتقد أنه عيد الميلاد.

- نريدك أن تشرح لنا الخطأ الذي ارتكبناه حتى نتفاداه في المرة القادمة مع معتقل جديد.

شرحت لهم ما وجدته ضرورياً، ولكني متأكد من أنهم سيرتكبون الأخطاء ذاتها مع المعتقلين الجدد لأنّ ما من أحد كامل.

وضعني ■■■■■■■■ في صورة كيف يمكن أن يصبح وضعي حتى أسوأ مما هو عليه الآن: أنت لم ترَ شيئاً بعد.

وكان ردّي: وأنا لست في توق لرؤية المزيد.

ربما كان محقاً، لأنه لا أحد من الحرّاس شاهد كل شيء حدث لي، لأن الحارس الوحيد الذي اشترك في حفلة نقلي كان ■■■■■■، واعتاد أن يستغل كل فرصة لضربي في المكان الجديد. بإمكانك القول إنه لم يكن يجد حرجاً في ضربي طالما أنه يفعل ذلك بمباركة السلطة العليا في غوانتانامو.

كان ■■■■■ هو الحارس الوحيد الذي لا ينام في مناوبته. كان يفقدني صوابي جرّاء حركته في محيطي، وكان يحب أن يفاجئني في منتصف الليل بالضرب بقوة على باب زنزانتي المعدني، وكان يسمح لي بالاستحمام وغسل الأشياء على أكمل وجه. ينبغي ألاّ أستريح في زنزانتي لأكثر من ساعة، تلك هي الطريقة الأكثر أهميةً لكسر إرادة معتقل في السجن، لأنك تكره حياتك وتكره حراسك وزنزانتك ومحققيك وحتى نفسك. وذلك ما كان يفعله ■■■■■■■■■■ ■■■■■ بالضبط حتى ■■■■■■ و ■■■■■■■ وإلاّ أعطى أوامر أخرى في ذات المنحى.

كان ■■■■■ رجلاً أبيض في العشرينيات من عمره، طويل القامة، كسول ويفتقر إلى الهيئة الرياضية.[1]

---

١ ربما يشير التشطيب هنا إلى الحارس الثالث الذي يصوره لنا.

أخبرني ذات مرة: ████ هو أفضل أصدقائي.

– من أين تعرف ████؟

لم يردّ على سؤالي، اكتفى بابتسامة، ولكنه ظل يذكر ████ وكيف أساء معاملتي. كنت أغيّر الموضوع دائماً لأني لا أريد أن يعرف الحرّاس أن ضربي أمر طبيعي. كنت سعيداً لأن حرّاسي لم يكونوا يعرفون تفاصيل ما حدث لي، لا أحتاج أن تتشجّع العصابة لارتكاب الجرائم. وفجأةً بدأوا يصرخون:

– انهض... وجهك إلى الحائط... لقد اعتدت أن ترتاح طويلاً في الآونة الأخيرة... لديك وسادة... هاها!... انظروا إلى داخل زنزانته... لعل تلك الخرية تحتها شيء... وجدنا حبات أرز مخبأة تحت فراشه... معك عشرون ثانية لتضع كل شيء في مكانه!

انتهت اللعبة عندما جعلوني أتعرّق. عرفت أن الحرّاس ليس لديهم الأوامر لضربي، ولكن هذا الحارس يستغل كل فرصة لضربي وإهانتي. لا أعتقد أنه الحارس الأذكى، لكنه تدّرب بشكل جيد على ضرب شخص دون أن يترك عليه إصابات لا تشفى. قال لي أحد الحرّاس:

– الضرب على الفخذ مؤلم ولا يترك آثاراً دائمة، وخاصةً إذا ما عولج بوضع مكعّبات الجليد عليه.

كان ████ عنيفاً وعالي الصوت، ولكنه كسول والحمد لله، يبدأ بالنباح في بداية مناوبته ثم سرعان ما يختفي من المسرح لمشاهدة فيلم أو يذهب لينام.

لم تكن لدى ████ أية مشاعر سيئة فيما يخص عمله بل، بالعكس من ذلك، كان فخوراً بما يقوم به، وكانت لديه قناعة عميقة بأنه يعمل في الجزء الأكثر صعوبةً في السجن، لذا كان دائماً يحدوه الأمل أن يكافأ على ذلك بشكل مناسب.

قال لي ████ ذات مرة:

– اللعنة على المحققين، نحن نعمل وهم يأخذون السمعة والمال.

كما أن علاقته لم تكن جيدة مع ████، الشخص الوحيد الذي كان يعلوه في الرتبة. لقد وصفه ذات مرة بقوله: ████ فَرْج!

لكنّ ████ لم يكن اجتماعياً على أي حال، وكان لا يستطيع أن يدير حديثاً اعتيادياً كالآخرين، ونادراً ما يتكلم، وإذا تكلم يكون حديثه عن تجاربه الجنسية الغريبة. هناك شيء مشترك بين الحرّاس وهو أنّهم لا يفهمون حقيقة أن بعض الناس لا يمارسون الجنس خارج الزواج.

كانوا يرددون عادةً: إنّك مولع بالمتع.

– نعم، ولكن لا أستطيع ممارسة الجنس خارج الزواج. قد تعتبرونني معتوهاً، ولكن تلك هي الحقيقة!

– كيف يمكنك شراء سيارة دون أن تجرّب قيادتها؟

– أولاً، المرأة ليست سيارة. وأنا أفعل ذلك لأن ديني يفرض عليّ ذلك.

حتى إن ████ المحقق ████ صدمني ذات مرة حين قال:

– لن أتزوج بأحد قبل أن أجرّب قيادته أولاً (يبدو أنّ المتحدث هنا أنثى – المترجم).

لكنّي مازلت أصدق أنّ هناك الكثير من الأميركيين لا يؤمنون بالجنس ما قبل الزواج.

████

████ عن نفسه[1]. أخبرني بأنّه كُلِّف بجمع المعلومات عني قبل اختطافي من ████، ودليله على ذلك هو سرده للتفاصيل الدقيقة حول وضعي الخاص. لم يسبق أن لاحظته في المبنى ████ ولم أتوقع ذلك. كان ████ ████ مشاركاً مع ████ في معظم الأوقات، في البداية وفي اللحظات الحاسمة، كان ████ هو المسؤول. وكان لـ ████ قوام جسدي جيد خلافاً لصديقه ████.

كان ████ ينفذ الأوامر باعتدال وحسبما يقتضيه الواجب، وكان يتلقى أوامره من ████ ومن بقية ████، ومرافقه هو الذي

١ يظهر أن هذا الشطب يطال الحارس الرابع الذي يصفه محمدو ولد صلاحي في هذا القسم.

كان يجبرني على شرب الماء الفائض عن حاجتي، ويعطيني الوجبات الجاهزة ويمنعني من الصوم والصلاة، وكان يتعمّد أن يقيم لي "حفلة استحمام". وكان ████ ███ هو الذي اخترع ذلك ████████████████

████████████████████████████

████████ المزعج في كل جزء من ذاك المكان، حيث يجب أن يكون المرحاض والمغسلة جافين دائماً، لذا وصلت إلى درجة استخدمت فيها بذلتي لأنني لم تكن لدي منشفة. ████████████████

████████████████████████████

████ ومع ذلك أستطيع القول وبصدق إنّ ██████ لم يكن يستمتع بمضايقتي أو تعذيبي.

لقد سألته عندما أصبحنا أصدقاء: لماذا كنت تمنعني من الصلاة وكنت تعرف أنّ ذلك لم يكن قراراً قانونياً؟

- منعتك لأنّهم هم الذين أعطوني عملاً قذراً كذاك.

أخبرني أيضاً بأن ██████ أعطاه الأوامر لمنعي من ممارسة أية طقوس دينية. قال ██████: سأذهب إلى جهنم لأنني منعتك من الصلاة.

شعر ██████ بسعادة كبيرة عندما تلقى الأوامر بمعاملتي معاملة حسنة، قال بصدق: حقاً أنني أستمتع هنا معك أكثر مما أكون في البيت.

كان رجلاً كريماً جداً، اعتاد أن يعطيني الفطائر والأفلام وألعاب PS٢، وقبل أن يغادر خيّرني بين لعبتَي Madden ٢٠٠٤ و Nascar ٢٠٠٤، اخترت الأخيرة، مازلت أحتفظ بها. وقبل كل شيء كان ██████ مسلّياً للغاية. كان يميل إلى مطمطة الحقيقة، وكان يخبرني بتفاصيل الأشياء. لقد أعطاني ذات مرة معلومات هائلة، أشياء لم أرغب في معرفتها ولم يكن من المفترض أنْ أعرفها.

كان ██████ لاعباً بارعاً. اعتاد أن يلعب ألعاب الفيديو طوال الوقت. أنا مخيف حينما يتعلق الأمر بألعاب الفيديو، ولكن تلك الألعاب ليست لشخص في عمري. كنت أقول للحرّاس دائماً:

- الأميركيون أطفال كبار. في بلدي ليس مناسباً لشخص في عمري أن يجلس

أمام لوحة المفاتيح ويضيّع وقته في لعب الألعاب.

حقاً إنّ إحدى عقوبات حضارتهم هي أن الأميركيين قد أدمنوا ألعاب الفيديو.

يعبد الأميركيون أجسادهم، فهم يأكلون بشكل جيد. عندما نقلوني إلى قاعدة باغرام الجوية، تساءلت ما الذي يجري، الجنود هنا لا يتوقفون عن المضغ أبداً، دائماً هناك شيء يمضغونه. ومع ذلك، وبالرغم من أنّ الله قد أنعم الأميركيين بكميات هائلة من الطعام الصحي، فهم أكبر المتلفين للطعام. لو عاش كل بلد في العالم مثلما يفعل الأميركيون لعجز كوكبنا عن امتصاص كمية النفاية التي ستنتج عنّا.

كما أنّهم يتدرّبون ويعملون بنجاح. لدي مجموعة كبيرة من الأصدقاء من البيئات المتنوعة، ولكنّي لم أسمع قط من أي مجموعة منهم تتحدث عن خطة للتدريب المستقبلي.

سألت أحد الحرّاس وكان يحمل مجلة للياقة البدنية الرجالية في يده وعلى غلافها رجال بأحجام عملاقة (تعرفون أنّ هؤلاء الرجال يتدرّبون على الدوام حتى تختفي رقابهم، وتصبح رؤوسهم صغيرة للغاية لا تتناسب مع أكتافهم المنفوخة): هل تلك مجلة للشذوذ الجنسي؟ فردّ قائلاً: عن أي لعنة تتكلم؟ هذه مجلة تدريبية.

إنّ الرجال الأميركيين متعصبون حيال الشذوذ الجنسي أكثر من الرجال الألمان، وهم يتدرّبون كما لو أنّهم يستعدون لمعركة.

أخبرني ██████ ذات مرة: عندما أعانق زوجتي تشعر بالأمان.

فأجبته قائلاً: زوجتي دائماً تشعر بالأمان، ولا تحتاج لعناق حتى تهدأ.

كان ██████ كأي شخص آخر. كان يشتري الطعام أكثر مما يحتاج، ويتدرّب حتى أثناء تأدية واجبه، ويخطط لتكبير عضوه الذكري، ويلعب ألعاب الفيديو وألعاب الكمبيوتر، وكان يضطرب جداً حينما يأتي الحديث عن دينه.

قال لي يوماً: " دعني أخبرك يا وسادة، لا أعرف حقاً ولكنني مسيحي ووالداي يحتفلان بعيد الميلاد كل عام" ثم أضاف: "عشيقتي تريد أن تعتنق الإسلام ولكني قلت لها: لا".

- هيا يا ██████ ينبغي أن تسمح لها بالاختيار. ألاّ تؤمنون بحرية الأديان؟

يمتلك ████████ كل المواصفات الإنسانية، أحببتُ الحديث معه لأنّه يمتلك دائماً شيئاً ليقوله. لا بدّ أنّ له تأثيراً على الإناث في الجزيرة. كان يمتعض بشكل خاص من ████████، في الواقع لا أستطيع لومه على ذلك!

يبدي الجميع استياءهم منه[1]. لقد كان كسولاً وبطيئاً في الحركة. كان الجميع يفرّون منه ولا يريدون العمل معه، وكانوا يذكرونه بالسوء طوال الوقت. لم يكن ████████ يمتلك أية مبادرة شخصية نابعة منه، أو شخصيته الخاصة به، اعتاد أن يتصرف كما يتصرف الآخرون من الحرّاس حرفياً. عندما بدأ العمل كان هادئاً، كان يقدّم لي الطعام ويجعلني أشرب الماء كل ساعة وفق ما يقتضيه الواجب، وهذا شيء جيد، ولكنه سرعان ما أدرك أنه يستطيع أن يصرخ عليّ، ويأخذ طعامي من أمامي، وجعلي أفعل أشياء قاسية دون إرادتي. لم يستطع أن يصدّق أنّه مخوّل بهذا القدر من السلطة. كان يتوحّش ويجعلني أقف على قدمي ساعات طويلة أثناء الليل مع أنّه كان يعلم أنني أعاني من مشكلة في عصبي الوركي. أمرني بتنظيف زنزانتي مرّة بعد مرّة، والحمام أيضاً بالصورة نفسها.

"أتمنى أن ترتكب خطأً بسيطاً مهما كان، حتى أضطرم غضباً عليك"، اعتاد أن يقول هذا الكلام بينما ينجز بعض فنون الدفاع الذاتي الزائفة السخيفة التي لا بد أنه تعلّمها لأغراض مهمته. حتى بعد أن أمر ████████ الحرّاس بأن يكونوا لطفاء معي، أصبح هو أسوأ، كان كما لو أنه يحاول تعويض شيء فاته.

- نادِني "يا سيدي"، فهمت؟
- آه، نعم.

وقلت في سري وأنا أفكّر فيه: ماذا يعتبر نفسه هذا الأبله؟

عندما شاهد الحرّاس يلعبون معي الشطرنج أراد هو أيضاً أن يلعب، لكني سرعان ما اكتشفت كم هو ضعيف في الشطرنج. وعلاوةً على هذا كانت له قوانينه الخاصة التي يفرضها دائماً بالقوة، هو بوصفه سيداً وأنا بوصفي معتقلاً. في عالمه الشطرنجي كان الملك ينتمي إلى لونه الخاص، يخترق القاعدة الأساسية في الشطرنج، القاعدة التي تقول إنّ الملك يكون على اللون المعاكس للونه عندما يبدأ اللعب. كنت أعرف

[1] يبدو أنّ هذا المقطع، الذي يبدأ من هنا وحتى فاصل هذا القسم، يشير إلى الحارس الخامس.

أنه مخطئ ولكن لا مجال لجعله يتراجع عن الخطأ، لذا كنت مضطراً للعب نسخته في الشطرنج.

حوالي شهر مارس أعطاني ██████ تلفزيوناً مع جهاز فيديو لأشاهد الأفلام التي سيعطيني إياها. أعطاني ██████ بنفسه فيلم "Gladiator – المجالد" من مجموعته الخاصة. أحببت ذاك الفيلم لأنّه يصف بحيوية كيف تُقهر قوى الشرّ في النهاية مهما بدت قوية. بنصيحة وموافقة ██████ وزميل ██████ أعطاني العديد من الأفلام الممتعة.[١]

في حياتي الواقعية لست شغوفاً جداً بمشاهدة الأفلام، لا أتذكر أنّي شاهدت فيلماً حتى بلغت الثامنة عشرة من عمري. أحب الأفلام الوثائقية والأفلام التي تعتمد على القصص الحقيقية، ولكن لدي مشكلة في التخلي عن عقليتي لأجاري التيار في الوقت الذي أعرف فيه أنّ كل ما يجري في الفيلم غير حقيقي. ولكني في السجن مختلف. أقدّر كل شيء يُظهِر الإنسان بوصفه كائناً مألوفاً يرتدي ملابس عادية ويتحدث عن شيء، إلى جانب الإرهاب والتحقيق. أريد فقط رؤية الجنس الذي أنتمي إليه.

الأميركيون الذين قابلتهم يعشقون الأفلام كثيراً. في أميركا يمكن القول: "قل لي كم فيلماً شاهدت أقُل لك من أنت". ولكن إذا كان لأميركا أن تفخر بشيء فذاك الشيء هو صناعتها في أفلام الرسوم المتحركة.

بالطبع، لم يكن للتلفزيون الذي عندي مستقبِل لأنني كنت ممنوعاً من معرفة أي شيء يحدث خارج زنزانتي، وكل ما كان مسموحاً لي به هو مشاهدة الأفلام التي حازت على موافقة ██████. إنّه ظلم واضح أن تقطع إنساناً عن بقية العالم وتمنعه من معرفة ما يجري في العالم الخارجي، بغضّ النظر إن كان قد تورّط في الأعمال الإرهابية أم لم يتورّط. لاحظت أن جهاز الفيديو يمتلك مستقبِل راديو FM يستطيع استقبال بثّ المحطات المحلية، ولكنّي لم ألمسه قط، فمع أنّه كان من حقي الأساسي الاستماع إلى أي إذاعة كانت، لكني وجدت أن من الأفضل ألاّ أطعن أو

---

١ على الأرجح التاريخ هو شهر مارس عام ٢٠٠٤ – بعد أكثر من سبعة شهور على أخذ محمدو ولد صلاحي إلى الزنزانة المعزولة في كامب إيكو. ربما يشير المقطع إلى "الكابتن كولنز" الذي يبدو من مقاطع أخرى فيما بعد أنّه بقي مسؤولاً عن التحقيق في قضية صلاحي حتى تمّ نقله والمحققة الجديدة إلى العراق في صيف عام ٢٠٠٤.

أخون اليد الممدودة لتقديم المساعدة لي بغضّ النظر عمّا فعل بي ████ ████ في الماضي. وجدت أن تقديمهم لي أداة التسلية هذه هو أمر إيجابي، وأنا لن أستخدمها ضدهم. علاوةً على ذلك أعطاني ████ ██ "لابتوب" وقد استمتعت به أيّما استمتاع. كان السبب الرئيسي في حصولي على "اللابتوب" هو بقصد طباعة الأجوبة التي أدليت بها خلال التحقيقات وذلك لتوفير الوقت والجهد الإنساني ████ على حدٍّ سواء. لم تكن لي أية مشكلة في تلك الفترة، ومع ذلك أردت كتابة كلماتي بيدي وليس تفسيراتهم لما قلته:

– انظر، لقد جلبت بعض الموسيقى العربية، قال ████ وناولني قرصاً مضغوطاً (CD).

– آه جميل.

لكن القرص لم يكن حتى قريباً من العربية، بل كان يحتوي على غناء باللغة البوسنية. ضحكت ملء قلبي.

– قرصك قريب من اللغة العربية بما فيه الكفاية، إنّها موسيقى بوسنية. قلت عندما بدأ القرص يدور.

– أليست العربية والبوسنية هما الشيء نفسه؟ سألني.

هذا ليس سوى مثال واحد فقط عن معرفة الأميركيين الضئيلة بالعرب والإسلام. وكان ████ والمحققون الآخرون دائماً يخاطبونني قائلين: "أنتم الرجال من الشرق الأوسط..." وهذا كلام خاطئ كلياً. إن العالم بالنسبة للعديد من الأميركيين يشمل ثلاثة أمكنة: الولايات المتحدة، وأوروبا، والشرق الأوسط – بقية العالم.

لسوء الحظ أنّ العالم بالمعنى الجغرافي للكلمة هو أكبر بقليل من تلك الخارطة. في عملي في بلدي اضطررت أن أجري بعض الاتصالات الهاتفية مع الولايات المتحدة لغايات مهنية صرفة، وأتذكر الحديث التالي:

– من أين تتصل؟ سألتني السيدة من الطرف الآخر على الهاتف.

– من موريتانيا.

– أية دولة؟

سألتني السيدة وهي تطلب المزيد من المعلومات الدقيقة. لقد تفاجأت سلبياً بعالمها الصغير.

إنّ اضطراب █████ كان واضحاً كوضوح جهله في قضية الإرهاب ككل. كان الرجل مرعوباً بالكامل، كما لو أنّه يغرق ويبحث عن قشة ليتمسك بها. وأظن أنّني كنت قشة من القشات التي صادفها في دَرْسه بحثاً عن الحنطة، فتشبّث بي بإحكام.

صرخ ذات مرة طالباً رأيي في الموضوع:

- لا أعرف لماذا يكرهنا الناس، مع أنّنا نساعد الجميع في العالم!

- وأنا لا أعرف أيضاً، أجبته.

أدركت أن من العبث الخوض في الأسباب التاريخية والموضوعية حتى أنوّر عقله ونصل إلى النقطة مدار النقاش، لذا فضّلت أن أتجاهل ما قاله، ناهيك عن صعوبة تغيير رأي إنسان في عمره.

ينضم الكثير من الشبان والشابات إلى قوات الولايات المتحدة تحت الدعاية المضلّلة لحكومتها التي تجعل من الناس أن يتصوروا القوات المسلحة على أنّها قوى معركة الشرف الكبيرة. إذا انضممت إلى الجيش فأنت شهيد حيّ، إنّك لا تدافع عن أسرتك ووطنك والديمقراطية الأميركية فحسب بل وعن الحرية والشعوب المضطهدة في كل أصقاع العالم أيضاً.

شيء عظيم، لا مشكلة حتى الآن، وقد يكون ذلك حلم كل رجل وامرأة. ولكن حقيقة قوات الولايات المتحدة أنّها مختلفة قليلاً. لنذهب مباشرةً إلى السطر الأخير من الموضوع. يفكّر بقية العالم بالأميركيين على أنّهم حفنة من البرابرة المنتقمين. قد يكون ذلك حكماً قاسياً، ولا أعتقد أنّ الأميركي العادي بربري انتقامي. ولكن حكومة الولايات المتحدة تراهن بقرشها الأخير على العنف كحلٍّ سحري لجميع المشاكل، وهكذا يخسر هذا البلد أصدقاءه كل يوم، ولا يبدو أنّه يعيد النظر في ذلك.

قلت ذات مرة لـ █████[1]: اسمع يا █████، الكل

---

١ من هنا وإلى عدة مقاطع أخرى يظهر أنّ محمدو ولد صلاحي يستعيد إلى الذاكرة حديثاً أو أحاديث سابقة مع أحد محققيه.

يكرهونكم، حتى أصدقاؤكم التقليديون. الألمان يكرهونكم، والفرنسيون كذلك.

فأجابني: أفعل بهم جميعاً. من الأفضل أن نجعلهم يكرهوننا. سنهزمهم بسهولة.

اكتفيت بابتسامة على السهولة التي يمكن العثور بها على حلّ، وقلت:

– تلك طريقة واحدة للنظر إلى الموضوع.

– اللعنة على الإرهابيين.

– حسناً ولكن يجب أن تجدوا الإرهابيين أولاً. لا يمكنك أن تنطلق مستوحشاً وتعاقب الكلّ باسم الإرهاب.

لديه اعتقاد راسخ بأنّ كلّ عربي إرهابي حتى يثبت العكس.

– نحتاج إلى مساعدتك كي نسجن ████ بقية حياته.

– لقد قدّمت معلومات كافية لإدانته.

– لكنه يظلّ ينكر. وكالات أخرى تتعامل معه، ولديها قوانينها المختلفة عن قوانيننا. أتمنى لو وصلتْ يدي إليه، لكانت الأمور مختلفة عندئذٍ!

كان بودّي أن أقول له: آمل ألا يقع أحد في يديك.

فقال: ولكن ما يقوله هو أنه قام بالعملية بمفرده، ذلك هو الموضوع.

– آه، ذلك مقنع! قلت بغضب. فيما بعد بدأ ████، مستخدماً العبارات نفسها كما ████. اعتاد أن يقول لي:

– كل ما تستطيع قوله هو "لا أعرف"، "لا أتذكر". ذلك مقنع للغاية! تعتقد بأنّك ستؤثر على القضاة الأميركيين بشخصيتك الكاريزمية؟

كان يجب أن يقتبس كلام الرئيس الأميركي الذي قال: "لن نرسلكم إلى المحكمة ونسمح لكم باستخدام نظامنا القضائي العادل طالما أنّكم تخططون لتدميره".

– هل ذلك جزء من المؤامرة الكبرى؟ تساءلت بغضب.

– القاعدة تستخدم نظامنا الليبرالي العادل، أضاف.

لا أعرف عن أي نظام ليبرالي عادل يتكلم. لقد ضربت الولايات المتحدة رقماً قياسياً عالمياً في عدد الأشخاص المسجونين لديها.

إنّ عدد السجناء يصل إلى مليوني شخص، أكثر من عدد السجناء في أي بلد آخر،

وبرامجها التأهيلية فاشلة بالكامل. الولايات المتحدة بلد "ديمقراطي" بأقسى نظام عقابي وحشي.

في الحقيقة، إنّها مثال جيد على فشل العقاب الوحشي لوقف الجرائم. إنّ أوربا أكثر عدلاً وإنسانيةً من الولايات المتحدة، وبرامج إعادة التأهيل في سجونها تسفر عن نتيجة، لذا فإنّ نسبة الجريمة في أوربا أخفض بكثير عمّا هي عليه في أميركا. ولكن المثل الأميركي يقول: "When the going gets rough, the rough get going" (على قدر أهل العزم تأتي العزائم).

إنّ العنف يولِّد طبيعياً العنف، والقرض الوحيد الذي يمكنك إقراضه مع ضمان تسديده هو العنف. قد يستغرق بعض الوقت، ولكنك ستسترد قرضك في نهاية المطاف.

عندما تحسنت الأمور طلبتُ من ████████████████ نقلي إلى مكان آخر لأني أردت أن أنسى الذكريات السيئة التي عشتها حيث أنا الآن. حاول ████████████████ تلبية طلبي، ووعدني بنقلي مرات عديدة، ولكنه فشل في الوفاء بوعوده. لا أشكّ بجديّته، ولكني كنت أعرف أنّ هناك نوعاً من صراع القوى على الجزيرة الصغيرة "غوانتانامو". كان الجميع يتصارعون على مَنْ سيفوز بالحصة الكبرى من الشطيرة، وبمصداقية العمل في ████████████████. لقد وعدني بصدق بالكثير من الأمور الأخرى ولكنه لم يفِ بهذه الوعود أيضاً.

المذهل في ████████ هو أنّه لم يأتِ على ذكر قصة تعذيبي بالمطلق. كنت دائماً أتوقّع أن يفتح هذا الموضوع، لكن لم يحصل شيء من هذا القبيل. محظور! شخصياً كنت أخشى فتح الموضوع والتحدّث عنه، لم أشعر بالأمان بما فيه الكفاية. وحتى لو أقدم هو على ذلك لتفاديت النقاش فيه.

ولكنه أخبرني أخيراً أين أنا.

قال لي: يجب أن أخبرك، على عكس ما يريده العديد من أعضاء فريقنا، بأنّك في غوانتانامو. لقد كنتَ صادقاً معنا ونحن مدينون لك بالشيء ذاته.

بالرّغم من أنّ لا أحد في العالم كان لديه أدنى فكرة عن المكان الذي تسجنني حكومة الولايات المتحدة، عرفت أنا في اليوم الأول، بفضل الله وبفضل خراقة أحد

█████. ولكني تصرّفت كما لو أنّه يقول لي معلومة جديدة، وفرحتُ بالخبر لأنّه يعني الكثير لي عندما يخبرونني أين أنا. في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور مازلتُ أقيم في تلك الزنزانة نفسها، ولكن على الأقل لست مضطراً للتصرف كمن يجهل أين هو الآن، وهذا أمر جيد.

لقد سمح لي جيش الولايات المتحدة █████ █████ بتلقي الرسالة الأولى من أسرتي[1]. لقد أرسلوها عن طريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر. كانت أسرتي قد كتبتها قبل أشهر، وبالضبط في يوليو ٢٠٠٣. كان قد أصبح لي ٨١٥ يوماً منذ أن اختطفت من بيتي، فانقطعتُ بالقوة، منذ ذلك الحين، عن كافة أنواع الاتصال مع أسرتي. أرسلتُ رسائل عديدة إلى أسرتي منذ أن وصلتُ إلى كوبا، ولكن بدون فائدة. في الأردن كنت محروماً حتى من إرسال رسالة.

كان █████ هو الذي سلّمني الورقة التاريخية التي وردت فيها:

نواكشوط، █████.

بسم الله الرحمن الرحيم

من والدتك █████.

بعد تحياتي أخبرك بأنّ صحتي جيدة وكذلك صحة بقية أفراد عائلتك. نأمل أن تكون صحتك بخير أيضاً. وضعي الصحي لا بأس به. مازلتُ ملتزمة بمواعيدي مع الأطباء، وأشعر أنّني أتحسّن. الأسرة بخير، والجميع يهدونك السلام.

ابني الحبيب! حتى الآن تلقينا ثلاث رسائل منك، وهذه هي رسالتنا الجوابية الثانية. الجيران بخير ويهدونك سلاماتهم. مع الختام أجدّد تحياتي. رافقتك السلامة.

والدتك █████.

---

[1] أشار محمدو ولد صلاحي في مخطوطته قبل الآن بأنّه تلقّى الرّسالة الأولى من أسرته في ١٤ فبراير ٢٠٠٤.

لم أستطع أن أصدّق بعد كل المعاناة التي عشتها أن أتلقّى رسالة من أمّي. شممت رائحة الرسالة التي لمستها أمّي وبقية أفراد أسرتي الأحباء. لقد اختلطت العواطف في قلبي. لم أعرف ماذا أفعل، أأضحك أم أبكي! انتهى بي الأمر إلى الاثنين.

قرأت الرسالة القصيرة مراراً وتكراراً. عرفت أنّها رسالة حقيقية وليست كتلك الزائفة التي تلقيتها قبل عام. ولكني لم أستطع الرّد على الرسالة لأنّي مازلتُ ممنوعاً من رؤية اللجنة الدولية للصليب الأحمر.

في ذلك الوقت كنت أحصل على الكتب الإنكليزية التي استمتعت بمطالعتها، معظمها كانت من الأدب الغربي. مازلت أتذكر كتاباً كان بعنوان *The Catcher in the Rye* – **الحارس في حقل الشوفان**[1] الذي جعلني أضحك حتى شعرت بالوجع في معدتي. كان كتاباً مضحكاً. حاولت أن أضحك بصوت منخفض قدر الاستطاعة، ولكن الحرّاس شعروا بشيء ما.

– هل تبكي؟ سألني أحد الحرّاس.

– كلا، أنا بخير.

كانت تلك ضحكتي الطبيعية الأولى في محيطٍ من الدموع. وبما أنّ المحققين ليسوا فكاهيين محترفين، فقد كانت الفكاهة التي يثيرونها في معظمها من نكات باهتة لم تجعلني أضحك، ولكنّي كنت أتظاهر بابتسامة مصطنعة. ■■■■■■■■

■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■■

■■■■■■■■■■■■■■■■ جاء صباح يوم الأحد وانتظر خارج المبنى. ظهر ■■■■■■ أمام زنزانتي ■■■■■■■■■■■■■■■■ ■■■■■■. ولم أتعرّف عليه، اعتقدت أنّه محقق جديد بالطبع[2].

ولكن عندما نطق عرفته من صوته.

– هل أنت ■■■■■■■■■■■■■■■■■■؟

– لا تخف. محققك ينتظرك في الخارج.

---

١ **الحارس في حقل الشوفان** هي رواية للكاتب الأميركي جيروم ديفيد سالينجر صدرت عام ١٩٥١. كانت الرواية في الأصل موجهة للقراء البالغين، لكنها أصبحت ذات شعبية كبيرة بين القراء المُراهقين بسبب محاورها الرئيسية مثل اليأس والعزلة خلال مرحلة المراهقة. – المترجم.

٢ يمكن أن يكون هذا أحد حرّاس محمدو ولد صلاحي، يظهر بدون قناع للمرة الأولى.

كنت خائفاً ومرتبكاً في آن، إنّه لأمر كبير لي. قادني ■■■■■■■ إلى خارج المبنى. شاهدت ■■■■■■ يشيح بنظره عني والخجل على وجهه. إذا ما تعاملت مع شخص لفترة طويلة من وراء قناع للوجه، فكيف لك أن تعرف أنّه ■■■■■. ولكن إذا ما خلع ■■■■■■ القناع عن وجهه فسترى ملامحه وستكون القصة مختلفة للطرفين على حدٍّ سواء. عرفت أنّ الحرّاس لا يريحهم الكشف عن وجوههم لي.

قال لي ■■■■■■■■■■■■■■ بفظاظة: إن نظرت إليّ سأؤذيك.

- لا تقلق، لست قاتلاً نفسي على رؤية وجهك.

لقد استطعت عبر الأيام أن أكوّن مفهوماً عن شخصية كل واحد منهم، ولكن شتان ما بين الخيال والواقع.

جلب ■■■■■■ طاولة صغيرة عليها وجبة فطور متواضعة. كنت خائفاً جداً، أولاً لأن ■■■■■■ لم يسبق أن أخرجني من المبنى، وثانياً، لم أكن معتاداً على وجوه حرّاسي "الجديدة". حاولت أن أتصرف بشكل اعتيادي ولكن ارتعاشي فضح أمري، فسألني ■■■■■■:

- ما مشكلتك؟

- أنا متوتر جداً. لم أعتد هذا الجو.

- ولكني أقدمت على هذه الخطوة لأجل راحتك، قال ■■■■■■.

كانت ■■■■■■ شخصاً رسمياً للغاية. إذا ما حققت ■■■■■■ معك فإنها تقوم بعملها بصورة رسمية، وعندما تأكل معك فإنها تفعل ذلك كجزء من عملها، وذلك أمر جيد[١]. كنت أنتظر الانتهاء من الفطور حتى أعود إلى زنزانتي، لأنّ ■■■■■■ جلب لي فيلم "الملك هنري الخامس - شكسبير".

سألت: ■■■■■■، هل يمكنني مشاهدة الفيلم أكثر من مرة؟ أخشى ألاّ أفهمه مباشرة.

- نعم، تستطيع مشاهدته قدر ما ترغب من مرات.

١ "She - هي" تظهر هنا غير مشطوبة، ربما تكون هذه هي المحققة التي قُدّمت في بداية هذا الفصل.

عندما جلب ████ التلفزيون أخبر ████ الحرّاس أن يسمحوا لي بمشاهدة فيلم مرة واحدة فقط، وعندئذ تنتهي الحفلة.

أخبرني ████ فيما بعد: يُسمح لك أن تشاهد فيلمك مرة واحدة فقط، ولكن بقدر ما يتعلق الأمر بنا تستطيع أن تشاهد الفيلم مرات عديدة طالما أنّك لا تخبر محققك بذلك. لا يهمنا الأمر.

أخبرته: كلا، إذا كان ████ قد قال ذلك فسألتزم به. لن أخدعه.

في الواقع لم أرغب في التفريط في عنصر راحة تلقيته للتو، لذا اخترت كل شيء بعناية، ولكني سألت عن شيء ما فقط:

- ████ هل أستطيع الاحتفاظ بعبوة الماء في زنزانتي وأشرب كلما أردت؟

كنت متعباً من قلة النوم، وما أن أغمضت عينَي حتى فُتح الباب المعدني الثقيل، واضطررت أن أشرب عبوةً أخرى من الماء. عرفت أنّ ████ ليس الشخص المناسب لأطلب منه شيئاً وتكون المبادرة بيده. كان ████ يتقيّد بأوامر ████ حرفياً. ولكن ████ فاجأني في اليوم التالي، فقد جاء وأخبر الحرّاس بأنّ عبوة الماء أصبحت جزءاً من مكونات زنزانتي. لا يمكنكم تقدير مدى سعادتي، لقد أصبحت قادراً الآن على شرب الماء في الوقت الذي أريد وبالكمية التي أرغب. إنّ الذين لم يعيشوا موقفاً كهذا من قبل لا يستطيعون تقدير حرية شرب الماء في الوقت الذي يريدون، وبالكمية التي يرغبون شربها.

بعد ذلك، في يوليو عام ٢٠٠٤، وجدت نسخة من القرآن الكريم في صندوق ملابسي الداخلية. عندما وجدت القرآن تحت الملابس شعرت بالأسى، وفكرت بأنني اضطررت لسرقته من أجل الحفاظ عليه. ولكني أخذت القرآن إلى زنزانتي ولم يسألني أحد عمّا فعلت. وأنا آتي على سيرته، لقد مُنعتُ من كل الطقوس الدينية، لذا اعتقدت أنّ نسخة من القرآن في زنزانتي لن تسعد محققي كثيراً. فضلاً عن أن مسألة الدين فيما بعد صارت مسألة حساسة للغاية. لقد اعتقل قسيس الجيش في غوانتانامو ومعه جندي مسلم، واتُّهما بالخيانة. نعم بالخيانة.[1] بعد ذلك تمّ حظر العديد من الكتب

[1] اعتُقل ثلاثة أشخاص من العاملين في غوانتانامو، كانوا يدرّبون المسلحين، وذلك في شهر سبتمبر =

الدينية باللغة العربية، كما تم حظر كتب تعليم اللغة الإنكليزية. لقد فهمت نوعاً ما مبرر حظر الكتب الدينية، ولكني سألت:

- لماذا كتب تعليم الإنكليزية؟

- لأن المعتقلين يلتقطون اللغة بسرعة ويفهمون ما يقوله الحرّاس.

- هذا أمر شيوعي صرف، ████████.

إلى هذا التاريخ لم أحصل على أية كتب إسلامية، مع أنني كنت أطلبها. وكل ما استطعت الحصول عليه من الكتب كانت الروايات وكتب الحيوانات.

سمحوا لي بالصلوات ████████████████. كنت أقيس التسامح تجاه ممارسة ديني، وبين الفينة والأخرى كنت أضع تسامح ██████ ██ تحت الاختبار، وكانوا يمنعونني من أداء الصلاة.

لذا كنت أصلّي سرّاً. ولكن في نهاية شهر يوليو عام ٢٠٠٤ أدّيتُ صلاتي تحت مراقبة حرّاس جدد ولم يعلّق أحد. لقد انبثق عهد جديد في سجني.

لقد سلّم ██████████████ قيادة الفريق إلى ████ ██████████████████، لا أعرف اسمه الحقيقي. حاول العديد من الناس في ████ ████████████ أن يجعلوني أفكر بأنّ ██████ ████████ مازال مسؤولاً كي يبقوا على عامل الخوف. في الواقع، كان ████ ████ قد أُرسِل إلى العراق ████████████████████، عاد ████ من هناك مرة في ██████████████████،

= عام ٢٠٠٣، واتُّهموا بنقل معلومات مصنّفة بأنها "سرية" إلى خارج السجن. ربما يشير محمدو ولد صلاحي هنا إلى قسيس الجيش الكابتن جيمس يي الذي اتُّهم بخمس جرائم من ضمنها التحريض على العصيان والتجسس، والطيار المتقدم في الخدمة أحمد الحلبي، مترجم اللغة العربية، الذي اتُّهم باثنتين وثلاثين فقرة اتهامية تتراوح بين التجسس ومساعدة العدو إلى توزيع الطعام غير المسموح به بما فيه اتحلية على المعتقلين. أسقطت عنه تهمة التجسس والتحريض على العصيان. أما "يي" فقد أسقطت عنه أخيراً كل التهم وتلقّى براءة مشرّفة. أما الحلبي فقد أدين بأربع تهم من ضمنها تهمة الكذب على المحققين وعدم إطاعة الأوامر، وقد أعفي عن العمل بسبب "سلوكه السيئ". انظر الرابط:

http://usatoday30.usatoday.com/news/nation/2004-05-16-yee-cover_x.htm; and http://usatoday30.usatoday.com/news/washington/2004-09-23-gitmo-airman_x.htm.

وقام بزيارتي، وأكدّ أثناء زيارته أنّه لا يزال المسؤول.[١]

قال: كما ترى، لدي الكثير من العمل في مقاطعة كولومبيا وفيما وراء البحار. قد لا تراني كما كان في السابق، ولكنك تعرف ما الذي يسعدني، وما الذي يفقدني صوابي.

- بالتأكيد أعرف.

تحدّث ██████ عن بعض الاختلافات مع الفريق الجديد في صالحي وأعطاني قبعة تمويه صحراوي كهدية تذكارية. مازلت أحتفظ بتلك القبعة. لم ألتقِ به بعد تلك الجلسة. وأخيراً، في سبتمبر عام ٢٠٠٤، سُمح للجنة الدولية للصليب الأحمر بزيارتي بعد معركة طويلة مع الحكومة الأميركية. كان اختفائي المفاجئ عن المعسكر أمراً غريباً للجنة، فقد ابتلعتني الأرض وباءت كل محاولات ممثلي اللجنة الدولية للصليب الأحمر لمعرفة أين أكون بالفشل.

كانت المنظمة المذكورة قلقة جداً على وضعي، ولكنهم استطاعوا أخيراً الوصول إلي في الوقت الذي احتجتهم أكثر من أي وقت آخر. لا يمكنني لومهم، لقد حاولوا بالتأكيد. في غوانتانامو ██████ هو المسؤول الكلي عن سعادة المعتقلين وعن عذابهم على حدٍّ سواء، وبذلك يبقى المعتقلون تحت السيطرة الكاملة. لقد رفض ██████ وزميله ██████ بشكل مطلق إعطاء المنظمة فرصة للوصول إليّ. ولم تتمكن اللجنة الدولية للصليب الأحمر من زيارتي إلاّ بعد مغادرة ██████.

قال ██████: أنت المعتقل الأخير الذي اضطررنا لخوض معركة حتى نصل إليه. استطعنا أن نقابل كل المعتقلين الآخرين.

حاول ██████████████ أن يجعلني أتحدث عمّا حدث لي خلال الفترة التي عجزوا فيها عن الوصول إليّ. "لدينا فكرة لأننا سألنا المعتقلين الآخرين الذين تعرضوا لسوء المعاملة، ولكننا نريد أن نسمع منك حتى نتمكن من إيقاف حالات أخرى من سوء المعاملة". ولكني أنكرت المعاملة السيئة عندما سألتني اللجنة الدولية للصليب الأحمر خوفاً من الانتقام.

---

١ ربما يشير إلى مسؤول فريق المشاريع الخاصة "الكابتن كولنز". غادر الجنرال ميللر غوانتانامو في أبريل ٢٠٠٤ ليتولى قيادة عمليات "التحقيق والسجن" في العراق، ويبدو من هذا المقطع أن مسؤول فريق المشاريع الخاصة لمحمدو ولد صلاحي قد كُلف بمهمة أخرى في العراق.

هذا بالإضافة إلى أنّ اللجنة الدولية لا تمتلك أي نوع من الضغط الحقيقي على حكومة الولايات المتحدة. لقد سعت اللجنة الدولية ولكن حكومة الولايات المتحدة لم تغيّر مسارها قيد شعرة. عندما يسمحون لمنظمة الصليب الأحمر بلقاء معتقلٍ، ذلك يعني أنّ العملية ضد ذاك المعتقل قد انتهت.

– لا نستطيع أن نتصرف إنْ لم تخبرنا بما حدث لك. كانوا يحرّضونني على الكلام.

– أنا آسف! يهمني فقط إرسال وتلقي الرسائل، وسأكون شاكراً لكم إنْ استطعتم إسداء هذه الخدمة لي.

جلب ███████ مسؤولاً رفيع المستوى للجنة الدولية للصليب الأحمر ███████ من سويسرا، وكان يعمل على قضيتي، حاول ███████ أن يجعلني أتكلم ولكن دون فائدة.

– نفهم مخاوفك. ما يقلقنا هو وضعك، ونحن نحترم قرارك.

بالرّغم من أنّ من المفترض أن تكون الجلسات مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر خاصة، إلا أنه تم استجوابي بخصوص حديثي في الجلسة الأولى معهم، وقد أخبرتهم بصدق بما دار من حديث بيننا. فيما بعد أخبرت الصليب الأحمر عن هذه الممارسة، بعدها لم يسألني أحد عمّا حدث في جلساتنا.

نحن المعتقلون نعرف أنّ اللقاء مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر مراقب، وحتى أنّ بعض المعتقلين تم مواجهتهم بأقوالهم التي أدلوا بها للصليب الأحمر، ولا توجد طريقة لـ ███████ كي يعرف تلك الأقوال إلاّ عن طريق المراقبة. رفض العديد من السجناء التحدث إلى الصليب الأحمر ظناً منهم أنّهم محققون تنكروا بارتداء ملابس عاملي الصليب الأحمر. وأنا أعرف محققين قدّموا أنفسهم كصحفيين خاصين. ولكن بالنسبة لي، كانت هذه طريقة ساذجة. إذا أخطأ المعتقل بين المحقق والصحفي فلا بدّ أن يكون ذاك المعتقل معتوهاً. هناك طرق أخرى أفضل لجعل المعتوه يتحدث. إن ممارسات مؤذية كتلك هي التي أدّت إلى التوتر بين المعتقلين واللجنة الدولية للصليب الأحمر، حتى أنّ بعض العاملين في الصليب الأحمر تلقوا الشتائم والبصاق.

في تلك الفترة تقريباً طلب مني أن أتحدث إلى صحفي حقيقي. ██████ ██ كانت فترة عصيبة على الجميع، كان شخصاً عنيفاً للغاية، لقد ألحق المزيد من الضرر بصورة الحكومة الأميركية المتضررة أصلاً.[١] يوجد الآن العديد من الناس في الحكومة يحاولون تلميع سمعتها التي كسبتها من وراء ما تقوم به من أذى تجاه المعتقلين.

– تعرف أنّ الكثير من الناس يكذبون حول هذا المكان ويدّعون أنّ المعتقلين يُعذّبون. نريدك أن تتحدث إلى صحفي معتدل من صحيفة *The Wall Street Journal* كي تفنّد في مقابلتك الآراء التي نشكك فيها.

– حسناً، عُذِّبت، وسأقول الحقيقة للصحفي، الحقيقة العارية بدون مبالغة أو تخسيس. أنا لا ألمّع سمعة أحد.

بعد ذلك ألغيت المقابلة نهائياً، وهذا كان جيداً لأنني لم أكن أرغب في التحدث إلى أي شخص بأي حال.

تعرّفت تدريجياً على الرئيس "السرّي" الجديد. لا أعرف لماذا أبقاه الفريق سرياً عني وحاول أن يجعلني أصدق بأن ██████ لا يزال هو المسؤول، على الأغلب اعتقدوا أنني سأكون أقل تعاوناً مع شخص آخر غير ██████ يستلم الأمور، ولكنهم كانوا مخطئين. فقد كنت مهتماً أكثر من أي شخص آخر بوضع قضيتي في دائرة الضوء من قبل دوائر المخابرات. كان ██████ قد استُشير ليعمل على قضيتي من وراء الستار، وقد قام به لفترة معينة، وجاء بعد ذلك وقدّم نفسه. لا أعرف اسمه الحقيقي، ولكنه قدّم نفسه بوصفه ██████████████

██████████████████████████████████

██████████████ متواضع إلى حدّ ما. لقد حاول في إطار سلطته أن يجعل حياتي في السجن أسهل ما يكون.

طلبت منه أن يضع حداً لعزلي ويسمح لي برؤية السجناء الآخرين، وقد نظّم عدة لقاءات ناجحة بيني وبين ██████████████، بصورة أساسية لتناول الطعام ولعب الشطرنج معاً. ██████ لم يكن خياري الأول،

[١] من المحتمل أنّه يشير إلى عهد الجنرال ميللر، العهد الذي شمل "تحقيقه الخاص".

ولكن ليس أنا من يحدّد من يمكنني مقابلته. على أية حال كنت في توق للقاء بعض المعتقلين الآخرين الذين أعرفهم.

في أوائل الصيف ████ نقلوا ████ إلى الحجيرة المجاورة لي، وسُمح لنا برؤية بعضنا بعضاً أثناء الاستحمام.[1] ████ هو في الجانب الأقدم، حوالي ████ سنة.

يبدو أن ████ لم يجتز صدمة السجن بسلامة عقلية. كان يعاني جنون الارتياب وفقدان الذاكرة ومشاكل عقلية أخرى. ادّعى بعض المحققين أنّه يحاول التلاعب بهم، ولكن بالنسبة لي كان الرجل قد فقد عقله كلياً. حقاً لم أعرف ماذا أصدق، لذا لم أهتم كثيراً. كنت أموت شوقاً إلى رفقة، وكان حظي هو رفقة إنسان يعاني من اضطرابات عقلية.

ثمة عائق أمام المعتقلين يمنعهم من الاجتماع مع بعضهم البعض، حتى لو كانوا من معسكر واحد، يتمثل في عدم ثقة المعتقلين ببعضهم بعضاً. ولكني كنت مرتاح البال من تلك النقطة إذ ليس لدي ما أخفيه.

- هل طلبوا منك جمع معلومات مني؟ سألني هو ذات مرة. لم يصدمني سؤاله لأنني كنت أفكر به بالطريقة ذاتها.

- اطمئن يا ████، افترض حقاً أنني هنا لأتجسس عليك. إذا كنت تشك بذلك، بإمكانك عدم التحدث عن أي شيء ما لم يكن محل ارتياحك.

---

1 نقلت التقارير الصحفية أنّ المعتقل الذي أصبح جاراً لمحمدو ولد صلاحي كان طارق الصوّاح. أشار مقال في واشنطن بوست عام ٢٠١٠ أنّ محمدو ولد صلاحي والصوّاح شغلا "عقدة صغيرة مسيّجة في السجن العسكري، حيث يعيشان حياة جيدة نسبياً - يقومون بأعمال البستنة والكتابة والرسم". وفي مقابلة مع Slate وصف الكولونيل موريس ديفيس، المدّعي العام الرئيسي للمهام العسكرية في غوانتانامو في عام ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، اللقاءات مع كل من صلاحي وصوّاح في صيف ٢٠٠٦ بقوله: "هما في بيئة فريدة. هما في المحيط الخارجي للسجن حيث يوجد سياج كبير حول المبنى، وهما داخل ما يسميانه بـ"السلك" والذي هو عبارة عن طبقة أخرى داخله، لذا ثمة جهد إنساني مكثّف للتعامل مع الرجلين". قال هو: "أوحى ديفيس في تلك المقابلة بأن الترتيب القائم بقي كما هو دون تغيير". انظر الرابط:
http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2010/24/03/AR2010032403135 pf.html; and http://www.slate.com/articles/news_and_politics/foreigners/2013/04/mohamedou_ould_slahi_s_guant_namo_memoirs_an interview_with_colonel_morris.html.

- أليست لديك أسرار؟

- كلا، لا أسرار لدي، وأسمح لك أن تقدّم أي شيء قد تعرفه عني.

أتذكر اليوم الأول من شهر أغسطس عندما أطلّت ██████ بدلال عبر الباب وحيّتني بابتسامة:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام! تتكلمين العربية؟[١]

- لا، لا أتكلم العربية.

يبدو أن ██████ استخدمت كل ما لديها من اللغة العربية بهاتين الكلمتين، أعني التحية "السلام عليكم". لقد بدأنا أنا و ██████ نتحدث كما لو أننا نعرف بعضنا البعض منذ سنوات. درستْ ██████ علم الأحياء والتحقتْ مؤخراً بـ ██████ كمجنّدة لتدفع رسوم كليتها على الأغلب. الكثير من الأميركيين يفعلون ذلك لأنّ التعليم في الكليات الأميركية مكلف جداً.

- سأساعدك في البدء بزراعة بستانك، قالت ██████.

كنت قد طلبت من المحققين منذ فترة طويلة أن يجلبوا لي بعض البذور لأجرّبها، وقد أنجح في زراعة شيء في تربة غوانتانامو العدوانية هذه. ثم أضافت ██████ ██████:

- لدي خبرة في البستنة.

يبدو حقاً أنّ لدى ██████ خبرة في هذا الميدان، فقد ساعدتني ██████ ██████ في زراعة عبّاد الشمس والحبق والميرمية والبقدونس والكزبرة وأشياء أخرى من هذا القبيل. ولكن بقدر ما كانت ██████ متعاونة، كنت بالمقدار نفسه أبذل قصارى جهدي في التجربة التي جعلتني ██████ أقوم بها.

- لدي مشكلة مع الجداجد الذي تتلف بستاني، قلت لها متذمراً.

- ضع بعض الصابون في الماء ثم رشّ الماء بشكل خفيف على النباتات يومياً، اقترحت ██████.

---

١ يظهر الضمير (her - ـها) غير مشطوب هنا. يبدو أنّ هذا القسم يقدّم ويركّز على محققة قيادية. انظر الهامش في الصفحة ٣٦٢، الذي يستشهد بسجّلات تشير إلى أنّ محمدو ولد صلاحي التقى محققة في أواخر ٢٠٠٤.

لقد اتّبعت نصيحتها بشكل أعمى، ولكني لاحظت أنّ نباتاتي تنمو كما لو أنّها عليلة تعاني من مرض ما، لذا قررت أنّ أرشّ الماء على نصف النباتات بماء الصابون غير المكثّف، ورحت أراقب النتائج. لم يمضِ الكثير من الوقت حتى اكتشفت أنّ الصابون هو المسؤول عن النتائج السيئة، فأوقفت الصابون كلياً.

بعد ذلك بقيت أقول لـ █████: أعرفُ ماذا درستِ. درستِ كيف تقتلين النباتات بماء الصابون!

- اخرس. أنت لم تقم بذلك بشكل صحيح.

- أياً يكن.

عرفني █████ على █████، ومنذ ذلك الحين وضع ███ █████ يده على قضيتي بشكل كامل. ولسبب ما اعتقد █████ أنني لا أحترم █████. وكان يشك أن يكون █████ الخيار الصحيح. ولكن لم يكن لديهم داعٍ للقلق. عاملتني █████ كما لو كنت أخاً لها وهي أخت لي. ولكن قد يقول البعض إنّ هدف جميع المحققين هو الإيقاع بالمعتقلين ليقدّموا لهم المعلومات، وبالتالي يمكن أن يكونوا ودودين واجتماعيين وإنسانيين وكرماء وحساسين، ومع كل هذا يبقون أشرار وغير صادقين في كل شيء. أقصد أنّ هناك سبباً وجيهاً يجعلك تشكّ باستقامة المحققين وكمالهم وخاصةً من زاوية عملهم. إنّ الهدف النهائي لأيّ محقق هو الحصول على المعلومات من هدفه - المعتقل، والأكثر قرفاً هو الأفضل! ولكن المحقق إنسان أولاً وأخيراً، لديه مشاعر وعواطف.

إنني على ذمّة التحقيق منذ يناير عام ٢٠٠٠، يتم التحقيق معي دون انقطاع، وقد مرّ عليّ الكثير من المحققين على خلاف أنواعهم، وهناك محقّق جيّد وآخر سيئ وهناك أيضاً محقّق يتوسطهما. ولكنّ الأمور في خليج غوانتانامو مختلفة. في غوانتانامو تكلّف الحكومة الأميركية فريقاً من المحققين يتواصلون معك بشكل يومي لبعض الوقت، بعد ذلك يذهب هذا الفريق ليحلّ محلّه فريق آخر بعمل روتيني لا ينتهي. لذا فإنّك مضطر للعيش مع محقّقيك شئتَ أم أبيت، وتحاول أن تكون حياتك أفضل ما تكون. فضلاً عن أنني أتعامل مع كل شخص وفق ما يظهر لي من شخصيته وليس ما

يخفيه. انطلاقاً من هذا الشعار أتقرّب من الجميع بما فيهم محققيّ.

بما أنني لم أتلقَّ تعليماً رسمياً في اللغة الإنكليزية، كنت ومازلت أحتاج الكثير من المساعدة لشحذ مهاراتي اللغوية. وقد عمل ███ باجتهاد على ذلك، وعلى نحو خاص لفظي وتهجئتي. اللغة الإنكليزية لغة مخيفة من ناحية التهجئة. لا أعرف أية لغة أخرى تُكتب الكلمة فيها colnel وتُلفظ kernel. حتى الذين الإنكليزية لغتهم الأم يعانون من مشكلة كبيرة في تعارض الأصوات مع مجموعات الأحرف المطابقة. وعلى رأس هذه المشكلة تأتي مشكلة حروف الجر في الإنكليزية، حيث لا معنى لها، ينبغي أن تحفظها عن ظهر قلب.

أتذكر أنني بقيت أقول: "I am afraid from" فينطّ ███ ويصحّح لي: "I am afraid of" لا شك أنني كنت أجنّن ███ بهذه الأخطاء. مشكلتي هي أنني أتعلم اللغة من الناس غير المناسبين، أعني جنود القوات الأميركية الذين يتكلمون دون مراعاة للقواعد. لذا كنت بحاجة لشخص يبتعد عن اللغة الخاطئة ويستبدلها بلغة صحيحة. قد يكون بوسعك أن تعلّم كلباً عجوزاً خدعاً جديدة. ذلك ما كان يحاول أن يفعله ███ معي كما ينبغي. أعتقد أنّ ███ ███ كان ناجحاً، ومع ذلك كنت أسبب لـ ███ بعض المصاعب أحياناً.

نسي ███ ذات مرة أنّه قريب مني، وقال شيئاً من قبيل: "Amana use the bathroom – سأستخدم الحمام" فقمت وذهبت. "آه، هل فاتتني كلمة Amana؟ فقال ███: لا تذهب!

لقد علّمني ███ الطريقة التي يتكلم الأميركيون بها الإنكليزية.

– ولكن البريطانيين يقولون كذا وكذا.

– ولكنك لست بريطانياً.

– أقول فقط أن هناك طرقاً مختلفة للفظ.

ولكن ███ فشل في أن يعلّمني القواعد النحوية كي أتّبعها، وهي الطريقة الوحيدة التي يمكنني التعلم بها. بما أنّ اللغة الإنكليزية هي اللغة الأم لـ ███ فإنّه يمتلك سليقة لغوية لا أمتلكها أنا. بالإضافة إلى لغته الأمّ كان ███ يتكلم اللغة الروسيّة أيضاً واقترح أن يعلّمني إيّاها، وأنا كنت توّاقاً

لتعلّمها ولكن لم يكن لدي الوقت الكافي لذلك، ثم أنني فقدت الرغبة مع مرور الوقت. إنّ شخصاً كسولاً مثلي لن يتعلم لغة جديدة إن لم تكن ضرورية له. كانت لدى رغبة عارمة لتعلّم العربية ولكن هو الأخر لم يكن لديه وقت كافٍ. إنّ عمل كان يبقيـ مشغولاً ليل نهار.

في تلك الفترة كان وضعي الصحي أفضل بكثير مما كان عليه في الأردن، ولكني كنت لا أزال دون الوزن الطبيعي، هشّاً ومريضاً معظم الوقت، وقد ازداد وضعي سوءاً مع مرور الأيام. عندما كان يأخذني الحرّاس من أمام مرآة جدارية كنتُ أصاب بالرّعب عندما أرى وجهي. كان منظره يبعث على الشفقة. ومع أنّ الطعام كان يتحسن في المعسكر إلا أنني لم أستطع الاستفادة منه.

– لماذا لا تأكل؟ كان يسألني الحرّاس هذا السؤال دائماً.

– لست جائعاً. اعتدت أن أجيب. بعدئذ جاء محققي ذات مرة في الوقت الذي كانوا يقدّمون لنا وجبة الغداء ليراها بنفسه.

– أيمكنني تفقّد وجبتك؟

– نعم بالتأكيد.

– أي قذارة يقدّمونها لك؟ إنّها نفاية! قال .

– لا، لا بأس به. لا أريد أن أفتح نقاشاً حول الطعام. حقاً لا أودّ ذلك.

– اسمع، قد يكون بالنسبة لك لا بأس به، ولكنّه لا يتفق مع معاييري. يجب أن نغيّر وجبتك الغذائية.

تمكّن في فترة قصيرة نسبياً أن ينظّم لي وجبة غذائية مناسبة، تحسّنت صحتي بها على نحو ملموس.

كان يبدو شخصاً متديناً إذا ما طبقّنا عليه المعايير الأميركية. كنت سعيداً بأن أجد شخصاً يمكنني التعلم منه.

– هل تستطيع أن تجلب لي الكتاب المقدّس؟

– سأرى إن كان ذلك ممكناً.

فيما بعد جلب لي نسخته من الكتاب المقدس، وكانت نسخة خاصة.

- كيف يذهب الإنسان إلى الجنة وفق دينك؟
- أن تتخذ من السيد المسيح مخلّصاً لك، وتؤمن بأنّه مات من أجل خطاياك.
- أنا أؤمن بأن السيد المسيح كان أحد أعظم الرسل، ولكنني لا أؤمن بأنّه مات من أجل خطاياي. لا معنى لهذا عندي. يجب أن أتجنّب الذنوب بنفسي وذلك بعمل الخير.
- هذا لا يكفي لخلاصك.
- إذاً إلى أين سأذهب بعد الموت؟ سألت.
- إلى الجحيم حسب ديني.

ضحكتُ من أعماق قلبي وقلت لـ ■■■■■■■■:

- هذا محزن جداً، فأنا أصلّي كلّ يوم وأطلب من الله الصفح. بصراحة، أنا أعبد الله أكثر منك. وكما ترى في الواقع لست ناجحاً في هذه الحياة الدنيا، لذا فالآخرة هي أملي الوحيد.

شعر ■■■■■■■■ بالغضب والخجل في آن - بالغضب لأني ضحكتُ من كلامه، وبالخجل لأنّه لم يستطع إيجاد سبيل لإنقاذي.

- لن أكذب عليك. هذا ما يقوله ديني.
- لا بأس، ليست لدي مشكلة مع ذلك إطلاقاً. بإمكانك أن تطبخ حساءك كما يحلو لك. لست غاضباً لأنّك أرسلتني إلى الجحيم.
- وماذا عن الاعتقاد الإسلامي؟ هل سأذهب إلى الجنة؟
- تلك حكاية مختلفة كلياً. حتى تذهب إلى الجنة في الإسلام ينبغي أن تؤمن بمحمد، الخلف الطبيعي للسيد المسيح، وأن تكون مسلماً صالحاً. وطالما أنّك ترفض محمد فلن تدخل الجنة. أجبته بصراحة.

شعر ■■■■■■■■ بالراحة لأنني أنا أيضاً أرسلته إلى جهنم، وقال:

- إذاً دعنا نذهب كلانا إلى جهنم لنلتقي هناك.
- لست راغباً في دخول جهنم. ومع أنني آثم يعترف بذنوبه فإني أسأل الله الصفح والغفران.

وهكذا كلما كان لدينا بعض الوقت كنا نناقش الأمور الدينية، وكل منا يُخرج كتابه،

هو إنجيله وأنا قرآني، لنري بعضنا بعضاً ماذا يقول كلّ كتاب.

- هل ستتزوج من مسلمة؟

- لا أبداً.

- شخصياً ليست لدي مشكلة بالزواج من امرأة مسيحية طالما ليس لديها شيء ضد ديني. قلت مبتسماً.

- هل تحاول أن تهديني إلى دينك؟ سألني ■■■■■ بعاطفية.

- نعم أحاول.

- لن أصير مسلماً أبداً، أبداً، أبداً.

ضحكت وقلت:

- لماذا ضايقك الكلام؟ وأنت أيضاً تبدو كأنّك تحاول هدايتي إلى دينك، وهذا لم يضايقني طالما أنّك تؤمن بذلك.

ثم تابعت حديثي وسألته:

- هل ستتزوج كاثوليكية يا ■■■■■؟

- نعم.

- ولكني لا أفهم. يقول الكتاب المقدس إنّك لا تستطيع الطلاق بعد الزواج. إذاً فأنت آثم محتمل.

ضاق ■■■■■ ذرعاً عندما أطلعته على ما جاء حرفياً في الكتاب المقدس.

- دعك من هذا، ولنغيّر الموضوع إنْ لم يكن لديك مانع.

صدمني كلامه، فابتسمتُ ابتسامةً جافة.

- آه، حسناً! أنا آسف على الحديث حول ذلك.

أوقفنا النقاش حول الدين ذاك اليوم، وأخذنا استراحة لعدة أيام ثم استأنفنا الحوار.

- يا ■■■■■، أنا لا أفهم عقيدة الثالوث المقدس، وكلما حاولت فهمها ازددت تشويشاً.

- لدينا الأب والابن وروح القدس. ثلاثة عناصر تمثّل كينونة الرّب.

- مهلاً! أوضح لي. الرّب هو أبو المسيح، أليس كذلك؟

- نعم!
- أبّ بيولوجي؟
- كلا.
- إذاً لماذا تسمّونه "الأب". أقصد إذا كنت تقول أنّ الرّب هو أبانا بمعنى أنّه يهتم بنا فذلك مقبول، لا توجد أية مشكلة.
- نعم ذلك صحيح.
- إذاً ما الغاية من تسمية يسوع بـ"ابن الرّب".
- هذا ما جاء في الكتاب المقدس.
- ولكني يا ██████ لا أؤمن إيماناً كاملاً بدقة الكتاب المقدس.
- على أية حال اليسوع هو الرّب.
- هل اليسوع هو الرّب أم ابن الرّب؟
- كلاهما.
- الأمور ليست واضحة لديك يا ██████، أليس كذلك؟
- اسمع، أنا لا أفهم الثالوث حقاً. ينبغي أن أبحث أو أسأل رجل دين.
- هذا عادل بما فيه الكفاية، ولكن كيف تؤمن بشيء لا تفهمه؟
- أفهمه ولكني لا أستطيع شرح ذلك.

عند هذه النقطة قلت مقترحاً:

- دعنا ننتقل إلى موضوع آخر. وفقاً لدينكم يبدو أنني هالك في كل الأحوال. ولكن ماذا عن سكان أدغال أفريقيا الذين لم تتسنَّ لهم فرصة التعرّف على السيد المسيح حتى؟
- لن يُنقذوا.
- ولكن ما هو خطأهم؟
- لا أتفق مع ضرورة أن يعانوا، ذلك ما يقوله ديني.
- منصف جداً.
- ولكن ماذا عن الإسلام؟
- ورد في القرآن أن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب ما لم يرسل رسولاً يهدي الناس.

كان

أحد أولئك الأشخاص الذين تحبهم من اللقاء الأول[1].

محبّ

أكثر مما هو كاره. أصدقاء طيّبون، وكان يكافح من أجل تحسين واقعنا.

قدّمه لي كصديق يمكنه أن يروي غليلي بالمعلومات حول المسيحية. ومع أني استمتعت بالتعرف على ، إلا أنه لم يساعدني على فهم الثالوث. لقد شوشّني أكثر، ولم يكن قَدَري معه أفضل. فهو الآخر أرسلني إلى جهنم. انتهى المطاف بـ إلى مجادلة لأنّهما كانا مختلفين في المعتقدات، مع أنّ الاثنين كانا من المذهب البروتستانتي. أدركتُ أنّهما لا يستطيعان أن يجعلاني أفهم، لذا وجدتُ أن من الأفضل أن أصرف النظر عن الموضوع، وبدأنا نتحدث في قضايا أخرى.

إنّ الصورة الخاطئة التي يحملها الغرب عن العرب تدعو إلى الغرابة الشديدة. إنّهم يعتبرون العرب همجاً وعنيفين وبليدين وذوي قلوب باردة. أستطيع أن أخبركم بثقة تامة أنّ العرب مسالمون وحسّاسون ومدنيون ومحبّون جداً، فضلاً عن صفاتهم الأخرى.

– ، تزعمون أننا عنيفون ولكن إذا ما استمعت إلى الموسيقى العربية أو إذا قرأت الشعر العربي ستجد أن مجمله هو عن الحب، في حين أنّ الموسيقى الأميركية في قسمها الأعظم هي عن العنف والكراهية.

خلال فترتي مع شهدت الطاولة عبور الكثير من القصائد، لم أحتفظ بأيّة نسخ. لدى كل القصائد. كما أنّه أعطاني ديواناً صغيراً من الشعر. كان سورياليّاً، وأنا لا أفقه شيئاً من السوريالية. بالكاد أفهم قصيدة من قصائده.

---

[1] يبدو أنّ المحقق يستخدم صديقاً لمساعدته في النقاش الديني.

تقول إحدى قصائده:

- صلاحي
غوانتانامو

حتى الآن كنت أرفض التحدث عن الطريقة التي عُوملت بها، الأمر الذي يفهمه ويحترمه. أولاً، لم أرغب في التحدث لأنني كنت أخشى الانتقام. وثانياً، لأنني أشك في أن تتعامل الحكومة مع الأمور على نحو مناسب. وثالثاً، لأنّ الدين الإسلامي ينصح بأن ترفع شكواك إلى الله بدلاً من إفشائها بين البشر. ولكن ظلّ يحاول بصبر أن يقنعني، والأكثر من هذا، بدأ يشرح لي أنّ واجبه يتطلب أن ينقل أي تصرف سيئ من قبل زملائه إلى المسؤولين الأرفع مقاماً.

بعد تفكير طويل بالخيارات قرّرت التحدث إلى . وعندما سمع قصتي جلب

الذي حقق معي بعد أن صرف الحرّاس. أراد أن يتصرف بحكمة كي يتجنب أي تسريب أو انتشار للقصة. لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك، ولكني أعتقد أنّه يوجد الآن تحقيق داخلي في وزارة الدفاع، لأني سُئِلت حول قصتي فيما بعد.[١]

١ ورد في تقرير شميدت–فيرلو أنّ في ١١ سبتمبر ٢٠٠٤ "بعد أشهر من التعاون مع المحققين" "أبلغ موضوع التحقيق الخاص محقّقه بأنّه "خضع للتعذيب" على يد المحققين السابقين خلال الأشهر الماضية الممتدة من يوليو حتى أكتوبر عام ٢٠٠٣".

وفي حاشية أخرى مفصّلة: "نقلت هذه المزاعم إلى محققة كانت عضواً في فريق التحقيق أثناء فترة التقرير. وقد نقلت المحققة المزاعم بدورها إلى المشرف عليها. وبعد أن عُلم بالإساءة المزعومة بفترة قصيرة قام المشرف بمقابلة موضوع التحقيق الخاص الثاني وبحضور المحققة بخصوص تلك المزاعم. وبناءً على هذه المقابلة والملاحظات التي أخذتها المحققة أعدّ المشرف مذكرة في ١١ ديمبر ٢٠٠٤ موجّهة إلى قوى المهام المشتركة والمفتش العام التابع لوزارة العدل في غوانتانامو وعنصر ضبط التحقيق. أرسل المشرف مذكرته إلى الممثل العام للنيابة العامة للمعالجة بموجب إجراءات غوانتانامو الطبيعية للتحقيق في مزاعم سوء المعاملة. لقد كلّف ممثل النيابة العامة العام عن طريق =

- أنت رجل شجاع جداً!

اعتاد ███ أن يقول لي هذا الكلام فيما يخص قصتي.

- لا أعتقد ذلك! فقط أستمتعُ بالسلام. ولكنني أعرف بالتأكيد أنّ الذين يعذّبون معتقلين لا حول لهم ولا قوة أشخاص جبناء.

███

███.

بعد ذلك بفترة قصيرة أخذت ███ إجازة لمدة ثلاثة أسابيع. (واضح من السياق أنّ الشخص المعني هنا أنثى - المترجم)

- سأذهب إلى مونتريال مع أحد أصدقائي ███. أخبرني عن مونتريال.

أخبرت ███ كل شيء تذكرته عن تلك المدينة، ولم تكن المعلومات التي قدّمتها كثيرة.

عندما عادت ███ جاءت ███ لرؤيتي بعد تغيير ملابسها مباشرةً. كانت ███ مبتهجةً بصدق للقائي مرة ثانية، وأنا أيضاً كنت فرحاً. قالت ███ إنّها استمتعت بالرحلة إلى كندا وأن كلّ شيء جرى على خير ما يرام، ولكن يبدو أنّ ███ تشعر بسعادة أكبر في غوانتانامو. كانت ███ متعبة من الرحلة، لذا كان لقاؤها بي قصيراً. تفقدّتْ وضعي وذهبت.

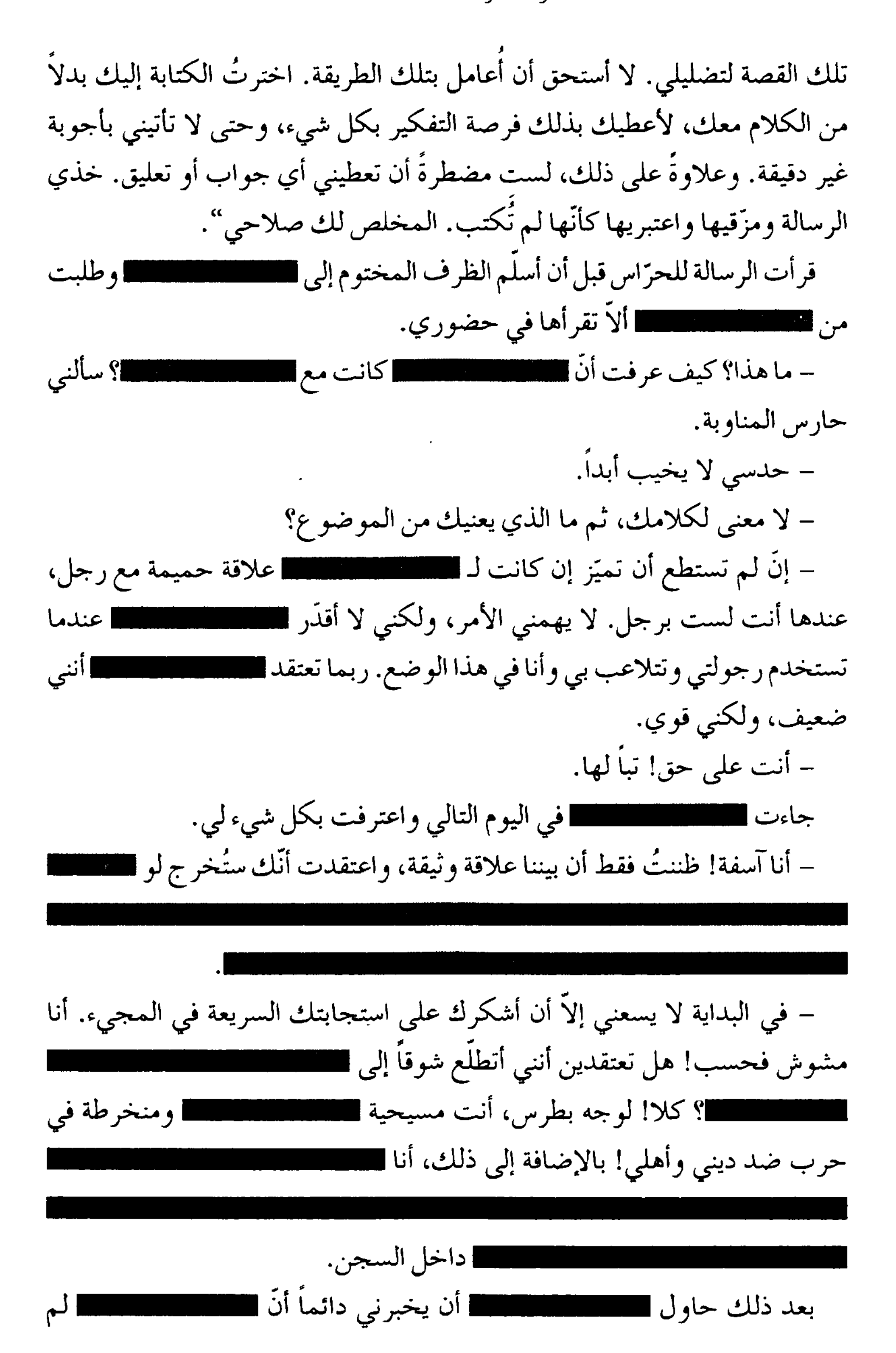
عدتُ إلى زنزانتي وكتبت الرسالة التالية.

"مرحباً ███، أعرف أنّكِ كنت في كندا ███

███

███ لم أسألك عنها، ولكني لا أقدّر شخصاً يكذب عليّ ويعتبرني معتوهاً. لا أعرف بِمَ كنت تفكرين عندما اختلقتِ

= رسالة إلكترونية في ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٤ مجموعة عمليات الحجز المشتركة والمفتش العام التابع لوزارة العدل والفريق الطبي العام لإجراء مراجعة للشكوى الملخصة في المذكرة المؤرخة بتاريخ ديسمبر ٢٠٠٤، ووجّههم لتقديم أية معلومات مناسبة. لم يُكمَل التحقيق الداخلي في غوانتانامو أبداً" (شميدت-فيرلو، ص٢٢).



تلك القصة لتضليلي. لا أستحق أن أُعامل بتلك الطريقة. اخترتُ الكتابة إليك بدلاً من الكلام معك، لأعطيك بذلك فرصة التفكير بكل شيء، وحتى لا تأتيني بأجوبة غير دقيقة. وعلاوةً على ذلك، لست مضطرةً أن تعطيني أي جواب أو تعليق. خذي الرسالة ومزّقيها واعتبريها كأنّها لم تُكتب. المخلص لك صلاحي".

قرأت الرسالة للحرّاس قبل أن أسلّم الظرف المختوم إلى █████ وطلبت من █████ ألاّ تقرأها في حضوري.

– ما هذا؟ كيف عرفت أنّ █████ كانت مع █████؟ سألني حارس المناوبة.

– حدسي لا يخيب أبداً.

– لا معنى لكلامك، ثم ما الذي يعنيك من الموضوع؟

– إنّ لم تستطع أن تميّز إن كانت لـ █████ علاقة حميمة مع رجل، عندها أنت لست برجل. لا يهمني الأمر، ولكني لا أقدّر █████ عندما تستخدم رجولتي وتتلاعب بي وأنا في هذا الوضع. ربما تعتقد █████ أنني ضعيف، ولكني قوي.

– أنت على حق! تباً لها.

جاءت █████ في اليوم التالي واعترفت بكل شيء لي.

– أنا آسفة! ظننتُ فقط أن بيننا علاقة وثيقة، واعتقدت أنّك ستُخرج لو █████ █████ █████.

– في البداية لا يسعني إلاّ أن أشكرك على استجابتك السريعة في المجيء. أنا مشوش فحسب! هل تعتقدين أنني أتطلّع شوقاً إلى █████ █████؟ كلا! لوجه بطرس، أنت مسيحية █████ ومنخرطة في حرب ضد ديني وأهلي! بالإضافة إلى ذلك، أنا █████ █████ █████ داخل السجن.

بعد ذلك حاول █████ أن يخبرني دائماً أنّ █████ لم

يعتقد أنّ ███ ستستمر ███
███
███. ولكني لم أعلّق أبداً على الموضوع، وكل ما فعلته هو أنني صنعت سواراً وأرسلته لها بوصفها ███
█ التي أحببتها والتي ساعدتني في عدة مسائل.

عندما التقاني ███ للمرة الأولى قال لي:

"يئسنا من الحصول على المعلومات منك".

كان ذلك صحيحاً. عندما وصلت إلى المعسكر في أغسطس ٢٠٠٢ كان معظم المعتقلين يرفضون التعاون مع محققيهم.

كان كل معتقل يقول: اسمع، لقد رويت قصتي حتى تعبت، مرة بعد مرة، مليون مرة، والآن إمّا أرسلني إلى المحكمة أو دعني وشأني.

- ولكن هناك تناقضاً في قصتك.

وكأنّ المحقق يقول بطريقة لطيفة: أنت تكذب.

اعتقد جميع المعتقلين مثلي عندما وصلوا إلى كوبا أنّ التحقيق سيكون تحقيقاً نموذجياً، وأنهم بعد التحقيق سيُحالون إلى المحكمة، والمحكمة ستقرر إذا ما كانوا مذنبين أم لا. فإن كان أحدهم بريئاً، أو إن لم تثبت حكومة الولايات المتحدة أية تهم عليه، فسيرسلونه إلى بيته. هذه هي الصورة التي نقلها إلينا المحققون، وهذا ما قبلنا به وقلنا "دعنا نفعله". ولكن تبيّن إمّا أن المحققين قد كذبوا علينا لتشجيع المعتقلين على التعاون معهم، أو أنّ الحكومة كذبت على المحققين بخصوص الإجراء ذاك، وذلك كتكتيك لانتزاع المعلومات من المعتقلين.

مرّت الأسابيع، ومرّت الأشهر، ويبدو أنّ المحققين مازالوا بعيدين عن إرواء عطشهم للمعلومات، وكلّما قدّم المعتقل المزيد من المعلومات عقّد المحققون القضية أكثر وسألوا المزيد من الأسئلة. كان لدى جميع المعتقلين نقطة مشتركة هي أنّهم جميعاً تعبوا من التحقيق المتواصل دون انقطاع. وكقادم جديد كنت من أولئك القلائل الذين كانوا يتعاونون مع المحققين، ولكني سرعان ما انضممت إلى الفريق الآخر.

"قولوا لي فقط لماذا اعتقلتموني، وأنا سأجيب على جميع أسئلتكم" كنت أقول لهم.

كان معظم المحققين يأتون يوماً بعد يوم فارغي الأيدي. "لم نحصل على أية معلومات من المصدر"، هذا ما كان ينقله المحققون إلى المعتقلين كل أسبوع. وبالضبط كما قال ████████ كان ████████ يائسين من جعل المعتقلين يتكلمون. لذا بنى ████████████████ صغيراً داخل منظمة أكبر. إنّ قوة المهام هذه تتألف من الجيش الأميركي والبحرية الأميركية ومن المدنيين أيضاً. وكان عمل هذه القوة هو انتزاع المعلومات من المعتقلين. وكانت هذه العملية تتم بسرّية تامة.

كان ████████ شخصية متميزة في هذه المجموعة الثانوية. رغم أنّ ████ ████████ شخص ذكي إلا أنهم أعطوه أقذر الأعمال في الجزيرة. لقد غسلوا دماغه لذا كان يعتقد أنّ ما كان يفعله صواب لا غبار عليه. كان ████████ يرتدي دائماً بذلته التي تغطيه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، لأنّه كان مدركاً أنّه يرتكب جرائم حرب ضد معتقلين بائسين. كان ████████ بوم الليل، وعابد الشيطان، ومحب الموسيقى الصاخبة، ورجلاً ضد الدين. كان محققاً بتقدير ممتاز. ولكل من هذه الألقاب قصة.

اعتاد ████████ أن "يسلّي" المعتقلين الذين مُنعوا من النوم. لقد حرمني من النوم مدة ما يقارب الشهرين، الفترة التي حاول فيها كسر مقاومتي العقلية، ولكن دون جدوى. وحتى يبقيني مستيقظاً كان يخفض درجة حرارة الغرفة إلى أدنى درجة، ويجعلني أكتب مختلف الأمور عن حياتي، ويجبرني على شرب كميات كبيرة من الماء أكثر مما تتحمله طاقتي، وأحياناً يبقيني واقفاً في الزنزانة طوال الليل. وذات مرة جرّدني من ملابسي بمساعدة حارس ████████ بغية إهانتي. ووضعني في ليلة أخرى في غرفة باردة جداً مليئة بصور الدعاية للولايات المتحدة بما فيها صورة لجورج دبليو بوش، وجعلني أستمع إلى النشيد الوطني مرات عديدة.

كان ████████ يتعامل مع بضعة معتقلين في آن واحد، فقد استطعت سماع العديد من الأبواب تغلق بعنف، والموسيقى الصاخبة، والمعتقلون يأتون ويذهبون،

وكان صوت سلاسلهم المعدنية الثقيلة يشي بهم وهم يتعدون. اعتاد ████ ████ أن يضع المعتقلين في غرفة مظلمة فيها صور على أساس أنّها للشياطين. وكان يجبر السجناء على الاستماع إلى موسيقى الكراهية والجنون وإلى أغنية "دع الأجساد ترتطم بالأرض" مرات عديدة طوال الليل وفي الغرفة المظلمة. كان صريحاً بخصوص كراهيته العلنية للإسلام، وقد منع بالمطلق أية طقوس إسلامية، بما فيها الصلاة وتلاوة القرآن.

مع كل تلك الإجراءات أدرك الفريق الخاص حوالي ████ أنني لن أتعاون معهم كما يرغبون، وهكذا تمّت الموافقة على المستوى الثاني من التعذيب بحقي. فتح ████ وحارس آخر باب غرفة التحقيق بعنف حيث كنت أنا و ████ جالسين. كانت الغرفة في المبنى ████. وزميله ظلّ يضربني على أضلاعي وعلى وجهي، وجعلني أشرب الماء المالح مدة ثلاث ساعات، قبل أن يسلّمني إلى فريق عربي فيه محقق مصري ومحقق أردني. لقد واصل أولئك المحققون ضربي ومن ثم تغطيتي بمكعبات الجليد بهدف تعذيبي أولاً، ولإخفاء آثار الكدمات الحديثة ثانياً.

بعد ذلك بثلاث ساعات أعادني السيد (x) وصديقه إلى زنزانتي الحالية ورموني فيها[1]. "قلت لك لا تتحاذق معي أيها الفاعل بأمّه!" كان هذا آخر شيء أسمعه من ████. فيما بعد أخبرني ████
أنّ ████ أراد أن يزورني زيارة وديّة، ولكني لم أظهر أية رغبة في ذلك، وهكذا أُلغيت الزيارة. مازلت في الزنزانة نفسها، ولم أعد مضطراً للتظاهر بأني لا أعرف أين أنا.

وأخيراً سُمح للأطباء برؤيتي، وكان ذلك في مارس ٢٠٠٤ تقريباً، وتمكنت من الحصول على مساعدة نفسية للمرة الأولى في شهر أبريل من ذلك العام. منذ ذلك الحين آخذ أدوية لمساعدتي على النوم. كما أنّ الطبيب وصف فيتامينات متنوعة لشخص يفتقر للتعرّض لأشعة الشمس. كما أنني جلست بعض الجلسات مع الأطباء النفسيين الذين تمكّنوا من الوصول إليّ. لقد ساعدوني حقاً، ومع ذلك لم أستطع

١ يبدو السيد x غير مشطوب هنا.

إخبارهم بالسبب الرئيسي لمرضي لأنني كنت أخشى الانتقام.

قال لي أحد حراسي في صيف ٢٠٠٤: "عملي هو مساعدتك على إعادة تأهيلك".

أدركت الحكومة أنني متأذٍ بعمق لذا فأنا بحاجة إلى إعادة تأهيل فعلي. فمنذ اللحظة التي بدأ بالعمل معي كحارسي في يوليو ٢٠٠٤ تعامل ██████ معي بصورة مباشرة، وبالكاد كان يتحدث إلى أحد بجانبي. اعتاد أن يضع فراشه أمام زنزانتي مباشرةً، وبدأنا نتحدث عن مختلف المواضيع كصديقين قديمين. تحدثنا عن التاريخ والثقافة والسياسة والدين والمرأة، تحدثنا عن كلّ شيء عدا الأحداث الراهنة. لقد قيل للحرّاس إنني معتقل من النوع الذي يتحايل ويتذاكى عليهم لمعرفة الأحداث الراهنة منهم. ولكن الحرّاس شهود على أنني لم أحاول التحايل والتذاكي على أحد. لست مهتماً بالأحداث الراهنة لأن مجرد التفكير بها يصيبني بالمرض.

قبل أن يغادر ██████ جلب لي هديتين تذكاريتين، ومع ██████ و ██████ أهداني نسخة من *The Pleasure of My Company* (متعة رفقتي) للكاتب ستيف مارتن.

كتب ██████: "بيل (الاختصار من "بيلو" وهو لقب صلاحي - المترجم) لقد تعرّفت عليك خلال الأشهر العشرة الماضية وأصبحنا أصدقاء. أتمنى لك حظاً سعيداً، وأنا متأكد من أنني سأفكر بك كثيراً. اهتم بنفسك جيداً. ██████".

وكتب ██████: "بيلو، أتمنى انفراجاً لوضعك. فقط تذّكر أنّ الله معه الفرج دائماً. آمل أن تفكّر بنا ليس كمجرد حرّاس. أعتقد أننا جميعاً أصبحنا أصدقاء".

وكتب ██████: "١٩ أبريل ٢٠٠٥ - بيلو، في الأشهر العشرة الماضية بذلتُ أقصى ما لدي للحفاظ على علاقة حارس بسجين. فشلت أحياناً، لأنّ من المستحيل أن تحب شخصاً كما تحب نفسك. حافظ على إيمانك وأنا متأكد من أنه سيوجّهك في الاتجاه الصحيح".

اعتدتُ أن أناقش موضوع الإيمان مع الحرّاس الجدد. لقد بدا ██████ كاثوليكياً محافظاً. لم يكن متديناً ولكنه كان ابن أسرته. حاولت باستمرار أن أقنعه بأنّ وجود الله ضرورة منطقية.

- أنا لا أؤمن بأي شيء ما لم أره بعيني، قال لي مرة.

– بعد أن ترى شيئاً لا تعود بحاجة إلى الإيمان به. على سبيل المثال، لو أخبرتك بأنّ لدي "بيبسي بارد في ثلاجتي، عندها إمّا ستصدق ذلك أو لن تصدقه. ولكن عندما ترى البيبسي بأمّ عينيك عندئذ يصبح لديك علم ولم تعد بحاجة إلى تصديقي.

إنني أتصوره وأتصور الحرّاس الآخرين كأصدقاء طيّبين إذا ما اجتمعنا في ظروف أخرى مختلفة. ليرشدهم الله إلى الطريق الصحيح ويمدّ لهم يد العون في الحياة.

إنّ الأزمة تُخرج الجانب الأفضل والجانب الأسوأ في الإنسان – وفي البلدان أيضاً. هل حقاً عذّب رئيس العالم الحرّ – الولايات المتحدة – المعتقلين؟ أو هل قصص التعذيب هي جزء من مؤامرة لتقديم الولايات المتحدة بأبشع الطرق، حتى تكرهها بقية العالم؟

لا أعرف حتى التعامل مع هذا الموضوع. لقد كتبت فقط تجربتي، ما شاهدته، وما عرفته. حاولت ألاّ أبالغ في نقل الأشياء أو أبخسها حقها. حاولت أن أكون منصفاً قدر ما استطعت لحكومة الولايات المتحدة وأخوتي ونفسي. لا أتوقع شخصاً لا يعرفني أن يصدقني، ولكنني أتوقع أنّه سيعطيني على الأقل فائدة شكّه. وإذا ما أراد الأميركيون أن يتمسكوا بما يؤمنون به، فإنني أتوقع أنّ الرأي العام سيُجبر الحكومة الأميركية على فتح تحقيق في التعذيب وجرائم الحرب. أنا أكثر من واثق بأنني أستطيع إثبات كل شيء كتبته في هذا الكتاب فقط إذا ما أتيحت لي الفرصة لأستدعي الشهود عن طريق إجراء قضائي مناسب، هذا إن لم تُعطى للعاملين في الجيش فرصة لتعديل أكاذيبهم وتدمير الأدلة ضدهم.

إنّ الإنسان يكره بشكل طبيعي تعذيب إنسانٍ آخر، والأميركيون ليسوا خارج هذا القانون. كان العديد من الجنود ينفّذون العمل على مضض، وكانوا يفرحون جداً عندما تأتيهم أوامر بالتوقّف. بالطبع هناك أناس مرضى في كل مكان في العالم يستمتعون برؤية معاناة الآخرين، ولكن الناس عموماً يلجأون إلى التعذيب إذا ما اعتراهم الاضطراب والتشويش. وبالتأكيد أصبح الأميركيون بعد هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية مشوشين ومضطربين وانتقاميين.

بدأت الولايات المتحدة الأميركية حملة ضد حكومة الطالبان بتوجيه من الرئيس بوش. في قرار مشترك فوّض الكونغرس في ١٨ سبتمبر ٢٠٠٤ الرئيس بوش لاستعمال

القوة ضد "الأمم والمنظمات والأشخاص"، التي "خطفت وفوضت وارتكبت أو ساعدت الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أو أوت مثل هذه المنظمات أو الأشخاص". بعد ذلك بدأت الحكومة الأميركية بعملية سرّية استهدفت خطف واعتقال وتعذيب أو قتل الإرهابيين المشتبه بهم، وهي عملية ليس لها أساس قانوني.

كنتُ إحدى ضحايا هذه العملية، مع أنني لم أرتكب أيّاً من تلك الأعمال، ولم أكن أبداً جزءاً من تلك الجرائم. في ٢٩ سبتمبر ٢٠٠١ تلقيت مكالمة هاتفية على هاتفي الخليوي، وطُلب مني تسليم نفسي، وهذا فعلته مباشرةً، وأنا متأكد من أنني سأُبرًا. وبدلاً من ذلك استجوبني الأميركيون في بلدي ومن ثم توصلت الولايات المتحدة إلى اتفاق مع الحكومة الموريتانية لإرسالي إلى الأردن لانتزاع آخر معلومة مني. لقد سُجنت واستُجوبت في ظروف مرعبة في الأردن مدة ثمانية أشهر، ومن هناك أخذني الأميركان إلى القاعدة الجوية في باغرام وبقيت هناك أسبوعين على ذمّة التحقيق، وأخيراً إلى قاعدة البحرية في غوانتانامو ████████████، حيث مازلتُ حتى اليوم.

هل نجحت الديمقراطية الأميركية في الاختبار الذي خضعت له مع الهجمات الإرهابية في عام ٢٠٠١؟ سأترك الجواب والحكم للقراء. في الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات مازالت تواجه الولايات المتحدة مع شعبها مشكلة المعتقلين في الجزيرة الكوبية.

في البداية كانت الحكومة الأميركية سعيدة بعملياتها السرية، لأنّها ظنّت أنّها ستجمع كل أشرار العالم في غوانتانامو، وستلتف على القانون الأميركي والاتفاقيات الدولية حتى تتمكن من إنجاز عملية انتقامها. ولكن بعد الكثير من الأعمال المؤلمة أدركت أنّ هؤلاء المعتقلين ثلّة غير مقاتلة. والآن تعاني الولايات المتحدة من هذه المشكلة، ولكن يبدو أنْ لا إرادة وشيكة لإعلان الحقيقة حول العملية برمتها.

يرتكب الجميع الأخطاء، وأعتقد أنّ حكومة الولايات المتحدة مدينة لأبناء شعبها بأن تخبرهم بحقيقة ما يجري في غوانتانامو. حتى الآن كلّفتْ العملية كل شخص من دافعي الضرائب الأميركيين مبلغاً قدره مليون دولار على الأقل، ومؤشّر العدّاد في تصاعد كل يوم. وبقية المعتقلين لا تقلّ كلفتهم عن ذلك المبلغ. في ظل هذه الظروف يحتاج الأميركيون - ولهم الحق في ذلك - أن يعرفوا ما الذي يجري.

يفقد الكثير من الأخوة هنا عقولهم، وبشكل خاص المعتقلون صغار السن، بسبب ظروف السجن. في الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات دخل عدد من الأخوة في إضراب عن الطعام وقرروا الاستمرار فيه حتى النهاية وليحدث ما يحدث.[١]

أنا قلق جداً عليهم، أراقبهم من دون القدرة على مساعدتهم بشيء، إنّهم يموتون فعلياً، وسيتعرضون بلا أدنى شك لأضرار صحيّة لن يبلّوا منها حتى لو قرروا أخيراً فكّ إضرابهم. إنّها ليست المرة الأولى التي نشهد فيها إضراباً عن الطعام، فقد اشتركت شخصياً في إضراب عن الطعام في سبتمبر ٢٠٠٢، ولكن يبدو أنّ الحكومة لم تستجب لمطالب المضربين، لذا بقي الأخوة مضربين عن الطعام للأسباب القديمة ذاتها فضلاً عن أسباب جديدة أخرى، ويبدو أن ما من حلّ يلوح في الأفق.

تتوقع الحكومة الأميركية من قواتها في غوانتانامو حلولاً سحرية مع عبيدها. ولكن القوات الأميركية في غوانتانامو تفهم الموقف هنا أكثر من أيّ بيروقراطي في واشنطن، وهو أن تستعجل الحكومة الخطى وتطلق سراح هؤلاء الناس.

ما رأي الشعب الأميركي بهذا؟ كلّي شوق لمعرفة ذلك. وأعتقد أنّ أكثرية الأميركيين يريدون تطبيق العدالة، وألاّ يجدوا أنفسهم مضطرين لتقديم التمويل المالي لمعتقلين أبرياء في السجن. أعرف أنّ هناك أقليّة صغيرة متطرّفة تعتقد أنّ كلّ من في السجن الكوبي شيطان، وبالتالي نحن نستحق هذه المعاملة. ولكن لا أساس لهذا الرأي سوى الجهل. إنني أستغرب بشدة كيف يمكن لأناس أن يلصقوا جريمة بشخصٍ لا يعرفونه حتى.

---

١ أنجز محمدو ولد صلاحي مخطوطته في خريف عام ٢٠٠٥، وقد وقّع على آخر صفحة بتاريخ ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٥. بدأ واحداً من أكبر الإضرابات عن الطعام في غوانتانامو في أغسطس ٢٠٠٥ واستمر حتى نهاية ذاك العام. انظر:
http://www.nytimes.com/2005/18/09/politics/18gitmo.html?pagewanted=1&_r=0; and http://america.aljazeera.com/articles/multimedia/guantanamo- hungerstriketimeline.html.

ملاحظة المؤلف

في مقابلة حديثة مع واحد من محاميه قال محمدو إنّه لا يحمل أيّ حقدٍ تجاه أيّ شخصٍ ذكره في هذا الكتاب، بل ويرجو منهم قراءته وتصحيحه إذا ما وجدوا فيه أيّ خطأٍ. إنّه يحلم بيوم يجلس فيه مع الجميع لاحتساء كوبٍ من الشاي معاً، بعد الاطّلاع على أحوال بعضهم بعضاً.

اعترافات المحرّر

إنّ جهود محاميّ المصلحة العامة لمحمدو ولد صلاحي هي التي جعلتنا قادرين على قراءة هذا الكتاب، حيث خاضوا معركة قانونية استمرت ست سنوات أسفرت عن الحصول على ترخيص لنشر هذه المخطوطة. لقد قادوا معركتهم بهدوء واحترام، ولكن بعنادٍ وإصرار، ومنطلقهم في ذلك هو أنّ الحقيقة لا تتعارض مع الأمن، وهذا ما أثبتوه في النهاية.

وحده التاريخ سيدوّن أيّ إنجاز تمّ. وإنّ القرّاء في كلّ مكان مدينون بالشكر لمحاميته الرئيسيتين نانسي هولاندر وتيريزا م. دنكان، ولمستشاريهما القانونيين الخاصين، كل من ليندا مورينو وسيلفيا روييس وجوناثان هافيتز ومستشاريهم حنه شمسي وبريت كاوفمان وجوناثان مانيس وميليسيا غودمان من "مشروع الأمن القومي" لاتحاد الحريات المدنية الأميركي، وآرت سبيتزر من اتحاد الحريات المدنية الأميركي لمنطقة العاصمة الوطنية.

أما أنا فأدين بشكري العميق لنانسي هولاندر ولبقية أفراد الفريق القانوني لمحمدو ولد صلاحي، وعلى رأسهم محمدو ولد صلاحي نفسه، الذي قدّم لي الفرصة لترى مخطوطته النور. كل يوم قرأت فيه مخطوطة محمدو، وفكّرت بها، وعملت عليها، كنت أكتشف كم أنّ إيمانهم وثقتهم كان عظيماً.

إنّ نشر مادة خاضعة لقيود الرقابة الشديدة هو أمر في غاية الصعوبة، لذا فإني أقدّم شكري الخاص لكل الذين دافعوا عن نشر عمل محمدو وأخصّ بالذكر ويل دوبسون وسليت على تقديمهما مقتطفات من المخطوطة والوقت لوضع تلك المقتطفات في السياق، وأقدّم شكري أيضاً إلى رايتشيل فوجيل، وكيلتي في شؤون الأدب،

وجيوف شاندلر وميتشيل ساند وآلي سومر في ليتل - براون وجيمي بينغ وكاتي فولين فيكانوغيت على صبرهم وتحملهم الرائعين في التعامل مع التحديات المختلفة التي اعترت عملية النشر، ولكل شخص في دار نشر ليتل - براون هاتشيت - كانوغيت وكل ناشري **يوميات غوانتانامو** على جهدهم لدفع هذا العمل من دائرة الظلام إلى دائرة النور حيث الرغبة العارمة للقراء في أنحاء العالم.

إنّ كل من كتب عمّا حدث في غوانتانامو مدين لمشروع الأمن القومي لاتحاد الحريات المدنية الأميركي الذي أخرج دعواهم القضائية لقانون حرية المعلومات هذا الكنز الدفين من الوثائق السرية التي تقف شاهداً تاريخياً صارخاً على ممارسات الولايات المتحدة التعسفية في الحجز والتحقيق بعد الحادي عشر من سبتمبر. وأنا مدين أيضاً لتلك الوثائق، فلولاها لما كان التوثيق وتعليق الحواشي والإشارة إلى الأجزاء المختلفة لقصة محمدو ممكناً، وحتى أنني مدين أكثر للفرص التي منحني إياها اتحاد الحريات المدنية الأميركي على السنوات الخمس الماضية لأكتشف وأستوعب وأكتب عن ذاك السجلّ الذي لا غنى عنه.

كما أنني مدين لأولئك الذين شاركوني وقتهم وبصيرتهم وتجاربهم وأفكارهم عندما كنت أعمل على هذه المخطوطة. لا أستطيع أن أذكرهم جميعاً ولكن لا يفوتني أن أذكر من بينهم يهديه ولد صلاحي على مساعدته لي لفهم تجربة محمدو من منظور عائلته، وجميل جعفر وحنه شمسي ولارا توبين وايلي ديفيس سيمز على دعمهم المتواصل والاستشارة الفكرية القيّمة والقراءة الدقيقة للنسخ المحرّرة من هذا الكتاب.

وأخيراً أنا مدين وإلى الأبد لمحمدو ولد صلاحي على جرأته لكتابة مخطوطته، وعلى استقامته وذكائه وإنسانيته في كتابته، وعلى الإيمان الذي بثّه فينا جميعاً نحن جمهورِ القرّاء في التعهّد لتجاربه حتى تُطبع وترى النور، ولعلّه في المطاف الأخير قد يتشكّل لديه انطباع صادق نفسه عمّا تحمّلناه وبذلناه من جهد.

"كل من يقرأ 'يوميات غوانتانامو' - وهذا ما يجب أن يفعله الآن كل أميركي يمتلك ذرة ضمير - سينتابه الخجل والرعب."

غلين غرينوولد

"قصة مزعجة ومثيرة للقلق، حاولت حكومة الولايات المتحدة إخفاءها سنوات. محنة محمدو ولد صلاحي تهزّ الضمير بلا شك."

أنطوني روميرو، المدير التنفيذي لاتحاد الحريات المدنية الأميركية

حدث لم يسبق له مثيل في عالم النشر على الصعيد العالمي: للمرة الأولى يكتب سجينٌ يومياته وهو لا يزال رهن الاعتقال في غوانتانامو.

منذ عام ٢٠٠٢ وحتى هذه اللحظة يقضي محمدو ولد صلاحي أيامه سجيناً في المعسكر الاحتجازي في خليج غوانتانامو بكوبا. وطوال هذه السنوات لم توجّه إليه الولايات المتحدة أيَّ نوع من التُّهم. أصدر قاضٍ من المحكمة الفيدرالية قراراً يقضي بإطلاق سراحه في مارس ٢٠١٠، ولكنّ الحكومة الأميركية عارضت قراره ذاك، ولا توجد الآن أية إشارات في الأفق تدلّ على أنّ الولايات المتحدة لديها نية لإطلاق سراحه.

في السنة الثالثة من أسره بدأ صلاحي بكتابة يومياته، واصفاً فيها حياته قبل مغادرته بيته، في ٢٨ نوفمبر عام ٢٠٠١، واختفائه في سجن أميركي، ومن ثم "رحلته اللانهائية حول العالم" سجناً وتحقيقاً، وأخيراً حياته اليومية كسجين في غوانتانامو. يومياته ليست مجرد سجلّ حيّ لإخفاق العدالة، بل وذكريات شخصية رهيبة تتّسم بالعمق والسخرية السوداء واللطف المدهش.

يوميات غوانتانامو، الذي ترجم إلى أكثر من ٢٣ لغة، هو وثيقة تاريخية فائقة الأهمية، فضلاً عن أنه نصّ أدبي آسر.